



دفاع عن الأدب

للكاتب الفرنسى
جورج ديهاميل
عضو الأكاديميا الفرنسية



ترجم وعلق عليه
الدكتور محمد مندور

دفاع عن الأدب

للكاتب الفرنسي

جورج ديهاميل

عضو الأكاديميا الفرنسية

ترجمه وعلق عليه

الدكتور

محمد مندور

اهـــداء

والدى العزيز :

الكتاب ليس لى ولكن فيـــه آثار جهـــدى واليك أقدم هذا الجهد لانى لست بدونك شيئا ، وأنا أعرف تضحياتك فى سبيلى ، كما تحدثنى نفسى عن مدى فرحك بأعمال ولدك ، ولن أدخر وسعا فى تمجيد اسمك الذى لى شرف حمله .

محمد

جورج ديهاميل
والأدب الفرنسي المعاصر

جورج ديهامل ، مؤلف هـذا الكتاب ، أحد كبار كتاب فرنسا المعاصرين . ولد في باريس سنة ١٨٨٤ ودرس الطب كأبيه وانتهى منه سنة ١٩٠٩ ، ولكنه أولع بالأدب صغيرا ، ولم يزاول الطب الا منذ الحرب العظمى وان ظل بعد ذلك يجمع بين المهنتين : الطب والأدب . ونحن لا يعنينا من دراسته للطب ومزاولته له الا الأثر الذى تركه ذلك فى ادبه ، وهو ما يمكن أن نلمحه فى أمرين : دقة تفكيره ثم اتجاهه الانسانى .

والذى لاريب فيه أن دراسةالعلوم رياضة عقلية تغرس فىصاحبها روح الملاحظة والميل الى التفكير والدقة فى العبارة ، وهـذه كلها صفات واضحة عند ديهامل نستطيع أن نلمحها فى بناء جمله ، فهى ـ عادة ـ طويلة متداخلة ، كثيرة القيود والاعتراضات ، رغم تملكه للفكرة ولطرق الأداء تملكا رائعا . وسبب ذلك هو أنه لا يرى الاشياء فى خطوط مستوية ، بل يمتد بصره الى خفاياها فيحاول أن يحمل جمله على تصوير كل ما فى الواقع المادى أو العقلى من تعاريج وظلال . وهو من الدقة بحيث لا تأتيه الفكرة مطلقة ، بل حبيسة فى طائفة من الملابسات والحدود يحرص على التعبير عنها .

ومع ذلك فقد كان لمزاولته مهنة الطب ولمسه بؤس الحياة عن قرب ـ سواء عند المرضى أيام السلم ، أو فى جروح الجند وآلامهم أيام الحرب العظمى ، التى عمل بمستشفياتها أربع سنوات متواليات (١٩١٤ ـ ١٨) ـ ما حمله على الايمان بانه لا الملاحظة ولا العلوم ولا الحضارة المؤسسة على تقدم العلوم تستطيع أن تكشف عن سر العالم وعن السعادة ، انما «السرور والسعادة مختبئان فى تملك العالم بالقلب ، باتحاد شعرى ، ببهجة النفس للغير ، للروح العميقة فى الكائنات » (١) وهو القائل : « ان الحضارة اذا لم تكن فى قلب الانسان فانها لن تكون فى أى مكان » .

---

(١) دانيل مورنيه D. Mornet « تاريخ الأدب الفرنسي المعاصر » .

ديهامل مزيج من العقل والتصوف ، من الملاحظة الدقيقة ونظرات القلب التي تشق الحجب ، وهذا هو سر المكانة التي احتلها ، لا في فرنسا فحسب ، بل في العالم الغربي كله ، حيث ترجمت مؤلفاته التي تتجاوز الخمسين مجلدا ، وقد بلغ من الخصب أن ساهم في كافة مظاهر الثقافة الادبية الحديثة من شعر الى مسرح الى نقد الى قصص الى تفكير . واسمه مرتبط بالكثير من تيارات النشاط الروحي وان لم ينضم الى اى منها ، بحيث لا بد لمن يريد أن يتحدث عنه من مواجهة الحركة الادبية في فرنسا المعاصرة كلها ، وهذا ماسنحاوله في ايجاز لنستطيع فهم الكتاب الذين بين أيدينا فهما تاما .

ديهامل وديركرتيل Abbaye de Creteil ;

لم يأت ديهامل الى الأدب كما أتى اليه غيره فرارا من الواقع أو لفشله فيما عداه ، وهو لايرى في الفنان انسانا شاذا أو خارجا على أوضاع الحياة كما كان يفعل الرومانتيكيون ، والرمزيون من بعدهم ، وفي كتابه الذي ستقرؤه مايدل على أنه رجل متزن حكيم سليم النظرة الى الحياة ، يعتز بمبادىء الخلق ولا يرى في العبقرية ذاتها ما يبرر الانحلال أو يدعو اليه ، واشد مايغتبط به أن يعزز الخلق المواهب ، وعنده أن الرجل العبقرى الذى لا مبادىء له أشبه ما يكون « بالعاهرة الجميلة التى يتمتع بها الرجال دون أن يمنعهم ذلك من احتقارها » .

ولقد كتب مقالين في مجلة « المركير دى فرانس » عن مشكلة الهرب من الحياة والالتجاء الى الفن ، وهو يقول في أحدهما : « يلوح لى أن الرجل الذى يقبل الحياة يستطيع أن يكون شاعرا على نحو الزم وأكثر استمرارا ، وهو لا شك واجد في كل حدث من أحداث حياته موضوعا ، وفي كل لحظة من لحظاتها ايقاعا ، وأكثر الشعراء اخلاصا لواجبهم اليومى قد برهنوا على أنه باستطاعتهم أن يغيروا معالم الاشياء العادية التى يفكرون فيها دون أن يتوانوا عن أداء عملهم الذى تعهدوا به ، وهم بذلك لا يفرون من الواقع بل يفرون الى قلبه » . وفى الفصل الذى كتبه عن فن القصص من «دفاع عن الادب» ما يؤيد هذه النظرة. أولا تراه يقرر أن فى الاشياء المألوفة الدارجة ما يستطيع أن يمد أكبر الروائيين بعناصر لا تنفد وان لم تكن سهلة الادراك ؟! عاود البصر فيما يقوله عن « روائية المألوف » لتدرك الى أى حد كان هذا الطبيب سليم النظرة الى الأدب ، بل الى الحياة التى يخدمها ذلك الادب .

وهو يقول للشاعر : « غن . غن . ولكن لا تلو بصرك عنا ، وما دام قد قدر لك أن تكون انسانا فلا تتخل عن واجبات مهنتك الجميلة الخطرة . واذكر أن الشعر ليس الشيء الوحيد الذى يستطيع أن يوحى

بالكبرياء . لا تمكن أحدا من أن يقول انك لم تصبح شاعرا الا لعجزك عن كل مصير آخر » .

وفي هذا تأييد لما قاله في أحد فصول هذا الكتاب عندما دعا من يريد أن يشتغل بالأدب الى أن يستوثق أولا من مهنة تضمن له حياته ، فيتحرر أدبه من رق المادة ، ويستطيع أن ينضج بعيدا عن كل ضرورة قاسية . وديهامل نفسه خير مثل لهذا النوع من الاتجاه .

وهكذا نفهم لم حرص على أن يدرس الطب ، حتى اذا كانت سنة ١٩٠٦ وهو في الثانية والعشرين من عمره ــ وقد استوثق من أنه يسير في دراسته سيرا منظما ــ أخذ يعمل في الأدب ، ولقد ابتدأ اذ ذاك كما يبتدىء الكثيرون من الأدباء بقرض الشعر ، وذلك على حد قوله : «لأن الشعر لا يحتاج الى خبرة بالحياة ، بل ربما احتاج الى جهل بها ، بينما المسرحية تحتاج الى تجارب ، وأما القصة فعمل النضوج » .

وفي الحق أن قيمة شعره ليست كبيرة ، وانما يرتبط اسمه بالشعر المعاصر في فرنسا بسبب حركة قوية قام بها هو وبعض أصدقائه الشبان فكان لها أثر واضح في الادب كما أثرت في حياته وأفكاره أعمق تأثير .

ونحن وان لم نكن في سبيل التأريخ العلمي الدقيق لتلك الحركة التي لم تدرس بعد ولم تجمع وثائقها ، والتي نرى النقاد المعاصرين لا يمسونها الا في رفق وكأنهم يخشون المساس بهؤلاء الأدباء الكبارالذين قاموا بها والذين لا يزالون كلهم تقريبا أحياء مما نحس معه أن فيالامر عناصر شخصية ، أقول اننا برغم كل ذلك نحرص على أن نترجم وثيقة هامة طلب « لالو » Lalon مؤلف « تاريخ الادب الفرنسي المعاصر » الى رينيه أركوس أحد من قاموا بالحركة أن يكتبها ، فأجابه الى ما طلب وأدرجها لالو كملحق لكتابه .

وتعرف هذه الحركة في الأدب الفرنسي المعاصر باسم « ديركرتيل» وهو اسم أطلقته الجماعة على منزل استأجروه بجوار باريس وأنشأوا به مطبعة ودارا للنشر ، بل وسكنه بعضهم ومنهم من كان متزوجا . وبالدير يتصل مذهب « الكلية » الذي نادى به جل رومان كما سنرى . ولنترك الحديث أولا لرينيه أركوس René Arcos نفسه .

« كنا في أوائل خريف سنة ١٩٠٦ . في يوم أحد مطير عندما اكتشفنا ــ فلدراك Vildrac وزوجته وانا ــ الدار التي أصبحت « الدير » دارا ممحوة الطلاء لم يسكنها أحد منذ سنين ، ولكنها جليلة المظهر بشرفاتها ووجهتها ذات الطوب الاحمر ونوافذها الخضراء . كانت

محاطة ببستان اشعث جمع أشجارا من كافة العناصر ، وبأقصى البستان حديقة فواكه بها عدد كبير من الاشجار (لقد اتخذنا من الفواكه غذاءنا صيفا بأكمله) . ثم حشائش وكوخ ، وطرق عمت مسالكها الأعشاب المسرفة . وكانت مئات من الطيور قد أوت الى هذا المنزل المهجور منذ زمن طويل . وبعد هذه الزيارة بخمسة عشر يوما كان عقد الايجار الذى جعلنا سادة « الدير » قد وقع . وهذه الوثيقة الحزينة التى ماتزال بين يدى تحمل خمسة امضاءات : امضاءات مؤسسى الدير : رينيه أركوس ، جورج ديهامل ، البير جليز Albert Gleyes هنرى مرتان Henri Martin ، شارل فلدراك ، ولقد اضفنا فى قلوبنا اسم «لينار» Linard الطباع الذى علمنا مهنتنا ، والذى قاسمنا حتى النهاية أيام نعيمنا وأيام بؤسنا .

وكان من أول ما حرصنا عليه أن « سمرنا » على المدخل لافتة « يافطة » كان المارون يستطيعون أن يقرءوا فيها أبيات ربليه Rabelais:

هنا . ادخلوا . ادخلوا على الرحب والسعة .
ادخلوا تجدوا مأوى وحصنا .
يقى من الخطأ الأثيم الذى طالما احتال
بأسلوبه الكاذب فسمم العالم .
ادخلوا لندعم هنا الايمان العميق .

وتحت هذه :

هنا لا تدخلوا أيها المتزمتون .
أيها القرود العتاق .
أيها الأقذار المنبعجون .

وهنرى مارتان ، السياسى الشاب الذى كنا قد تعرفنا اليه ، والذى اعجبته مشاريعنا ، هو الذى حصل لنا على أدوات الطباعة ووضعها تحت تصرفنا . وفلدراك الذى كان متزوجا وأبا لأسرة أتى بعائلته كلها ، ووضع كل منا فى غرفة الانتظار التى كانت غرفتنا المشتركة أعز ما يملك من أثاث .

ثم تعلمنا مهنتنا ، مهنة الطباعة ، فى سرعة أدهشت « لينار » ، والمجلدان الأولان اللذان حملا شارتنا كانا « أساطير ومعارك » لجورج ديهامل ، و « مأساة الأمكنة » لرينيه أركوس ، ولقد نشر الدير مايقرب من عشرين مجلدا . ثم أن روبير دى مونتسكيو R. de Montesquou لكى يظهر لنا عطفه ، عهدالينا بديوان شعر له «بارسيفلورا» Parsiflora لنطبعه . ولكنه طلب الينا الكثير ، اذ حملنا على اعادة طبعه اكثر من

مرة ، وفى النهاية ظهر أن هـــذه الصفقة كانت من أسوأ الصفقات التى عقدناها .

وكان الكثير من الفنانين الشبان يأتون الى الدير ضيوفا . كانوا يأتون يوم الأحد جماعات . لقد أصبحت دارنا هـدفا للنزهة . وكان يزورنا أيضا أشخاص عجيبون ، كان من بينهم رجال ذوو قمصـــان حمراء واخرى سوداء (منذ ذلك الحين !!) ونباتيون و « فوريون » (١) وكائنات من هنا وهناك . ونساء دميمات ذربات اللسان يدعوننا الى ان نعيش وفقا للمذهب . اى مذهب ؟ ذلك ما لم نعلمه قط على وجه التحقيق . وأراد أحد الاشراقيين أن يحملنا على بناء عدة أكواخ خشبية ببستاننا ، بلا ريب لكى نربى فيهـــا جيلا من التلاميذ . وذات صباح أتانا على دراجة شاب قوى عضلات الأرجل ذو عينين فى لون السماء ، هو جل رومان الذى كان اذ ذاك طالبا بمدرسة المعلمين (النورمال) ، اتى حاملا مخطوطة « الحياة الكلية » Vie unanime التى قـرأناها فى نفس المساء بصوت مرتفع . يا لها من حماسة ! وان تكن الصـــياغة ونثرية الديوان قد حملتا بعضنا ، من لحظة الى لحظة ، على أن يقطب حاجبيه ، الا أننا أحسسنا جميعا أن شاعرا قوى الأصـــالة نادر البكورة قد ولد .

وحمل الربيع الى « الدير » مستأجرين جددا : مرسيرو وزوجته (أتيا من موسكو حيث تزوجا) ، وبرتولدمان ، ودوتمـــار ، والبـير دويان (٢) وزوجته ، وبعض الاصدقاء الآخرين . وكان الموســـيقيون يأتون ليلعبوا فيه موسيقاهم ، والمصورون ليعرضوا لوحاتهم ، والشعراء ليسمعوا شــــعرهم ينشده ممثلون وممثلات ، ولقد أصبحت احداهن فيما بعد (بلانش البان) زوجة لديهامل ، ودامت المغامرة أربعة عشر شهرا . وبعـد شتاء آخـر قاس اضـطررنا الى أن نفترق وأن نترك « الدير » الذى لم نعد نستطيع أن نعيش فيه .

يجب أن يعزى الفشل الى حداثتنا قبل كل شىء . لقـــد كان ينقصنا النظام ، اذ كنا لا ننصت لغير هوانا . ثم اننا كنا نتابع غايات مختلفة ، غايات لم نكن قد انتهينا كلنا الى تحديدها على وجه دقيق .

---

(١) fourriéristets « الفوريون » نسبة الى الفيلسوف الاجتمـاعى فوريـيه Fourier (١٧٧٢ - ١٨٣٧) وهو صاحب النظام الاقتصادى الذى يقوم على « الفلانستير » Phalanstère وهى عبارة عن « عزبة » تؤسسها جماعة وتنظم فيها حياتها على نحـو اقتصادى عادل .

(٢) Albert Doyen, d'Otmar, Bethold Mahn, Mercereau كلهم كتـاب معاصرون .

بقيت لدى كلمات قليلة هى : أن الدير لم يكن قط مدرسة شعرية . لقد كان مجرد جماعة من الرجال يريدون بعملهم أن يعيشوا سويا فى حياة حرة ، واذا كنا قد اظهرنا عندئذ عطفا نحو كل الشعراء والكتاب الذين لا حوا لنا موهوبين ، فان ذلك لم يكن لغرض خفى فى أن نجندهم تحت راية ما . لم يكن لنا مذهب مشترك ، بل لقد كان يتفق لنا أحيانا أن يسخر بعضنا من بعض . بل أستطيع أن أقول مع فلدراك أو ديهامل انه قد لاح لنا ان فلانا من رفاقنا كان يتكلم ويكتب بلغة غريبة عن لغتنا .

لقد اظهر النقاد كثيرا من القرابات الدقيقة بين فلدراك وروماں وديهامل وبينى ، ولن يخطر ببال أحد منا أن ينكرها . بل انها بلا ريب قد امتدت الى شعراء آخرين : جوف وشنفيير وديرتان ... الخ ، ولكنه لم تكن هناك مدرسة أصلا ، لقد كنا جميعا نبغض أشد البغض روح التجنيد » .

وفى هذه الوثيقة الفريدة ما يحدثنا عن نشأة حركة ادبية كبيرة فى الأدب المعاصر ، كما انها عظيمة الاهمية فى فهمنا لأدب ديهامل وجل رومان وفلدراك وأركوس وغيرهم من المعاصرين . والذى يهمنا منهم اليوم هو ديهامل ، وأما الآخرون فلا شأن لنا بهم الا ان يكون ذلك لازما لفهم رجلنا .

والذى لا شك فيه أن حياة الدير كانت من الاضطراب بحيث لم يكن من الممكن أن تروق لرجل أخلاقى كديهامل ، ونحن بعد لا نعلم على وجه اليقين شيئا عما كان جل رومان يقصد اليه من هذا المذهب الغامض « مذهب الكلية » وبخاصة فى الحياة وفى العلاقة بين الرجل والمرأة ، ولكننا نعلم أن ديهامل — وان يكن قد تزوج من احدى الممثلات اللائى كن يأتين الى الدير — الا انه قد نفر من هذه الحياة المشتركة نفورا قويا ، بحيث يخيل الينا انه كان ينظر الى هذه الشركة نظرة تغاير نظرة بعض من رفاقه الآخرين ، والذى نحسه فى أقوال هؤلاء الكتاب وأقوال النقاد أن جماعة الدير قد تشتتت بعد مغامرة لم تترك فى نفوسهم جميعا آثارا طيبة ، بل ان منهم — أمثال ديهامل — من لا يذكرها الا فى سخط ، فهو يقول فى مقال له عن جل رومان : « وأنا اعترف عن نفسى اننى لا أسعى الا الى الوحدة ، وأننى لم أجن من مذهب الكلية غير الحذر والأسف أو الاشمئزاز » .

ولهذا رأينا مشكلة الصداقة تعنى جماعة الدير ، حتى لنرى دينيه أركوس فى « الآخرين » Autrui يقص مأساة الصداقات التى تنسف ، وجورج ديهامل فى كتابه « رجلين » يعرض نفس المحنة فى

قصة تمر من المرح الى الاستجمام ، ومن المرض الى الصحة فى غير ضجيج ولا تكلف ، وفى امانة على صدق تتابع الأحداث ، وفيها يركز كل تجاربه منذ ظاهرة التبلور الى انفصام العرى ، مارا بتفاصيل الحياة التى تقع كل يوم من زيارات وولائم ، الى نزهات واعترافات . ولقد كان التصادم أولا كامنا ، ثم انفجر فجأة ، وانفجر فى عنف .

وسيظل سلفان Salavin ، وهو أكبر شخصية روائية خلقها ديهامل ، فى صداقته للوازيل Loisel شخصيته الروائية الأخرى — مثلا حيا لتلك المغامرة الجميلة ، المؤلمة ، مغامرة الصداقة كما نجدها فى « رجلين » .

ولقد تحدث جل رومان عن الصداقة فى ديوانه « الرفاق Les copains ثم عن انهيارها فى « الدكتاتور » Le Dictateur

وكذلك أيضا فعل ديهامل فى ديوانه المسمى « وفقا لقانونى » Selon ma loi الذى اتخذ له عنوانا آخر « الاسترقاق ». فهو تاريخ صداقة منذ نشأتها الى احتضارها ، متنقلة بين الخيبة والعذوبة ، بين الأمل والخيانة ، حتى لقد قال فى ذلك جان رتشارد بلوك سنة ١٩١٢ : « ان ديهامل قد أضاف الى قسمات الرجل الحديث قسمة ، هى الظمأ الى صداقة الرجولة التى رفعتها صعوبات حياتنا المادية اليوم الى قمة لعلها لم تصل اليها قط فيما مضى » . والقصيدة الأولى من ديوانه المسمى « الرفاق » Compagnons هى الأخرى عن الصداقة ، وفيها يقول : « وانا اعلم انه باستطاعتنا أن نحب فى ماء حدقة العين المقوس ذى المعجزات قدرا من السماء أكبر مما نلمح من بين المنازل » .

ومما يدعو الى العجب أن تكون أشد قصائد ديهامل تأثيرا هى « عودة المسافر » وفيها يعلن العائد غبطته لخلاصه من الماضى .

« انه النصر ، ان رغبتى تملك اذن القدرة على أن تملأنى وأن تطرد الى الخارج ... كل ما يوقف ويقعد » .

وفى آخر « الاسترقاق » الذى ينتهى بالقطيعة نرانا فى « ذلك الهواء القوى البارد هواء الوحدة » كما أن فى « الرفاق » وداعا لرفيق السفر ، يتركه الشاعر قائلا : « سيكون كل منا وحدة » .

والذى يبدو لنا هو أن التصادم كان بين جل رومان وجماعة من رفاقه من بينهم جورج ديهامل بدليل قول اركوس : « بل أستطيع أن أقول مع فلدراك أو ديهامل انه قد لاح لنا أن فلانا من رفقائنا كان يتكلم ويكتب بلغة غريبة عن لغتنا » وهذا الفلان هو بلا ريب جل رومان .

وفى الحق أن بين جل رومان وديهامل من الاختلاف فى المزاج وفى النظرة الى الحياة ما لم يكن معه بد من أن يتصادما . ورومان ذوطبيعة آمرة تجنح الى السيطرة ، وهو فيما يظهر أكثر استخفافا بمبادىء الأخلاق من رجل متزن ، رجل استجمام داخلى كديهامل ، أحدهما يستطيع أن يعيش فى الخارج وأن يتبدد بين الغير فى « حياة كلية » ، والآخر أحرص ما يكون على « الوحدة » وحياة الروح التى لا تجد نفسها الا اذا اعتزلت .

ديهامل والشعر :

ابتدأ ديهامل اذن حياته الأدبية بالشعر ، فنشر « الدير » أول ديوان له سنة ١٩٠٧ وهو« أساطير ومعارك» Légendes et Batailles وفى سنة١٩٠٩نشر قصيدة «الرجل الذى على الرأس» L'homme en tête وفى نفس العام أصدر بالاشتراك مع فلدراك «مذكرات عن فن الشعر» Notes sur la technique poétique، ثم نشر ديوانين آخرين هما «وفقا لقانونى» Selon ma loi سنة ١٩١٠ و«الرفقاء» Les compagnons سنة ١٩١٢ ، وأخيرا مجموعة قصائده المسماة « مراثى » Elegies وهذه كتبها بعد الحرب العظمى سنة ١٩٢٠ .

لديهامل مقال نشره سنة ١٩١٣ بعنوان « لوحة صغيرة لمدارس الشعر » ، وفيه يعلق على كلمة قالها مورياس وهو على فراش الموت : (ان المدارس لا وجود لها) ، وهو يوصى فى هذا المقال بأن ننسى التقاسيم، والا نتعلق الا بحقيقة واحدة هى وجود « رجال » . وقبل ذلك بسنتين أى سنة ١٩١١ كتب جل رومان يقول : « ليست لنا قواعد داخلية أو خارجية ، ولا مبادىء نهائية مقررة ، وانما يتبع كل منا منهجه الخاص وفقا لطبيعة وحيه » . وكذلك قال أركوس : « ان جماعة الدير لم يكونوا مدرسة » .

ومع ذلك فان معظم نقاد الشعر المعاصر يدرجون ديهامل وفلدراك ورومان وأركوس وشنفيير Chennevière ودرتان Durtin وجوف Jouve تحت مذهب واحد فى الشعر هو مذهب « الكلية » unamisme الذى صاغه جل رومان كما قلنا . وفى الحق أن شخصية رومان من القوة بحيث لم يكن من الممكن أن يفلت أصدقاؤه من تأثيره مهما كانوا مختلفين عنه فى نظرتهم الى الفن والى الحياة وبهذا يقر أركوس نفسه .

ونحن وان كنا لا نستطيع أن ندرك اثر تلك « الكلية» فى العلاقات التى كانت بين هذه الجماعة من ناحية الحياة وتطور الصداقة بينهم ، الا أن يكون ذلك عن طريق الفروض التى لا تغنى عن اليقين لنقص الوثائق ،

الا أننا نستطيع بالنظر فى دواوين هذه الجماعة أن نوضح مبادئها فى الشعر ، وبذلك نتمكن من الحكم على صـدور هؤلاء الشعراء عنهـا فى الواقع أو عدم صدورهم ، وقد كان من سوء الطالع أن أتلفت العـوامل الشخصية وحدة الحركة مما اضطر النقاد الى أن يكشـفوا عن أوجه شبه يحرص هؤلاء الشعراء انفسهم على انكارها .

لقد كتب رومان أكثر من كتاب وديوان ليعـرف « الكليـة » ، والذى نلحظه عنده هو أنه قد حاول أن يزج فى الشعر والأدب بأفكار كانت مدرسة علم الاجتماع فى فرنسا قد طبلت لها ونفخت فى الابواق. ومردها فكرة الوعى الجماعى وفناء الفـرد فى محيطه ، وهـذه لسوء الحظ فكرة مصطنعة بالغ فيها « دركايم » «ولفى بريل» وجوسـتاف لبون ، وحاولوا أن يجعلوا منها مذهبا فلسفيا ، فعمموا بعض الافكار المعروفة وبالغوا فيها ظانين انهم قد أتوا بجديد ، وفي الحق أنه لاجديد عندهم الا قسر الفكرة وافساد الحقائق ، ومن المعروف أن رومان قـد درس الفلسفة ونال فيها درجاته الجامعية وكان هؤلاء الاجتماعيون من بين اساتذته .

يقول رومان فى كتابه المسمى « مختصر التاليـه » Manuel de Déification « اذا شككت فى الكلية لم ينفذ بصرك خلال أخيـك الانسان » . ويقول : « اذا رأيت فى أحد الطرقات نفرا من الناس قد أخذوا يجتمعون ، سر اليهم وأضف جسمك الى أجسامهم ، اخترق فى رفق كتلتهم واسأل الرجال : لماذا اجتمعوا ؟ وحدثهم حديثا يثيرهم الى الحياة . ضم موافقتك اليهم ، وانفث فى حنقهم أو رحمتهم ، فكر بعقلهم جميعا » . وعنده أن المكان ليس ملكا لأحد ، فالناس كافة يسـكنون فى أرض واحدة ، يتلاقون فيها ويتداخلون ويتـوافرون ، والزمان أمر اعتبارى تحكمى مرن ... الخ من هذه السفسطة الجوفاء .

ورومان لا يقف عند هذا التفكير الفلسفى ! بل يعدوه الى الحياة، محاولا أن يشتيع هـذه الآراء بأسلوب خطابى عنيف منفر ، فيقـول : « لا بد لك من موافقة الناس أو خضوعهم » .

ويبلغ به الاسراف أقصاه عندما يضيف: «ما أقوله الآن ربما لايستمع اليه الا عشرون شخصا ولا يفهمه الا خمسة . ولكن ميلاد أقل الآلهة يكفى لمجد الارض » ، والذى لا شك فيه أن مهاترة رومان هذه لم تصدر الا عن وعى قبيح لقيمته الشخصية .

لقد كان لهذه النظرة الفاسدة آثار مدمرة فى مجـال الاخلاق ، فصاحبها يقول : « لا تفر من المزاوجة ، بل احذر أن تكون احد اثنين

على نحو دائم » وعنـده : « ان الأسرة والزواج أحجار عثرة تقوم فى سبيل الكلية » .

ومن سوء الطالع ان تكون هذه الفلسفة مدرسة شعرية لها حتى اليوم انصارها من بين الشبان الفرنسيين أمثال جان بورتاى J. Portail مؤلف « افرديت » ، وهنرى دالبرى H. Malbry مؤلف « قصائد الحياة » ، وأوديزيو G. Audisio مؤلف « رجال فى الشمس » ، ولكن الذى لا شك فيه أن نجاح هـذا المذهب محدود ، وأن شعر هؤلاء الشعراء كشعر رومان نفسه يغلب عليه التكلف والصياغة النثرية ، فضلا عما فى نغماته من قسر ومخالفة لطبائع البشر السليمة المألوفة ،

وأما عن ديهامل فقد أنكر هو نفسه أن يمت الى هذا المذهب بأى سبب . والنقاد يكادون يجمعون على أن فلدراك وديهامل ليسا كليين، واذا كانا قد تأثرا بشىء من آراء رومان فان ذلك لم يكن الا فى الناحية السليمة من تلك الآراء ، ففلدراك مثلا يدعو الى حب الناس بعضهم لبعض ، ويرى أن فقدان هذا الحب هو مصدر محنتنا ، فالحرب انكار للحب ، وانه ليأمل أن يأتى يوم « تصبح فيه أوربا كرجل واحد تتجه جهوده وجهة واحدة بحيث يجمعها مصير واحد : حب شجرة » ، وكذلك ديهامل فشعره وان يكن أغنية داخلية تسعى الى أن تكون انسانية شاملة ، الا أنه لا يتخذ الى ذلك سبيل التركيب ، سبيل الكلية ، بل سلسلة من التحليلات ، فوحدته ليست انجماعة بل الاثنين : الانسان والوسط الذى يعيش فيه . انظر اليه فى احدى « مراثيه » يقول :

« هذه السعادة التى تحتويها يداى المضمومتان فى حرص . أهى اذن ما لا تستطيع أن تغتفرها لى أيها الأخ العجيب » ؟ وفى موضع آخر :

« ليست لى أية قوة اللهم الا أن تكون الحب وهذا القلب الذى يرتعد » .

وفى احدى قصائد المجموعة الأولى « أساطير ومعارك » سونتة مهداة الى امرأة . وفيها يقول الشاعر : « أنا الروح . أنا الجمال الخالد . اذا كان الله موجودا فهو ليس الها الا لأنه خلقنى » . وهنا نلمس روحانية ديهامل وبعده عن استهتار الكلية وجنوحه الى الاستجمام والسكون الى الحياة الخليقة برجل مثله ، تنطق كل مؤلفاته بصحة الاحساس وصحة الخلق وصحة التفكير .

وهكذا تنتهى بنا هـذه المناقشة السريعة الى أن « الكلية » لم تستطع أن تجمع مؤسسى الدير تحت مذهب واحد فى الحياة أو فى

الأدب ، وأن جل رومان قد عجز عن أن يرغم اخوانه على « الموافقة او الخضوع » ، ومع ذلك فان ثمة أمرا هاما يلوح أنهم قد اتفقوا عليه جميعا هو المذهب الشعرى » ، اعنى طريقة الصياغة كما عرضها جل رومان فى عدة مقالات ، فقد وضع ديهامل نفسه بالاشتراك مع فلدراك « مذكرات عن فن الشعر » سنة ١٩٠٩ كما قلنا ، وما هى فى الواقع الا تنمية وايضاح لآراء رومان التى كانت فيما يظهر آراء الجماعة كلها . ولقد أبت طبيعة رومان الآمرة المحبة للسيطرة الا أن تدفعه الى تنظيم سلسلة من الدروس عن هذا الفن فى مدرســـة مسرح الفييه كولمبيه Vieux Colompier وأخيرا رأينـــــاه يكتب مع أخلص تلاميذه شنفيير « موسوعة فى العــروض » ســـنة ١٩٢٣ ، وفيما يحاول أن يظهر أن مذهبهم الجديد فى فن الشعر ليس الا تفريعا عن الفن الكلاسيكى الذى أخذ به القرن السابع عشر .

وخصائص هذا الفن الجديد تجتمع فى أمرين : التحرر من القافية والركون الى الشعر المرسل ، وهذا ماسبقهم اليه الرمزيون ، ثم الانصراف عن الرمز الى التعبير المباشر ، وهذا رد فعل على الجيل السابق جيل الرمزيين ، نريد « شعرا مباشرا ، أى التعبير عما تستطيع النفس أن تدركه من الواقع تعبيرا لا طلاء فيه ولا تجميل » ، وعن هذا المذهب صدر كل جماعة الدير تقريبا .

ومع كل هذا فالنقاد مجمعون على أن الشعر لم يكن مصدر مجد ديهامل ولا مجد رومان ، وذلك لغلبة التفكير المجرد عليهما وبخاصة عند رومان ثم لفرط دقة ديهامل وحذره من الاسراف حذرا قاسيا ، وانما كان مجد ديهامل فى القصة ومجد رومان فى الكوميديا المسرحية .

من الدير الى الحرب العظمى ـ ديهامل والمسرح ـ بدؤه فى النقد :

سبق أن أوردنا جملة من « الدفاع عن الأدب » يقول فيها المؤلف : « ان المسرح يحتاج الى تجارب فى الحياة » وان التأليف فيه يلى عادة مرحلة الشعر الذى هو فى الغالب مرحلة الشباب ، وهذا مانجده فعلا فى حياة ديهامل الأدبية ، فهو اذا كان قد نشر أول ديوان له سنة ١٩٠٧ فانه لم يعرض على المسرح أولى رواياته الا سنة ١٩١١ وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، وهى « الضوء » La Lumière التى مثلت بمسرح الأوديون فى ذلك العام مع أولى مسرحيات جل رومان ، وقد أخرج الروايتين المخـرج الكبير « أنتوان » ، ثم تتابعت مسرحياته كما تتابعت دواوين شعره التى سبق أن ذكرناها . وهكذا نراه يعرض سنة ١٩١٢ بنفس المسرح روايته الثانية « فى ظلال التماثيل » وفى سنة ١٩١٣ روايته الثالثة « نزال » .

وفى نفس هذه المرحلة لم يمنعه قرض الشعر ولا التأليف المسرحى

من الاشتغال بالنقد فى المجلات ، بل لقد نشر فى سنة ١٩١٢ مجموعة من تلك الأبحاث بعنوان « أحاديث نقدية » •

والناظر فى تاريخه يرى أنه لم يقف قط فى أى من هذه الاتجاهات، فله فى التأليف المسرحى روايات أخرى منها « عمل المصارعين » ، ثم « يوم الاعترافات » ، وله فى النقد « الشعر والشعراء » ، كما انه كتب كتابا هاما عن الشاعر كلوديل ، وسنعود الى هذا الكتاب فيما بعد ؛ وأخيرا كتب « الدفاع عن الأدب » الذى هو فى الحقيقة مزيج من النقد الأدبى ومن الدفاع عن القيم الثقافية •

وفى الحق أن مسرحياته لم تنل نجاحا كبيرا ، وذلك لأنه لا يملك عبقرية الدراما ، وهو بطبعه وثقافته أميل الى الملاحظة والتحليل والدقة فى التفكير منه الى تصور المواقف وحبك المسرحيات ، فهو باجماع النقاد أصلح للقصة منه للرواية التمثيلية •

وأما نقده فمن النوع الذى لايدانى فى النفاذ وأصالة الفهم والحكم ، ونحن فى الحق نستطيع أن نهمل كتابه الأول « أحاديث نقدية » فهو عبارة عن سلسلة مقالات كتبها عن زملائه أيام حداثته الأولى ، والزمن لم يثبت أنه كان على حق فى تفاؤله بمستقبل جميع هؤلاء الزملاء ، اذ الكثيرون منهم لم يثبتوا لطوفانه ، كما أن الناقد نفسه كان لايزال محدود التجارب، والنقد لابد له من نضوج ، وأما كتابه الثانى « الشعر والشعراء » فمجموعة مقالات رائعة نشرها بمجلة « المركيز دى فرانس » قبل أن يجمعها فى كتاب ، وهى لا تزال تعتبر بحق من خير ما كتب نقاد الشعر فى العصر الحـديث •

وخير من ذلك كله كتابه عن كلوديل « كلوديل الفيلسوف والشاعر والكاتب والمؤلف المسرحى » ، ومن العجيب أن يستطيع ديهامل الذى فقد الايمان بالدين الكاثوليكى منذ الخامسة عشرة من عمره أن يصل فى فهم كلوديل الرجل الكاثوليكى الحار الايمان الى مالم يصل اليه غيره • وتلك حقيقة لا يمكن فهمها الا اذا نفذنا الى روح ديهامل نفسه لنرى فى أعماقها ذلك التصوف الذى جعل منه تلميذا لكلوديل ، رغم تنافرهما فى الاعتقاد بالحقائق المنزلة ، ولكن قبل الحديث عن هذا الكتاب دعنا ننظر أولا فى أثر الحرب العظمى فى نفسه وتوجيهها لملكاته وانماء مابها من بذور •

ديهامل والحرب العظمى : نضجه وتكوين فلسفته واتجاهه نحو القصة :

عندما نشبت الحرب سنة ١٩١٤ لم يكن ديهامل مجهولا ، ولا كان حديث عهد بالادب ، ومع ذلك فالذى لا شك فيه أن تلك المحنة كانت البوتقة التى انصهرت فيها عبقريته فأخذت شكلها النهائى •

ابتدأت الحرب وهو منصرف بكليته الى الأدب ، اذ لم يكن قد زاول بعد مهنة الطب ، ولكنه لم يكد يدعوه داعي الوطن حتى لبى الدعاء ، ولما كان في الثلاثين من عمره ، وكان التجنيد قد ابتدأ بالأجيال الأصغر منه سنا ، فقد سارع الى التطوع ليعمل في مستشفيات الجيش كطبيب . وهنالك كانت تجاربه الحقيقية ، فقد رأى من مناظر البؤس ما حمله على التفكير في الحياة . غاياتها ووسائلهـــا . وهو يحدثنا أنه لم يكن يملك الذى فقده وهو في صدر شبابه ، كما ذكرنا : « وبعد انقضاء السن التى نتعزى فيها بالكبرياء التى تضللنا ــ كثيرا ما أسفت ، بل لقد أسفت كل يوم على ذلك الايمان الذى نتعزى به عن كل شيء» . ومن ثم أخذ يتلمس له قيادة ذاتية في الحياة ، وعن ذلك يحدثنا في « دفاعه عن الأدب » ذاكرا كيف حاول أن يجد عند قادة الفكر اذ ذاك مايستطيع أن يهتدى به ، وكيف استقر به الرأى الى أن خير قيادة هى ما نجده في أنفسنا بامعان النظر فيها وتحليل دوافعها وتبين أهدافها .

ومما لا ريب فيه أن الكثير من رجال العلوم الذين ألفوا ملاحظة العالم المـــادى أو ملاحظة الغير ، كثـيرا ما يعملون نفس الملـكة فى أنفســهم فينتهى بهم الامر الى لون رائع من الايمــــان أو التصوف ، ولكم من عالم بالرياضيات أو الطبيعيات يحدثك عن ايمانه حديث المؤمنات من العجائز ! ولكم منهم من يشع في نفسه ذلك التجرد وتلك الروحانية اللذان يكسبان نفوسهم جمال التصوف !

وديهامل من هؤلاء الرجال ، فقد انتهت آلام الجرحى والموتى التى ظل يشاهدها كل يوم خلال أربع سنوات بأن صرفته الى اطالة التفكير في حقائق الحياة ، واستشعر الحاجة الى الركون الى مبادىء ثابتة ، فخرج من الحرب بفلسفة عملية كساها طبعه الشعرى بجماله .

في سنة ١٩١٧ نشر أول كتاب له عن الحرب بعنوان « حيـــاة الشهداء » وهو لم ينشره أول مرة باسمه بل باسم مستعار هو « دنيس تريفنـــــان » Denis Trévenin وفى سنة ١٩١٨ نشر كتابه الثانى عن الحرب أيضا « حضارة » ، نشره هذه المرة باسمه ونال من أجله جائزة جونكور الأدبية ، وفى هذين الكتابين مزيج من الوصف والقصص لما شاهد من ويلات ، ونزعته فيها نزعة انسانية خالصة ، فهو يمقت الحرب ويعتقد « أنها ليست ممكنة الا لأن كل انسان لا يتألم الا فى جسده هو » . وهذا حق ، فالذى لا ريب فيه أن من يدفع الى الحرب هم عادة الشبان الذين لم تعضهم بعد بأنيابها السامة ، وأما من سبق له أن خاض أهوالها فما نظنه يسارع اليها ، وهؤلاء الأخيرون لا يستطيعون صد الأولين لأن الألم أمر لا يمكن أن ندرك وقعه باستماعنا للغير يقصون تجاربهم فى هذه السبيل .

والاديب الصـــــحفي وليم دريك W. Drake يحدثنا فى كتابه « الكتاب الأوروبيون المعاصرون Modern European Writers p. 107 sq.
عن اتهام ديهامل فى سنة ١٩١٨ بالنزوع الى السلم والاتجاه نحو الروح الدولية ، وهو يقول انه قد سرح من الجيش بسبب ذلك ، وهذه تهمة لم أعثر فى المراجع الفرنسية القليلة التى وجدتها فى مكاتبنا العامة على خبر لها ، ولكن الواقع أن فى قراءة كتابيه «حياة الشهداء» و «حضارة» مايترك فى النفس نفورا من الحرب لا شك فيه، ودعوة الى المحبة بين الشعوب بحيث يبدو ممكنا أن يرى فيهما رجال الجيش أثناء الحرب ما قد يثبط من حماسة الجند ؛ ومع ذلك فانا نبادر — انصافا للحق — فنقرر أن الكتابين وان كانا يصدران عن نزعة انسانية سامية ، فهما بعيدان كل البعد عن روح التخاذل أو ضعف الوطنية • ولقد سار ديهامل الى الحرب متطوعا ، ونحن نستطيع أن نبغض الحرب دون أن نحجم عن خوض غمارها عندما يدعونا الوطن الى حمايته ، وغفر الله لمن قال : « أسرع الناس الى القتال أقلهم حياء من الفرار » •

وانتهت الحرب ، وأخذ الناس ينسون آلامها شيئا فشيئا ، ولكنهم لم ينسوا كتابى ديهامل • وكل النقاد مجمعون على أن تلك الحرب قـد أضافت الى الأدب الفرنسى الخالد « حياة الشهداء » و « حضارة » كمـــا أضافت « الصلبان الخشبية » لدورجليس ؛ فهذه الكتب الثلاثة هى فيما أظن خير ما أنتج أدب الحرب ، بل من خير ما أنتج الأدباء اطلاقا ، وذلك لصدق نغماتها وصدورها عن الواقع القاسى الذى أثار القلوب وفتـق الأذهان ؛ فى هذه الكتب صفحات ترتعد احساسا ، فيها ما يثير الرحمة ، وفيها ما يحمل على احترام الألم واعزاز التضحية •

وفى سنة ١٩١٩ أصدر كتابه الثالث عن الحرب « أحاديث وسط المعمعة » Entretiens dans le tumulte ، واخيرا وقد أصبح روائى الرحمة رأيناه يجمع آراءه فى الحياة ، بل فلسفته فيها فى كتاب نبيل هو خلاصة تفكيره وصورة روحه ، كتاب « تملك العالم »
La possession du monde

ديهامل وتملك العالم :

« انى على ثقة ، أننـــا على ثقة من أن السعادة هى هدف حياتنا • ولنضف لفورنا أن أساس السعادة هو التملك ، أو المعرفة التامة العميقة •

وعلى هذا النحو نرى الرجال الذين يتصورون السعادة فى صورة رفيعة يهفون الى المعرفة الكلية النهائية ، معرفة الكمال المطلق الذى يسمونه الله • فالتعلق بالحياة الأخرى الخالدة ان هو الا حاجة الى التملك ، حاجة نبيلة عنيفة •

ولا يقل عن هذا نبلا لهفة الآخرين الى أن يعرفوا أنفسهم وأن يمتلكوها؟ وأن تحصل لهم عن كيانهم الروحى والمادى فكرة دقيقة قاسية تمكنهم من نوع من السيطرة على أنفسهم ٠

وانه لمصير جميل أن نسعى الى معرفة العالم الخارجى بفضل أسلحة وقضايا علم لا تسترقه أسلابه ٠

هذا عن أولئك الذين يمكن أن نسميهم المقسطين ٠

وأما الآخرون فيريدون أن يملكوا منزلا ، حقــلا ، قرطا لآذانهم ، سيارة ٠ وعندهم أن التملك ليس معرفة بل متعة ٠ هى أولا متعة بحتة شبه فريدة ، ولكنهم مخدوعون فى حقيقة السعادة وحقيقة التملك ، مخدوعون الى حد الحرب والمذابح والتدمير ٠

ونحن ــ اذا أردتم ــ نملك العالم بأجمعه ، وفى هذا التملك سنجد خلاص أرواحنا ، نحن نملك مثلا هذا الشخص المجهول الذى يسير فى الطريق ٠ نملك لون غابة الصنوبر التى تلوح كأشواك فى الأفق الجنوبى ، نملك فكرة بتهوفن وأحلام ليالينا ، نملك صورة المكان وذكرياتنا ومستقبلنا ورائحة الأشياء ووزنها ، نملك ألمنا فى هذه اللحظة وآلافا وآلافا من الأشياء الأخرى ٠

أن تكون روحى خالدة ٠ واحسرتاه ! هل عدت أستطيع أن أجد هذا الأمل الغوطى الساذج ؟ ان أمثالى ممن لم يعودوا يستطيعون أن يجرءوا على التفكير فى هــذا الرضوان المستحيل دون أن يتناقضوا ، يعــدون بالملايين ٠ ألا فليروا هنا أنفسهم ٠

وأما أن روحى كائنة فكل فكرة تشهد بذلك بل تشهد به الحيــاة ذاتها ، هذه الحياة المختلطة التى ترونها أمام أعينكم ٠

عندما يتحدث المسيحيون عن نجاة الروح ، انما يقصــدون الى أنواع مختلفة من الضمانات والاحتياطات يتخذونها من أجل تلك الحياة المستقبلة التى مافتئت آكد مغريات الدين كما أنها أقوى أسلحته ٠

ولكننا نستطيع أن نعطى هذا اللفظ معنى أكثر تواضعا وأمس بنا قربا :

أولا ألا نجهل أرواحنا ، أن نفكر فى الروح ، نفكر فيها وسط اضطراب يومنا الصاخب مرة على الاقل ، وهذا فى الحق بدء الخلاص ٠

أن نفكر فى الروح بمثابرة واحترام ، وأن نزيدها غنى بلا انقطاع ٠ فى هذا ستكون قداستنا » ٠ (تملك العالم ص ٢٧ ، ٢٨) ٠

بهذه النغمة الهامسة الأليفة يحدث ديهامل قراءه فيكسب قلوبهم • انظر اليه كيف يبتدىء « بانى على ثقة » ثم يسرع فيستدرك « اننا على ثقة » وبذلك يشركنا جميعا فى احساسه حتى لكأنه يصدر عن نجوى نفوسنا التى اتحدت بنفسه • أين هذا من نغمات «رومان» المنفرة الآمرة الحمقاء ؟ بل أين هذا من أدب الفكر البارد الذى لا يهز نفسا ولا يكسب قلبا ؟

ثم أى اتساع فى الآفاق وأى تسامح وأى فهم لكل النزعات وكل النفوس ؟ فهو يحيى الايمان بالدين وأن يكن قد فقده ، وهو يدعو الى تملك النفس بالنظر فيها وتعمق فهمنا لها ، وهو لا ينفر من العلم الذى يمكننا من السيطرة على الطبيعة ولكنه يحتاط فيشترط « ألا تسترق العلم أسلابه » على نحو ما نرى نتائجه تستخدم اليوم فى تدمير الانسان لا فى حمايته ونصره على عناصر المادة ، وسوف نراه فى هذا الكتاب (دفاع عن الأدب) يفسر مأساة حياتنا بتقدم العلم وتخلف حالتنا الخلقية فيقول : « ان مبادئنا الخلقية متأخرة لألف سنة عن تقدم علمائنا » •

ورحمته المشفقة تمتد فتشمل صغار النفوس الذين يرون السعادة ومعنى الحياة فى تملك حقل أو قرط لآذانهم • انهم مخدوعون • أو لا تحس أن الكاتب يود أن لو كسب حتى هؤلاء وسار بهم الى فهم أصح واحساس أنبل ؟

وأما ذوو النفوس النبيلة الذين لا يملكون من مادة الحياة شيئا ، فهو الى جوارهم ، يده فى أيديهم ، وهو يبصرهم بكل ما يملكون من جمال الطبيعة وآيات الفكر والفن ، بل انهم يملكون أحلامهم وآمالهم • وتلك نزعة صوفية قد يسخر منها الحمقى ، ولكنها نزعة انسانية صادقة ، فيها مايجمل الحياة ويسمو بمعناها ، وهى مادامت موجودة ومادام ذووها ينعمون بها فماذا يضيرهم أن يسخر منها من يشاء ممن تنحط نفوسهم عن السمو الى مستواها ؟

ثم أى ايمان وأى نبل يشع من حسرته لفقد الايمان فى خلود الروح، بل فقد ايمانه بذلك الدين الذى يسميه فى سخرية خفيفة « بالغوطى » ! وتلك المأساة ترجع فيما يقص الكاتب الى كرهه لرجال الدين وجشعهم وشعوذتهم ، فقد رأى وهو فى الخامسة عشرة من عمره قسيسا يبيع خبز التناول بأثمان باهظة فى حرص مادى ذميم ، فنفر منهم ، بل نفر من الدين كله ، لأنه لم يستطع أن يفهم الاتجار بقوت الأرواح ، ومنذ ذلك الحين لم يستطع أن يعود الى الكاثوليكية ، وهو يقر بذلك فى نبل ، وقد أنفق حياته كلها فى تعويض مافقد . وهانحن فى هذه الصفحة نراه يدعو الى الايمان بوجود الروح والاكتفاء بذلك دون التلهف على الاستيثاق من خلودها ،

وهو يرى « قداستنا فى أن نفكر فى الروح بمثابرة واحترام ، وأن نزيدها غنى بلا انقطاع » ٠

واذن فجماع فلسفته هو تملك العالم بفهمنا له فهما قلبيا روحيا ـ

ديهامل وكلوديل : Paul Claudel

والآن نستطيع أن نفهم كيف استطاع ديهامل أن ينفذ الى روح الشاعر المؤمن كلوديل فيضع عنه كتابا خالدا ٠

ولد كلوديل سنة ١٨٦٨ واشتغل طول حياته بالسلك السياسى ، فمثل فرنسا فى الكثير من بلاد الشرق والغرب من أمريكا الى أروبا الى اليابان ٠ ولقد كان للأزمة الدينية التى انتابته وهو فى الثامنة عشرة من عمره أى سنة ١٨٨٦ تأثير نهائى على حياته ، فقد خرج منها مؤمنا ايمانا ثابتا شاملا ، فجاء أدبه أغنية مستمرة لهذا الايمان ، بل لقد اخترع لشعره صيغة خاصة سماها الآية Verset وهى وحدة قصيده ، اذ أنه يكتب فى أوزان الشعر الفرنسى التقليدية الا القليل الذى لا يذكر ، والآية هى وحدته الموسيقية ، وهى تتكون من ١٥ أو ١٨ أو ٢٢ مقطعا ، بينما بيت الشعر الفرنسى التقليدى لايعدو قط ١٢ مقطعا ، وهو يستبدل التجنيس بالقوافى ، ويعتمد على توافق جرس الحروف أكثر من اعتماده على تفاعيل الأوزان ، ولقد وضع فى تفاصيل مذهبه الشعرى كتابا هاما « فن الشعر » L'art poetique (الطبعة السابعة سنة ١٩١٣) وضعه نثرا ، والشعر عنده وعاء لمذهب ميتافيزيقى كامل عن الوجود حتى لنراه يبدأ كتابه هذا بقوله : « ليست هناك ضرورة فى أى شىء غير ضرورة وجوده ٠ مناقشة الآلية ٠ حمق الحركة الدائمة التى ليست لها غاية خارجة عنها ٠ الخلاصة ليس للموضوع خطة فى ذاته ٠٠٠ الخ » ، وهكذا يستمر فى تفكيره الفلسفى وفى شعره ، فهو من معدن شعر فليرى وان يكن أقرب منه الى الاحساس المباشر وأكثر اعتمادا على الرمزية ، وهو فى معناه أدنى الى فلسفة القرون الوسطى والتصوف المسيحى منه الى افلاطون أوبرجسون ، ونحن نقرأ شعره فندهش لاجتماع التكلف والقوة فى فنه ، ولصدوره عن الواقعية والرمزية والتصوف طورا بعد طور ، وأحيانا فى الصفحة الواحدة ، وفى هذا يملأ أقواله بالغموض ويدعو القارىء الى النفور ، ومن ثم لم يصب فى رأى النقاد مايستحق من نجاح ٠

فى سنة ١٩١١ ـ ١٢ جمعت مسرحياته فى أربعة مجلدات ، وهى أصلح للقراءة منها للتمثيل ، ولذلك لم يمثل الا بعضها وكان نجاحها محدودا ، ولعل خيرها المجموعة الثلاثية المكونة من « رأس من ذهب » Tête d'or (١٨٩٠) ، « المدينة » La ville (١٨٩٢) ، « الفتاة

ڤيولين « La jeune fille Violane (١٨٩٢) ، وهو فى هذه الروايات الثلاث وفى غيرها يستقى عنصر الدراما من صميم المسيحية ، تلك الديانة التى تدعو الى مجالدة الجسم والتجرد من الحياة والعدول عنها والنظر الى المتع فى حذر ونفور ، وعند كلوديل « أن المرء لا يستطيع أن يجد حريته الا فى رق الايمان » ، وهو يدعونا الى ألا نقـــول مع سقراط « اعرف نفسك » ، بل نقول مع المسيحية : « انس نفسك كى لا تعوق موسيقاها • انسها كى تتذوق العالم • قف من مجموع المخلوقات موقف الناقد من شعر الشاعر » •

ولكلوديل غير المسرح عدة مجموعات من الشعر الغنائى منهـــا « الخمس القصائد الكبيرة » Cinq grandes odes ١٩١١ ، « قصيدتا الصيف » Doux poémes d'été ، « الاغنية الثلاثية الاصوات » Cantate à trois voix سنة ١٩١٤ ••• الخ ، كما أن له عدة كتب عن الشرق الاقصى وخصوصا اليابان التى أقام فيها زمنا طويلا ، نذكر منها « معرفة الشرق » Connaissance L'Est، «نظرة فى الروح اليابانية» Coup d'oeil sur l'âme japonaise وأخيرا « خـــلال المدينة وهى تحترق » A travers la ville en flammes.

والناظر فى أدب كلوديل رغم صدوره عن مذهب ميتافيزيقى بعينه لن يعدم أن يقع أحيانا ــ وخصوصا فى بعض مسرحياته ــ على مشاعر انسانية تمســـنا جميعا ، وذلك لانه قـــد وفق غير مرة الى أن يمر بشخصياته الروائية خلال حالات بؤسنا المعهودة قبل أن يصل بها الى ذلك السكون والرضى والتجرد الالهى الذى تدعو اليه المسيحية ، وهكذا نراها تمر بالحب والرحمـــة والغيرة والرقة والبغض ، بل واليأس فى بعض اللحظات • وهذا هو الجانب الذى أظهره ديهامل بنوع خاص •

وفى الحق أن ديهـــامل لم يفهم كلوديل بمجهود ارادى ولا لنزعة انسانية تدعوه الى محاولة فهم كل نفس ، بل لان بين الرجلين ــ رغم الظواهر ــ تشابها حقيقيا فى الروح ، فديهامل رغـــم فقده الايمـــان بالكاثوليكية ، روحانى عميق •

وهو اذ كان يدعونا الى فهم نفوسنا لنملكها ونسيطر عليها ، بينما كلوديل يوصينا بنسيان تلك النفس حتى لا نعـــوق موسيقاها وحتى نستطيع أن نتذوق العالم ، فكلا الرجلين لا بد منته بنا الى التحرر من عبودية المادة والسمو الى تأمل المتع الرفيعة التى لا يتلفها نشاز أجسامنا•

ونحن بعد لا نستطيع أن نحصر الكتاب والشعراء الذين تأثر بهم ديهامل ، وفى كتابه هذا « دفاع عن الادب » ما يدل على اتساع قراءاته اتساعا لا حد له ، ولكن النقاد يكادون يجمعون على أنه قد تأثر بكلوديل.

وثمة فى الصياغة الشعرية أمر لا شـــك فيه يجمع بين الرجلين وهو التحلل من الموسيقى الظاهرة لالتماس الموســـيقى العميقة التى تماشى الفكرة وتجرى فى أنحائها كما تجرى الروح فى الجسد ، كلاهمـــا من أنصار الترسل فى الشعر ٠

ونحن لا ندهش من أن نرى ديهامل يجيد النقد حتى يصبح من رجاله مع انه أديب منشىء قبل كل شيء ، فتلك ظـــاهرة عامة ، وكلنا يذكر أن كبار الكتاب كانوا خير النقاد ، فشكسبير فى «هملت» وجيته فى « الشعر والحقيقة » وموليير فى « نقد مدرسة النساء » وكورنيل فى « مقالاته الســـبع عن التراجيديا » وبودلير فى « الفن الرومانتيكى » وشلى فى « الدفاع عن الشعر » وورد زورث فى « مقدمته » وفليرى فى « متفرقاته » وأندريه جيد فى كتابه عن « تورجنيف » وفى مقـــالاته العدة فى النقد ، بل وفكتور هيجو فى « مقدمة كرومول » ، وغيرهم كثيرون قد أثبتوا أنهم أنفذ النقـــاد بصيرة وأصدقهم خبرة وأفهمهم لحقيقة الشعر أو الادب عامة ، بل الذى يمكن أن يدعو الى الدهشة هو أن يستطيع أحد أن ينشىء أدبا قويا خالدا دون أن يكون قادرا على النقد عالما بأصول الادب ، فالادب ليس طبعا غفـــلا بل طبعا مستنيرا مثقفا مسددا ، بصيرا بمناهج الفن ووسائله ٠

ديهامل والنماذج البشرية :

وبعد الحرب العظمى تطورت عبقرية ديهامل تطورا كان فيه مجده الحقيقى ، فقد انصرف عن الملاحظة الانسانية العامة الى دراسة الحالات الخاصة ، فاستطاع أن يخلق فى رواياته نمـــاذج بشرية خالدة ، وهو يحلل تلك الشخصيات ببصيرة حادة ، ويختارها اما من بين « المهملين » Les Abandonnés سنة ١٩٢٣ حيث يعرض سلسلة من ثمانى حالات لشخصيات تتحطم تحت ضغط الهيئة الاجتمـــاعية ، أو من بين أولئك الذين تفترسهم غرائزهم الفـــطرية فيعجزون عن أن يســـيطروا على اضطراب نفوسهم ، وقد تملكتهم نزعات قلقة متناقضة ، تسوقهم حركات نفسية دفينة فيسيرون دون أن يفهموا شيئا ٠ وهو يصورهم فى عطف ورحمة مؤثرين ، ويرى فى تخبطهم بؤسا يحنو عليه ٠ وموضع الاعجاز فى منحاه النفسى هو أنه لا يظهر هذا العطف فى شـــعور دافق واضح مبتذل ، بل بسخرية خفيفة ، سخرية المشفق عن احساس قلبى ٠ وأخلد أنموذج لذلك هو سلفان Salavin الذى أصبح اسمه على كل الالسن حتى لكأنه لفظ من ألفاظ اللغة الفرنسية ٠

سلفان موظف كتابى صغير تتبع المؤلف خطواته فى خمس روايات

« اعترافات نصف الليل » ، « رجلان » ، « يوميات سلفان » ، « نادى الليوبيين » ، « كما هو » . ومنذ الرواية الاولى التى يقص فيها سلفان نفسه مغامراته البسيطة الساذجة نرى الشخصية التى تخضع نفسيتها لنوع دقيق من الجبر يتكون من عدة عناصر غامضة نستطيع أن نحس بها دون أن نصل الى تحديدها • ولديهامل مذهب خاص نلمحه فى سلفان ، فهو يرى ويحس أن الشخصية لا تكمل عندما تضاف اليها قسمات أكثر وضوحا من القسمات الاخرى ، بل عندما تأتى بعمل لم يكن متوقعا أن تدفعها طبيعتها اليه • وكل من قرأ « اعترافات سلفـــان » لا يمكن أن ينسى مغامرة عجيبة وقعت له لا نزال الى اليوم نتحسس سرها ، ذلك أنه عندما كان ذات يوم يعرض الاوراق على رئيسه المشرق المنبعج الراضى عن نفسه وعن الحيــــاة ، وقد وقف خلفه ، اذ استقر بصره على أذن ذلك الرئيس وإطال التحديق فيها ، فلاحت له حمراء لامعة وخصوصا شحمتها ، واذا به يستشعر رغبة لا تدفع فى أن يمس تلك الشـــحمة بأصابعه ، وما ان أحس بتلك الرغبة حتى اضطرب وأخذ يضع الخطط لتنفيذها ، والرجل مستغرق فى نظر الاوراق • وجمع سلفان قواه أكثر من مرة ، ومد أصابعه حتى اذا قرب من الاذن تخــــاذلت قواه ، ويعود فيحاول ويحاول الى أن ينجح ، واذا برئيسه المحترم ينهض منزعجا قابضا على مسدسه • وتنتهى تلك المأساة المضحكة بطرد المسكين سلفان ، وأمه وعائلته التى يعولها بمرتبه المتواضع تصيح صورهم برأسه عندما يرونه عائدا الى المنزل مفصولا لأمر تافه كهذا ، وتضيق به الحيــــاة ويعضه البؤس • وتأتى « رجلان » فتقص تاريخ صداقة سلفان للوازيل ، وننتهى الى « يومياته » فنرى السخرية من ايمـــــان السذج والدفاع عن ذلك الايمان • نرى مزيجا عجيبا من حماقة البشر واشراقهم • وفى الحق أن فى شخصية سلفـــــان قداسة مؤثرة ، قداسة حمقاء ، ولكنها أخاذة لصدورها عن نفس بدائية • ولكم يروعنا ان نرى أحداث الحياة اليومية التافهة تلون الروح المسكينة بما يشبه الفيض الالهى •

لمس أذن المســـيو سيرو Sureau رئيس سلفان مثل يستحق أن ننظر فيه عن قرب • أهو أمر معقول ؟ أهو حقا يدل على شىء فى أخلاق سلفان ؟ والواقع أن هذا الموظف الكتابى رجل ســـــاذج خجول محدود الافق ، وهو يعيش باستمرار فى خوف وحذر من هــــذا الرئيس الذى يلوح له انسانا من نوع غير نوعه ، وقد طال عمل هذا الاحساس بنفسه حتى أضناه على غير وعى منه ، فكيف يستطيع المؤلف أن يدلنا على تلك الحالة النفسية المؤلمة ؟ هل « يضيف الى سلفان قسمات أكثر وضوحا من الاخرى » فيصف مظاهر هذه الحــــالة ، أو يقص تصرفات تؤيدها وتنطق بها ؟ أم يحمله كما فعل على أن يأتى عملا جريئا لم نكن نتوقعه

من طبع كطبعه وحالة نفسية كحالته ، وهذا الاتجـاه الاخير هو الذى اختاره ديهامل • فسلفان يقول ان نفسه حدثته بأن المسيو سيرو هذا له أولاد وله عشيقة هي فتاة كانت موظفة عنده ، ولا شك أن ابن سيرو أو عشيقته قد مسا هذه الاذن : الطفل عندما يطوق أباه ومدموزيل ديبر Dupère عندما تقبـل سيرو فى أذنه رغم ما فى تلك الاذن من شعر ونقط كبقع النبيذ ، وهو يضيف مخاطبا نفسه أن هذه الاذن من لحم بشرى كلحم جميع الناس ، وهى كأذنى أنا رغم كل شىء ثم انها شىء موجود غير محظور ، واستشعر رجلنا الحـاجة الى أن يستوثق من كل ذلك ، بل قل فاضت نفسه التى طال كبتها وألمها وخوفها ، فامتدت يده الى شحمة أذن سيرو وكأن فى هذه الحركة التافهة خلاصا من توتر نفسه وانطوائها •

ونحن نقرأ سلسلة سلفان فاذا بها كلها على هذا النحو من السذاجة المؤثرة ، هى أروع تطبيق « لروائية المألوف » التى يتحدث عنها الكاتب فى «الدفاع عن الادب» • والمألوف عند ديهامل ليس الواقع الفوتوغرافى ، الواقع الظاهر ، بل ما خلفه : الواقع الحقيقى ، الواقع النفسى • وعنده أن الكاتب الواقعى العميق ليس هو من يسجل ما يرى ، بل من ينفذ ببصره الى أعماق النفوس ، فيظهر دوافعها الخفية ويوضح ما تصدر عنه شخصياته من أفكار أو احساسات لا تعرف تلك الشخصيات ذاتها أنها تفكر فيها أو تحس بها • هو من يعين الغير على أن يعرفوا نفوسهم • وفى مثل سلفان ما يدلنا بوضوح على أن ديهامل أبعد بصرا من أن يقف عند رصد ما يحدث فعلا فى الحيـاة ، فلمس أذن سيرو قد يكون أمرا بعيد الوقوع ، ولكن هذا لا يخيف الكاتب ، فما يريده هو أن يكشف عن نفس شخصيته الروائية ، وهو لا يرى سـبيل ذلك فى أن يجمع تصرفاتها التى حدثت فعلا ، بل يتصور تصرفات أخرى يمكن أن تصدر عنها ويكون بينها وبين تلك النفسية روابط داخلية تحملنا على الاعتقاد بأنها قد تكون ممكنة الوقوع وأن أصحابها لا يمـكن أن يستنكروها ، وهو ينطقهم بأقوال قد لا يقولونها فعلا ، ولكنهم اذا سـمعوها اقروها كصورة لنفوسهم ونجوى لحديثها الغامض الدفين •

وهذه هى الواقعية الانسانية العميقة •

ولديهامل غير ذلك مجموعة أخرى عن أسرة الباسكييه Pasquier وهى أحدث ما كتب • والمجموعة تتكون من عدة روايات يقص فى كل منها بعض أحداث الاسرة ، ويتخذ من كل فرد محورا لاحداثها • ولعل أروع شخصية فى تلك السلسلة هى شخصية سيسيل فى الحلقة الاخيرة « سيسيل بيننا » Cecile parmi nous • وسيسيل هذه فتاة قدسية

النزعة ، موسيقية بارعة ذات قلب رحيم ، وفي تصويرها نستطيع أن نلمح القمة التي وصل اليهـــا الكاتب في روحانيته وعمق احساسه بل وتصوفه ٠

والذي يدهش القارىء في هذا الاديب الكبير هو قدرته على الجمع بين المثـــالية والواقعية : مثالية الاحساس والفكر ، وواقعية الملاحظه والتصوير ، بين الاحساس المرهف والمحبة الشاملة ثم السخرية الرقيقة التي تخفي هـــذا الاحساس وتلك المحبة فتتأثر وأنت تبتسم ٠ وسوف يرى القارىء الاهمية الكبيرة التي يعلقها ديهامل الناقد « في دفاعه عن الادب » على « الهيومر » ــ روح الدعابة ــ حيث يرى في اجتماعها الى النزعة الشعرية أمارة العبقرية عند الكتاب وسر تفوقهم ، وهو يعتقد أن الكاتب الذي يحرم من كليهما لا يمكن أن يكون كاتبا ممتـــازا ٠ وثمة روايات أخرى غير سلفان والباسكييه تجمع تلك الصفات ، وأجملها فيما أحسب « خطـــابات الى باتاجـــون » Lettres au Patagon ، وهي عبارة عن ستة خطابات يرسلها الكاتب الى صديق خرافي في Patagonia من بلاد الخيال ، وفيها وصف دقيق للحيـــاة في باريس ٠ وصف فيه التسامح وفيه الدقة ، فيه الانفعال وفيه السخرية ، فيه الشعر وفيه التحليل ، أنموذج رائع للادب الانســـاني الذي يحرك النفس ويرنح الخيال ٠

ديهامل ووصف الرحلات :

لا شك أن القارىء سيرى عندما يقرأ « الدفاع عن الادب » أن ثقافة ديهامل لم تقف عند القراءة ، بل عدتهـــا الى الرحلات ، وأنه قد أفاد الكثير من ملاحظاته أثناء سفره ٠ ولقد حرص الكاتب على أن يقص نتائج تجاربه في هذا السبيل ، فكتب « رحلة الى موسكو » وفيها يصور لوحة دقيقة شاملة مشروحة لروسيا كما رآها رجل أخلاقي متأمل كديهامل ، ثم « الامير جعفر » وفيه يصف تونس وأخلاق التونسيين أثنـــاء سرده لبعض أساطيرهم في عطف وفهم لا شك فيهما ، وأخيرا « مناظر من العالم المستقبل » وهو كتاب عن رحلة له في الولايات المتحدة ، وفيه نقد لاذع لحضارة أمريكا الآلية واسترقاقها للروح البشرية ٠ وهو في كل تلك الكتب يمزج بين القصص والحوار في أسلوب دقيق حي يغري بالقراءة ٠

ويطول بنا القول لو حاولنا أن نتحدث عن كل ما كتب ، فنكتفي بأن نشير في النهاية الى كتاب جميل كتبه عن أولاده ومسراته العائلية بعنوان « المسرات والالعاب » سنة ١٩٢٢ ، فهو كتاب فريد في بساطته ورقته ٠

ديهامل و « الدفاع عن الادب » :

وأخيرا نصل الى الكتاب الذى ترجمناه له ٠

وأهم ما نحرص على ايضاحه فيه هو توزيع أجزائه وكيفية الربط بينها ليخرج القارىء منه بفهم تام لما يريد الكاتب أن يقـــول ٠ والذى لا شك فيه ان هذا الكتاب يتناول ثلاث مسائل كبيرة جديرة بأن توقفنا طويلا نمعن فيها النظر ونفحص الحلول التى يقترحها لكل منها :

مشكلة الثقافة : أما أولاها فهى مشكلة الثقافة التى يجب أن يحرص عليها البشر فى تربية أجيالهم المتلاحقة ، ولكى يلم القـــارىء بكل آراء الكاتب فى هذا السبيل لا بد له من أن يجمع فى ذهنه بين الجزء الاول من الكتاب « الكتاب ووسائل حياتنا » وبين الصفحات الاخيرة من الجزء الرابع التى عنوانها « ملاحظات فى الانســـــانيات الحديثة » ، فعندئذ يستطيع بعد قراءة آراء المؤلف أن يناقش لنفسه وبنفسه تلك المشكلة الخطيرة ٠ ومحور الموضوع هو هل يستطيع تيار الحضارة الآلية الحديث أن يحل محل التربية التقليدية التى ساعدت على ظهور العبقريات التى أكسبت حياتنا منذ البعث العلمى الى اليوم ذلك النبل وتلك القوة اللذين ننعم بهما الآن ؟ ومن الثابت أن أوربا مدينة بعبقرية رجالها الى الثقافات القديمة لاتينية ويونانية كما يقول المؤلف فى الجزء الاخير من كتابه ، ففيها رياضة عقلية هى الهدف الاول لكل تربية صحيحة ، كما أنهـــا عميقة الفهم لكل ما يمس الانسان ، وفهمنا لذلك الانسان الذى هو أنا وأنت والجميع لا يقل أهمية ولا نبلا عن فهم المادة وقوانينهـــا ٠ ولقد فطنت فرنسا بل فطنت أوربا كلها الى قيمة تلك الثقافات فتلقتها كميرات ثمين ، وانتهى بها الامر الى التخلى عن فتات حضارة الاجناس التى كانت تقطن كل تلك البلاد قبل أن ينقل اليها الرومان ـ بغزوهم لها ـ الحضارة اليونانية اللاتينية ٠٠ فحضارات الكلتيين والغاليين ومن اليهم قد فنيت أمام حضارة أرسطو وشيشرون ٠ وديهـــــامل لا يندم على ما كان لانه يفضل ما انتهت اليه بلاده من تراث روحى على ما كان يمكن أن تصل اليه لو أن غزو الرومان لم يحدث ٠ والآن نرى أن ثقافتنا الحديثة قد أخذت تتجه وجهة علمية ، فالانسانيات فى تقهقر ودراسة العلوم الطبيعية فى تقدم ، وفى هذا ما يهول الكاتب ، فهو يعلن أن الرياضة العقلية التى تحققها دراسة العلوم لم يثبت بعد أنها تعادل تلك التى وجدها بسكال وديكارت وسرفنتيس فى تحليل الجمل اليونانية واللاتينية ، وهو بعد رجل انسانى روحى لا يعدل بمعرفتنا للانسان وفهمنا له شيئا ، والعلوم تساعدنا على فهم المـــادة واستنباط قوانينها ، ولكنهـــا قليلة العناية بالانسان ، ثم انها تسعى الى أغراض مادية ، بل كثيرا ما « تسترقهـــا

اسلابها » فتصبح أداة للتدمير بدلا من تجميل حياتنا والسمو بها الى السعادة التى هى غاية الحياة ويجب أن تكون غايتها .

ويتصل بنفس هذه المشكلة مشكلة طرق نشر الثقافة ، فهو يلاحظ أن القراءة فى تقهقر ، وأن الكتاب قد أخذت منزلته فى النفوس تضعف ، وذلك لان وسائل الحضارة المادية الاخرى قد أخذت تحل محله ، فالراديو يزاحم الكتاب ، والناس المرهقـــون بالجهد العصبى الذى تتطلبه حركة الحضارة الآلية يركنون الى أقل الجهود ، فيكتفون بأن يسمعوا دون أن يتعبوا أنفسهم فى القراءة ، وتأتى السينما فتعزز نفس الكسل ، والمؤلف يرى فى هذا محنة خطرة على مستقبل الانسان وذلك لأمرين :

١ ــ أولهما لأن كل ثقافة حقيقية هى « اختيار » و « مجهود » ، وأنت لا تختار ما تسمعه فى الراديو ولا ما تراه بالســـينما ، كما أنك لا تستطيع أن تتثقف ثقافة حقيقية خصبة عميقة ما لم تبذل مجهودا ، فتصبر على قراءة الكتاب العميقين وهؤلاء عادة لا تسلم الصفحة التى يكتبونها كل ما بها عند القراءة الأولى ، فلا بد لك من معاودة قراءتهـا والنظر فيها بامعان ، وأنت عند كل قراءة جـــديدة تكتشف معانى دفينة ، وتستوحى آراء جديدة تخصب نفسك وتفتح أمامك آفاقا لم تعهدها ، وكل هذا غير ممكن باســـتماعك الى الراديو الذى يتدفق كالسيل ، حاملا اليك أخلاطا من كل شىء ، أو بمشاهدة السينما .

٢ ــ ثانيهما أن هـذه الوسائل الآلية العامة ستنتهى بأن تقتل الفردية ، فكل الناس يسمعون نفس الأحاديث بالراديو ، ويشاهدون نفس الروايات بالسينما ، والكاتب يرى أن هذه الحالة ســـتنتهى بهم الى أن يصبحوا جميعا نسخا متشابهة لا اصالة لأى منها ، فتصـــير عقليتهم عقلية القطيع . وهنا نلمس صراعا سياسيا عنيفا فى أقوال المؤلف ، فالاشتراكيون اليوم هم أحرص الناس على تعميـم الراديو والسينما وادخالها فى المدارس ، وذلك لكى يستخدموها كوسائل لنشر آرائهم وتلوين نفوس الشبان باللون الذى يريدونه ، وهـــذا ما يأباه ديهامل ، لا لأنه يخشى من استنارة الجماهير استنارة قد تدعوهم الى التمرد ، ولا لأنه يضن بانتشار المعرفة بين جميع طبقات الشعب ، بل لانه يود ان يسمو بالثقافة عن الانحطاط الى مستوى الدعاية لأى مذهب كان ، فهو يريدها حرة ، يريدها غاية مكتفية بذاتها ، وفى تكوينها لادراك الانســـان من النبل ما يجب أن تكتفى به ، وعندما يتكون ادراك الافراد سيستطيعون أن يتحكموا كما يريدون فى مصائرهم ومصائر وطنهم . فالثقافة عنده والأدب أشياء مقدسة لا يجوز أن نجرها فى أوحال حياتنا الفانية العابرة .

مشكلة الخلق الفنى : وثانى المسائل الكبرى التى يعالجها هى مشكلة الخلق الفنى ، وذلك فى الجزء الثانى كله « الأساتذة والمتنبئون » . ولقد عالج الكاتب فى هذا الباب مسائل كثيرة يجدر بنا أن نطيل التفكير فيها ، لأنه يتحدث عنها عن تجربة وفى اخلاص تام . فثمة العلاقة التى يجب أن تقوم بين الأجيال المتعاقبة فى مجال الأدب والتفكير وحدود الواجبات المعلقة بضمائر كل جيل سابق نحو من يليهم ليستمر الانتاج ويتقدم ، وثمة وظيفة الأديب فى الهيئة الاجتماعية وفكرته عن مهمته والنظرة التى يجب أن تكون له عن نفسه ، وفى هذا يصدر الكاتب عن آراء أخلاقية نبيلة يجب أن تردنا من تلك النزعة المسرفة التى كان ينزعها الرومانتيكيون والرمزيون ، ولا يزال يأخذ بها نفر من رجال الفن عند ما يرون فى أنفسهم « أطفالا مدللين » ، أو يحلو لهم أن يتظاهروا بالحياة على هامش الهيئة الاجتماعية التى يتبجحون باحتقارهم لها وعدم خضوعهم لمواضعاتها . وهناك ما هو خير من كل ذلك لتعلقه بصميم الانتاج العقلى والأدبى ، وهو عدم الركون الى غرور الشباب الذى يخيل للبعض ان الأمر امر عبقرية تكفى من غير أى جهد ولا تحتاج الى اى مران ، فهؤلاء كما يقول الكاتب لا يملكون عادة « عبقريات » بل « أشباح عبقريات » أو « احساسا شخصيا بها » ؛ وديهامل رغم ذلك من الرفق بحيث لا يقسو على هؤلاء الشبان بل يأخذهم بالاين ويود أن يهديهم ، ومن يدرينا لعل منهم من يصدق احساسه ويكون فى قول كاتب كبير كهذا ما يدفعه الى استغلال مواهبه بالعمل المنتج والجهد المتصل .

وكم فى تلك الفصول من حقائق . انظر اليه يدعو الكتاب الى أن يحذروا النجاح السهل ، وأن يبعدوا عن السلطة الزمنية التى لابد مفسدة احكام الناس فيهم ومضللة لهم ، بسبب ما بين أيديهم من نفوذ يصرف النفوس الضعيفة — وما أكثرها — عن أن تنتقدهم نقدا نزيها صادقا يبصرهم بمواقع قوتهم وضعفهم . ثم تأمل فى آرائه عن « وظيفة الكاتب الاجتماعية » وخدمته للمثل الأخلاقية ، وبأى فهم عالج تلك المشكلة . ان الأدب لم تعد غايته الوعظ بل المعرفة ، وأن تكن تلك المعرفة ستنتهى فى النهاية الى خدمة الأخلاق ورفع مستواها . واخيرا تأملّ الدور الذى لا يريد من زملائه أن يلعبوه فى السياسة ليظلوا أحرارا طلقاء من كل الملابسات .

ونحن لا نستطيع أن نقف عند كل الموضوعات التى عالجها فى هذه الفصول الرائعة من كتابه ، وكل ما نود الا يفوت القارىء هو طريقة عرض المؤلف للمشاكل وجمعه بين القصص والحوار ، ثم النظر فى صحة آرائه وصدورها عن احساس مباشر قريب فى غير تكلف

ولا سفسطة ، وكم له من لمحات أدل وانفذ من موســـوعات منطقية. ينسجها غيره من أقيسة واهية باطلة . وديهامل يلج النفس على أطراف أصابعه • يلجها في رفق فيغزوها من حيث لا تدرى •

نقد الأدب : والمشكلة الثالثة مشكلة أدبية فنية تجدها فى الجزء الثالث « ملاحظات عن فن القصة » ثم فى الباب الأول من الجزء الرابع «كنيسة فرنسا الأدبية» فهذان الجزءان يكمل احدهما الآخر ، وذلك لأنه فى علاجه لفن القصة يخرج منه بأن غاية القصة الجيدة هى فهم النفوس وتصوير نماذج بشرية ، وعنده أن الادب الفرنسى قد توفر خلال تاريخه الطويل على رسم « صورة للانسان » وأن ما خلد منه هو المساهمات التى اضافت الى تلك الصورة قسمة من القسمات .

وهكذا نخرج من هذا الباب بحقيقة يجب أن يضعها آدباؤنا نصب اعينهم وهى أن الأدب ليس صناعة لفظية ولا التماسا لغريب المعانى وانما هو « نقد للحيـــاة » ، « مراجعة للواقع » وفهم له ، هو تصوير للمألوف وجمع لعناصره فى صورة يمكن أن تعيش بفضل صـــياغتها وصدقها ، هو خلق نماذج بشرية نجد فيها انفسنا .

واكبر ما يمتاز به الكتاب الكبار امثال ديهامل هو تواضعهم وعدم اسرافهم ، وخضوعهم للموضوع الذى يعالجونه ، ثم قربهم المستمر من القارىء وهمسهم فى أذنه ، لا الطنطنة أو الاغراب أو اظهار المهارة فى توليد أفكار لا يؤمن بها أحد ، ولا يمكن أن تفيد أحـــدا بشىء ، وانما ندهش لها لحظة ثم ننساها لأنها لا تلاقى حقيقة فى الواقع ولا حقيقة فى النفس . عند ديهامل خطرات يقرها القارىء بمجرد أن يقع عليها بصره لأنها موجودة فى كل نفس ، وانما استطاع هو أن يعبر عنها فينيرها فى نفوسنا .

ترجمة الدفاع عن الادب :

عندما طلبت الى « لجنـة التأليف » ترجمة هذا الكتاب اتفق انني كنت أراجع ترجمة « شاتو بريان » « للفـــردوس المفقود » ، فرأيت المترجم الفرنسي يحرص على أن ينقل الى لغته اصطلاحات انجليزية كما هى ، وهو يبرر منحاه هذا ، ــ فى مقدمة قيمة عن الترجمة ــ بأنه يقصد من ذلك الى امرين : أولهما المحافظة على الروح الانجليزية ، روح ملتن نفسه التى كثيرا ما تتركز فى طرق الأداء وتستقى عناصرها من الثقافة التاريخية الكامنة بألفاظ اللغة ذاتها ، وفى هذا تتفاوت اللغات، فمن بين مفـــردات اللغة ما يعتبـــر وثائق تاريخية . ومنها ما ينطق بمواضعات اجتماعية خاصة بكل شعب ، كما أن منها مايحمل شحنة عاطفية

لا ندرى عادة لماذا اختصت هذه الكلمة أو تلك بحملها ، وهى فى الغالب مجازات ميتة . وثانى الأمرين هو رغبـــة شاتو بريان فى أن ينقل الى لغته طرقا جديدة فى العبارة ، بل طرقا جديدة فى التفكير ، وذلك لأنه يرى أن الترجمة ليست مجرد نقل للأفكار وبخاصة فى الأدب حيث تلعب الصور والصياغة الدور الاول .

وهذا هو المذهب الذى أخذت به ، وذلك لاننا لو حرصنا على أن نعطى كل جملة الصياغة العربية التقليدية لما حققت الترجمة الا جانبا تافها مما يجب أن تحققه ، فهى ستفقد الدقة التى هى أول واجبات المترجم ، ثم انها لن تحمل الى لغتنا ثروة جديدة فى وسائل العبارة ، ولن تكسبها ما نبغى لها من مرونة ومقدرة على أداء كل معنى وتصوير كل احساس .

وأنا بعد لا أجهل أن لكل لغة خصائصها ، وأنه لا ينبغى أن نخرج على تلك الخصائص ، وهذا ما حاولت أن أتجنبه ، ولكن الذى لا أريد أن أقبله هو أن يدفعنا الالف ــ وأكاد أقول التحجر ــ الى رفض كل تعبير أو وسيلة من وسائل الاساليب التى لم نألفهـــا ، فهذه نظرية ضعيفة ضـــارة ، وما دمنا لا نخرج على قواعد اللغة فيجب أن نتصرف فى تلك الحدود كما نستطيع .

وأخيرا أحب أن ألفت النظر الى أن اتجاهى هذا لم يكن مذهبا ، وأنا أعلم أن كل مذهب خليق أن يفسد بتعميمه حقائق الاشــــياء ، ولهذا لم أتردد فى أن أعرب عندما اضطرتنى الى ذلك ضرورة المحافظة على قيمنا الثابتة ، وأضرب لذلك مثلا بجملة كان المؤلف يقول فيها : « انه لا بد فى ال culture من حرث وغرس وبـــذر » ومعنى culture هنا هو الثقافة ، ولكنه لما كان معناها الحقيقى فى الفرنسية هو « الزرع » فان الكاتب قد لازم المعنى الحقيقى ليدل على ما تتطلبه الثقـــافة من جهد ، فتحدث عن الحرث والغرس والبذر . ونحن فى السنوات الاخيرة قـــد استقر العرف عندنا على استعمال لفظة ثقافة فى مقابلة culture والمعنى الحقيقى للتثقيف والثقافة هو « تقويم السلاح » ، ولهذا عربت فلازمت المعنى الحقيقى للفظتنا وقلت « لا بد من الصهر والطرق والشحذ » مشيرا الى هذا التعريب فى أحد الهوامش . وأنا بعد أعتقد أن الكثير من الكتب التى ترجمت الى لغتنا لم تتحقق فائدتها الكلية لكثرة التصرف والاكتفاء بترجمة الافكار دون طرق الاداء التى كثيرا ما تفوق فى أهميتها المعانى المعبر عنها .

ثم هل لى أن أقول اننى حاولت أن أترجم عن الفرنسية كما يترجم الاوربيون الى لغاتهم عن اللاتينية أو اليونانية ، واننى لم أكتف بالترجمة

بل أضفت الكثير من التعليقات التى رأيتها لازمة لفهم النص • وأنا أرجو من القارىء الذى لا يرى أنه فى حاجة اليها أن يغتفرها لى ، فقد قصدت بها الى نفسى والى غيرى ممن هم فى حاجة اليها ليتم لهم الفهم •

وأنا أحرص على أن تكون آخر كلمة لى وأعزها على نفسى شكر أستاذى أحمد بك أمين اذ تفضل فراجع الترجمة ، وقد بذل فى ذلك جهدا يسرنى أن أحمده له عن نفسى وعن القراء •

محمد مندور

مقدمة

يقوم نظام ثقافتنا على الطباعة ، فهو اذن ليس بقديم(١) ، وتلك التجربة المدهشة التى قلبت أوضاع العالم لا ترجع فى نموها الى أبعد من خمسة قرون . نعم ان الكتاب قد وجد قبل اختراع الحروف المتحركة ، ولكنه كان نادرا باهظ الثمن لا تصل اليه الا نخبة محدودة ، فاذا استطاع الكتاب اذ ذاك أن يصون معارفنا الى حد كبير فانه لم يستطع أن ينشر ضياءها . ثم ظهرت الطباعة فاذا بالكتاب يتنقل بين الشعوب ، واذا بالانسانية تتغير معالمها وخطاها وأحاديثها وقواها .

لا يستطيع الانسان الحر الواضح التفكير — مهما حرص على حقه فى نقد مصائر البشر وزاول هذا الحق بالفعل — الا أن يعجب بوجه عام لما حقق الكتاب من نتائج فى هذا الزمن القصير الذى لا يعدو خمسة قرون . فالكتاب أحد محركات الفردية الخالقة (individualisme) ، تلك الفردية التى لا تزال — حتى فى عصر الاضطراب الذى نعيش فيه — روح الخير القوامة على جماعاتنا البشرية . وقد وجدت فيه النفوس المنعزلة خلال هذه الخمسمائة عام أداة لا مثيل لها للعمل والسمو والتحرر . وكنا لعشرات خلت من السنين نظن أن طبائع الجماهير ستنتهى بأن تستنير بفضل غزو الكتاب للافراد . وأن الجماعات — فى تصرفها واستجابتها — ستخضع لتأثير تلك القوانين الاخلاقية السامية التى تدفع الفرد أحيانا بما لها من سلطان الى أن يكون دائما خيرا مما هو . نعم ان الكتابة — ككل عمل انسانى — يمكن أن تقرر وتؤيد أحد هذين المبدأين المتناقضين اللذين نتبسط فى القول فنسميهما الخير والشر ، ومع ذلك فقد كان لنا أن نأمل فى أن نرى ممارسة الثقافة — من تأمل الى

---

(١) وذلك لأن الطباعة الحديثة لاترجع الى أبعد من القرن الخامس عشر حيث أدخلت اصلاحات هامة على الحروف المتحركة ، وكان اكبر الفضل في ذلك للالمانى جوتنبرج Guttenberg (١٣٩٨ — ١٤٦٨) .

بحث عن الحقيقة الى معاشرة لكبار العقول - تنتهى شيئا فشيئا - بتطهيرها للنفوس - الى الاسراع فى استحداث الحضارة الحقيقية ٠

ولكننا مع ذلك رأينا الانسانية تحيد فجاة الى احدى تلك المنعرجات التى نجد في التاريخ الكثير من أمثالها ، حتى ليلوح أن منتجات الحضارة وآثارها قد قامت - ولو الى حين - حجر عثرة فى سبيل تقدم تلك الحضارة ذاتها ، وانصرفت بها الى غير مصائرها ٠ وفى مشاهدتنا فى علم الحياة مايطلعنا على شبيه لتلك الظاهرة العجيبة ، اذ نرى فيما تفرزه أو تنتجه الكائنات العضوية الحية - اذا كانت فى وسط مغلق - ما ينتهى بأن يقف نمو الحياة ٠ وهناك من الأمارات ما يحملنا على الاعتقاد بأن الدور الذى يلعبه الكتاب فى تدعيم الأخلاق ، وغرس المذاهب وتحقيق المتعة فى نفوس الجماهير ، آخذ فى التناقص ، وان ظل « طعام الملوك » أعنى الغذاء الجوهرى لنفوس أولئك الذين قدر لهم أن يكونوا أساتذة وقادة ٠ وانه وان يكن علماء الاحصاء يجهدون أنفسهم ليثبتوا لنا بقوائم من الأرقام أن طبع الكتب مستمر كعادته ، فانني رغم ذلك لا أستطيع أن أسكن الى اطمئنان . وكل من يتتبع عن كثب سير تلك الظاهرة يعلم أن تجارة الكتب فى ضيق شديد ٠ حقا ان الكثير من الكتب لا يزال ينشر ، ولكنها صحوة صناعة تحتضر لتجازف بكل ما لديهـــا ، لتوهم نفسها بأنها لم تزل فى قوة الحياة ٠ لقد يتأخر الى حين اختفاء الكتاب من حيث انه مذيع قوى للمعرفة ، كما قد تسرع به فجأة الاضطرابات الاجتماعية الى ذلك الاختفاء ، وفيما يختص بفرنســـا يلوح أن نتائج الملاحظات متوافقة ٠ فالرجل المتوسط الثقافة لا يملك لوسائل تسليته غير ميزانية شديدة الضيق ، وهو كثيرا ما يخصص جزءا منها لرياضته البدنية أو على الأصح لمشاهدة حفلاتها ، واذا استطاع أن يذهب الى السينما كل أسبوع أو أن يستمع الى الراديو ساعة أو ساعتين فى المساء أثناء فراغه من العمل فقد أعطى - فيما يرى . نشاطه العقلى حقه ٠ ثم ان قراءة الصحيفة اليومية كفيلة بأن تشغل فتراته الخاطفة ، كدقائق المترو أو السيارات العامة أو القطار ٠ وجدت الآن عند العامة وسائل للمعـــــرفة والتسلية أرخص ثمنا فحلت محل الكتاب الذى لم يحسن الدفاع عنه ٠

ان ما يسميه رجال الاقتصاد فى مصطلحهم « بالسوق الداخلى » قد اضطرب وفقد اتزانه وتلف بالفعل ، والسوق الخارجى مغلق تقريبا لأسباب سياسية وصعوبات فى استبدال النقود لا يمكن أن نتوقع سرعة زوالها ، وكل يوم يضيف الى تلك الصعوبات المخيفة صعوبات جديدة ٠ فالضرائب والتشريعات الاجتماعية - التى لا انتقد هنا مبادئها ولا اتجاهها - والمغامرات ووسائل العلاج الوقتى والاضطرابات الاجتماعية ، كل هذا

يلوح أنه قد تضافر منذ بضع سنين على أن يسدد الى صناعة الكتاب ضربات مميتة ٠

يعتقد بعض ذوي النظر أن الكتاب يستطيع أن ينتظر وأنه بعد أن ينقضي ذلك الاضطراب المفزع وينسى ، ستعود كل القوى الصادقة الى ميادينها المعهودة ، ولكنني لا أرى هذا الرأى لأنه اذا انصرفت الجماهير عن القراءة ، فانها لن تعود اليها ، وبذا ندخل - بلا رجعة - فى طور جديدة من أطوار تاريخنا ٠ واذا فقد الكتاب - لعشرة أو خمسة عشر عاما - ما بقى له من حظوة قلقة نزلت به الهزيمة النهائية ٠

لقد رأى البعض وما يزال يرى أن يخطئنى فى احتقارى للوسائل الجديدة التى يستخدمها الناس للتثقيف والتسلية ، ولكنى فى الحقيقة لا أحتقر تلك الوسائل بل أخشاها ، وكيف أحط من قدرها وأنا أرى فيها القدرة على تغيير أوضاع العالم الذى نعيش فيه تغييرا تاما ، كما أن لها القدرة على الذهاب بانسجام حياتنا ؟ ومع ذلك هل لى أن أعترف بأنى أعتقد فى قرارة نفسى بأن السينما والراديو - اذا أحكمت قيادتهما - خليقان بأن ينجيا فريستهما - أعنى الكتاب - من الهلاك ؟ ومن ثم أرجو ألا أعتبر عدوا لدودا للسينما والراديو ٠ وأكبر خدمة يمكننا أن نقدمها لهما ولعشاقهما ، هى أن نقوم بنقد أعمالهما وتصرفاتهما فى يقظة ، وهذا ما لا أتوانى عنه ٠

لقد همس بأذنى فيلسوف متفائل : ان الكائن البشرى سينتهى به الأمر الى الخروج من تلك المحنة منتصرا كما خرج من غيرها ، وفى الحق أنه لمن المحتمل أن يقاوم جنسنا أقسى أنواع البؤس وأشد ضروب الضلال ، ولهذا قال فيلسوفنا مبتسما : « ان الانسانية الحديثة ستجد السبيل لتكون فى مستوى الانسانية القديمة ، تلك التى تحبها وتعجب بها » ، وبودى أن أستطيع الركون الى مثل هذا الاطمئنان ، ولكنى لا أفلت من الفزع كلما فكرت فى التجارب الفاشلة ٠ نعم ان قرنين أو ثلاثة من البربرية لا قيمة لها وسط الأبدية ، ومع ذلك فبودى أن لو جنبنا أبناء أبنائنا هذين القرنين أو الثلاثة من البؤس ٠

***

لو سارت الحوادث على هذا النحو من السرعة الذى يلوح أنها ستستمر فيه لانتهت مناهجنا واتجاهات تفكيرنا فى مستقبل قريب الى الاختفاء ، وذلك يذهب بالتوازن الروحى الذى جهدنا فى المحافظة عليه ، ولهذا كنا الآن فى أصلح وقت لتحديد الموقف ، بل ولاعلان مبادىء ايماننا ٠

لقد ألفت هذا الكتاب لا لألفت نظر معاصرى الى بعض المشاكل

المؤلمة فحسب بل لأقيم شاهدا على ما أقول • وبالرغم مما يلوح لى من أن نشر أمثال ذلك الشاهد بالكتابة آمر غامض المصير ، فاننى قد أعددت هذه الوثيقة لذلك النفر من أحفادنا الذين لن يستنكفوا أن ينفضوا الغبار عن المكتبات القديمة • وسيعلمون عندئذ أى المشاغل كانت تعنى الأدباء الذين عاشوا بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠ ، كما سيدركون معنى الخطورة التى نعلقها على بعض المسائل الروحية والفنية ، بل والمهنية ، وان لم يكن من المستحيل أن تلوح لهم عندئذ أمثال تلك المسائل عارية تقريبا عن كل أهمية •

ان هذا الكتاب وان يكن ثمارا لتجربة طويلة ، فانه ليس جماعها ولو امتدت بى الحياة لكتبت كتبا غيره عن عملى ومعاركى ، وما اظن أننى سأستطيع يوما أن أقول كل ما يجب قوله ، بل ولا كل ما أحب أن أقول مما أعرفه وأشعر به •

وهذا الكتاب من أربعة أجزاء • خصصت الجزء الأول منه ــ فقط ــ لتلك التغيرات الخطيرة التى طرأت على ثقافتنا الحديثة وللقوى الجديدة التى تهدد حياة الكتاب ، وسيطرة المطبوعات التى نرى فيها دلالة على تحقيق ما للفكر من أثر •

وقبل الانتقال من هذه المقدمة والفراغ منها أريد مرة أخرى ــ وأخشى ألا تكون الأخيرة كما أتوقع مع الأسف الشديد ــ أن أنهض لدفع بعض اعتراضات يستطيع الرجال الصادقو النظر ــ لو تفضلوا ــ أن يعفونى منها فى هذه المرحلة من مشكلتنا ، ولكنهم لا يفعلون ذلك دائما •

والنظر المدقق المستمر فى تطورنا يجب أن يكون من بين أوائل مهام الروح ، وبخاصة فى عصور القلق ، اذ لوضوح الطريق ولعجلة القيادة و « الفرامل » فى السيارة من الأهمية ما للمحرك ، ومع ذلك نرى ما يأتى : نرى الكثيرين ممن لا نعتبرهم دائما أميين ينظرون الى نقد المستقبل الذى نستطيع أن ندركه نقدا صريحا نظرهم الى عمل بغيض ينال من قداسته • وفى كل مرة يتفق لى فيها أن أناقش هذه المشكلة الهامة أرى رقباء متزمتين يخرجون من عدة أجحار ، وفى أسلوب يجب أن أسميه انتخابيا ، أسمع رقباءنا الكرام يعيبوننى بالحط من قدر العلم ، وقدر التقدم •

ولكنى أميل الى الاعتقاد بأن الرغبة التى يبديها بعضنا فى الحكم على الطريق وسرعة السير والوسائل ستنظر اليها روح المستقبل ــ التى ستنتهى بالنجاة من تلك الخصومات ــ نظرة فخار وشرف لنا •

لقد أدلى لى منذ سنين المسيو اندريه مايير André Mayer الاستاذ بالكوليج دى فرانس والعالم الواسع الفضل باعتراف عجيب • قال :

« ان المعامل تعمل اليوم فى حماسة خصبة . ففى علمى الطبيعة والحياة مثلا نستطيع أن نتوقع اكتشافات جديدة ، اكتشافات عظيمة الخطر ، ولكن فيم ستستخدم الانسانية تلك القوة التى ستوضع عما قريب بين أيديها ؟ وهى لم تعد بعد لتلقى تلك القوة ، كما أنها ليست فى حالة تحسن معها استخدامها » .

ان فى أحداث الساعة ما يدل على أنه لا ينتظران توضع فى خدمة الانسان تلك القوى التى لا نعلم عنها بعد الا القليل ، والتى يحدثوننا عن اكتشافها على هذا النحو من التحفظ المصيب . والراجح أنها ستستخدم - ان لم تغتصب - لمصلحة الطموحين الوقحين المجانين .

ومصدر ما يقض مضجعى باستمرار هو ذلك التناقض الذى يزداد كل يوم وضوحا بين اكتشافات العقل وبين الحالة الأخلاقية وسير الحياة الاجتماعية . فعلماؤنا ســـــابقون لنظمنا بألف سنة ، حتى أن المشرع لتتقطع أنفاسه فى تتبع المخترع .

أما عن نفسى ، فان مظاهر العبقرية العلمية تملؤنى دهشة وغبطة ، ولكنى أدعو الله ألا يزيد تطبيقها من فوضى حياتنا ، وأنا لا أكتفى بالدعاء بل أوضح وجهة نظرى .

والجزء الثانى من كتابى مخصص لعلم الواجبات (١) على أن لا ينظر اليه القارىء كموسوعة فى المادة ، بل كمجموعة من الخواطر المتدفقة عن حياة الكتاب وعن علاقات الكاتب بزمانه وبالجمهور ، وعلاقاته بكتبـــه ومهنته .

والجزءان الأخيران يتعلقان - من جهـــة - بفن القصـــة فى القرن العشرين ، ومن جهة أخرى بخصائص أدبنا وبالانسانيات الفرنسية .

لقد فكرت فى أن أسمى هذا الكتاب « علم حياة مهنتى » اذ تناولت فيه حياة الكتاب ، ونمو الآداب ، ومصائر فننا ، الا أنه وان يكن لهذا العنوان أشباه شهيرة لدى الجمهور فان الفريد فاليت Alfred Valette

---

(١) Deontologie.

(٢) الفريد فاليت هو ناشر كتب ديهامل وسيرد اسمه في الكتاب أكثر من مرة ولعله لم يوافق ديهامل على العنوان الاول (علم حياة مهنتى Biologie de mon métier) خوفا من ان يختلط الامر لدى القارىء فيظن أن الكتاب يتعلق بعلم الحياة المعروف في الدراسات العضوية ، وربما ساعد على ذلك الفهم الخاطىء كون ديهامل طبيبا ، ولكن الواقع أن الفاظ « علم الحياة » و « التشريح » وما اليها لم تعد تقتصر على البحث في العضويات والى هذا يشير ديهاميل بقوله (وان يكن لهذا العنوان اشباه شهيرة لدى الجمهور) بل ان هناك علوما تحمل أمثال تلك الالفاظ دون أن يكون لها اى علاقة بمدلولها الاصطلاحى الاول واوضح مثل لذلك هو علم التشريح الفنى Anatomie Artistique الذى يدرسه المصورون والنحاتون لمعرفة الاوضاع الخارجية للجسم الانسانى والنسب بينها وهو يدرس بمدرسة الفنون .

نصحني بأن لا اضعه على الغلاف خوفا من أن لا يفهم على وجهه .

والعنوان الذي اخترته بلا ريب أبسط وأوضح ، وهو يحكي في جزء منه على الأقل عنوان كتاب آخر شهير (١) وهذا ما أرجو أن يغتفر لي مادام من واجبنا أن نعمل على انقاذ ما خلفه لنا أجدادنا الأمجاد مما احسنوا خلقه .

---

(١) يشير المؤلف الى كتاب عظيم الاهمية في تاريخ اللغة الفرنسيه وتاريخ آدابها وهو كتاب جواكين دي بلليه Joachin du Bellay المسمى « دفاع عن اللغة الفرنسية وايضاح لها » Défense et illustration de la langue française ظهر هذا الكتاب سنة ١٥٤٩ وقد نشره دبلليه كمهد «Manifeste» يحمل آراء وخطط تلك الجماعة الادبية الشهيرة في القرن السادس عشر في فرنسا باسم جماعة «البلياد Pleiade» التي كان يراسها الشاعر الكبير رونسارد Ronsard ويعتبر هذا الكتاب من الكتب القوية التي دعمت اللغة الفرنسية في صراعها مع اللاتينية ففيه ينادي المؤلف باتخاذ اللغة الفرنسية أداة لكل ادب وكانت الفرنسية عندئذ تعتبر كلغة عامية الى جانب اللغة اللاتينية وهو يدعو الى تنمية معجم اللغة بالاستعارة من اللغات الاخرى وبالتركيب والاشتقاق .... الخ . وأما في الادب فهو على العكس يدعو الى الرجوع الى الآداب اليونانية واللاتينية القديمة بل والآداب الايطالية اذ كانت ايطاليا قد سبقت فرنسا الى حركة البعث كما سبقتها الى خلق أدب جديد وهو يهاجم آداب القرون الوسطى الفرنسية وآداب الصنعة التي شاعت في القرن الخامس عشر . ولعل في مثل هذا الكتاب مايلقي ضوءا على بعض مشاكلنا اللغوية والادبية وينير لنا بعض السبل التي علينا أن نسلكها لنجدد آدابنا وبالتالي كل حياتنا .

الجزء الأول
الكتاب ووسائل الحياة

- ١ -

الام يصير العالم لو علق فجأة بالورق مرض جديد يحيل كل المكاتب ترابا ؟ هذا سؤال يمكن بلا ريب أن يزعج أحلامنا ، والقاؤه ليس عبثا • فنحن نسمي عادة كل اضطراب يصيب الكائنات الحية – حيوانية كانت أو نباتية – مرضا ، كما يمكن أن نستخدم اللفظ نفسه للتعبير عن التغيرات التى تطرأ على البيرة أو النبيذ • والواقع أنه كلما وجد كائن حي وسطا ملائما لحياته فعلق به ، وغير من بنيته وتركيبه ، جاز استعمال لفظ « المرض » فيه ، وعلى هذا النحو من التحديد نستطيع أن نعود الى حديثنا فنقول : ان الورق عرضة لكافة العوامل الطبيعية ، وأما العوامل الحية فيظهر أن خطورتها لم تهدد حتى اليوم الورق الجيد النوع. والأمر يتوقف على نزوة من نزوات الطبيعة تبدل أو تغير فجأة من الخصائص ، فتجعل نوعا من الحيوان أو النبات يعيش على الورق فيفنيه بسرعة ، أو على الأقل يتلفه اتلافا لا صلاح له بعده ، حتى لنتساءل : كيف أن فرضا كهذا لم يغر « ولز » (١) Wells أو كاتبا آخر من مقلديه ؟ •

يخيل الى أن الانسانية – بفقدان مكتباتها – لن تفقد من كنوزها الفنية أو من تراثها الروحي فحسب ، بل ستفقد أيضا – وبوجه خاص – وسائل حياتها •

هناك جماعات بدائية كل علمها فى ذاكرة الرجال ، فلقد رأيت فى شمال أفريقيا تاجرا ملطيا أميا كل الأمية لا يمسك دفاتر ، وقد نقش كل حساباته على ذاكرته ، هي ذاكرة يقظة مدهشة الاتساع • لقد اخترع

(١) وذلك لان بعض روايات « ولز » كما هو معروف تتناول المستقبل واحتمالاته والعالم كما يتصوره ولو في ذلك المستقبل القريب أو البعيد .

الانسان الكتاب ليخفف الحمل عن الذاكرة ، وهو يودع الكتاب ما يريد أن يحتفظ به • والذاكرة عرضة للخطأ فقد يثقلها الحمل ، وقد تتعثر ، ثم انها تنحط وفى النهاية تصير مع الانسان الى صمت الفناء ، وكلما وجد الانسان المجد طريقه لعمل شيء ما عملا صحيحا سارع الى تقييد تلك الطريقة بكل دقة ، معددا أسباب الخطأ ومواضع الصعوبات وطرق التغلب عليها ، مردفا مبادىء النجاح ببواعث الفشل فهو بالاختصار يحدد وسائل الحياة •

كل مكتبة هى قبل كل شيء مجموعة وسائل ومناهج • هى ذلك المكان الجليل الذى يحتفظ فيه الرجال بتـــاريخ تجاربهم وتحسســاتهم واكتشافاتهم ومشروعاتهم ، وأنا أقصد بذلك الى تاريخ الشـــعوب حينا ومغامرات الأفراد حينا آخر ، والى تاريخ أعمالنا طورا ، وتاريخ أفكارنا طورا آخر ، ففى الكتب أحيانا وصف لوسائل صنع آلة بخارية ، وأحيانا وصف لوسائل حياتنا اليومية ــ حياتنا المادية ــ ثم حياة الروح وحياة القلب •

فلو أننا فقـــــدنا دفعة واحدة كل تلك الكتب التى ازدهرت فى ظلالها حضارتنا المرهفة المعقدة لما استطعنا أن نعرف كيف نحضر بعض المنتجات الكيماوية ، أو أن نبنى طائرة ، أو أن نربى حيوانات ، أو نزرع أرضا مواتا ، أو أن نحل عددا لا حصر له من المشكلات ، بل لما استطعنا عندئذ أن نطهى بعض المأكولات • وأضيف الى ذلك أننا سنجد مشقة كبيرة فى استخدام ملكاتنا ، والرجوع الى قواعد أخلاقنا ، والتغلب على شهوات نفوسنا ، اذ لن تكون تصرفاتنا عندئذ الا تصرفات متوحشين أو وحوش تعسة "

والمكاتب العامة لا تكفى حاجات الناس ، ولذا يمتلك كل منهم ــ مهما كان فقيرا ومهما ضعف استقراره ــ مكتبة صغيرة شخصية ، هى كنزه الذى يعتز به ، فكل انسان يشعر بالحاجة الى أن يجد فى متناوله وتحت بصره وسائل حياته ، فهو يقتنيها لا لأن الكتاب هو أخص زينـــــات المنزل، ولا لأنه ينشر فى الاماكن التى يحليها عبيرا أليفا نافذا من الروحية. بل لأنه يجد فيها ما يركن اليه فى ساعة ضلال أو انحلال أو شك أو فراغ نفسى . ولتتصـور ماذا تكون حياتك فى مكان مريح ولكنه خال من الكتب ، فانك لن تلبث حينئذ أن تحس بالنفرة وضيق الصدر • وأنا أقدر أن هذه الخواطر ستثير معارضات • ولئن قيل لى مثلا : فليكن ! ولتختف كل الكتب ، وليتطهر العالم دفعة واحدة من العلم كله ، ولتمح الذاكرة ، لأجبت مسرعا أن فى العالم الآن عدة فنون للتدمير ، والكثير من الوسائل للرجوع الى السـديم ، بل ان اليأس نفسـه ليتطلب للعبارة عنه قواعد وطرق أداء •

ومن الراجح أن يعترض على بأن الخطر الذى أتحــــدث عنه خطر وهمى ، وان ضياع مكتباتنا احتمال بعيد ، والى هذا اريد فى الحقيقة أن أنتهى •

فأنا لا أخشى على مكتباتنا من مكروب خبيث ، اذ يخيل الى ان الانسان فى حالته الراهنة سيبذل كل جهده ليحافظ على كنزه من التحطيم ، أو لينقل وسائل حياته الحيوية الى مادة أخرى أقل عرضة للفناء (١) • ولقد استعنت بهذا الفرض لألفت النظر الى أهمية كارثة كبرى أحس أنهـــا آتية ، فالكتاب مهدد فى مستقبله لا بالمكروب بل بانصراف جماهير البشر عنه • فهل هذا لأن الجماهير الآن أقل حبا للاستطلاع منها فى القـــرن الماضى ، أو لأنها أقل تعطشا الى المعرفة ؟ لست أقول شيئا من ذلك • ولكنى أقول ان الجماهير البشرية قد أخذت تشبع شيئا فشيئا حاجتهـا الى المعرفة دون الرجوع الى الـكتاب • فالرجل المتوسط لا يجد فى الأعم وقتا متسعا ولا مالا كثيرا ، بل ولا عزما مثــــابرا ليرضى حاجاته الروحية • فقدرته على الانتباه والاستطلاع والفراغ قد استغرقتها اليوم عدة آلات قوية الأثر ، نافذة الاستهواء ، فالراديو والسينما تشغل من يوم الى يوم مكانا أكبر ، لا فى وسائل تسلية رجل القـــرن العشرين فحسب ، بل وفى عناصر تكوينه الظاهرة ، اذ تختلط الأخبار بالمعارف ، والتسلية بالعلم ، اختلاطا مخيفا فى نفس الرجل المتوســـــط • وقادة الفكر فى عصرنا لم يعلنوا بعد فى قوة أن هذه الظاهرة تبعث فى نفوسهم القلق ، ولعل البعض منهم يرى أن الوسائل تتغير ، وأن الانســــــانية ستحتفظ بتراثها لا فى المكاتب بل على اسطوانات من « الباغة » أو فى أشرطة من الغراء •

وهذا ليس موضع الاشكال ، اذ أنه لا يهمنا أن نعرف هل الباغة والغراء آمن على نقل معارفنا وأصلب مقاومة من الورق أم لا ، بل ولا يهمنا أن نعلم اذا كان من الخير لمستقبل عبقرية البشر أن نحل محل الكتـــاب ــ صديق الوحدة ــ عددا من الأدوات الصالحة صلاحا خطرا لأن تخلق عقلية القطيع (٢) ، وانما المسالة الاساسية هى هل من الممكن أن نخلق وأن نحافظ على ثقافة حقيقية ثقافة قوية خصبة بواسطة الصور (السينما) ؟



(١) في البرازيل يحافظون على الكتب فيحمونها من حشرات الحرير الصناعى بأن يضعوها في مأمن منها داخل مكتبات من الصلب محكمة الاغلاق سميتها لفورى « مكتبات مصفحة » . (المؤلف)

(٢) يشير بذلك الى الراديو والسينما وأمثالهما .

- ٢ -

الثقافة الروحية مجهود ونتيجة لذلك المجهود على السواء . فكل نظام للحضارة يضعف من المجهود يضعف أيضا من الثقافة .

وانا اذ أقول ذلك لأرى أن الحضارة الحديثة ـ بالرغم من مظاهرها وما توحى به من آمال ـ قد نقصت من مشقة المجهود فى كل ميادين النشاط ، وانما هى غيرت من طبيعة ذلك المجهود . فعامل المصنع عندما ينتهى من عمله اليومى لايشعر بانه أقل تعبا مما كان من قبل . فالجهد العضلى الذى يبذل قد يكون ـ وان لم يصدق ذلك فى كل الصناعات ـ أقل اطرادا واخف قسوة ، ولكن جهده العصبى يزداد كل يوم بازدياد الآلات تعقيدا كما يزداد بنمو قوتها نموا مخيفا . فسائق السيارة ـ الذى يقود سيارته عشر ساعات متواليات ـ يعمل صيفا وشتاء وهو جالس ، دون أن يقوم بأى مجهود عضلى ، ولكنه دائما فى حالة توتر عصبى لاتخففه العادة الا تخفيفا غير محسوس ، بحيث أعتقد انه عند انتهاء عمله اليومى يحس من الاعياء قدر مايحس الحاطب او عامل الطرق ، بل انه بلا ريب ليجد نفسه عاجزا عن ان يهدأ أو يستريح أو ينام ليعوض من اجهاده ، ولهذا كنت بعيدا عن أن أرى ان حضارتنا الراهنة قد اعفتنا من الاعمال الشاقة ، وانما هى تجنبنا بعضا من المجهودات لتثقلنا بما هو أشق منها واضنى . ثم ان رجل القرن العشرين مرهق بأعمال الدواوين ، ومرغم على احتمال نيرها وعلى النهوض بأعبائها ، فحياة أكثر الناس تواضعا اليوم ادارة فعلية ، بما يتبع هذه اللفظ من أكداس الورق والاعلانات وشبابيك التذاكر والاجراءات والانتظارات والمرافعات والخصومات والمضايقات والمفاجآت بكافة انواعها .

وانه حقا لمن دواعى الدهشة ، أن نرى تلك الحضارة ـ التى لاتعرف رعاية لاعصابنا والتى تتقاضانا فى كل تصرفات حياتنا مجهودا يكاد يكون مؤلما ـ تصبح رفيقة كل الرفق ، عندما تعمل على تجنيب الجماهير المجهود العقلى الذى هو الكفيل الوحيد بكل ثقافة حقيقية . وكل مجهود بلا ريب أمر شاق ، ومشقة المجهود العقلى يضاعفها أن نفعه قلما يكون مباشرا ، ومعظم ذوى النفوس الساذجة يرهبون المجهود العقلى ، وهم يفضلون مجهودا بدنيا طويلا عنيفا على تلك الرياضة العقلية التى لم يألفوها ، والتى تلوح لهم ثمارها مرة غير موثوق بها . وانه لمن اليسير أن ينصرف عن المجهود العقلى كل أولئك الرجال الذين أرهقتهم مطالب حضارة لم تعد تعرف النوم ولا المهادنة .

هذا والامور تجرى على نحو يخيل الينا أن هناك روحا شريرة قد

عقدت العزم على أن تنيم الانسانية وتخدعها مع تملقها لكبريائها ولبعض من نزعات طموحها . وأنا أقول ، « يخيل الينا . . . » ولكنى أبادر فأقرر انى لاأرى أشباحا . وأنا على يقين من أن تلك الروح الشريرة لادخل لها بتطورنا الحديث اذ من العجيب أن الامور تسير على نحو لم يقصد اليه أحد ، بل لم يدركه أحد ادراكا واضحا ، ومع هذا يجب أن نعترف بأننا قد صرنا الى هذه الحالة مساقين بما يشبه ارادة شريرة عنيدة ، فكل تلك الخوارق التى تجعل الفرد عضوا متضامنا مع المجموع ، والتى توحى اليه بكل مايرى الآخرون أو يقولون او يفعلون ، كل هـذه الاختراعات العجيبة التى يبدو لاول نظرة انها قد اخترعت لتزيد الانسان ذكاء ، ولتفتح من أذنيه وعينيه ولتثير ملكاته وتنهض به فوق مستواه ، نراها تعمل فى دهاء واستتار على أن تنميه وتخدعه وتحط من آماله وتوقف من قوته ، وهذا تطور ربما كان شارل نيكول (1) «Charles Nicolle» يستطيع أن يرى فيه مظهرا جديدا لذلك القانون ، قانون التوازن الذى يحكم فى نظره عالمنا العضوى كله .

وأنا لا أريد أن أعود فورا الى الدور الذى يلعبه الراديو والسينما فى اضعاف معنى المجهود الروحى ، وان كنت لم أفرغ بعد من الحديث فى هذا الموضوع ، ولكنى أريد أن ألفت النظر أولا الى احـدى نواحى تلك الظاهرة .

تستطيع الصحافة ان تكون فى أيامنا وسيلة مدهشة للمعرفة وذلك على فرض أنها ـ وأنا أعترف أنه فرض مسرف ـ تستطيع أن تتحرر من رق المادة ورق السياسة ، وعلى فرض ـ وهـذا الفرض الآخـر لايقل هذيانا عن سابقه ولكن لنفترضه مع ذلك ـ على فـرض أن تتخلص من الأهواء الشخصية وان تخصص كل مجهوداتها لأداء واجبها الاخبـارى الثقافى ، ولو صح ذلك لاستطاعت ان تلعب دورا هاما فى تثقيف الجمهور وهى تملك كل مايمكن تصوره من وسائل للتنقيب والاذاعة ، كما لاتزال تتمتع لدى الجمهور بثقـة متينة ، فهى اذن تستطيع أن تصـوغه وأن تقوده وتسمو به ، بل وأن تثقفه الى حد ما ، أو على الاقل أن تدفعه الى الكتاب الذى هو أداة كل ثقافة حقيقية .

هذا ونحن نلاحظ ـ منذ عشرات السنين ـ أن الصحافة قد أتلفتها ظاهرة طفيلية تلوح لأول وهلة قليلة الاهمية ولكنها مع ذلك قد مست كل قيمة للصحف كوسيلة للتثقيف ـ وأقصد بذلك الاسراف فى الصور .

---

(1) شارل نيكول . طبيب بكتريولوجى فرنسي ولد في روان سنة ١٨٦٦ وعين سنة ١٩٠٣ مديرا لمعهد باستير بتونس وله أبحاث كثيرة في الامراض المعدية وهو عضو في المجمع الطبى الفرنسي وعضو في مجمع العلوم الفرنسية وأستاذ في الكوليج دى فرانس منـذ سنة ١٩٣٢ (نال جائزة أوزيريس سنة ١٩٢٠ وجائزة نوبل سنة ١٩٢٨) .

فالصور شيء طريف . وهى تقدم لنا بسرعة خير ماتحمل ، كما انها تساعدنا ــ أحيانا ــ على فهم أشياء لاتستطيع الألفاظ أن تعبر عنها بسهولة . ولو انها دعمت بنصوص ممتازة جيدة التحرير لزادت فهمنا للعالم . وفى المؤلفات المصحوبة بصور مايشهد بذلك شهادة بينة . ولكن الصورة قد أخذت تحتل فى جرائدنا اليومية مكانا مروعا ، وقد قتلت النص ، لا لأنها تستغرق جانبا من ميزانية الجريدة ، أو لأنها تنحى وتطرد التحرير فحسب ، بل لانها توهم بأن النص لافائدة فيه . اذيقول رجل القرن العشرين لنفسه « ما الداعى لقراءة كل هذا المقال المكتوب بحروف صغيرة وانا ادرك الموضوع بمجرد نظرة . القراءة متعبة وانا منهمك بعد أن قضيت نهارى كله فى المعمل أو فى الديوان ، ثم انه لافائدة من القراءة . لافائدة أصلا » .

كما يفعل الطفل ــ اذ يبلل اصابعه ليمر من صورة الى صورة دون ان يقف ليقرأ النص لأنه لايعرف القراءة ــ كذلك يفعل رجل القرن العشرين اذ يمر ببصره المجهد العابر الكليل على الصفحات المنشورة امامه ، وعنده أن اى مجهود مهما كان تافها أكبر مما يستطيع .

وانا هنا لاأقدح فى فن التصوير الفوتوغرافى الذى استطاع فى السنوات الاخيرة أن يخطو الى الامام خطوات حقيقية ، وقد تحلى بكل وسائل الاغراء فهو ينقل ويغير ويشوه ويجمل الواقع احيانا كثيرة . فالفوتوغرافيا كسب علمى ثمين ، ولكنها اذا حملت الرجل على الكسل رأيت فيها شرا مستطيرا وطلبت كبت جماحها .

ورجال الصحف قد وصلوا فى هذا الطريق الى مرحلة لايستطيعون الآن الارتداد عنها ، وهم يعلمون ذلك ويحسونه اذ تراهم يلجأون الى ضروب من الحيل فى الطبع كى يستهووا الجمهور ، ويحتفظوا بانتباهه الشارد الضال المضنى ، وذلك حتى لاتصبح جرائدهم مجرد مجموعات من الصور ، ولكننا نعلم أن الحروف الكبيرة والعناوين الضخمة ليست الدواء الناجع ، بل انها لتساعد على استفحال تلك الظاهرة المدمرة عند الانسانية الحديثة : واعنى بها انحلال القدرة على الانتباه .

- ٣ -

هل نستطيع ان نؤسس ثقافة قوية خصبة على الصور والأدوات الخطابية ؟ هذا سؤال ألقيته عدة مرات على مثقفى العالم كله ، ولم يبق السؤال دون جواب .

فلقد تناول هذه الظاهرة عدد كبير من الباحثين ، ورأوا فيها

ما ارى من أن السينما والراديو لا يمكن أن يكفيا لبناء ثقافة حقيقية ؛ ولكن هناك من يؤيد وجهة النظر الاخرى ، وهؤلاء ــ وان يكونوا فيما احسب اقل من الاولين عددا واضعف جزما بما يرون ــ الا أن رأيهم يستحق رغم ذلك أن نقف عنده وان ننظر فيه بامعــان ، ولقد أعلن المسيو لويس سيدانيه «Louis de Sédaner» رأيه فى هذا الصدد فى مقال نشره بمجلة النقد الجديدة «Nouvelles revue critique» ، ولقد اظهر هذا الكاتب أنه موهوب هبة حقيقية ، وهو أحد أبناء ذلك الجيل الناشىء الذى يريد فى شجاعة أن يقبل الحياة كما يهيئهــا له العالم الحديث ، وتلك هى النصيحة التى اقدمها ــ الى أبنائى ــ رغم كل ما يبدو فيها ٠

وعند المسيو سيدانيه : « أن عيب السينما والراديو آت من أن هاتين الوسيلتين لم يجدا بعد أساتذتهما » . وهو يتساءل فى جوهر المقال عما اذا كانت الكتابة والطبع هما الأداة الوحيدة لنشر المعرفة ، ثم يجيب بالنفى ، اذ يرى فى قولنا بهذا الرأى ضربا من الغرور . فليس من حقنا أن نعيب السينما والراديو لمجرد أن كل مايحملانه لنا اليوم تقريبا ردىء منحط .

يلوح لى أن المســيو سيدانيه يرى فى النهاية أن انتقاد السينمــا والراديو كأداتين للثقافة مرده الى مافى برامجهما وطرقهما الفنية من رداءة مؤقتة ٠ ولكن هذا ليس موضع الانتقاد ، اذ أنى على تمــام الثقة من أن السينما ستقدم ــ بل وقدمت بالفعل الجمهور ــ أشياء رائعة حقا فالعبقرية تنعكس على الشاشة عندما يختار رجل عبقرى السينما كرسول معبر . ولقد قدم لنا شارلى شابلن على ذلك أمارات دالة . وكذلك أعتقد أن الراديو كأداة للاذاعة ليس غريبا عن العبقرية ٠ فعندما يذيع موسيقا باخ Bach تتردد العبقرية « فى صندوق الضوضاء » . ولذا أرانى من هذه الناحية على ثقة بالمستقبل ثقة لاحد لها . وانمــا الذى يقلقنى هو بعض من الملابسات اللازمة للراديو والسينما عندما يعتبران وسيلة للثقافة .

أساس الثقافة هو فهم الظواهر والكتب والكائنات . والنفوس ــ حتى النافذ منها والموهوب ــ عرضة دائما للتردد والذهول والاغماء العارض ، وأقدرها على الانتباه فى حاجة دائما الى الرجوع الى الموضوع والعناصر والى الحجج التى يتناولها العرض أو المناقشة ، وهــذا الرجوع ــ الذى يقصد منه الى دقة الفهم ــ هو على وجه التحــديد ما نسميه بالتفكير ، فالرجل الذى يقرأ يقف فى كل حين ليفــكر أى ليحاول أن يعود فيتناول الفقرة من جديد يقرؤها مرة ثانية وثالثــة ورابعة بل وعاشرة . وهذه الطريقة لا تتفق وفنون الحركة ، فاننــا

عندما نسمع «سيمفونية» أو نشاهد تمثيل «تراجيديا» لا نستطيع أن نعود اليها ، على حين أن الكتاب يمكننا من التفكير تفكيرا ضروريا وان يكن لاحقا ، فاذا كان الكتاب جيدا نزعنا الى قراءته من جديد والنظر عن قرب فى بعض التفاصيل أو الامعان فى نوتة المؤلف الموسيقى. ونحن فى الحفلة الموسيقية او فى المسرح نلتمس اللذة ، بينما نتخذ من الكتاب وسيلة للثقافة الحقيقية .

نعم يمكن الاعتراف بأنه من الممكن - اذا اردنا - أن نعود الى الكتاب بعد سماع الراديو أو بعد مشاهدة الفيلم ، ولكنى فى الحقيقة ضعيف الأمل فى هذا الاحتمال ؛ اذ أن فى طبيعة الراديو الجارفة - التى تشبه تدفق النهر - مالا يساعد على التفكير ، أى على الثقافة الحقيقية ، فهو والسينما يقدمان أشياء مسرفة الكثرة لا نشعر معها برغبة فى أن نحقق أو نختبر أو نكمل ، بل ولا فى أن نفهم ، وانما نأخذ منهما مانأخذ خطفا وكيفما اتفق . وأما مايفوتنا فليفت . وليس هذا منهج الثقافة .

ولقد يأخذ العجب العجائز فيلفتون أبصارنا ، ويدعوننا الى التفكير على نحو مافعلت منذ أيام سيدة عجوز من صديقاتى ، فهى لم تعد تقرأ منذ سنين لان نظرها قد ضعف ، ولان قدرتها على الانتباه قد أخذت فى الاضمحلال ، والراديو يمثل سيطرة أقل الجهود .

ولما كانت هناك حالات لايكون فيها الفرد قادرا الا على أضعف مجهود ممكن . فانه يرحب بالراديو ، وفى مثل هذه الحالات لا يكون مع الاسف للمستقبل ولا للثقافة أى اعتبار . ولهذا عندما أهدى أبناء هذه السيدة اليها جهاز راديو سرت به كثيرا ، اذ وجدت فى دندنة تلك الآلة المستمرة الرنين مايشغلها عن أنواع من الافكار والذكريات الحزينة . ولكن لما كانت تلك السيدة المعمرة لم تصدف بعد عن كل محاولة للفهم فانها تصيح بالجهاز الأصم عشرات المرات فى اليوم الواحد قائلة «قف ! قف ! ارجع قليلا الى ما فات . نعم ! أعد ما قلت الآن»

ولكن الآلة الصماء لاتقف ولا تعيد . حتى ليبدو أن التفكير لايتفق وتلك الأدوات الجديدة التى تقدم للجماهير لتخلق لنفسها بفضلها روحا . فالسينما والراديو لايعيدان ، بل يسيران ويسيلان ويتدفقان ، فهما كما قلت كالانهار . وماذا تحمل الانهار ؟ أليست أخلاطا بغيضة نجد فيها عادة أسوأ الاشياء ، وفى النادر أحسنها دون أن نستطيع فصل هذه عن تلك .

وهنا أصل الى النقطة الثانية فى الاشكال .

فالقراءة معناها الاختيار اذ أن من يقرأ ينتقى أى يختار (١) ووظيفة الاختيار من أولى وظائفنا الطبيعية ، فالكائن الحى حى لانه يختار . فهو ينتقى — من بين ما فى العالم من أشياء — ما يصلح لان يكون له غذاء أى مادة لحمه ، ونحن عندما نقرأ كتابا أو مجلة أو جريدة نختار مادة لروحنا ، وكذلك عندما نذهب الى مسرح أو حفلة موسيقية نكون الى حد ما قد اخترنا معتمدين على ماوصلنا من أخبار، فالأمر أمر خير واختيار (٢) ونحن نتخير ما نرى فيه خيرنا فنحبه .

وملكة الاختيار مهدرة محتقرة عند تلك المذياعات الحديثة القوية ، أعنى السينما والراديو عندما تذيع أغذيتها الروحية الممحوة المعالم . حتى لنضطر فى سبيل صورة واحدة جميلة نلتقطها التقاطا الى أن نتحمل آلافا غيرها أفضل ألا أصفها بشىء . ولكى تستمع الى حفلة موسيقية جيدة بالراديو لا بد لك من أن تلقى وتواجه وتتحمل آلافا من الضوضاء البغيضة أو المضحكة . والبسطاء من الناس — الذين هم غواة الراديو الحقيقيون والذين هم فى حاجة الى الثقافة والذين ابتدءوا يصدفون عن الكتاب ليكتفون بالضوضاء ، أى أولئك الذين ابسط هنا قضيتهم وأدافع عن مصالحهم — هؤلاء لايحفلون باختيار مايسمعون ، اذ يفتحون « الحنفية » (الصنبور) ويأخذون فى الشرب على بركة الله . فيعبون كل شىء « أخلاطا » من موسيقى « فاجنر » الى « جاز » الى محاضرة فى السياسة الى اعلانات تجارية الى دقات الساعة الى نمرة فى صالة الى موجات طفيلية الى مواء الموجات الشاردة .

واقول — او على الاصح اعيد — أن نظام الثقافة الذى يستحيل فيه التفكير والاختيار انما هو فى الحقيقة تقويض لما كان يسمى حتى اليوم « ثقافة » .

— ٤ —

من بين الاقتراحات التى عرضت على لجنة الاذاعة اقتراح استرعى نظرى بنوع خاص ، وذلك لا لشىء فى طبيعته ، بل للضياء المفاجىء الذى يلقيه تحقيقه على نفس المشكلة التى عرضنا لها .

فلقد رؤى انه قد يكون من الخير أن تعلن البرامج مقدما كما

---

(١) يقرأ ويتقرى ترجمة للفظين élire , Lire وهذان اللفظان فى اللغة الفرنسية من أصل اشتقاقى واحد ، ولكن معنى اللفظ الاول هو « يقرأ » ومعنى اللفظ الثانى « يختار » وقد حاولنا أن نحتفظ بالجناس باستخدام اللفظين العربيين «يقرأ» «ويتقرى» موضحين المعنى بالبدل « اى يختار » .

(٢) خير واختيار ترجمة للفظى election et dilection ومعنى اللفظ الاول dilection (المتعة) واللفظ الثانى « الاختيار » وكلمة خير قريبة جدا من المعنى ، ولذلك آثرناها لنحافظ على الجناس .

يفعلون فى السينما ، وأن يلفت نظر السامع الى بعض أجزاء من تلك البرامج ، وبذلك نعينه على الاختيار ، وهذه فكرة لا باس بها . ومن رأى أصحاب الاقتراح أن يحلوا تلك الاعـــلانات بالموسيقى ليكسبوها طلاوة فتكون الموسيقى عندئذ زينة : صورا وعينات وتعليقات وأمثلة تضرب .

ولقد سمحت لنفسى يومئذ أن أقاطع أثناء التجربة التى كانت تجرى للتدليل على هذا الاقتراح لأسأل عما اذا كانوا سيعزفون ليسترعوا نظر الجمهور الى حديث عن ديكارت ومقـــالة عن المنهـج ، وان عزفوا فأى موسيقى سيعزفون . وكان أن تنبه أعضـــاء اللجنة ـ وكلهم رجال حسنو الادراك ـ الى مافى الاقتراح من صعوبات ، وطلبوا ان يبحث عن محاولات اخرى .

وأنا ـ بلا ريب ـ لست ممن يعشقون الراديو بنوع خاص، ومع ذلك أرى فى هذه الطرق البهلوانية أمارة واضحة على مرض يقلق اليوم عالمنا بأسره ، وهو مايجب أن نسميه بمرض الخلط فهاهى ملكة القول تعلن عجزها اذ ترى آن ذلك القول البشرى الذى هو رسـول النفس واداة الاتصال بين العقول المتحدة الثقافة اتصالا مباشرا سريعا نيرا لم يعد كافيا ، وأننا قد أصبحنا مضطرين اذا أردنا أن ننصح انســانا بأن يستمع الى أشعار جميلة أو آن يذهب لمشاهدة معرض صور الى ان نصحب قولنا بموسيقى موحية مغرية تكاد تكون كالاعلانات التجارية

وأنا احب الموسيقى وادافع عنها فى كل المناسبات ضد التجـــار والقوادين والمدنسين ، ولكنى أعتقد أنه من الاجرام أن تمتطى الموسيقى الى كل غاية . ونحن الآن فى سبيل النزول بها الى مستوى الضوضاء والنتاج الثانوى والفضلات ، بل نحن فى سبيل الانحطاط بالموسيقى مع القول وتحقير القول مع الموسيقى ، وهذا التبذير ليس كرما ، وهذا الخلط ليس الثراء .

ومنـــذ اليوم ترى عادات قد قبلت وتأصلت ، فالجمهـــور فى السينما بحاجة الى ضوضاء أى ضوضاء لكى يرى صورا متحـركة ، جميلة ، وسينتهى الامر بمن يستمعون لحديث الى المطالبة دائما وفى كل مناسبة بمصاحبة الموسيقى للحديث . وهـكذا ترانا نسـير الى الخلط والتبديد والفوضى ، وبذا سنفقد الشعور بما هو اساسى .

وهم يحدثوننا عن الزينة .. وأنا لست عدوا مطرد العـــداوة للزينة . ولكنى أمقت كل متنافر لا فائدة فيه ولا ضرورة له .

وهم يحدثوننا عن تعدد الالحان (١) فيقولون ان اذكاء الحديث

---

(١) Contrepoint.

يستطيع أن يدرك — في تعقدها — عدة أفكار يقوم بعضها فوق بعض ويؤثر بعضها في بعض ، ولكن أليست هذه سفسطة خالصة ؟ فما نسميه في الموسيقى تعدد الالحان ليس الا أصواتا من نوع واحد تصدر عن فكرة واحدة ، واذن فلا يجوز أن نغالط باساءة استعمال تلك الالفاظ الضخمة . وانه لمن العبث المزرى القاتل لذكاء البشر الا نستطيع قول شيء عن اسبانيا دون أن نعزف من وراء حجاب بعض نغمات من كرمن (١) .

فليحذر بناة عالم المستقبل . فانهم يولدون حاجات جديدة ، وفي هذا الحذر كل منطق وخلق وجمال . ليحذروا الخلط والمزايدات، والا فلن تطلب اليهم بعض أفكار واضحة ، بل ألوان من « الطبخ » تزداد تعقيدا يوما بعد يوم . وبنفسي — اذ أقول ذلك — مايشبه حلما بالجريدة الناطقة الموسيقية الملطفة الغذائية المعطرة ، ولربما سمعنا قبل مضي عشر سنوات اذاعة لتراجيديا لراسين مثلا تصاحبها جوقة موسيقية ومدفع رشاش وصفارة انذار ، بل وعلاوة على ذلك نوع خاص من « الحلوى » للمضغ ثم روائح عطرية تنشرها بخارا أنابيب تجرى في المنازل . وستقوم بكل ذلك طبعا محطات اذاعة الدولة ، اذ لن يكون عندئذ للمحطات الخاصة وجود . وفي برنامج ساحر كهذا مايرضي المرهفين المعقدين ، اذ سيجدون فيه كل ماوعد المترفون من النعيم .

منذ ايام صرح لي صديق أرى فيه رجلا موهوبا أنه عندما يريد ان يعمل — وعمله ليس الأدب — لم يعد له بد من الراديو ، اذ أن في دندنة « صندوق الضوضاء » مايجعله — على حد قوله — في حالة من الانشراح تساعد على تفجر الافكار ، ولكنى مضطر الى ألا أرى هنا حالة نفس موسيقية بمعنى الكلمة . اذ أن للفكر ايقاعه الخاص ، وهذا الايقاع اما أن يقاوم كل ايقاع خارجي وفي هذا ضياع من نشاطه ، وأما أن يخضع لكل ضغط وفي هذا حط له واسترقاق مزعج .

---

(١) Carmen اوبرا كوميك مثلت سنة (١٨٧٥) لبيزيه Bizet الفرنسي والقصة مأخوذة من رواية كرمن للروائي مريميه Mérimée وموضوعها يتلخص في ان دون جوزيه Don José الجندى الاسبانى يهرب من الجيش ويعمل كمهرب للبضائع على الحدود الاسبانية ، ولكن الامر ينتهى به الى قتل عشيقته كرمن التى تركته لحبها رجلا آخر من مصارعى الثيران ، ولهذه الرواية الموسيقية نجاح كبير في أوروبا كلها، وذلك لقوة تأثيرها وايحائها وتلوينها . ولما كانت هذه القصة أسبانية بشخصياتها وما فيهم من عنف وحسية ثم بموسيقاها الحارة فقد اختارها ديهامل مثلا لتسخيف الرأى القائل بأنه لابد من موسيقى لكسب انتباه الناس ، لموسيقى كارمن عندما يتكلم أحد عن أسبانيا .... و .... الخ .

ولقد سمعت أحـد من يلاحظون الحـالات النفسـية الحـديثة ملاحظة دقيقة يقول أمامي : ان قارىء الجرائد المعاصر لم تعد بهحاجة الى طى أوراق الجريدة ونشرها ليبحث عن بقية المقـالات التى تجزا وفقا للطريقة الحديثة الى عدة أجزاء ، وذلك لمـا يلوح من أن القارىء المتمرن حقا يقرا كل شيء « على بعضه » وبدون انقطاع ، وهو معذلك لا يضل أبدا فى شيء . ولكنى فى الحقيقة أشك فى ذلك . ولو صدقت هذه الملاحظة لكان معناها أن الداء قد استفحل وان الخلط قد استحكم

وملكة التركيب لاشك ملكة طيبة ، ولكن على شرط ان تتنـاول عناصر يمكن أن يجتمع بعضها الى بعض وأن تـكون وحدة ، ورجل الجماهير اليوم يتغذى ماديا وروحيا بعدد لا حصر له من الفتات الذى لا يؤلف على أى وجه نظاما للغذاء ، وهذه الطريقة ــ التى ليست من النظام فى شيء ــ هى انكار للثقافة انكارا تاما .

كنت أزور فى العام الماضى أحد مصانع التعـدين بأقصى شـمال فرنسا ، واذا بالمهندس الذى كان يقودنى فى المصنع يلتفت اثناء الطريق الى رجل على أبواب الشيخوخة من رؤساء العمال ويقول له فى نغمة ودية « هه ! الراديو كويس » (١) فأجاب رجلنا : « آه . نعم ياحضرة المهندس . بمجـرد عودتى فى السـاعة السـادسة أدير الزر فيمشى الراديو حتى الساعة الحـادية عشرة » ثم هممنا بالسير واذا بالمهندس يعود الى السؤال « قل لى ماذا كنت تفعل من قبل عندما لم يـكن عندك راديو » فطأطأ الرجل راسه وبدت عليه الحيرة ، وأخيرا تمتم بالجواب خلال شعر شاربه الرمادى « قبل الراديو .. آه .. قبـل الراديو .. والله ما أنا فاكر »

ولهذا الحوار المتناهى فى البساطة اهمـة كبيرة ، فهو يدل على ان الراديو قد حل عند كثير من الناس محل الحياة الداخلية . ومن‌ثم كانت مشكلة الساعة هى : هل ندخل الخلط فى تلك الحياة أم ندخل النظام .

---

(١) ترجمنا هذا الحديث بألفاظ عامية او شبه عامية ، وذلك لان الاصل مكتوب بلغة فرنسية عامية او شبه عامية ، ولست ارى موجبا لافساد نغمة هذا الحوار الاليفة باستعمال الفاظ عربية ضخمة قد يفهمها القارىء ولكنها لن تنشر فى نفسـه الاحساس بنغمات الحوار كما كتبه المؤلف ، ومن واجب المترجم ان ينقل المعنى والاحساس كلما وجد سبيلا الى ذلك .

نحن فى اسينما فى مدينة صغيرة من مدن الريف . الجمهور نائم ، والبرنامج ممل ، والقطعة الأساسية فيه شبه فلم تاريخى . بطله مهدد بمؤامرة ، فنرى المتآمرين والقتلة ، كما نلمح الخناجر ، وتنجح المؤامرة فنرى القتـــل ، وفى الحقيقة انهم لم يخفوا عنا شيئا ، فها هو الدم وهاهى الدموع ، ولقد سمعنا طبعا الصياح مادام الفلم حديثـــا اى ناطقا بل وناجحا . والبطل سيموت ولذا أرونا الجرح ولم يكن هـذا كل ما رأينا ، فهاهو وجه الميت ، وهاهى تقلصات الاحتضار مكبرة نراها مواجهة وعن جنب ، ثم نمر على أوجه القتلة ، فنرى تفصيلات مروعة ، تفصيلات مسرفة اسرافا لا حد له . وضربة الخنجر القاضية قـد مثلت عن شـــمال وعن يمين ومن شرفات مطلة ، ثم فى مواجهة الضوء وفى محاذاته ، وبالجملة لم يدخروا وسعا ليولدوا فينا «الهزة»

وجمهور المدينة الصغيرة لا يعرف الهزة ، فهو يشـــاهد هـذه المناظر المسرفة دون أن يحس شيئا ، وهو ينتظر لكى يتأثر صورا اشد وقعا ، كمنظر آكلى لحوم البشر مثلا ، أو منظر نساء عاريات . وان يكن من الممكن كل الامكان الا يكون منتظرا شيئا على الاطلاق ، وأما أنا وقد أتيحت لى فرصة احلم فيها فقد أخذت اتسلى بأن أذرع الطريق الذى قطعناه منذ التراجيديا الكلاسيكية .

هل صحيح مايقال فى كتب المدارس من أن الذوق الحيى هو الذى دفع كبار مؤلفى التراجيديا عندنا الى حرصهم الدائم على ان يجنبونا منـــــاظر أراقة الدماء ؟ الأصح من ذلك هو أن هؤلاء الفنانين البارعين كانوا يعلمون انه ليس أقدر من الكلام على اثارة الانفعـــال . والتراجيديا على العكس من السينما ، لا تكاد ترينا شيئا ، فبمجرد أن تسرع الحوادث وتتهيأ المأساة للحدوث ــ وقد بلغت الشخصـــيات أقصى حدود الانفعال حتى لتكاد تهم بالعمل ــ نرى رسولا أو أمين أسرار او شخصا ممن حضروا المأساة أو اشتركوا فيها ، يدخل وقد ذهب بلبه ما رأى أو علم ، ثم تنفرج شفتاه ويقص .

لقد كان على عربة ... (١)

ولا يظنن أحـد أن وسائل الاخراج فى المسرح لعهد راسين كانت عاجزة من آن ترينا رجلا على عربة ، فلقد كانت تلك الوسائل غنية فى بذخ ، قادرة فى مهارة . والشاعر لم يرنا بالفعل منظر موت هيبوليت

---

(١) الاشارة هنا الى منظر شهير في رواية فدر Phèdre لراسين . وذلك ان فدر كانت تحب ابن زوجها هيبوليت Hyppolyte حبا اليما ، ولكنهالم تبح له بهذاالحب=

لانه كان يعلم حق العلم ان أى منظر لايمكن أن يصل الى مثل مايصل اليه الخيال فى عمله المدهش عندما يحركه قصص جميل مؤثر .

لقد لاقيت أثناء الحرب رجلا فى منتهى القسوة جافى القلب. كان طبيبا ، وكان يلوح أن مناظر البؤس والآلام والجراح لم تعد تؤثر فيه، وكان يحتفظ فى أداء واجبه المخيف ببرود أرستقراطى تلونه السخرية فى بعض الاحيان ، ولكن حدث يوما أن دخلت على هذا الرجل فدهشت اذ وجدته وقد أغرقت الدموع وجهه وهو يقرأ كتابا عن الحرب ـ كتابا يقص عليه نفس ماكان يرى كل يوم وكل دقيقة ، ولو أننى كنت اجهل قدرة الالفاظ لاستطعت أن ادركها فى تلك الساعة .

ولرب قائل يقول « ولكن اليست وظيفة السينما أن ترينـــا الاحداث ؟ ولو أنها أمسكت عن أن تعرض الأفعال والأشياء اذن لتخلت عن ميزتها الانسانية وأصبحت مهددة بالفناء ؟ »

لسنت ادرى . ولست أرى هذا الراى ، فقد يتفق ان يتسكرم

ـ إلا عندما سارت الاشاعات بأن زوجها تيزيه Thésée والد هيبوليت قد مات فى مباحة كان يقوم بها ، ورفض هيبوليت أن يستمع لهذا الحب لما ليه من الم ، ولانه كان يحب ارسيه Aricie أحدى اميرات آلينا ، واخيرا ظهر ان هذه الاشاعات لااساس لها ، وعاد تيزيه فاستشعرت فيدر عندئذ ندما مرا واجتمع الندم الى جرح كبريائهـا من رفض هيبوليت لحبها واخلاصه الى أرسيه فتوارت من الانظار . واتهمت مربيتها اينون Oenone هيبوليت لدى أبيه بأنه قد جرؤ ان يتطلع الى الملكة (فدر) فهـاجت ثائرة تيزيه ، واستنزل على ولده لعنة نبتين Neptune اله البحر . وفيمـا كان هيبوليت يسير بمربته الى شاطىء البحر ظهر له الاله وحمل الخيل على ان تجفل . وقد افلتت من يد هيبوليت زمامها واخذت الخيل تعدو بجنون حتى مزقت اوصال الشاب . وهنا يقع الفصل الذى يشير اليه ديهامل ، فقد جاء تيرامين Théraméne صديق هيبوليت يقص على تيزيه نبأ المأساة . وما ان علمت فدر بما كان حتى تناولت السم واعترفت بغدرها وماتت على المسرح .

ومن ثم يرى القارىء أن راسين لم يعرض على الجمهور منظر موت هيبوليت ، بل قصه على لسان رسول . وعند ديهامل أن الوصف ابلغ تأثيرا من المشاهدة .

ونحن نلاحظ أن الوصف قد يكون كذلك ، ولكن لدى المثقفين والروائيين الادباء أمثال ديهامل ، وأما عامة الشعب المحدودو الخيال العاديو الحس الادبى فأكبر الظن ان مناظر السينما تبلغ فى نفوسهم مالايكاد يبلغه القصص .

ثم اننا نرى فدر فى نفس الرواية تموت على المسرح . واذن فراسين نفسه لم يكن يرى دائما أن الوصف أبلغ من المشاهدة ، وانما هو تدرج فى التاثير ومراعاة لضرورة التنوع وفى غير راسين بل وفى راسين نفسه فى رواياته الاخرى مناظر كثيرة يراها الجمهور بعينى راسه لا باذنيه .

ولعل فى ملاحظتنا هذه مايعطى اقوال ديهامل كل قيمتها بأن يحدد ما فيها من تعميم نخشى أن يكون الكاتب قد سبق اليه ناظرا الى نفسه هو ومسترسلا مع حجاجه .

صديق فيقص على فلما أعجبه ، واذا باهتمامى يستيقظ لان هذا الصديق ممن يجيدون القصص حتى لقد يبلغ بى الامر احيانا ان اذهب لأشاهد ذلك الفلم ، ولكنى أكاد أعود دائما من مشاهدته خائب الأمل خيبة قاسية . فقصص الصديق قد جعلنى أحلم ، وأما الفلم فقد جعلنى أنام .

عندما رأينا السينما — التى لم تكن تقدم الينا غير الصور — تضم اليها الكلام ، ظننا انها ربما سمت بذلك وأصبحت انسانية ، ولكن التجارب التى رأيناها حتى اليوم تكاد تكون خائبة ، فحديث كبار الشعراء يذوى ويموت عندما يمر بتلك الآلات . وأما الافلام التى يؤلفها المختصون المحدثون فالكلام فيها بمثابة البطاقات ، فهو يحل محل العناوين ، وهو أقل من العناوين قابلية لان يصبح دوليا ، وهكذا نرى أن الاشكال لا حل له .

نعم لا حل له . ولو قال قائل ان مثل التراجيديا لا يصدق على السينما لما وجدت فى ذلك مايقنعنى ، فالسينما تعرض الرواية ، ومهمة كل رواية هى أن تستثير اهتمامنا ، وأن تؤثر فينا ، وتبعثنا على الانفعال ، فنبكى أو نضحك . والفن الروائى قد مضى عليه أكثر من عشرين قرنا بحيث لايخلو من مجازفة خطرة أن نحتقر الدرس الذى يتمخض عنه تاريخ على هذا النحو من الخصوبة والغنى والمجد .

— ٦ —

ليس لمن يجازف فى أيامنا هذه — فينتقد الحضارة كما خلقتها الصناعة — أن تأخذه الدهشة اذا لقى فى تلك المعركة خصوما ورقباء ومن الواجب أن نعرف اولا ماذا نريد ، ثم الى أى شىء نتعرض .

فعندما أستمع الى من يعيبوننى بأننى من رجال القرون الماضية ، وأننى لا أفهم شيئا فى العلم ولا فى التقدم ، وأننى رجل ينتحب فى غير موجب للانتحاب ، وبالجملة بأننى أحيا حياة الكائنات العضوية المتحجرة اللافقرية ، فاننى لا انفعل لذلك انفعالا كبيرا ، وبودى — لو أننى وجدت فراغا من الوقت — أن أظهر أو أشرح لمعارضى كيف أننى أملك ثقافة علمية محترمة ، وأننى مرح المزاج ، وأننى أعيش محاطا بشبيبة حية كثيرة العدد ، وأننى أتمتع فى اعتدال بكل ما أهدى الينا التقدم ، وبالجملة اننى لازلت أتحرك واننى « فقرى » .

ولكن ثمة انتقادات اخرى أحس بوقعها ، فمنذ زمن قريب عمد جان رتشـــــارد بلوك Jean Richard Block الى تلك المناقشة فى مقال حار كله اخلاص (١) وجان رتشارد بلوك أستاذ قدير فى الجدل: واللون السياسى الذى يسبغه على كل مايكتب ــ وبخـــاصة فى الايام الاخيرة ــ لايسـلبه فى رأيى ما يملك من قوة وتأثير . فلننصت اذن لخطيبنا يقول « ان الراديو من العوامل الاساسية التى أحدثت تغييرات عميقة فى جو الشعر الذى يجب على الكاتب ان يلابسه اذا أراد أن يظل وفيا لرسالته » (٢) .

وبالرغم منى ألقيت السمع . فها أنا قد أحطت دفعة واحدة بما ألفت من جو . أنصت اذن وسمعت مايأتى « آلان » (٣) و « فاليرى »(٤) و « ديهامل » لايرون أن النفس البشرية قادرة على أن تساير خطى الحياة الحديثة مسايرة موفقة . فهم عندما يقدرون الثمـــار الرائعة التى استطاعت الروح أن تجنيها بفضل ما وصلت اليه الآلية من نتائج

---

(١) « نحن في بدء كل شيء » « اوروبا » ١٥ مايو سنة ١٩٣٦ . (المؤلف)

(٢) يريد : أن الشعر قد اصبح بفضل الراديو شعبيا فعلى الشعراء ان يصبحوا هم ايضا شعبيين .

(٣) الآن Alain اسم مستعار للفيلسوف الفرنسي Emile-Auguste Chartier ولد في مورتين Mortagne سنة ١٨٦٨ احد تلاميذ مدرسة المعلمين بباريس واستاذ بليسيه هنرى الرابع بنفس المدينة . وقد اشترك في تحرير جرائد حزب الراديكال وخصوصا جرائد المديريات ، وله عدة خواطر جمعها في مجلدين بعنوان « خواطر آلان » كما له « خواطر في عالم الجمال » « وخواطر عن المسيحية » ، وله كتاب « عناصر المذهب راديكالى » وغيرها كثير ، وهو رجل أخلاقى نافذ البصيرة لبق العبارة خاطفها ، ولكنه لايخلو من غموض واسراف واتجاهه العام نحو الفلسفة العملية البعيدة عن مغامرات النظر الفلسفى .

(٤) Paul Valéry هو الشاعر الناثر الناقد الفرنسي الذائع الصيت . ولد في ست Sete سنة ١٨٧١ ودرس الحقوق بمونبلييه ونشر بها بعض القصائد ، ثم اتى الى باريس سنة ١٨٩٢ حيث ابتدأ بنشر كتب نثرية أهمها « ليلة مع المسيو تست Une soirée avec Mr. Teste ١٨٩٥ وفيه يصف رجلا لايعيش الا لتفكيره . ثم صمت زمنا طويلا حاول أن يشتغل اثناءه ببعض الاعمال الادارية وأخيرا التحق بوكالة هافاس ثم عاد الى الشعر سنة ١٩١٧ . وقد ظهرت مجموعات شعره كاملة عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٠ وهو يجمع في فنه الشعرى بين الكلاسيكية والرمزية ، وعنده ان الشعر صبر وكفاح ، فهو لايرتجل بل لابد لاجادته من مران عقلى طويل . ولهذا كان شعره مركزا فنيا عميق الصور مليئا بالضياء والاسرار . وله من النثر عدة كتب هامة موحية غنية بمعانيها وجمال اسلوبها ، من خيرها « متفرقات » Variétés سنة ١٩١٩ و « الروح والرقص » (١٩٢٤) و « نظرات فى العالم الحديث » (١٩٣١) . وقد انتخب سنة ١٩٢٥ عضوا فى المجمع اللغوى الفرنسي .

قليلة خلال مئات القرون الماضية — يرون بوضوح ماذا ستفقد تلك الروح بهذا الاثراء الحديث فيزداد سوء ظنهم بما ستكسب » .

وهنا بلا ريب قد وجه الى الحديث لا الى وحدى بل مع غيرى ، وانا لا أكره صحبة الذين وضعت معهم .

ثم أن « جان ريشارد بلوك (١) » شرح لنا فى فصاحة جميلة كيف انه من الواضح ألا يستسلم امثالى فى غير تحفظ لتلك المعجزاتالحديثة التى كان من أثرها ان نمت معرفة الجماهير بعيون المؤلفات ، وذلك لان جان ريشارد بلوك يرى انه قد كان من سوء الطالع اننا بدلا من ان نغتبط بتزايد عدد السامعين — هذا التزايد المفاجىء — قد حرنا فى أمرنا اذ اخذنا نخشى على الفن من هذا الجو ، جو الاجتماعات العامة، ثم لاننا — وهذه مسألة أخطر من السابقة — لانستطيع أن نخفيحذرنا الغريزى من « أولئك الملايين من صغار الناس المجهولين المغمورين » .

أبدا — يا عزيزى جان ريتشارد — لقد ضللت الطريق ، وفصاحتك الكريمة ليست كريمة مع الجميع .

واذا كنت قد أجدت الفهم يكون معنى هذا أننى ومن على رأيى قوم أثرون يريدون ان يحتفظوا لأنفسهم بالسمفونية الخامسة (٢) .

---

(١) جان ريتشارد بلوك صديق للزعيم الاشتراكى الاسرائيلى الشهير « بلوم » وهو احد اقطاب الحزب الاشتراكى بفرنسا ، ولذلك فهو خصم لامثال فاليرى وديهامل والآن من المحافظين وهو لذلك يرى في حملتهم على الراديو رغبة دفينة في نفوسهم تسعى الى حجز الثقافة عن الجماهير ، تلك الثقافة التى ستساعد في رأى الاشتراكيين على دفع نفوس الشعب الى التحرر من كل سيطرة تفرضها أرستقراطية المال أو الفكر أو غيرهما ، ولهذا يرى بلوك انه على الشعراء الارستقراطيي النزعة الادبية أن ينزلوا بشعرهم الى مستوى الشعب ان ارادوا المحافظة على أداء رسالتهم ، كما يرى أن مصدر كره هؤلاء الادباء للراديو هو خوفهم من ان ينشر الثقافة فتثرى النفوس اثراء يفقدها مافيها من خضوع وجهل ويكسبها المعرفة والتحرر على نحو ماتحرر الانسان الفطرى منذ مئاتالقرون من سيطرة الطبيعة بفضل ما اكتشف من آلات مهما تكن بسيطة ، فانها قد وضعت بين يديه من القوة ما استعان به على تحرير نفسه ، ولهذا يسيء بها الظن — في رأى بلوك — ديهامل وصحبه من المحافظين ، ومصدر غموض قول بلوك هو من جهة ما في طبع الاسرائيليين من ميل الى التجريد ، ومن جهة أخرى رغبته في المداراة السياسية الوخازة اذ أن هذا المقال قد كتب أيام احتدام الخصومة بين الاشتراكيين والشيوعيين الذين ألفوا في ذلك العام «الجبهة الشعبية» ولايخفى مافي رد ديهامل من سخرية لاذعة تنم عن انفعالسياسي وشخصي قويين .

(٢) السمفونية الخامسة هى لبتهوفن ويظهر ما في اختيار هذين المثلين منسخرية اذا عرفنا أن السمفونية الخامسة هى أشهر ما يعرف الشعب من سمفونيات بتهوفن ، وليس ذلك لانها واضحة التفوق على ما عداها بل لسهولة فهمها فيما يظهر من غيرها ولقربها — الى حد ما — من عبقرية الشعب الفرنسي الأميل الى الوضوح والبعيدة عن غموض العبقرية الالمانية ، وشعر رمبو كذلك يعرفه معظم أفراد الشعب .

ويشعر ارتير رامبر (Arthur Rimbaud) (١) وما الى ذلك من كنوز . اذ أن مجرد تصورنا لامكان مشـاطرة جمهور من النفوس الحـارة للذاتنا الفنية كفيل بأن يذهب من نفوسنا كل شهية .. الخ . وأنا أعرف جيدا مثل هذه التهمة التى قد تكون قاتلة فى بعض الأحيان (٢) ـ وهى مايمكن ان نسميها تهمة الارستقراطية

وما اريد أن أرد هنا عن المتهمين معى وانما أرد عن نفسى فقط .

ولننح فى بادىء الأمـر كل ما يتعلق بطبيعـة ووظيفة وضرورة المتازين من الناس فأرستقراطية العقل والمعرفة والقلب موجودة ، وهى فى نظرى الارستقراطية الوحيدة ، كما أنها جوهر وحياة كل مجتمع سليم البناء ، ولا داعى للاطالة فى هذا .

والوظيفة الحقيقية لتلك الارستقراطية هـي ـ دون أن تتخلى عن مميزاتها ولا أقول امتيازاتها ـ أن تثقف الجماهير بطريق مباشر وغير

---

(١) Arthur Rimpaud عر فرنسي ولد في شارلفل Charleville سنة ١٨٥٤ ومات في مرسيليا سنة ١٨٦١ . كان طفلا مكبا على العمل ثم يالعا شرسا متقلب النفس ، ذهب الى باريس سنة ١٨٧١ ، وفي سن السابعة عشرة كان قد كتب « نالم السهل » Dormeur du Yal ، ثم قصيدته الشهيرة « زورق «Bateau ivre» ، وفي سنة ١٨٧٢ ذهب الى لندن وبلجيكا مع الشاعر فرلين Yerlaine . وفي بلجيكا اصابت فرلين ازمة نفسية حادة اطلق في خلالها رصاصتين على رمبو وسجن فرلين . وفي هذه السنة كتب رمبو « موسم في جهنم » Une Saison en enfer عبارة عن تاريخ حياته النفسية ، وبعد التاسعة عشرة من عمره لم يكتب شيئا ، واخذ يجول في بلاد العالم من جزر السند La Sonde الى مصر ثم الحبشة حيث اقام في هرر يتاجر في العاج ، وقد كون ثروة بصناعة الذخيرة للامبراطور منليك . وفي اثناء رحلته بفرنسا سنة ١٨٩٠ سقط وقطعت ساقه ومات بالمستشفى ، وفي سنة ١٨٨٦ كان فرلين قد نشر له « الاشراقيات » Illuminations وهى مجموعة من الشعر والنثر . وفي شعر رمبو مقابلات دقيقة بين الالوان والانغام وكل معطيات الحواس فهو ممن مهدوا السبيل للرمزية ، وقد اثر في فرلين ومن اتى بعد فرلين من الشـعراء تأثيرا عميقا بالغا ، ومعظم الشـعب الفرنسي يقرؤه اليوم بشغف واقبال، فهو شاعر شعبى حتى لكأنه بين الشعراء عند الشعب الفرنسي كالسمفونية الخامسة بين سمفونيات بتهوفن ، فامثلة ديهامل لم يخترها مصادفة وما نظن أن كلمة واحدة من كلام ديهامل تأتى مصادفة فهو كاتب دقيق يقظ الفكر صبور على علاج الموضوع وعلاج الاسلوب .

(٢) كتب ديهامل كتابه هذا في ايام « الجبهة الشعبية » اذ فازت احزاب الشمال بالاغلبية وتولت الحكم لاول مرة في تاريخ الجمهورية الفرنسية حكومة اشتراكية برئاسة المسيو بلوم ، وكانت حملات الاشتراكيين على احزاب اليمين قوية عنيفة بحيث اصبح من الخطر ان يتهم فرد آخر بالارستقراطية ، ولقد رأيت بنفسي الشبان الاشتراكيين يصيحون في سنة ١٩٣٦ ، سنة ١٩٣٧ بسقوط « المائة اسرة » التى كان الشعب يتهمها بامتلاك كل الثروة القومية ، وهذه الحالة تفسر قول ديهامل (تهمة الارستقراطية التى قد تكون قاتلة في بعض الاحيان) .

مباشر ، وأن تصل اليها وتقنعها وتستهويها ـ بأنبل معاني الكلمة ـ لكي تحسن قيادتها والممتازون من الناس يملكون لذلك عدة وسائل بل عدة مناهج ، فهم يستطيعون أن يعملوا بضرب المثل وبالكلام وبالكتابة؛ وهاهو عصرنا الحديث يضيف الى ذلك السينما والراديو ، وكل الوسائل يمكن أن تكون طيبة ، اذ العبرة بالغاية التى ترمى اليها ، فاذا كنا نريد لملايين من المجهولين ثقافة أساسية فانى أقول وأكرر ـ وسأكرر دائما ـ ان الكتابة والكتاب بوجه خاص تحقق ذلك على نحو أضمن ممـــا تستطيعه كل السبل الأخرى مجتمعة ، ولقد سبق أن قدمت براهينى على ذلك ولن أعود اليها .

عندما يتهمنى « جان رتشارد بلوك » أنا وأمثالى ـ أو على الأصح أنا ومن فى حالتى (١) ـ بأننا نحتقر أولئك الملايين من صغار الناس « المجهولين المغمورين » فانه حقيقة يدفعنى الى الابتسام ، فأنا أكتب لأولئك الصغار من الناس الذين خرجت من بين صفوفهم ، ومن أجلهم وأجل غيرهم ارسلت فى أنحاء العالم عدة من الرسائل المطبوعة ، وكلما زاد عدد من يستمع الى ازددت رضا وكبرياء .

وهم يعلمون جيدا ويحسون جيدا ـ أو على الأقل يعلم ويحس منهم أولئك الذين لم يعموا بعد ابصارهم ويضلوا أفكارهم ويفسدوا نفوسهم ـ أنه لو وجدت وسيلة ـ اعنى وسيلة معقولة نبيلة ـ لجعل حياتهم اجمل وأسعد واعدل جزاء لطالبت من كل قلبى بتطبيقها ، ولبذلت كل جهدى لأساعد النفوس الخيرة التى تسعى لتكوين مجتمع اقل بربرية .

واذ كنت الآن فى الثانية والخمسين من عمرى ـ اى ان الجانب الأكبر من حياتى قد انقضى ـ فأنا اقدم نصيحة طيبة . وســـيقاتل أولادى كما قاتلت (٢) . فأنا أواجه المستقبل بنفس خلية ، وأعلم أننى اقول « احذروا الراديو اذا أردتم أن تثقفوا أنفسكم » .

وليس فى قولى هذا اثرة ما ، فهو منهجى الخاص أوصى به ، ثم اننى بعملى هذا أسلح الجماهير ضد ألد أعدائها وأعنى به «الطابعية» (٣) .

---

(١) أظن أن الكاتب يشير الى حالته كمحافظ يميل الى أحزاب اليمين الارستقراطية النزعة .

(٢) اشارة الى اشتراك الكاتب في الحرب العظمى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) دفاعا عن وطنه وأولاده أيضا سيدافعون عن فرنسا اذا دعت الحالة فهو اذن رجل لا يمكن ان يتهم في وطنيته او محبته لاهل وطنه ، ومن ثم فنصائحه غير متهمة .

(٣) نترجم بهذا اللفظ كلمة Conformisme التى يقصدون بها ان يكون الناس كلهم على طابع واحد فهى على هذا المعنى ضد الفردية Individualisne

الكتاب صديق الوحدة ، فهو يغذى الفردية المحررة ، فالرجل الذى يبحث عن نفسه فى قراءة يخلو اليها قد يعثر بها ، واذن فهو يختار نفسه فيفلت من القوى التى تحاول أن تطويه تحت مذهب ما ، والراديو على العكس من ذلك قد أصبح منذ الآن أداة لروح السيطرة ، فهو لايطهر الانسان ولا يصرفه كالكتاب الى الوحدة المقدسة ، بل يسلمه الى الوحش ويهيئه فى مهارة لتلقى أسرار القطيع بسلاسلها ودمائها .

ولهذا - أيها (١) الجان ريشارد بلوك - ترانى وقد انعقد عزمى على تنوير الجماهير بل وعلى خدمتها ، وبالجملة على أداء رسالتى ، أصيح بكل من يريد أن يسمع « استخدموا الراديو ولكن لا تنسوا أن تحذروه . ولتعتزلوا كل يوم لتقرءوا . ولتفكروا أن أردتم أن يجد كل منكم روحه ، وأن يقويها • روحه التى لا تشبهها روح أخرى » •

عندما أحلل ذكرياتى أستطيع أن أقدر الدور الذى يلعبه التعليم الشفوى فى تكوين النفس ، وأنا أملك ذاكرة سمعية ، الا تكن خارقة فهى فى الحق طيبة ، ومن ثم لا أزال أذكر بعض الجمل التى سمعتها من مدرسى منذ أربعين سنة . وعندما ألقى السمع فى صمت الليل يعاودنى صوت الرجل بنبراته وايقاعه ووقفاته ليسترد أنفاسه ، والذى لا اشك فيه ان ايقاع الاستاذ الخاص أفعل من مادة حديثة ، وهو يخاطب نفوسا فتية مرنة مفتحة المسام . فاذا كان قد وهب هبة الانسانية . وكان حديثه مباشرا ، وكان يحب مهنته ويصدر عن ارادة التضحية لخير الغير والنفاذ الى نفوسهم فانى واثق من قدرته . وفى جو قاعة الدرس الاليف الفة فيها من السر ما فى ألفة البيوت والاسر ، يفوه الاستاذ بأحاديث تتحد بنفوس ناشئة ، وتحيا فيها لزمن طويل ، الى أن تدق ساعة الفناء النهائى .

---

(١) ترجمة للجملة الفرنسية O Jean Richard Block وفي استخدام الكاتب لاداة النداء (O) (أيها) قصد لاذع وسخرية مرة قاسية .

فديهامل يقصد بها الى عدة أغراض : منها تحقير مناظره ، ومنها اتهامه اياه باستخدام الاسلوب الخطابى في حجاجه ، وهذا اسلوب لا يقصد منه الى الكشف عن الحقيقة وتبصير الناس بها ، بل الى تملق الجماهير واستهوائها واضلالها وحملها بوسائل بلاغية باطلة على اعتناق مايريد الكاتب او الخطيب من مذاهب . وأملى الا يفوت القارىء كل ما في هذا الفصل من سخرية حاولنا أن نحتفظ بها ما استطعنا ، وذلك مثلا في توجيه الخطاب الى مناظره باسمه الكامل (جان رتشارد بلوك) وتكرار ذلك غير مرة وفي اشارته الخفيفة الى أغراض بلوك السياسية كما أن من هذه الوسائل ما ضاع في الترجمة لعدم وجود ما يقابله في لغتنا ، واهم هذه الوسائل استعمال الضمير Tu بدلا من Vous للتحقير ، وهذا ما لا مقابل له في العربية . ومع ذلك لقد احتلنا على هذا النص بما استطعنا .

وكل تعليم لا يتوافر له هذا الانسجام التام ــ بمثول الانسان وصوته ــ يلوح عقيما لا حرارة فيه ولا تأثير ، ولكن ما يقدمه الاستاذ مباشرة من الفم الى الأذن لا يعد شيئا الى جوار ما يبصرنا بالبحث عنه فى الكتب بأنفسنا ، والاستاذ القدير هو من يدل على المصادر وعلى كيفية الاستقاء منها . هو من يغرس فى نفوس تلاميذه تذوق الكتب والتحمس لها والنزوع الى استطلاع ما بها ويظهرهم على منهج يسلكونه ليبحثوا عما يرغبون أن يجدوا •

وكثير من الأساتذة ينشرون دروسهم لا لكى يصوغوا أفكارهم صياغة نهائية فحسب ، بل أيضا ليمكنوا تلاميذهم من الاعتماد على نص يعودون اليه كلما دفعتهم الى ذلك رغبة فى الاستيعاب أو ضرورة الى المراجعة . والتلميذ الذى لا يسعده الحظ بامكان الرجوع الى نص مطبوع نراه اذا كان منظم الاجتهاد يدون أيضا نصا . وذلك بأن يكتب المذكرات ويقيد الجمل العابرة ويثبتها بالكتابة فيجدها تحت تصرفه .

ولن أمل تكرار القول بأن مصير الحضارة معلق بمصير الكتاب فى ظروف عالمنا الانسانى الراهن ، وأضيف الى ذلك أن مستقبل الكتاب متوقف الى حد بعيد جدا على انعقاد عزم أساتذة الجامعة •

ومن الخطأ ان نظن أن المسألة واضحة ومسلم بها ، فلقد بذلت فى السنين الأخيرة محاولات عديدة لادخال السينما والفوتوغراف ، بل والراديو ، فى قاعات الدرس وخصوصا فى التعليم الأولى ، واذا كان المقصود من الصور وأجهزة الأصوات التسلية باعتبارها ألعابا أو مكافآت فانى أفتح لها أبواب قلبى ، وأما اذا كانت تمثل فى نفوس المجددين وسائل جديدة للتعليم ، فانى أطلب فى الحاح أن يدرس رجال مسئولون هذه المشكلة فى هدوء وروية •

من الممكن أن يكون للصورة فى بعض الأحوال قدرة على العبارة تفوق أدق حيل التدليل العقلى ، وهى لا غنى عنها فى بعض فروع العلم ، كما أن الصور المتحركة تستطيع عند الضرورة أن تساعد الكلام على الأداء ، ولكنه لا يجوز أن تحل محله • هذا ولنا أن نعتقد أنه فى اليوم الذى تدخل فيه السينما الى دور الدرس سيزداد بطبيعة الحال الميل الى الاستعانة بها استعانة مطردة الزيادة ، ولقد يخف بذلك الحمل عن الاستاذ وهذا ما أسلم به ؛ اذ أن الفصول وخصوصا فى الجهات المكتظة بالسكان كثيرة العدد ثقيلة العبء • فمن الطبيعى أن يركن الاستاذ المنهك الى الآلات ، وأن يطالبها بالعون • ولقد يكون للسينما والفوتوغراف عندئذ من الفضل على المدرس مثل ما لآلات الانتاج على ذوى الحرف اليدوية • ولكننى ــ برغم

ما في ذلك من معنى انسانى — أرفض قبول هذا الوضع • ومؤيدو هذا المنهج — ان صنح أن نجازف باستعمال هذا اللفظ فى هذا المقام — ب السذاجة بحيث يدعون أن المعرفة التى تقدم على هذا النحو ستجد سبيلها الى النفوس فى يسر بل وفى مرح • ولكننى أعلن بكل قوة أن هذه حماقة . فالثقافة تتطلب الجهد : الجهد بأتم معانيه ، أى النار التى تصهر ، والمطرقة التى تثقف والمبرد الذى يشحذ (١) • وبغير جهد لا يتعلم انسان شيئا والنفوس لا تتكون وهى تلعب وتقفز • نعم انه لابد من اللعب والضحك ، ولكن على أن يكون ذلك مكافأة على مجهود طويل أديناه فى صبر •

فليستعن الأساتذة الحريصون على أداء رسالتهم بأجهزة الصـــوت وبالصور المتحركة فى بعض حالات نادرة فى جملتها ، ولكن ليبق الحذر يقظا فى نفوسهم فلا يتركوا الناشئة التى تحملوا هم تبعتها تعتقد أنه من الممكن أن تنشأ النفس — أى أن تبنى وتتكون دون الرجوع الى النص والكتاب والكتابة — والخطر اليوم ليس قويا الا فى التعليم وهو غير محسوس الا فيه ، ولكنه محسوس بوضوح وذلك لأن اليوم الذى سيتخلى فيــه الأساتذة — الذين هم خير أعواننا فى الدفاع عن الحضارة — عن غرس قداسة الكتب فى نفوس الأطفال ، ســـيكون يوم تهيؤ المدنية لبربرية جديدة •

- ٧ -

ليست الأزمة التى تهز العالم أزمة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية بل أزمة حضارة • فكل المشـــاكل تنهض بوجوهها المزعجة ومشكلات الثقافة هى — ويجب أن تكون — من بين أولى المشاكل التى تشغلنا • فلقد ظهرت وسائل جديدة لتعليم الشعوب وتسليتها ونقل الأخبار اليها . ولقد لاقت تلك الوسائل حظوة لدى الجماهير ، وأما عن قيمتها الحقيقية فذلك ما سيظهره المستقبل ، ولكن الذى لا يمكن انكاره منذ الآن هو

---

(١) في اللغة الفرنسية يستعملون لفظة Culture ومعناها الحرفي « الزرع » واللفظ المقابل هو « الثقافة » فهم يرون في التعليم غرسا للمعرفة في النفوس ، ونحن نقصد من لفظنا الى تثقيف العقول على نحو ما نثقف السلاح اى نقومه ونشحذه ، ولذلك قال ديهامل ما يمكن ان نترجمه حرفيا ب « الغرس يتطلب الجهد ، الجهد بأتم معانيه اى المحراث الذى يشق والفاس التى تحطم والزحافة التى تسوى » ، ولو أننا ترجمنا الجملة كما هى مع استبدال كلمة غرس بكلمتنا المتفق عليها وهى «الثقافة» ، ثم تركنا التشبيهات الاخرى المتصلة بمعنى اللفظ الاشتقاقى لجاءت الترجمة غير منسقة : ولهـــذا نقلنا التشبيهات الى مجال آخر وجعلناها متصلة بفكرة تثقيف السلاح كما جعلها الكاتب الفرنسي متصلة بفكرة الغرس .

انها قلبت كل ماألف التفكير من عادات وأحداث • والذى أومن به هو أن هذه الوسائل الجديدة للأخبار والتسلية و ••• التعليم ــ ان أردنا ــ يجب ان ينظر فيها نظرة فاحصــــة ناقدة مدققة ، وهذا ما أنا بسبيل تكراره بالحاح • ومن الواجب أن نحسب منذ الآن حسابا لما أحدثت تلك الثورة الحديثة من آثار • فالنص المكتوب لم يعد رسول الروح الوحيد ، والكتاب قد هدد سلطانه ، وانه لمن الممكن أن يصبح قبل نصف قرن عديم الأهمية فى نظر الجمـــــاهير ، وأن لا يحتفظ باستعماله الا نفر قليل جدا من الممتازين •

لقد حدثنى أندريه روسو (١) André Rousseaux يوما بأن قراءة المؤلفين الممتازين فى الراديو ــ وهم الآن يقرأون بعضا منهم ــ قد تدفع الجمهور الى معاشرة الكتب ، وهذا ما أرجوه ، وان كنت لا أتمناه ؛ اذ لا ينبغى أن نسرف فى توجيه الانســــان نحو أقل الجهود ، ولكى ننتهى من هذه المناقشة ونعود الى موضوعنا دعنا نقل بأن القراءة لحسن الحظ لم تمت بعد ، ولننظر فيها من حيث اتجاهاتها وحاجاتها وطرق ممارستها العادية •

فالرجل السليم التكوين العادى التعليم فى حاجة الى أن يقرأ قدر حاجته الى أن يستنشق أو يشرب ؛ والظمأ الى القراءة من القوة والاطراد بحيث نراه يطفأ باستمرار وبطريقة شبه آلية • فعلى نحو ما نرى الطائر طوال النهار يلتقط بمنقاره حشرة أو دودة أو حصاة أو برعوما أو فتاتا من خبز ، كذلك نرى أعيننا تبحث بغريزتهـــا عن الحروف المكتوبة فى مشاهد العالم • وتلك القراءة ــ آلية ــ وهذا ــ بعـــد لفظ خطر كثير الجريان على ألسنة أطفال القرن العشرين • وكثرة استعماله تدل على ظاهرة تستحق أن تسجل •

والواقع أنه يجب أن يكون هناك لفظان للتعبير عن القراءة على نحو ما نملك لفظين مختلفين للسمع والفهم ، والنظر والرؤية (١) .د

---

(١) اندريه روسو كاتب وناقد معاصر . نال سنة ١٩٣٣ جائزة النقد الادبى الاولى بكتابه عن « ارواح وأوجه القرن العشرين Ames et visages du XXème siècle سنة ١٩٣٤ تو المجمع اللغوى الفرنسي كتابا له عنوانه « فن الاوربية L'art d'être européen : كما أن له كتابا آخر عن « الفردوس المفقود » واخيرا كتابه المعروف عن « الادب في القرن العشرين » .وهو عبارة عن مجلدين بكل منهما سلسلة مقالات خصص كل واحدة منها بكاتب أو شاعر فرنسي من المعاصرين ومن بينها مقالة عميقة عن «ديهاميل» .

(١) السمع والفهم ترجمة للفعلين Comprendre, entendre وهذان اللفظان من اشتقاق لاتينى واحد ، ولكن معناهما قد تغير فاصبح الأول يفيد مجرد السماع والثانى يفيد السماع مع الفهم ومنه الفهم فى ذاته ، وكذلك النظر والرؤية ترجمة للفعلين المختلفين=

هناك قراءة ايجابية وأخرى سلبية ـ بل حالة ـ ومن الواجب أن يعبر عن كل منهما بلفظ خاص . والنوع الأخير بعيد عن أن يكون عديم الأثر ، وتجار الاعلانات يعلمون ذلك حق العلم . ونحن عندما نعبر مدينة ما فى عربة أو قطار ترانا نقرأ ـ ولو فى غير اهتمام ظاهر ـ كل ما يقع عليه بصرنا من اعلانات أو لوحات أو أسماء تجار أو أى كتابات اخرى . وما يلقى الينا باعلان أو تقع بين أيدينا ورقة الا ألقينا عليها نظرة مجملة فاحصة . فنحن دائما على استعداد للتلقى أو بعبارة أصح لكسب المعلومات ، وذلك لحاجتنا الملحة الى المطالعة ولسيطرة عادة القراءة علينا سيطرة قوية تدفعنا الى البحث عن غذائنا الروحى .

ونحن لا نتناول غذاءنا ـ غذاء القراءة الحقيقية ـ كما نفعل مع أنواع أغذيتنا الأخرى فى أوقات محددة تمام التحديد ، وان كانت قوام هذا الغذاء تتكون من عناصر عادية يمكن تحديدها . فنحن نقرأ فى الجملة جرائد ومجلات وكتبا .

ومن الواجب أن نخص الكتاب بمكان الصدارة ، فالكتاب يسعى عادة الى الخلود ، وأنا أعلم أن لهذا اللفظ « الخلود » عدة معادن ، وأننى استعمله هنا فى معناه الانسانى الذى يضيق منه بؤس فنائنا . فالفكرة المكتوبة التى لا تموت بعد ثلاثة قرون نسميها خالدة وأبدية ، وفى هذا إسراف فى استعمال الألفاظ . فنحن نعلم حق العلم أنه سيأتى يوم ـ بعيد بلا ريب ـ لا يبعث فيه اسم شكسبير أى صدى على الارض ، ومن يدرينا لعله كان هناك شكسبير آخر فى القمر الذى نراه اليوم متجمدا (١) .

وأيا ما يكون الأمر فانى أكرر أن الكتاب يسعى الى الخلود وهو يتطلب مكانا فى حياتنا الزمنية ، وفى حياتنا الروحية ، كما يرمى الى أن يسكن بيوتنا وان يكون فى متناول بصرنا وأيدينا ، وهو

= Regarder, Voir ومعنى الفعل الأول هو « النظر » اى مجرد الاتجاه بالبصر الى الشيء (ويقابله بالعامية يبص) ومعنى الثانى « يرى » اى ينظر ويدرك ما يرى ويقابله بالعامية (يشوف في نحو قولنا بصيت فشفت اى نظرت فرأيت ...) ، والذ فهناك اعمال تقوم بها حواسنا على نحو آلى دون أن يصل منها الى نفوسنا شيء فنحن قد نسمع دون أن نفهم ونحن قد ننظر دون ان نرى ، وذلك عندما لا نلقى بالا الى مانسمعه او ننظر اليه وكذلك القراءة فقد نقرأ آليا دون ان نفهم وهذه هى القراءة السلبية ، وقد نقرأ بفهم واجهاد ، وهذه هى القراءة الايجابية . والكاتب يود ان لو استطاعت اللغة أن تعبر بفعلين مختلفين عن هذين النوعين من القراءة ، ولا شك أن في الفعلين « يتصفح » و « يقرأ » ونظائرهما في اللغات الاجنبية ما يدنينا من هذه التفرقة ، ولكنه لا يعبر عنها تماما .

(١) في مثل هذا المعنى يقول أبو العلاء

سيسأل قوم ما الحجيج ومكة   كما قال قوم ما جديس وما طسم

زينة في ذاته كزينة الرياش ، وعندما نغلفه بالجلد أو بالأقمشة الثمينة أو بالذهب نراه يشبه الحلى . ونحن ننظر اليه نظرة حب وعرفان بالجميل، ونعلم أنه حاضر ، ما نمد اليه يدا الا سارع الينا يحدثنا بما يستطيع أن يقول ، واذا عرفنا كيف نسأله رأيناه مستعدا للاجابة تمام الاستعداد وثمرة الثقافة الحقيقية هي « أن نعرف كيف نستخدم الكتب » كما لاحظ « أندريه جيد » فيما أظن وان لم تكن تلك ألفاظه .

ونحن نطلب الى الكتاب ما نسميه عنـــاصر المعرفة ، ونطلب الى الجرائد معلومات وعناصر وأخبارا .

والجريدة ضرورية لرجل القرن العشرين فهي تفتح عينه عندما ينهض من فراشه فتوقظه وترميه بحفنة من الوقائع والآراء . والجريدة افطار الصباح ، وهي مكتوبة على نحو يحرك الخيـــال أكثر مما يثقف أي يكون الادراك . هي تثير النفس وتقص الحوادث وتعرض الآراء ؛ وفي كل يوم تلجأ الى حيل جديدة . في الطباعة ، كما تخصص للصور التي لا تطلب أي جهد مكانا يزداد يوما بعد يوم ، فهي تسعى أولا الى استهواء القارىء ، وهي لا شك تقدم اليه أفكارا وقواعد وقليلا من عسل الأدب ومن جوهر الفلسفة ، ولكنها تحمل اليه قبل كل شيء زادا من أكوام من الحوادث اليومية التي ما تزال حارة .

ومن ثم نرى أن الجريدة التي قد بردت لا يكاد يكون لها طعـــم ولا معنى ، والجريدة كالليمونة التي نعصرها ونرمي قشرتها ؛ فبمجرد أن نقرأها نراها تنزلق الى سلة المهملات ، فهي لا تكاد تضاف الى أثاث منازلنا ومن النادر أن نعود اليها اذا مرت السنون لنسألها أو نستشهد بها .

وفي خلال السنوات الأخيرة غيرت المجلة من منظرها والتمست لها مظهرا جديدا ؛ فلدينا اليوم المجلة الأسبوعية التي تحافظ على مظهــر الجريدة وان قدمت مادة أغنى ، ولجأت الى شيء من التراجع في الزمن لتحكم على الوقائع والناس .

والآن فلنبحث عن مكان المجلة والدور الذي تلعبه ، والمجلة تجمع بين الجريدة والكتاب ، وهي كما يدل عليهـــا معنى لفظها (١) الاشتقاقي تسعى أو تحاول أن تسعى الى أن تستجلي أي توضح حقبة من العالم . وهي تظهر مرة كل خمسة عشر يوما وأحيانا مرة واحدة فقط في كل شهر ، ولها على الحوادث اليومية نوع من الرقابة وهي تصفى تلك الحوادث أو على الأصح ترفع من قيمتها ، اذ يمر ما يعلو تفاصيلها من غبار بمنخلها فيختفي ، ولا يبقى منها الا ما يصـــلح لأن يكون غذاء لتكوين النفوس

(١) في اللغة الفرنسية لفظة Revue معناها « استعراض »

الحريصة على ذاتيتها • فالمجلة الحقيقية يجب أن تحمل أثرا لكل ما يحدث في العالم من أمور هامة ، اذ من واجبها أن تعلق على الكتب وأن تذكر الحوادث وأن تحكم على أعمال الرجال وتظهر أخلاقهم ، المجلة التى تستحق هذا الاسم جديرة بأن تقدم ـ علاوة على ما سبق ـ تآليف جديدة قادرة على أن تعكس الروح الخالدة فى مغامرتها اليومية ، اذ يجب أن تكون عالما صغيرا ترتسم فيه عناصر العالم وتفصل تبعا لدرجة عظمها وأهميتها الحقيقية •

ومثل هذه المطبوعات تشاطر الكتاب حياته لأنها تأخذ مظهره لا مظهر الجريدة • وهى لا تموت فورا اذ تسير الى احدى رفوف مكاتبنا وتستقر به حيث تبقى ـ كالكتاب ـ تحت تصرفنا • وكثيرا ما نرجع اليها فتجيب على أسئلتنا وتذكرنا بما كانت عليه فى هذه السنة ـ أو ذلك الفصل ـ أعمال الناس ومؤلفاتهم وأفكارهم وطرق احساسهم أو تعبيرهم .

فللمجلات مكان وسط بين الكتب والجرائد ، وهى لازمة لحفظ التوازن العقلى فى تلك البلاد التى تعتبر اليوم مسئولة عن كنز حضارتنا . ولقد مضى الزمن الذى كانت تتألف فيه كل ستة أشهر جماعة من الكتاب لاصدار مجلة أدبية • وان كان بعض من القراء الشبان لا يزالون حتى اليوم يفعلون ذلك على نحو مصغر وبثمن قاس من التضحيات • فالورق غالى الثمن ، والطبع غال ، واقبال الجمهور ضعيف ، وانتباهه تجذبه آلاف من الوسائل وتستلبه ، فحياة المجلة لا تتطلب مالا فحسب ؛ بل وكثيرا من الجهد وبخاصة من الايمان والحب ، كما تتطلب تجردا تاما عن الحرص على المنفعة المادية •

ولن يغيب عن بعض من يلاحظون العالم الحديث أن يستنتجوا أن العالم بلا ريب فى سبيل التطور ، وانه لم يعد للمجلات الا أن تختفى ، ولكنى مازلت أعتقد أنه لو تم ذلك لكانت فيه كارثة • فالمجلات تمثل نوعا من النشاط العقلى يلوح لى أنه ألزم ما يكون فى هذا العصر المضطرب • فهناك من مجهودات الروح المستمرة النشاط ، والتفكير الدائم الخلق ، والدراسة النشطة مالا يستطيع أن يظهر الا بفضل أحدث المجلات الأدبية فالكتاب ضخم بطىء ، والجريدة موجزة عابرة وهناك مجال ـ لمعالجة الحوادث والرجال والكتب ونقدها ـ يتطلب المجلة التى هى الرسول الطبيعى للروح اليقظة وللفكر الذى لا يريد أن يتخلى عن رسالته •

فاختفاء مجلة أدبية فى الوقت الحاضر يعد كارثة على التفكير المهدد فى نشاطه وفى وسائل اذاعته ، وأما المذاهب فلم يعد لها حديث اذ لم يعد لها وجود ولم يبق فى العالم الا قضية واحدة هى الروح الحرة التى تحتفظ بكنوزها وتدافع عما احتلت من أماكن •

لن أنقطع عن أن أقول لمعاصرينا إن قضية الطباعة قضية مقدسة ، ولكنها فى خطر محدق ، وان تذوق القراءة فى اضمحلال تام ، وانه من الواجب أن نبحث عن علاج لهذه الظاهرة التى أعتبرها كارثة على الجنس البشرى وأنا أفعل ذلك مدفوعا بايمانى الحار بأنى أخدم بقولى هــذا الهيئة الاجتماعية التى ولدت فيها ، بل أخدم الانسان فى ذاته ٠

وصيحتى لا تذهب فى واد خرب ، اذ أن أصواتا أخرى قد ارتفعت . ولقد اقترحت حلول ٠ أما عن نوع تلك الحلول وقيمتها فمعظمها فيمــا أحسب ردىء حتى ولو كانت صادرة عن نزعة خيرة ٠ ولقد حاول باعة الكتب وحدهم تقريبا حتى اليوم أن يبحثوا عن وسيلة يقاومون بهــا انصراف الجمهــور عن المطبوعات ، ولنترك الآن الى ما بعد تلك المشكلة الخطيرة ؛ مشكلة الاعلان التى تحدثت عنها أكثر من مرة والتى يلوح لى أنه قد أسىء فهمها ٠

لقد ظن تجار الكتب ــ رغبة منهم فى أن يثيروا حماسة جمهــور ذاهل غافل موزع الأهواء ــ أنهم يحسنون صــنعا اذ يحلون تجارتهم بأنواع من المغريات لا تمت الى بضاعتهم بصلة ، فحاولوا لكى يبيعوا الكتب أن يبيعوا معها شايا « ومشروبات روحية » ، وبذلك هموا بأن يحولوا محلاتهم الى ما يشبه « صالون مقابلات » يستطيع أن يلتقى فيه الزبائن ويجلسوا ويتمتعوا بتافه المسرات ٠

وعندى ــ كما قلت فى كتاب غير هذا ــ أن المكتبة الحقيقية يجب أن تكون كندوة يجتمع فيها المثقفون ليتبادلوا الآراء ويتحدثوا عما يفضلون ويتعرفوا أذواق الآخرين ، وفى الحق أنى لا أريد أن أثبط من محاولات خيرة تعمل بقصد طيب ، ولكننى لا أرى خيرا فى أن نخضع قضية الكتاب التى هى أخطر قضايا الساعة الى عادات الصالونات ٠

وبدع « موضة » الاهداء (١) لم يحسن من موقف الكتاب ، وان أثقل باعة الكتب والمؤلفين بالتزامات جديدة ، ولقد ناهضت غير مرة تلك العادة ، ومع هذا فقد لا يخلو من فائدة أن نعود الى الحديث عنها فى ألفاظ قليلة ، فانه ليس فى ممارسة الاهداء ما يمكن أن ينجو بالكتاب وبالثقافة فالجمهور قد انتهى الى الاقتناع بأن الاهداء بخط اليد هو المكافأة الحتمية

---

(١) يريد الاهداء الذى يكتبه المؤلف بخط يده على نسخة كل مشــتر وهــذه الطريقة قد شاعت أخيرا فى أوربا حيث يذهب المشترى ليعطى اسمه لبائع الكتب ويطلب اليه أن يحصل من المؤلف على اهداء مخطوط ٠

لكل مشتر ، ومع ذلك لم يزدد شراؤه للكتب ، ولكنه أصبح يرى من حقه الاصرار على طلب قد أخذ يعقد منذ الآن عمل بائع الكتب ، ويقلق الكاتب ، ويسبب ضياعا فى الوقت ، ويكلف نفقات ، ويولد منافسات ، وينال من كرامة مهنة لا يتوافر لها الجو الملائم الا فى الصمت والوحدة ، فالاهداء الى كل الناس لم ينتج عنه للكتاب غير الشر ، وسيظل عالقا به كآفة لا علاج لها .

ولقد رأينا منذ حين فنانة روحيـة موهوبة ، تكتب الى الناشرين الباريسيين خطابات جميلة مؤثرة ، تقترح عليهم احتيالا جديدا . كانت تريد لكى تجذب القراء أن تنظم عند باعة الكتب فى باريس وربما بمدن الريف أيضا حفلات موسيقية يشترك فيها فنانون معروفون .

وفى الحق أن الانسان لا يملك ألا يتأثر بكل هذه المحبة الكريمة. ولكنى أعلن أن كل هذه المحاولات نابية بل مستطيرة الشرر .

ثم ماذا ! الكتـاب مستقر التفكير الانسانى ، والمهد المقدس لكل معرفة وكل تجربة ، ثم نضـطر لكى نكسب له أنصـارا ومحبين أن نضرب على الطبل وننفخ فى المزمار ، وأن نستعين بالمغنين والممثلين ومن اليهم .. ومن يدرينا لعلنا نلجأ فى المستقبل الى الحواة والراقصـين على الحبال .

ما هذا ! نريد أن نعود برجل القرن العشرين القلق الشارد اللب الى احترام القيم الروحيـة والعقلية ، وأن نرده الى التفكير والتأمل ، فنضطر فى سبيل ذلك الى أن نسكب له الخمر فى القداح ، وأن نعزف له على آلات الطرب ، بل وأن نرقص معه ؟ المكاتب معابد الروح ، فهى الأمكنة التى يدرك فيها الانسان سر عظمته الحقيقية ، ومع ذلك نرانا مضطرين الى أن نقدم فيها أفلاما مجانا ، ثم ماذا ! ياالهى ! بطـاقات تبغ وأعواد من صابون الذقن وزجاجات من مـاء الأسنان . ألا أنه لو صح ذلك وقد صارت الأمور الى هذا الحد لحق لنا أن نقول ان العالم فى مرض شديد .

لا . لا . يجب ان نفهم الجمهور أن الأمر يتعلق بمصلحته هو . فالرخاء والعدل الاجتماعى ومسرات الحياة الزمنية ولذائذها ، وبالجملة التقدم فى كافة مظاهره المحسة ، كل هذا خاضع لرياضة ملكاتنا العقلية. رياضة مطردة منسجمة ، وانه بدون الكتاب الذى هو مستودع تراثنا الروحى الامين ، ستصبح حياة الفرد وحياة الجماعة عرضة لان تهوى فى نوع من البربرية لن يستطيع على الأرجح أبناؤنا ولا أحفادنا أن يروا لها نهاية . يجب أن نفهم جمهور الناس الصادقى العزم أن تقديس الروحيات هو الشرط الاساسى لكل حياة نبيلة جميلة خصبة ، وأن الكتاب هو رمز

ذلك التقديس • وما يجوز أن نحمل رجل الشارع على الاعتقاد بأنه إذا اشترى كتابا سيشهد حتما جلسة فى سامر أو ساعة فى أوبرا بل ولا «دور صراع» أو مسابقة ثيران • فان كان رجل القرن العشرين لم يعـد يستطيع أن يحب القراءة لذاتها فلينصرف عنها ، وبذلك نضع على الأقل حدا لتلك المهزلة المزرية بالذكاء الانسانى •

وكثرة المعارض على نحو مانرى فى «أيام الكتب» تلوح لى فـكرة موفقة وهى لاشك منتجة • وأما مايزيد القيم اختلاطا ويلقى الاضطراب أو ينميه فى نفوس تستهويها منذ حين الخرافات والأسراب ، فذلك مايلوح لى ضارا كله ويجب أن يحظر •

وأنا أعلم أن الناس فى بعض البلاد يرون الاستعانة على خدمـة القضايا الروحية البحتة ـ كالدين مثلا ـ بالاعلام ومواكب الموالد والاعلان بالأضواء ، ولكن هذا هذيان فيما يلوح لى ، والا لجاز أن ندعو الى الصمت باطلاق المدافع ، أو الى العزلة باقامة منابر فى الاسواق •

يجب أن تنجى الروح الروح وأن تنجى الكتابة الكتابة ، كما يجب أن يكفى القول للدفاع عن القول ، فعلى كل من يؤمن بقيمة منهج قد أثبتت قرون من التجارب صحته ، وعلى كل من يرى أن الكتاب هو رمز سمونا على كل هؤلاء أن يوحدوا صفوفهم من أجل تلك الحرب الصليبية التى قد دقت ساعتها •

- ٩ -

ليس استخدام الاعلانات فى تجارة الكتب بالظاهرة الحديثة ، فلقد رأينا حيل الاعلان من قبل الحرب ـ بل ومنذ زمن أبعد من ذلك بكثير ـ تتمكن من أن تغرى الناشرين والمؤلفين ، ولكننا فى الحق لم نستطع أن نحكم على تلك الوسيلة وهى لم تعمل الا منذ الحرب ، ولقد نمت تلك الظاهرة بسرعة حتى ليمكننا أن نقول ان خمسة عشر عاما قد كفت لتأتى تلك التجربة بنتائج دالة ، وتلك النتائج تمس من جهة أخلاق الكتاب ، ومن جهة أخرى موارد النشر .

وقبل أن نقدر الفوائد المادية التى أتت بهـا الاعلانات أقول أنهـا قد أضرت من الناحية المعنوية بقضية الكتب ، وهذا ما يجب أن ننظر فيه بهدوء وفى غير جرى وراء الخيال .

فالخلق الادبى عمل روحى قبل كل شىء ، والقراءة وظيفة لاتقل

روحية عنه ، وبين الخلق والقراءة مجال لمغامرة تجارية صغيرة ،فالكتاب بضاعة تزجى كغيره من الاشياء أمثال الصليب وكأس التناول والقربان ، «لكل شيء ثمنه» ، كما يقول تومابلوك ناجوار Thomas Pollok Nageoire في مرح صريح . ومن الحكمة أن نقبل هذه الحقيقة دون أن نزيدها سوءا بشتى الاعتبارات ، فلقد رأيت اعلانات عجيبة عن نبيذ التناول ، ولقد نفرت منها نفورا عنيفا . « لكل شيء ثمنه » فليكن ، ولكن هنالك من أنواع التجارة ما يجب أن يحتفظ بشيء من التحفظ ، بل من الحياء ، وعلى وجه أدق باحترامه لما يتجر فيه . والاعلانات الادبية ــ بما صارت اليه من اسراف ــ قد ذهبت بكرامة الكتب ، ونالت من شرفها في نظر العالم كله ، كما أنها قد فعلت ما هو أخطر من ذلك ، اذ أطلقت في نفوس المؤلفين أنواعا من الشهوات الموجبة للأسف .

فهي أولا قد نمت نزعة الكسب غير المشروع بطرق تكاد تكون آلية لادخل للكتاب فيها ولا للموهبة ، وهذا حساب شديد الخطأ ، فالمؤلف الحكيم الماهر مهارة حقيقية لايجوز له أن يغفل استجابة القراء لما يكتب ، وأنى له بمعرفة تلك الاستجابة اذا أدخل في هذه الكيمياء الدقيقة أنواعا من العوامل التي لايتحكم هو فيها دائما أو غالبا ! وأهم أمر بالنسبة للكاتب ــ حتى ولو كان من الحريصين على الفوائد الزمنية ــ هو أن يدرك تأثيره على القراء تأثيرا دقيقا . والاعلانات قد جعلت كل محاولة لاستنتاج كهذا مستحيلة استحالة تامة .

ولقد نمت الاعلانات بين المؤلفين منافسات صبيانية ، اذ أظهرت عندهم رغبات ونزعات لم تزد بلا ريب من الاعتبار الذى يحمله الناشرون للمؤلفين فلكم أضنت النفوس حاجتها الى أن ترى كل يوم اسمها وصورتها في الجرائد السيارة ، وأخطر من ذلك أن فن الاعلان قد داعب في أول الامر كبرياء هؤلاء الاطفال الكبار الذين هم ــ وسيظلون ــ رجال الادب ثم انتهى بأن عذب ذلك الكبرياء .

لقد جمعنى مرة صالون ريفى بسيدة اسمها معروف للجميع ، اذ انه لصق منذ ربع قرن بشراب ظهرت وما تزال تظهر عنه اعلانات لاحصر لها ، وحدثتنا تلك السيدة عن زوجها صاحب القطارة في سذاجة كبيرة ثم انتهى الحديث الى الاعلانات ، فابتسمت قائلة فى فرح باد « ان زوجى فى منتهى الرضى » ، فأجبت «نعم فهى تدر الربح» ، ولكن السيدة عادت تقول « ليس هذا فقط هو سبب رضاه فقد رجع زوجى منذ أيام من باريس وهو مشرق حقا ، وقال لى : « لقد رأيت اسمى فى كل مكان ، حقا ان هذا لنجاح تام » .

وفيما كنت أنصت لتلك السيدة الطيبة اكتشفت أجد أنواع

الاسترقاق العجيب الذى تفرضه الاعلانات الحديثة على النفوس فهى تكسب وتقنع أولا من يستخدمونها • فالرجـل الذى يحرر « نرجو أن تدرجوا » تلك الاسطر المتهللة والعبارات الصاخبة ، لا يلبث أن يقع هو نفسه فى الفخ ، اذ سرعان ما ينسى أن هذه الأحكام الهاذية انما هى من ثمـار مخه هو • وما يزال يداعب نفسه حتى ينتهى به الامر الى أن لا يصبح قادرا على تذوق مديح الغير ، فيلوح له نقد النقاد فاترا حتى ولو كان فى صالحه وكان فيه تشجيع له ، اذ يرى أنهم لم يقعوا على خير ما فيه • وهكذا يفقد كل ملكة للنقد ثم كل مقدرة على الحكم ، حتى ليلوح له أن كل شىء كالبيرة الفاترة بعد تلك الخمر التقوية التى أعدها بنفسه وقطرها كما يريد بأحد تلك المعامل الاجيرة •

ولو أننا قصرنا نظرنا على الأصول الاخلاقيـة لقررت أن الاعلانات الادبية تلوح لى سيئة الاثر ، وهل نستطيع أن نقول انها تعوض الضرر بما تأتى به من نتائج اقتصادية ؟ وهـل من الممكن أن نعتقـد أن الاعلان الذى يوشك أن يزرى بالادب يخدم ذلك الادب نفسه اذ يعمل على البسط من سلطانه ؟ ذلك ما لا أعتقد •

من الواضح لأول نظرة أنه قد بيعت كتب كثيرة بفضل حيل الاعلانات التى لولاها لما غادرت تلك الكتب مخازن الناشرين ، بل ربما كان لها أثر فى زيادة انتشار كتب ممتـازة اذ زادت فى نسبة بيعها ، ولـكن ما حكم الجمهور على هذا العمل ؟ يجب أن نقول انه قاس ، وذلك لانه قد لا يكون من السهل أن نقدر مفعول أحد الادوية « الجاهزة » وخصوصا عندما تكون لتقوية الدم أو تنقيته ، ولكننا نستطيع بسـهولة أن نكتشف أن مطالعة كتاب ما ــ رغم الاعلانات الخاصة ــ تضايقنا وتتعبنا بل وتثيرنا • ولكم رأينا الجمهور الذى يسلس قياده فى أول الامر ، يدرك أنه قد خدع ، فيستشعر من جراء ذلك حفيظة تمتد الى كل الكتب جيدها ورديئها • ثم جاءت الازمة فزادت الهـوة سحقا • فشراء كتاب خدعة لا يعتبر كارثة أيام الرخاء • وأما أن تلقى خمسة عشر فرنكا من النـافذة أيام البقرات العجاف فتلك مغامرة تثير الحنق • وهـكذا نفر الجمهور فتحفظ ، وهوى الكتاب الذين كانوا مدينين بشهرتهم الى حيـل الاعلان • وأما الآخرون فانه وان يكن الاذى الذى مسهم أخف فانهم قد أحسوا رغم ذلك وقع انصراف الجمهور وسخطه •

ومن الممكن أن نقول ان تلك التجربة الاولى قد انتهت اليوم تقريبا• ولكن ما هى النتائج التى تمخضت عنها •؟

لقد قضى الناس فى تلك الاعلانات الصاخبة التى تسرف فى المديح بغير حياء بحيث لم يعد يأخذ بها الا عدد قليل من المعاندين • وأنا لاأعتقد

أنها تساوى نفقاتهـا ، اذ أنه عندما يكون الامر أمر كتب جيـدة فانها قد تساعدها مساعدة خفيفة ، ولكنها لاتستطيع أن تغير ما قدر لها من مصير. وأما اذا كانت الكتب رديئة فان الاعلانات لاتأتى بنتيجة وفى كثرة نفقاتها ما صرف الناشرين (١) القلقين عن الالتجاء اليها ، وكل الكتاب الموهوبين قد انتهى بهم الامر الى العدول عن الشعوذة المزرية التى تستطيعها تلك الساحرة (٢) الحمقاء . ولكن هل معنى هذا أن الاعلانات الادبية قد فقدت المعركة نهائيا ؟ طبعـا لا . اذ لا بد لتلك الازمات الجنونيـة من أن تخلف أثرا . فلقـد كان الجمهور فيما مضى يذهب الى باعة الـكتب ليسأل عن المطبوعات الجديدة ، أى أنه كان يسير اليهم . وكان النقاد يقودون أحيانا هذا الجمهور ، وذلك عندما كان الادب لا يزال يتمتع بهذا الامتياز الخاص ـ وهو وجود النقد ـ حتى ولو كان لاذعا . وأنا عنـدما أذكر النقد أذكر أن فن الاعلان لم يخطئه هو أيضا فقد مسه بأذاه وهذا ما نعتبره زيادة فى المحنة . ومن ثم يريد الجمهور اليوم أن تصله أخبار عن كل شيء فى المنازل ومنذ الصباح ، وعنـده أن من واجب الاعلانات أن تؤدى على الاقل تلك المهمة .

ولو أن الاعلانات الادبية اقتصرت منذ الآن ـ كما نأمل ـ على مجرد ذكر الـكتب الجديدة لـما وجدنا حرجا فى أن نحكم بأن الضرر فى جملته محدود ، وان كانت تجـارة الـكتب ستثقل لذلك بزيادة فى النفقـات . وأما عن كرامة الأدب فلست أظن أنها ستخرج معززة من هذه المغامرة الخطرة .

- ١٥ -

أظن أننى قلت انه يلوح لى فى ظروف العالم الحالية أن الكتاب وان لم يكن الاداة الوحيدة للثقافة الحقيقية فهو بلا ريب الاداة الأسـاسية ومع ذلك فان تجارة الكتب أردأ التجارات تنظيما . فهى ـ فى فرنسا على الاقل ـ متروكة للصدفة والاهواء والطرق البالية والمحاولات المسرفة فى الجرأة والتجارب على غير بينة .

نعم ان مهنة الناشر مهنة شاقة ، ولكننا مضطرون الى أن نقرر أن الناشرين لم يبـذلوا غير القليـل من الجهـد فى مواجهة مشـاكل مهنتهم

(١) وذلك لأن الناشرين هم الذين يتولون عادة أمر هذه الاعلانات والانفاق عليها.
(٢) يقصد « بالساحرة الحمقاء » الاعلانات .

الاساسية وعلاجها ، فعند الكثيرين منهم أن بيع الكتب تجارة كغيرها من التجارات ، والكتاب بكل بساطة بضاعة تزجى • ولنسلم بأن الكتاب يقاسى فى شدة — وبخاصة فى وقتنا الحالى — منافسات خطرة ، ولقد تكلمت عن ذلك فى اسهاب فلاداعى لمعاودة هذا الحديث• ولنسلم كذلك أن الاضطرابات الاقتصادية قد زادت أزمة الكتب تعقيدا ، وليس هذا الوقت ملائما لان نقترح على الناشرين برنامجا للخطط والاصلاحات• وحياة الكتاب الاجتماعية تثير طائفة من المشاكل بعضها نفسى بحت ، فالعناصر العامة والخاصة للنجاح والفشل وتأثير الظواهر السياسية وتغيرات المواسم والاذواق والنظم وحياة الكتاب فى الزمان والمكان — أى تاريخ كتاب ما أو مجموعة ما من الكتب وجغرافيتها — كل هذه مسائل كانت تستحق لو أننا كنا فى وقت خير من وقتنا هذا أن نفحصها وأن نجرى فيها تجارب ربما أعطتنا عناصر خطة نتبعها • فالكتاب شيء حى : وعلم حياة الكتاب لايزال ينتظر من يخلقه من العدم •

ولكن لاداعى للتفكير فى هذا الآن فالوقت عصيب : ولنقصر تفكيرنا على بعض الاصلاحات المباشرة ولنقترحها بالفعل ، وان كان لايجوز أن ننسى أنه ليس فى عالم النشر أى نظام يحكم تلك المهنة •

فبين الناشر والجمهور وسيط لابد منه ، هو بائع الكتب صاحب المحل المفتوح ، وليست تجارة الكتب من التجارات التى يمكن أن يحاولها أى انسان دون أن يعد نفسه لها اعدادا خاصا •

فهى مهنة تتطلب معرفة فنية وتجارب ومناهج وملكة للملاحظة وفهما للنفوس ، فبائع الكتب الحقيقي — مهما كان مرهقا بالعمل المادى — يجب أن يكون له آراء عن المؤلفين والمؤلفات ، فهو يوفر دائما وقتا على القراءة وجمع المعلومات ، ومن واجبه كالاطباء والمحامين أن يعرف زبائنه فيلم بمهارة بلذات «أونيزيم»(١) Onésime وشهوات « تيوديل » Théodule ومحن «بريجيت» Brégitte وآراء «ايزيب» Euzébe وبائع الكتب الجديد بهذه المهنة لايكتفى بملاحظة الناس لكى يبيع كتبا كثيرة ويكسب من هذا البيع ، ولكنه يتدخل فى الامر فيحاول أن يملى «كلوديل» Claudel على البعض ويقرب «جيرودو» Mauriac Giraudoux الآخر ، وأن يبذر هنا «جيد» Gide ويطعم هنالك «موررياك» الى البعض وبائع الكتب الذى يحب مهنته بتفوق استجابة الافراد الدقيقة ، تراه يفكر والكتاب بيده «سأحاول أن أجعل ماتياس Mathias يتذوق هذا

---

(١) اونيزيم ، تيوديل ، بريجيت ، ايزيب ، ماتياس ، برنابيل أسماء يستعملها دبهامل على نحو ما نقول نحن زيد وبكر وعمرو . واما كلوديل وموررياك وجيرودو وجيد فكتاب وشعراء فرنسيون معاصرون ، وسيمود ذكرهم فيما بعد .

الكتاب ، لربما وجدت في ذلك مشقة ومع ذلك فلنحاول» ، وباستطاعته أن يلعب على كل الأوتار مهما رهفت ، لقد سمعت أحد هؤلاء الباعة يقول يوما فى حضرتى لأحد زبائنه : «وما هذا ؟ أنت لا تحب هذا الكتاب !! هذا أمر غريب . ان المسيو برنابيل Barnabille أيضا لايحبه . ولذلك كنت متأكدا أن هذا الكتاب سيروقك ..» .

وأنا أعرف باعة كتب من هذا النوع ، وباستطاعتهم ـ لو أرادوا ـ أن يشكلوا روح مدينتهم كلها وأن يحركوها ، بل ـ وأحيانا ـ أن يقودوها .

وفتح مكتبة يتطلب رأس مال لايمكن أن يكون حقيرا ، فالمصاريف النثرية كبيرة ، ولا بد لصاحبها من تليفون ومعدات كاملة للفهارس والنشرات ، وأخيرا هو فى حاجة الى موظفين مثقفين أو كما يقولون مختصين .

وهنالك مكاتب حقيقية فى كل مدن ريفنا التى لها أهمية ما ، ومنها عدد كبير بباريس ، وحياة تلك المكاتب عنصر هام فى مشكلة الكتاب ، أى فى مشكلة الثقافة ، كما سبق أن قلت غير مرة .

ووجود تلك المكاتب مهدد اليوم لسبب يلوح معكوسا ، ومع ذلك فمن الواجب أن نفحصه فى شجاعة وهدوء .

لقد بذل الناشرون ـ ظنا منهم أنهم بذلك يخدمون قضية الكتاب ومن ثم مصالحهم التجارية ـ مجهودا يذكر وبخاصة فى الخمس عشرة سنة الاخيرة ليكثروا من عدد مستودعات الكتب ، ووجهة نظرهم بسيطة أو على الاقل مبسطة «رجل الشارع لايشترى كتبا لانه لايغرى بذلك . ولانه لابد له من السير الى أقصى الارض ليحضر كتابا ما ، فلنضع الكتاب تحت بصره وفى متناول يده ، لنودع الكتب فى كل مكان يستطيع أن يجدها فيه من يريد ، فبذلك يقبل عليها الجمهور» .

وأصبحت تجارة الكتب تجارة ملحقة بجملة من التجارات الاخرى ولقد اتفق أحيانا أن رأينا بائع الكتب الحقيقى يضطر الى أن يستعين على مهنته الشاقة ببيع أدوات جلدية أو أدوات للكتابة ، ثم انقلب الموقف فرأينا الكتب تلحق بكافة أنواع البضائع الاخرى ، فوضعت فى محلات السجاير وعند الحلاقين ، بل وفى الحانات .

هل يعد هذا انتصارا ؟ لا أظن ذلك أصلا . نعم انه من الممكن أن تكون بعض الكتب قد بيعت بفضل هذه الطريقة الجريئة ، ولكنها تحمل خطرا كبيرا ، اذ أنها تهدد حياة المكاتب الفنية .

وانا لاألوم من تودع عندهم الكتب فهم يوعدون بكميات كبيرة منها

كما يغرون بتجارة مربحة لامجازفة فيها ، يقال لهم عنها انها لا تتطلب أى كفاية خاصة ولكنى لست واثقا من أن تكون التجارة التابعة ذات نفع عظيم لهم ، بينما لدى مايحملنى على الظن بان تجار الكتب الفنيين يقاسون من هذه الحالة وفى ذلك خطر واضح ·

والرجل الذى يريد أن يشترى كتابا ، الرجل المنعقد العزم لايهوله أن يقلق نفسه بالذهاب الى من يبيع له الكتب · وأما القـــارىء الذى نغريه بتعدد المستودعات فقـــارىء عابر لن يغـــدق الشراء على صاحب المستودع وان نقص من الربح المشروع للبائع الفنى ، وهذا الاخير الذى لايستطيع أن يضغط من مصاريفه النثرية بل فى الغالب ولا من عـــدد موظفيه لن يلبث أن يلعب لدى الجمهور دور بائع الكتب الذى لاأجر له يأتى الناس لرؤيته عندما يحتاجون الى السؤال عن شىء ما ·

وهل من الضرورى أن نضيف أن تعدد المستودعات لا يمكن أن يخدم قضية الـكتاب ، وأنه على العكس يحط من قدره ؟ فالجمهور المتراخى سيعتاد أن يجد الكتاب مختلطا حينا بالمعـــازف «pianos» وحينا آخر بالخردوات .والكتاب الذى هو رسول الروح لا يمكن أن يكسب من جيرة كهذه ، بينما تنمو روح الخلط وتستطير ·

لقد أحصوا فى الحى السادس بباريس مستودع كتب لكل مائتين وأربعين ساكنا ، وتلك النسبة تنحط دونها بكثير كل المهن والتجارات الأخرى حتى تجارة النبيذ نفسها ·

فهل بعد ذلك يقال اننى أقلب الحقائق اذ أصيح بهذا الخلط ؟

- ١١ -

لا يمكن أن نتحدث عن مشكلة الكتاب دون أن نقول بعض كلمات عن « قاعات القراءة »Cabinets de lectureوتلك خصومة عجيبة لم يفصل فيها بعد ، وهى باحتدامها تحمل على الظن بأن مصير الكتب لا تتحكم فيه الآن مشكلات أشد من هذه خطورة ، ومع ذلك فهى تستحق لما تثيره من اعتبارات هامة أن ننظر فيها بوجه عام ·

وهم يسمون « قاعات القراءة » تلك المحلات التى تؤجر المجلات والكتب ، ومقدار الايجار متفاوت ، وهو قد يكون اشتراكا عاما ، أى مبلغا محددا من المال أو تعويضا عن كل كتاب يعار لمدة من الزمن ، كما يمكن

أن يكون مزيجا من النظامين . فالكتاب سلعة تجارية يملكه فيما يظهر من يشتريه ملكية نهائية . ولهذا المالك حق يلوح مطلقا ، فباستطاعته أن يعدمه وأن يهديه لشخص آخر وأن يعيره مرة ومرات بل عشرات ومئات المرات ، كما يستطيع في حالتنا التشريعية الراهنة أن يؤجره دون أن يأخذ رأى أحد ، وأن يجنى من وراء ذلك فوائد لا تحصر ٠

ولقد رأى بعض المؤلفين فى تلك الحرية التى للمشترى ما يتنافى الى حد ما مع قواعد الأخلاق ، اذ أنه اذا أصبح الكتاب بعد شرائه موضوعا لمعاملات تجارية ينتج عنها ربح فمن العدل والحكمة أن يكون للكاتب من هذا الربح نصيب ٠

ولقد استشهد الكتاب فى ذلك بحالة المصورين ، ومن المعلوم أن بعض اللوحات التى يشتريها الهواة بثمن محدد نهائى تباع ثم تشترى ثم تباع مرات كثيرة بوساطة هواة آخرين أو تجار أو مصالح تعمل باسم الهيئات الاجتماعية ٠ ولقد يحدث أن يجنى كل هؤلاء الأشخاص من وراء هذا التداول أرباحا طائلة كما تجبى الدولة الضرائب عن كل عملية من تلك العمليات ، وكذلك من الوسطاء من يذهب بنصيب من الربح ، ولايحرم من فائدة تلك العمليات المربحة غير الفنانين مصدر خلق تلك السلع ، ومن المعلوم أن المصورين ومحاميهم قد كافحوا كفاحا له مايبرره منطقيا ليكون لهم حق التتبع ٠

وعلى هذا النحو دعا الكتاب الى منحهم حقا يشبه حق التتبع على الكتب التى تؤجرها محلات القراءة ، ودخلت الجمعيات الأدبية فى تلك المناقشة التى لم تنته بعد الى حلول نهاية ٠

والمسألة ليست بسيطة ، اذ أنها تتطلب حسابات بالغة التعقيد ، ولكن المختصين يحتجون بأن تحصيل الضرائب من الشركات المختصة بنسخ الصور أو عرضها قد أثارت مشاكل عويصة ومع ذلك قد حلت تلك المشاكل بمهارة ، الواحدة تلو الأخرى ٠

ونحن نرجو أن يصبح من الممكن « مسك دفاتر » حقوق المؤلفين على حد تعبير الاخصائيين ، كما نرجو أن تنتهى هذه الخصومة الى اتفاق يرضى الطرفين ولنعد عن ذلك فى غير وجل ٠

لا شك أن للمؤلفين حقا ــ وعلنا ما لا أرى مانعا من التسليم به ــ فى أن يساهموا فى الربح الذى ينتج عن عمليات قاعات القراءة مهما كان ذلك الربح ضئيلا ٠ ولكن مصلحتهم الكبرى هى أن يقرءوا أكثر قراءة ممكنة ، ومصلحة المؤلفين معلقة فى جملتها بمصالح الثقافة ، وقضية الثقافة مرتبطة بقضية الكتاب ٠ وكل خصومة يمكن أن تسىء الى مصائر

الكتاب فى عالمنا الحاضر ، خصومة خطرة لايجوز أن نشتبك فيهـا وأن نثابر عليها الا فى حذر بالغ • فالكتاب كأداة أساسية لثقافة قوية خصبة مهدد اليوم بخصوم أقوياء • فالقراءة تحتضر — على الأقل — بين صفوف الجماهير • وسوف يحل محل الكتاب عما قريب نظم أخرى للأخبـار ، نظم لم تثبت بعد صلاحيتها • وأنا شخصيا لا أنتظر منها نتائج طيبة ، فاذا كانت هذه الخصومة التى جدت منذ بضع سنين بين المؤلفين ومحلات القراءة ستنتهى آخر الامر الى اختفاء تلك القاعات ، ومن ثم الى نقص عدد القراء فانى أعلن فى صراحة أن هذا الاختفاء سيكون محنة على الثقافة ، ومن ثم كارثة على المؤلفين •

وهناك عدد من الهيئات تعير الكتب بدون أجر ، ولم نر كاتبا سليم الادراك يحاول أن يعارض فى انتشار الأفكار ، بل على العكس من ذلك يأمل كل كاتب جدير بهذا الاسم أن يقرأ كل كتاب من الكتب التى تحمل أفكاره أكبر عدد ممكن من المطالعين والمحبين وان أردت فقل من التلاميذ • وانما يثير بعض النفوس من احتمال نجاح محلات القراءة فكرة سقوط الملكية الأدبية ولو جزئيا فيما يشبه حالة الأملاك العامة واستخدامها كرأس مال يستفيد منه أصحاب الامتيازات الذين لا يعتبر المؤلف واحدا منهم •

وانعدام العدل ظاهريا فى هـذا الأمر خطب يسير ، وانما المحنة الحقيقية هى أن ينصرف الجمهور كلية عن القراءة وهذا ما نحن بسبيله ، وما يجوز أن نمل ملاحظة هذه الظاهرة ومواجهة النتائج التى ستجرها على مستقبل الحضارة •

لقاعات القراءة بالنسبة لهـواة الكتب مزايا لا تتوافر للمكاتب العامة المجانية فالمطبوعات الجديدة ترسل اليها ، وأحيانا من عدة نسخ ، وهم يحرصون على رغبات زبائنهم ويحاولون ارضـاءها ، وهذه القاعات ملحقة عادة بالمكاتب وكثيرا مايحدث أن نرى الكتاب يثير اهتمام من أجره ، فيحاول أن يشتريه اما ليحتفظ به فى مكتبته الخاصة أو ليهديه الى أصدقائه ، ولهذا لا أعتقد أصلا أن نظام الاشتراك فى القراءة يمنع القارىء من شراء الـكتب ، بل نستطيع أن نعتبر قاعات القراءة ملحقا ثمينا للمكتبات ، وهى بمثابة معمل اختبار • هذا ولقد لاحظت أن رواد المكاتب وقاعات القـراءة يحبون أن يلتقوا وأن يتحدثوا فى الموضوعات الأدبية اما فيما بينهم واما مع عمال المكتبة ، وعلى هذا النحو تتكون منتديات يمكن لمثقفى المدينة أو الحى أن يقوموا فيها بتجاربهم ، وأن يبادلوا الغير آراءهم وأن يقلبوا الكتب ويقوموا بما أسميه « قطف عينات » •

وجماع الرأى أنى أرى أن قاعات القراءة ضرورية جدا ، وأنها تخدم الثقافة فهى قلاع بالنسبة للكتاب الذى يحدق به الخطر • فاذا اكتشفت

طريقة عملية بسيطة لارضاء المؤلفين المتبرمين ، رأيت في ذلك بلا ريب ما يسرني وان كنت أعتقد أنه من الواجب قبل كل شيء أن نحافظ على قاعات القراءة • وكلما رأيت مكتبة تفلس أو قاعة قراءة تغلق أبوابها قلت ان هذه ــ في ظروفنا الحالية ــ هزيمة للروح •

- ١٢ -

ان فرنسا تستمد جزءا من نفوذها المعنوى مما يمكن أن نسميه « صادراتها العقلية » : اعمال فنية ومسرحيات وكتب علمية وأدبية وفلسفية . وهذه الصادرات العلمية ستنقص عما قريب الى أن تصير صفرا . وفيما يختص بالكتاب ــ الكتاب الأدبى أو العلمى ــ نرى الموقف مؤلما . فحرب النقود التى تعرقل كل الصناعات ستنتهى بتدمير صناعة الكتاب الفرنسى ، وعدد كبير من البلاد لم تعد تستطيع شراء كتبنا لأنها لا تستطيع أن ترسل نقودا لدفع ثمنها . فالمانيا مثلا ــ المانيا الكثيرة القراءة ، التى تلتهم الكتب ــ قد وصل فيها نظام النقود الى حد يحمل الناشرين الفرنسيين على العدول عن كل عملية تجارية ، خوفا ــ على الأقل ــ من ضياع راس مالهم . وكذلك النمسا والمجر لا يستطيعان أن يشتريا منها شيئا ويدفعان ثمنه والروسيا قد أغلقت أبوابها لأسباب أكثر تعقيدا . وثمة بلاد أخرى كاليونان ورومانيا والبرتغال تقاسى استبدال النقود . وايطاليا اليوم فريسة لهموم يلوح انها تصرفها عن المبادلات العقلية • وأمريكا الجنوبية لم تعد تشترى شيئا . وبلجيكا القارئة المدهشة تقاسى فى يأس . ولما كانت اللغة الفرنسية فيها احدى لغتين قوميتين فانه لا بد للناشرين من أن يصلوا الى اتفاق . وبوجه عام نستطيع أن نقول ان الكتب الفرنسية التى كانت تحمل فى الأمس القريب الى العالم كله عبقريتنا ستمسك عما قريب عن عبور حدود بلادنا .

وما يستطيع أحد أن يغفل عن هذه المحنة ، نعم ان فى عدم استطاعتنا تصريف نبيذنا وسياراتنا وادوات الترف التى ننتجها بل وخضرواتنا وفواكهنا امر مزعج وخسارة كبيرة لسمعتنا ولماليتنا . ومع ذلك فأنا أقرر أن الكارثة الكبرى على العالم وعلينا هى أن لا يستطيع نتاج فرنسا العقلى ان يخرج من فرنسا •

وأنا أقدر أنه سيقال لى « فليكن ! » ولتصبر عبقرية فرنسا ، ولتعمل صناعة الكتب ماتعمله غيرها من الصناعات أثناء أزمات الأسواق

المغلقة فتعيش في السوق الداخلى الى أن تتحسن الاحوال . وهــذا تفكير لا يصدر الا عمن لا يحسنون فهم العصر الذى نعيش فيه . فما يسـميه الاقتصاديون بالسـوق الداخلى سيصبح صفرا عما قريب ، وجمهور العامة كما وضحت باسهاب فى سبيل الانصراف عن الكتــاب ولربما عن القراءة أيضا ، وأقصد بالقراءة ، القراءة المستمرة ، ونتائج هذا الانصراف آخذة فى الاتضاح يوما بعد يوم ، وسيصبح من المستحيل عما قريب نشر الكتب العلمية والفلسفية والأبحاث لعدم وجود قراء ، وكتب كبار الكتــاب القدماء فى الأدب تنفذ ولا يعـــاد طبعها خوفا من الخسارة .

منذ بضع سنين قال لى الفريد فاليت Alfred Valette « هل تعلم أن مؤلفات جيل لافورج Jules Laforgue (١) الشعرية قد نفدت ، وأنه ليس باستطاعتنا أن نعيد طبعها دون أن نخسر فيها ماديا . ومع ذلك فسنعيد طبعها . لافورج شاعر صغير ولكنه هنا فى داره ، دار الرمزيين، وليس باستطاعتنا أن نسقطه من القائمة ـ يجب أن نضحى ـ » وبعد هذا الحديث بثمانية أيام عاد هــذا المدير الماهر يقول لى بعــد أن أطال التفكير . « سنعيد اذن طبـــع مؤلفات لافورج الشـــعرية . ولكننا سنصدرها فى مجلدين وبذلك تكون التضحية المادية أقل» واذا استمرت الأمور على هذا النحو فان الناشرين لن يستطيعوا عما قريب تحمل أقل تضحية ، وسوف يقع الكتاب الكبار فيما أوشك أن يقع فيه لافورج ، وليس من المبالغة أن نظن أنه فى يوم قريب سينتج عن قلة البيـع أن يخرج ديكارت وباسكال ومونتين من المكتبة الحية العـادية ليعتزلوا فى ظلال المكاتب العامة المغبرة ـ ثم ـ ولم لا ؟ ـ فى المخازن . وكل الملمين بمشكلة الكتاب فى فرنسا لا يخفون ما يساورهم من قلق .

- ١٣ -

ليس أخلب للب السائح المثقف بامريكا الجنوبية من رؤية هــذه الشعوب الثملة بحب تلك الثقافة العقلية التى يتطلعون اليها بكل ما فى

---

(١) شاعر فرنسي ولد في مونتفديو ومات بباريس (١٨٦٠ ـ ١٨٨٧) لم ينشر وهو حى غير مجموعتين من الأشعار ، احداهما « الشكايات » Les complaintes ١٨٨٥ وبعد موته نشرت له مجموعة اخرى وله غير ذلك ست قصص فلسفية نثرية مجموعة في مجلد واحد بعنوان « حكم خرافية » «Des Moralités légendaires» ولقد كان لافورج رجلا متشائما ساخرا متأثرا تأثرا واضحا بوتمان وشوبنهور. وهو من قادة «الشعر المرسل » كما أنه من رؤساء الرمزيين ، ولكنه مات صغيرا بالســل ، وقــد ظل تأثيره محدودا وكذلك شهرته .

قلوبهم من حماســـة وعلى نحو ما تتطلع أسرة لوارث لها قد يكون فى مجيئه خلاصها ، كذلك قد أعدت بتلك البلاد كل المعــدات فى انتظــار ميلاد ثقافة أصيلة بهم ، فالمكاتب عامرة والمدارس والمعاهد رائعة ، ولقد ظهر بينهم بالفعل شعراء بعضهم مشرق ، والكتاب الروائيون قد قدموا مايبعث على الأمل القوى حتى لنحس ونعلم أنه سيولد بينهم عما قريب مصورون كبار للنفس البشرية وللهيئة الاجتماعية ، والمؤرخون والفلاسفة آخذون فى العمل وفى كل نواحى النشاط العقلى قد أخرجت بالفعــل امريكا الجنوبية كتبا ممتازة ولكنها لا تكفى لاشباع شهيتها القــوية ، فهى تطلب العون فى اخلاص وحماسة ، وهى تبحث عن الضياء وتنتظر كل ذلك من أوربتنا المنقسـمة التى تحكم على خصوماتها السياســية فى هدوء وعزم ، ولكنها لا تزال تعجب بها من الناحية الروحية .

وباستمرار قد تمتعت فرنسا فى هذا الجزء من العالم بثقة لا حد لها ، فالقراء من سكان أمريكا الجنوبية يضطرون الى الرجوع الى تراجم ليست فى العادة موفقة ولا أمينة لكى يقرءوا الآداب الانجليزية والألمانية ، بينما ينصرف هؤلاء الامريكيون اللاتينيــون عن الوسطاء فى الاتصــال بفرنسا ، فهم يقرءون النص مباشرة وفى هذا خير عميم .

وكلمة التأثير يمكن أن يساء فهمهـــا وهى كلمة جارحة . ولذلك اطرحها . ولكى نفهم العلاقات التى قامت بين فرنسا وأمريكا اللاتينية حتى اليوم يجب أن نتحدث عن الثقة والمحبة والتبادل الروحى . ولكن هل باستطاعتنا ان نستمر فى أن نفوه بتلك الألفاظ السارة لزمن طويل ؟ لا أعتقد ذلك .

فالكتاب الفرنسى يساوى اليوم ثلاثة أو أربعة اضعاف ثمنه قبل الحرب ، وليس فى هذا الثمن مبالغة اذا ذكــرنا أن الأثمان فى فــروع التجارة الاخرى قد بلغت خمسة أو ستة اضعاف ثمنها الاول ، والكتاب الذى يباع عندنا باثنى عشر أو خمسة عشر فرنكا يدفع فيه القــارىء الارجنتينى ــ الذى سنتخذه مثلا ــ ما يوازى على الأقل عشرين فرنكا ، والقرش الارجنتينى قد ضعفت قوة شرائه منذ الأزمة ضعفا قــويا ، والاشياء المادية رخيصة فى الارجنتين فباستطاعة الانســان أن يتنــاول وجبة طعام لا بأس بها بقرش واحد أى بما يســـاوى خمسة فرنكات ونصف تقريبا . وبذلك يجد القارىء الارجنتينى نفسه قائما رغما عنه بين المتع المادية الزهيدة الثمن والمتع العقلية الباهظة الثمن . فالكتاب الفرنسى بالنسبة للأرجنتينى المتردد يكلفه ما تكلفه أربع وجبات جيدة ، فهو يعادل فى ميزانية الفرد العادى ماتزنه فرختان ونصف ، وهـكذا

نرى القارىء القائم بين أبولون (١) «Apollon» ومامون (٢) Mammon يميل غالبا الى أن يقدم القربان لهذا الأخير · ولقد أحست كل بلاد أوروبا بالخطر ، فباعة الكتب الالمان يبيعون كتبهم فى الارجنتين بخصم ٢٥٪ من اثمانها فى داخل المانيا ، وقد استمروا زمنا طويلا على عمل التخفيض القديم فى الأثمان الحديثة ، وفى هذا تضحية كبيرة .

ومع ذلك ماذا تفعل فرنسا ؟ لا شيء . فكتبنا كما قلت فيما اظن تباع فى الارجنتين بزيادة ٢٠٪ أو ٢٥٪ عن ثمنها فى فرنسا ، ولو أننا واجهنا المسألة من الناحية الحسابية لوجدنا أن هذه الزيادة لا اسراف فيها ، وذلك اذا قدرنا مصاريف النقل ومصاريف رد الكتب التى لاتباع ولكن الحساب لا دخل له أصلا فى مثل هذه المشكلة ، فبينما نرى البلاد الاخرى تحاول أن تبسط سلطانها نرى فرنسا لا تحرص حتى على الاحتفاظ بما لها من أصدقاء .

ولسنا فى حاجة الى أن نقول ان النتيجة مزرية بنا ، فبعد سنوات قليلة ستفقد فرنسا كل ثقة روحية تتمتع بها فى بلد من الواضح أنه من بلاد المستقبل .

هذا ولا يزال من الممكن أن نتجنب تلك الكارثة — وهى فى الواقع كارثة — ولذلك يجب أن ننال تضحيات من ثلاثة أشخاص ، والثلاثة هم ، فى غير تردد ، الناشر وشركة الملاحة والدولة .

وأنا لا أجهل أعباء الناشر ، وهى أعباء ثقيلة ، ويزيدها خطورة أنها متغيرة ، وأنه لا يمكن توقعها من يوم الى يوم ، ومع ذلك فيجب على الناشر أن يسلم حتى لا يفقد كل شيء ، واذا كان لا يستطيع أن ينقص من الأثمان — وهذه مسألة تناقش — فليقبل على الأقل أن ترد اليه — فى سهولة — الكتب التى لا تباع . ليقبل « المردود » وناشرو الكتب العلمية بنوع خاص لا يقبلون أى مناقشة . ومع ذلك فتلك الكتب مرتفعة الأثمان بحيث أن الكتاب الواحد مما ثمنه مائتا فرنك مثلا اذا لم يبع ذهب بربح خمسة كتب .

وشركات الملاحة لا يمكن أن تصم آذانها عن انذار كهذا . والامر يتعلق بمصلحتها على نحو قد يكون غير مباشر ولكنه محقق فالارجنتينيون

---

(١) أبولون : اله الفنون عند اليونان فهو فى نص ديهامل رمز للحاجات الروحية.

(٢) مامون : لفظ آرامى الأصل (ممنا Mamna — ثروة او مال) استعاره اليونان ثم اللاتين ثم اللغات الأوربية الحديثة ، وقد استخدمه المسيح فى الانجيل للدلالة على المال الذى لا يكسب من وجه حلال ، وهو نص ديهامل مستخدم بمعنى اله المادة ، اذ انه يرمز بمقابلته مع أبولون الى الحاجات المادية .

يأتون الى فرنسا لأنهم قد قرءوا كتبنا وأحبوا فرنســـا خلال مؤلفينا ، ولانهم يتكلمون لغتنا . وعنـــدما يأخذ الارجنتينيون فى تذوق الكتب الايطالية والالمانية سيذهبون لتمضية اجازاتهم الى ايطاليا والمانيـــا ، وسيبحرون اليهـــا فى مراكب ايطالية والمانيـــة لانهم سيتكلمون فيها ويسمعون لغات يعرفونها ويفهمونها . فالمصالح كلها مشتبكة فى مسألة خطيرة كهذه ، واذن فلنطلب الى شركات الملاحة أن تقبل مثـلا ارجاع الكتب التى لم تبع بغير أجر (١) . وماذا تزن بعض من الحقائب توضع فى قاع المركب ؟ ان هـذا التسامح البســيط سيخفف العبء عن باعة الكتب تخفيفا محسوسا .

وأما الدولة فهل من الضرورى أن نلقنها واجبها ؟ وهـل للدولة ـ تلك الشخصية المعنوية التى لا نسـتطيع الامســاك بها ـ أن ترعى المصالح العليا لفرنسا الحيــة ؟ اذا صح ذلك تكون المســألة فى منتهى البســاطة ، فليمنح وزير البريد والتلغراف للكتاب الذى يرســل الى الخارج تخفيضا فى أجور النقل ، وبذلك يتضح الاشكال بل يكاد يحل .

وانا هنا أقدم انذارا ، ولكن هل سيسمع وسط صخب عصرنا ؟ لست أدرى ، ولكنى رغم ذلك أرفع الصوت. والامر ليس أمر منافسات خاوية بين الشعوب المختلفة ، بل انه أمر كنز كبير من الفن والعـلم والروح والانسانية ، العالم كله فى حاجة اليه ، ومن الممكن أن تحـرمه منه معارضة عمياء ، يقوم بها دائما قوم لا يجيدون الحساب .

- ١٤ -

منذ الآن قد ولدت الصعوبات القاسية التى تتخبط فيها الثقـافة فى فرنسا ـ وفى غيرها من البلاد بلا ريب ـ نتائج سيظهر أثرها عما قريب لاضعف الناس ملاحظة .

فعدد من النفوس الخالقة ، سينصرف عما يمكن أن نسميه «العبارة المطبـــوعة» ، والبعض يفعلون ذلك فى نوع من الغبطة والامل فى أن يخلقوا فنا جديدا . وهؤلاء هـــم السينمائيون الملهمون ، أولئك الذين يحملون أنفسهم على التفكير ، لا بالالفاظ بل بالصور والظلال والاضواء ، ومن الممكن أن نفترض أنه بالرغـــم من مطالب الآلة الناطقة فان النص

(١) يظهر أن هذا الطلب على وشك القبول (المؤلف)

سينتهى فى تطور السينما القريب الى أن لا تكون له من الأهمية فوق ما للتوابل ٠

وثمت نفوس أخرى ، تنصرف راضية أو مرغمة الى الراديو . وما أظن أنها مدفوعة بنزعة آمرة الى أداء تلك الرسالة ، فمتشندقو الراديو لا يرون الجمهور الذى يتحدثون اليه ٠ وهم لا يستفيدون من حماسة الخطابة الا أن يكون ذلك بارهاق لخيالهم ، وأما عن ثمن جهدهم فثمن بخس كما ساوضح فيما بعد ، وفى كل هذا ما يحملنى على الاعتقاد بأن الكاتب الذى ينصرف الى الراديو انما يفعل ذلك ليشق لنفسه طريقا جديدا ، وليضمن متنفسات جديدة ، وليصل الى جمهور جديد ، ولينمى مصادره ، ثم ليعبر عن نفسه ، رغم كل شىء ، أى ليلتمس مخرجا لذلك الشيطان الذى يضنيه ، وهكذا تراه رغم ما فى طبعه من نزوع الى الخلود يقنع بما هو فان ٠ فالكتاب والنشرة والوثيقة المكتوبة ــ وان تكن عرضة للتحطيم والتجريح ــ الا أنها رغم ذلك تنهض بالنسبة لنا ــ نحن الكائنات الفانية ــ كرمز للخلود ، وفى اعتقادى أن الكاتب لا ينصرف فى غير الم عن الطباعة التى يستطيع أن يثبت بها عمله ويخلف أثر جهده وحماسته ٠

والراديو لم يقطع بعد كل علاقة له بالنص ، فهو لا يزال فى مرحلتنا الراهنة بحاجة الى نص مكتوب باليد ، فالمؤلف مضطر الى أن يقود أفكاره حتى تصل الى الألفاظ ، وفى هذا جهد كبير وخير كثير ٠ نعم خير كثير وأكرر اللفظ كلما ذكرت تلك الفوضى التى نعيش فيها ، وما أظن أنى أخطىء اذا قلت ان معظم الكتاب الحقيقيين الذين يتحدثون فى الراديو ، يودون لو نشروا نتائج جهدهم ففى هذا بلا ريب ما يسير بها الى مصيرها الطبيعى ، وبعضهم يستطيع أن يفعل ذلك ، ولكن هؤلاء قليلو العدد ، وأما الآخرون فمضطرون الى أن يروا أفكارهم تفنى فى رعشة الموجات ، وتلك محنة مؤلمة ٠

وكل شىء يحمل الناظر غير المتحيز على الاعتقاد بأن الكثير من دور النشر سيضطر الى اغلاق أبوابه فى السنين المقبلة ، والمجلات الكبيرة التى ما يزال يستخدمها ــ كرسول للروح ــ عدد من العاملين والباحثين والنفوس المبتكرة ، تلك المجلات الكبيرة لن تستطيع أن تقاوم ــ الا بوسائل اقتصادية أو سياسية مؤقتة ــ وسائل غريبة عن الادب ٠ والمكتبات أيضا فى محنة ، فتشريع العمل والتشريع المالى يثيران أمامها مشاكل لا تملك حلا لها ، والرجل الذى كنا نسميه بالامس « كاتبا » يحس أنه سيصبح عما قريب « متحدثا » ، فهو اذن لن يختفى ، اذ ستظل هناك حاجة اليه فيستمر ويدوم فى المجتمع الجديد ٠ ولكنه سيسلب تقريبا كل امتيازاته القديمة ٠

واذاعة الدولة ، التى أتخذها مثلا ، تطلب ما لم يسبق نشره وهى تجد فى تلك خيرها ما دامت تقدم الى السامعين أقوالا جديدة • ولها فى عملها هذا ما يبرره ، اذ أنها تؤوى بذلك نصوصا كان من الممكن لولاها أن تفنى بالاختناق فى سجن الادراج ، فالاذاعة غول نهم ، يلتهم ويرسل بخارا مسرحيات ، وقصصا وأقاصيص ، وأحاديث وتقارير ، ومقالات وأشعارا • ولكن ليحذر الكتاب ، فالاذاعة التى يرون فيها اليوم وسيلة ثانوية أو متممة ستصبح ـ بعد خمس عشرة سنة أو عشرين ـ الوسيلة الاساسية للعبارة ، وذلك اذا سارت الامور على نحـــو ما تسير اليوم ، وانه لمن الممكن كل الامكان أن يجد الكتاب بعـــد زمن قريب صعوبات كبيرة فى نشر كتبهم ، فيضطرون الى الاكتفاء بالقائها أمام الميكروفون وعما قريب سيعود الكاتب شاعرا متجولا كمـــا كان الحال فى القرون الوسطى قبل اختراع الطبـــاعة ، بل نستطيع أن نفترض أنه سيمل الكتابة وتحضير نصوص لا تلبث أن تتحول الى ضوضاء •• ولربما اكتفى بأن يرتجل فى الموضوعات التى يعالجها •

فليكن ! فليكن ! سيقول البعض : فسيزدهر فن جديد • ومخترع الاساطير ، وناشر الافكار ، أى الكاتب القـــديم ، سيلابس الظروف وسيحتفظ رغم كل شىء بمكانه بين القوى المختلفة •

ولكنه يخشى لسوء الطالع أن يتضاءل هذا المكان شيئا فشيئا حتى يصبح مكانا حقيرا ، ولكم ملئت دهشة مؤلمة عندما راجعت وثائق اذاعة الدولة فوجدت عددا كبيرا من الكتاب يعملون لتلك المؤسسة ، وأغلب هؤلاء الكتاب أناس لهم مكانتهم ولهم شهرتهم • وهم يخضعونهم لألوان من الاختبار : يجب أن تكون لديهم أفكار ، وأن يقترحوها وأن يحصلوا على الموافقة عليها وأن ينفذوها أى يكتبوها ، ثم عليهم أن ينتقلوا ، وذلك لان الاذاعة لا تعمل بالمنزل ، وفى النهاية يطلبون اليهم مجهودا صوتيا يتطلب صفات خاصة بل وتربية خاصة ، وكل هذا العمل المعقد يكافأون عليه أبخس المكافآت ، وانه لمن المؤلم أن نرى تلك المكافآت تنحط فى فرنسا ـ البلد ذى الثقافة الرفيعة ـ بعيدا عما يتقاضاه الكتاب عن نفس العمل فى كل البلاد الأجنبية تقريبـــا ، نعم من المؤلم أن نرى الرجال الذين تطلب اليهم كل تلك التضحيات ـ وأولها أن يتركوا ثمرة جهودهم تتبدد أنفاسا ـ يتقاضون أجرا منحطا كهذا •

والممثلون يعاملون معاملة خيرا من هـــذه ، وأنا أعترف عن طيب خاطر أنهم يقومون « بتجارب » ولكن الكاتب يعطى شيئا آخر غير الزمن والأنفاس ، يعطى عناصر نفسه ، فهو الذى يخلق وهو أصل كل شىء ـ ولذا فهو يستحق معاملة ممتازة •

والازراء بالخالق المكتشف المبتكر مخترع الصور والاساطير ، نافث الحياة فى الألفـــاظ والأفكار ، وفى كلمة واحدة الازراء بالكاتب ليس مجرد مشكلة نقابية • فاذا وضع الشاعر تحت الوصاية وأرغم على صغار الأعمال وطرح بين صفوف صغار الموظفين ، شقى بذلك الجميع • واذا حرمت الروح من رسلها وأسلحتها ، وانحصرت فى تلك المهام الحقيرة ـ وقد خمدت يقظتها وتخلت عن الكفاح ـ أوشكت جماهير الناس أن تترك بغير قيادة بين أيدى ذوى المطامع المغرضة ، وأوشكت الهيئة الاجتماعية أن ترتد الى الهمجية الاولى •

ومشروع المسيو جان زاى Jean Zay (١) يحمل على الاعتقاد بأن الدولة تريد أن تحمى الكاتب من أناس كثيرين • من الناشر مثلا ، وفى هذا غالبـــا ما تستحق من أجله الشكر ، ويلوح لى أن الظرف مناسب لنطلب الى الدولة أن تحمى الكاتب أيضا من الدولة •

الدفاع عن الكاتب فى هذا العصر المضطرب دفاع عن الثقافة أى دفاع عن قضية الانسان •

ومن واجب السلطات العامة أن تتناول المشكلة •

وعلى الكتاب أن يظهروا جميعهم ، فى نفس واحد ، أنهم قد أدركوا الخطر ، وأن قضيتهم ـ التى هى قضية الروح ـ تتحد على نحو ما بقضية الجنس البشرى •

---

(١) وزير المعارف في وزارة بلوم Blum الاشـتراكية ، ومطالبة ديهامل للدولة بأن تحمى الكاتب من الدولة اشارة الى نظرية الاشتراكيين في الادب ورغبتهم في أن يتخذوا من الكتــاب وســائل للدفاع عن مذهبهم الســياسي ونشر مبادئهم ، فالأدب عند الاشتراكيين خادم للاغراض الاجتماعية التى يسعون اليها ، وديهامل من أنصـــار حرية الادب وفردية الكاتب ، وعنده أن غاية الادب الاولى هى مساعدتنا على فهم النفوس والاشياء كما هى. واما الدعوة الى مذاهب معينة فليست من الأدب كما سيوضح فيما بعد.

وأما مشروع جان زاى المشار اليه هنـا فمشروع قانون لحمـاية حقوق المؤلفين وتنظيم علاقاتهم بالناشرين •

الجزء الثاني
علم المحسن وواجباتها

- ١ -

الأساتذة والمتنبئون

لقد سقطت أوائل قطرات الخريف ؛ وها هو الصيف يولى بلهيبه وبذخه ، ها هو يرسل الى قبل أن يختفى وراء التل ابتسامة ، وانهـا لابتسامة مؤلمة ، اذ أراها تمزق فؤادى ٠

تركت مكتبى حيث تكدست على المنضدة مئـات من الخطابات الساذجة ، وفى كل منها طلب شىء ، أو عرض لمشكلة ملحة ، وصعدت الى أعلى حديقتنا الشقراء ٠ هنالك الى جوار سياج الاشجار الضاربة الى الاصفرار أخذت أتروض وحيدا وأستنشق طليعة روائح العالم الجديد ٠ فنحن اليوم فى أعقاب فصل منصرم ٠ فى قلب هذا الاضطراب حاولت ان أضع شيئا من النظام الذى يشبه السلام ٠

لقد أكلت بالفعـل الجانب الأكبر من حياتى ، ومن يوم الى يوم أتقدم خلال أحراج من المشاكل الخانقة السامة التى تشتبك وتتداخل كلبلاب قاتل معقد ، ولكننى لست تعبا ولا يائسا ، وان أكن مهموما . لانى أريد أن أبذل كل ما فى وسعى ٠ بودى أن أستطيع الرد على كل الاسئلة التى تلقى الى ٠ لقد حدثنى الشبان عن همـومهم ، وما أريد الا أن أكون عنـد ظنهم بى ، ولكن خوفى من أن يأتى جوابى سابقا لأوانه ، دالا على المجازفة والغرور ، يملؤنى رهبة ٠

ها أنا أسير وحيدا بالمشاة فوق خشب قد نصلت خضرته ، ومع ذلك أقدر وأزن وأقتبس وأبلو الواقع والافكار والالفاظ ٠

وفجأة عاد الى ذاكرتي موقف صغير هـو احدى ذكريات شبابي ، أعني ذكريات شبابنا . كنا في الســـــادسة أو السابعة والعشرين من عمرنا ، وكان ذلك عقب ابتدائنا في المسرح مباشرة ، جل رومان (١) J. Romains وأنا ، اذ مثلت أولى رواياتنا في نفس الموسم وبنفس المسرح (اديون انتوان (٢) (Odéon d'Antoine

في ذلك اليوم كنا نشهد تمثيـــل رواية لا أذكرها الآن ، وذلك بمسرح الفنون Theatre des Arts وفي أثناء الاستراحة كانت المشاة مضاءة بنور رمادي يشبه ضـــياء الشفق ، وبينما كنا نتحدث ، ونحن

---

(١) Jules Romains جيل رومان كاتب فرنسي كبير ولد في سان جوليان شاتل Saint Gulien Chapteuil سنة ١٨٨٥ ، وفي سنة ١٩٠٦ اصبح عضوا في مدرسة المعلمين وفي سنة ١٩٠٦ نال الاجريجاسيون في الفلسفة ، ومنذ سنة ١٩٠٣ شغلته فكرة الوحدة Unanimisme اي وصف الروح العامة التي تحرك كل هيئة اجتماعية. وقد أسس مع ديهامل وبعض الكتاب الآخرين الدير Abbaye وهو منزل استأجروه واطلقوا عليه هذا الاسم . كانوا يجتمعون به ، ويقرأون ما يكتبون وينشرونه ، ولجيل رومان روايات كثيرة أحدثها في التاريخ (١٩٣٢) سلسلة بعنوان « الرجال ذوو العزم » Les Hommes de bonne volonté كما أن له عدة دواوين من الشعر وفي كتاب صغير عن « العروض» La versification الفه مع الكاتب الشاعر شنفيير G. Chennevière (١٩٢٣) يبسط رومان رأيه في الشعر وهو يرى أن نغمات بسيطة من أحرف صامتة وصائتة تكرر من بيت الى بيت تكفي لتوليد الاحساس بالشعر، وليس من الضروري أن يكون هذا التكرار في آخر الابيات اي في القافية . ثم له مسرحيات ، ولقد كان نجاحه في المسرح أكبر من نجاحه في الشعر وفي الرواية ، وذلك لما في تلك المسرحيات من روح العبث والسخرية اللاذعة والنقد الاخلاقي ، ولعل خير مسرحياته وأدلها على صفاته مسرحية الدكتور كنوك Dr. Knock.

أما المسرحية التي يشير اليها ديهامل فهي « الجيش في المدينة L'armée dans la ville » وقد أخرجها انطوان بالاديون سنة ١٩١١ أي مع «الضوء» لديهامل في نفس العام وبنفس المسرح .

(٢) André Antoine اندريه انطوان ممثل ومدير مسرحي ولد في ليموج سنة ١٨٥٧ واشتغل أولا بمصلحة الغاز ، ثم أسس سنة ١٨٨٧ «التيترلبر» « المسرح الحر ». وقد حرص فيه على الدقة في الاخراج ومثل فيه عدة روايات أغلبها واقعي كان يكتبها الشبان على نحو جديد ، وفي سنة ١٨٩٧ فتح في بولفار سبستوبول « مسرح أنطوان » Théâtre Antoine والف فرقة ممتازة من الممثلين الذين اختارهم وفقا لمذهبه المسرحي ورايه في التمثيل ، وطلب الى الشبان من الكتاب الذين كانوا يريدون أن يجددوا الفن المسرحي أن يقدموا له مسرحياتهم ، وهكذا مثل عدة روايات فرنسية وأجنبية أصبح للكثير منها اليوم شهرة واسعة ومن سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩١٣ ادار الاوديون .

وقد أظهر خلال هذه المدة نشاطا بالغا وأخرج عدة روايات قيمة ، ومنذ سنة ١٩١٣ انصرف الى النقد المسرحي .

وأول مسرحيات ديهامل التي يشير اليها هنا هي « الضوء » La Lumière وقد أخرجها أنطوان بالأديون سنة ١٩١١ .

سائرون في هذا المكان الضيق ، اذ أخذ رومان بذراعي قائلا : انظر : وعلى بضع خطوات منا رأينا ثلاثة رجال يتناقشون مناقشة ودية ، عرفنا للحظتنا من هم، فأخذت ضربات قلبي تسرع • كانوا موريس ماترلنك(١) Maurice Maeterlink وهنرى دى رينيه (٢) Henri de Régnier واميل فرهيرن (٣) Emile Verhaeren.

---

(١) موريس ماترلنك Maurice Maeterlink كاتب ومؤلف مسرحي بلجيكي ولد في جان Gand سنة ١٨٦٢ ، وقد انصرف عن المحاماة الى الادب الذى ابتدأ فيه صغيرا بديوان صغير من الشعر يظهر فيه القلق ونفاذ النفس (١٨٨٩) ، ثم نشر في نفس العام مسرحية « البرنسيسة مالين » Princesse Maleine وهي التي سببت شهرته ، اذ كتب عنهـا الكاتب الذائع الصيت اذ ذاك مربو Mirbeau مقالا رائعا يفيض حماسة ثم توالت مسرحياته . وقد ترجم الدكتور حسن صادق احداها الى اللغة العربية ونشرها مع مسرحية « الحب والدسيسة » لشلر وهي « بلياس ومليزاند » Pelléas et Mélisande المسرحية الرمزية ، ولقد برع ماترلنك في هذه المسرحية وفي كل مسرحياته في الكشف عن أسرار النفس وما بها من غموض واضطراب في خفايا اللاوعي ، ومن أجمل ما كتب مسرحية « مارى ماجدلين » التي أظن انها قد ترجمت الى العربية ، ثم ان له عدة كتب غنية بالتفكير الفلسفي ، والعالم كله يعرف له « حياة النحل » و « حياة النمل » وقد نال جائزة نوبل سنة ١٩١٣ .

(٢) هنرى دى رينيه Henri de Régnier كاتب وشاعر فرنسي ولد في هونفلير Honfleur سنة ١٨٦٤ وابتدأ حياته بالعمل في مجلة ليتيس Lutèce ، ثم نشر عدة دواوين من الشعر ، ولقد تتلمذ أول الأمر في الشعر لهريديا والكونت دى ليل ، ثم لم يلبث ان أخذ يكتب أشعارا مرسلة Vers libres اى طليقة من القافية واطراد الأوزان ، وهو شاعر أصيل بصياغته وانسجام شعره لم برقة نفسه وما يغشيها من حجب شفافة ، وهو أحد زعماء الرمزية في فرنسا ، وأخيرا عاد الى الشعر الكلاسيكى ، وله عدة كتب في النقد وفي وصف وتحليل ما خلفته في نفسه بعض المشاهد والذكريات ، وله عدة قصص صغيرة لم مجموعة من الروايات ، ورواياته كالكثير من شعره تنص بالماضي وبالذكريات تحاول بعثها ولكنها لا تخلو من تكلف في الأسلوب وجنوح الى التعابير القديمة ، فهو أستقراطى في كل ماكتب وأستقراطى في زمن كانت فيه دولة الارستقراطية قد دالت ، ولذا عاد بخياله الى الماضي ، ولقد تزوج سنة ١٨٩٦ باحدى بنات هرديا وهي اديبة تعرف في تاريخ الآداب الفرنسية باسم جيرارد دوفل Girard d'Houville وقد انتخب سنة ١٩١١ عضوا في المجمع اللغوى الفرنسي .

(٣) فرهيرن Verhaeren شاعر بلجيكى ولد في سانت أمان Saint-Amand الى جوار انفرس سنة ١٨٥٥ ، ومات بصدمة قطار في روان سنة ١٩١٦ ، ولقد درس في بروكسل وجان ولوفان التي درس فيها القانون ثم اشترك في تحرير «بلجيكا الفتية» La Jeune Belgique وفي سنة ١٨٨٣ نشر «الفلمنديات» les Flamandes وهي مجموعة قصائد يشيد فيها بمسقط رأسه ، وأشعاره عامرة بالحياة . وفي سنة ١٨٨٦ نشر « الرهبان » Les Moines وهي أشعار تجمع بين الواقعية والتصوف في قوة رائعة ، وبين سنة ١٨٨٦ و ١٨٩١ مرض الشاعر وفي أثناء هذه الفترة كتب « الأمسية » Les Soirs « والهزائم » Les Débacles « والمشاعل السوداء » Les Flambeaux Noirs (١٨٩٠) وفيها أمارات المرض ، ومن ذلك الحين حل =

وقال رومان فى حماسة ساحرة تشبه الكبرياء : هذه بلا ريب بقعة من الارض كثافة الانسانية فيها موفورة الغنى •

ولزمنا مواقع أقدامنا ، وقد احتبست منا الأنفاس •

وأخيرا قلت

هل فى عزمك أن توجه اليهم الحديث •

فهز رومان رأسه وابتسم ، ثم تمتم :

لا • لا داعى لاقلاقهم •

وقد كان هذا رأيي • وكنت عندئذ أعرف اميل فرهيرن شخصيا - اذ كان منذ البدء قد خصنى باشارة ودية • وكان قد استقبلنى فى لطف بمنزله الصغير بسان كلو Saint Cloud حيث اتخذ مشتاه •.

وكانت علاقاتى بماترلنك وهنرى دى رينيه على نحو ماكنت أستطيع أن أرجو ، وأنا أقول هذا مخلصا ، فما كنت أرجو ولا أجرؤ أن أرجو أكثر مما كان • كنت أرسل مؤلفاتى الى هؤلاء الاساتذة مع اهداء حار ، فأتلقى أحيانا ردا رقيقا صغيرا أرى فيه ما يرضي كل رغباتى ، وبعد ذلك بزمن طويل : بعد الحرب ، وبعد أن أظهر لى هنرى دى رينيه دلائل التقدير غير مرة ، وبعد أن مررت به أو لاقيته فى صمت عشرين مرة ، سمحت لنفسى أن يقدمنى اليه ألفريد فاليت ناشر كتبنا نحن الاثنين اذ كنا مجتمعين بمنزله ، ومنذ ذلك اليوم حبانى هنرى دى رينيه بصداقته الفعالة • ولقد عرفت له فضله بقلب منشرح • وأما موريس ماترلنك ، فقد أظهر لى فى خطاباته أجمل آيات المحبة حتى سافرت فى رحلة سنحت لى أثناءها فرصة لمقابلته ، فاستطعت أن أخرج عن ذلك التحفظ الذى كان يمليه الاحترام •

---

* اليأس في شعر فرهيرن محل الامل والاقبال على الحياة ولكنه شعر انسانى عميق صادق، ومنذ سنة ١٨٩١ اخذ يكتب « اشمارا مرسلة » وله في ذلك عدة دواوين ، كما كتب ثلاث مسرحيات شعرية ، وكتابا نثريا بعنوان « قصص نصف الليل » والكثير من المقالات في الادب والفن والنقد . ولقد ابتدأ فرهيرن على مذهب البرناس وزعيمه الكونت دى ليل ، ولكنه انتهى الى الرمزية وان يكن في شعره من الاسراف في الرؤية الشعرية مالانجد له مثيلا عند اى رمزى آخر ..

ولقد لاقيت أناتول فرانس(١) Anatole France مرة واحدة قبل موته بعام عند أصدقاء دعونا لتناول الطعام ، ولولا هذه المصادفة لما علمت أن هذا الاستاذ القديم كان يقرأ مؤلفاتي ويقدرها • ورأيت باريس Barres (٢) مرتين في هيئات تحكيم أدبية كنت معه عضوا فيها • وحادثت بورجيه (٣) Bourget مرة واحدة في ظروف مشابهة ، وكان لاشتراكي في أعمال بعض هيئات التحكيم أو الجمعيات الفضل في أن استطعت تحية عدد من أساتذة الجيل الذي سبقنا • وقد كتبت عن مؤلفات كلوديل (٤) Claudel حوالي سنة ١٩١٢ كتابا كاملا دون أن اقوم بأية محاولة لمعرفة الرجل ، مما قد يراه البعض خطأ ، ولكنني لن أناقش هذا الرأي • ولو أنني لم أتعرف الى فاليري Valery عند صديقنا المشترك لوك ديرتان Luc Durtain الكاتب البارع والطبيب الماهر الذي كان يكوي بالكهرباء حلقينا الواحد بعد الآخر اذن لما قابلته الا بمكتبة أدرين مونييه Adrienne Monnier أو بعد ذلك بكثير في الجمعيات أو الهيئات التي نعمل فيها سويا • ولقد كتبت قديما مرة الى جيل رنار (٥) Jules Renard عن مسألة في فن الادب ولكني لم أعبر قط عتبة منزله ، ولقد راسلت جورمون (٦) Gourmont ، ولكني لم أدن منه قط •

(١) اناتول فرانس Anatole France ولد في باريس سنة ١٨٤٤ ومات سنة ١٩٢٤ في سان سيرلوار Saint-Cyr-Loire وهو كاتب معروف في مصر وفي العالم اجمع وقد ترجمت الى العربية عدة روايات من تاليفه . نذكر منها «الزنبقة الحمراء» و «تاييس» و «جريمة سلفستر بونار» واجزاء من «حديقة أبيقور» والكل يعرف روح السخرية البادية في فنه وملكة النفاذ وخفة الاسلوب وجماله ، ولقد كان عضوا بالمجمع اللغوى الفرنسي •

(٢) موريس باريس Maurice Barres ولد في شارم Charmes بمقاطعة الفوج سنة ١٨٦٢ ومات سنة ١٩٢٣ وهو كاتب عرف بدقة التحليل النفسي وتجويد الأسلوب، وله عدة روايات ومذكرات . ومن رواياته الرائعة «قربان الى الحب والالم» و «الحب والشهوة والموت» و «التل الملهم» .. الخ وجماع نظرته الى الحياة تتلخص فيما سماه «عبادة الذات» Le Culte du moi ، ولقد عمل باريس على دفع الشبيبة الفرنسية الى استنقاذ مسقط راسه من الالمان ودعاهم الى ذلك بقلمه ولسانه حتى اذا نشبت حرب سنة ١٩١٤ اخذ يدون مذكرات تلك الحرب في مجلدات ضخمة تشهد بمجد فرنسا .

(٣) عن بورجيه انظر الهامش الخاص به في الجزء الثالث •

(٤) عن كلوديل انظر مقدمة المترجم •

(٥) عن جيل رينار انظر الهامش الخاص به في الجزء الثالث •

(٦) جورمون : هنري دي جورمون ولد بمقاطعة الاورن سنة ١٨٥٨ ومات بباريس سنة ١٩١٥ وله روايات عدة وجملة مسرحيات ، وهو كاتب مغرم بالافكار مدقق فيها ، ونزعته الخلقية نزعة اباء واستقلال بالرأى وان يكن كثير الشكوك• ولقد كان دي جورمون اكبر نقاد الرمزيين نفوذا ، وله في النقد عدة مجلدات •

ولأن ديكاف (١) Descaves سبق الى منه قديما فضل متناهي الكرم ، سمحت لنفسي أن أذهب لتحيته ، ولقـــد رأيت موريـاس(٢) Moreas مرة ولكني لم أوجه اليه الحـــديث · وباستطاعتي أن أفرد جيد (٣) Gide بذكر خاص ، فلقد رأيته أول مرة منـــذ أكثر من عشرين سنة في قاعة صغيرة بشارع فسكونتي Visconti ، في الانيون على وجه التحقيق ، وكان يلقى محـــاضرة عن شاعرين أو ثـــلاثة ، أجرؤ فاقول اني كنت واحدا منهم · ولقد قرأ ذلك اليوم عدة من قصائدي بصوت رائع · ان ذاكرتي قوية !

وهل من الضروري أن أكثر من الأمثـــلة · أظن أنه لا فائدة في ذلك ، وما قلت عن أساتذتنا وسابقينا أستطيـــع أن أقوله عن أندادي ورفقائي · لقد احترمت دائما عملهم وأوقات فراغهم ، واحتطت لعدم

---

(١) لوسيان ديكاف Lucien Descaves اديب وصحفي ولد في باريس سنة ١٨٦١ وهو كاتب من أنصار المذهب الطبيعي في الروايات، دقيق الملاحظة، مرهف حزينها، وقد اشترك في تحرير عدة جرائد كما كتب جملة روايات ، ولقد حوكم أمام محكمة الجنايات من اجل رواية « ضباط الصف » Les Sous-Offs بتهمة اهانة الجيش وتجريح الأخلاق ، ولكنه برىء سنة ١٨٩٠ وله رواية قيمة عن مكفوفي البصر عنوانها « سجناء الجدران » Les Emmurés وعدة مسرحيات منها الدراما الطبيعة ومنها الكوميديا العاطفية ومنها المسرحية الاجتماعية كمسرحية « الطيور العابرة » التي الفها مع دوناي Donnay الخ ولوسيان ديكاف عضو في مجمع جونكور منذ سنة ١٩٠٠ .

(٢) جان موريـاس Jean Moreas شاعر فرنسي ولد في آثينا سنة ١٨٥٦ ومات في باريس سنة ١٩١٠ ، ولقد تعلم تعليما فرنسيا وأمضى شبابه بمرسيليا ثم قام بسياحات في المانيا وسويسرا وايطاليا ، واستقر أخيرا بباريس منذ سنة ١٨٨٢ · وقد كان في أول حياته من الرمزيين ثم استقل منهم وكون مع شارل موراس وغيرهما « المذهب الروماني » وله في كلا المذهبين عدة دواوين . وأخيرا عدل عن الشعر المرسل وعاد الى الشعر التقليدي وفيه كتب الاستانزا Stances في ستة كتب (١٨٩٦ — ١٩٠١) وفيها يجنح الى رواقية يائسة يعبر عنها باسلوب منسجم جميل · وفي نفس هذه الفترة كتب مسرحية « اليجينيا في اوليس » Iphigeneia à Aulis مقتبسة من مسرحية اوربيدس التي تحمل نفس العنوان ، واخيرا كتب روايتين بالاشتراك مع بول آدم ثم مجموعتين احداهما « قصص فرنسا القديمة » Contes de la Vieille France ثم « تخطيطات وذكريات » Esquisses et Souvenirs هذا ويلاحظ أن الاسم موريـاس هو الاسم الأدبي وأما اسمه الحقيقي اليوناني فهو Papadiamantopoulos

(٣) اندريه جيد André Gide كاتب فرنسي ولد في باريس سنة ١٨٦٩ وله عدة روايات ومقالات في النقد وقد ترجمت له الى العربية رواية « السمفونية الريفية » والنقاد يرون في « عودة الطفل المسرف » Le Retour d'un enfant prodigue خير ماكتب وفي مجموعة الخواطر « اغذية الارض » Les Nourritures Terrestres تلخيص لآرائه على نحو ما لخص اناتول فرانس نظـراته الى الفن والحياة في « حديقة أبيقور » واندريه جيد رجل شاذ الاهواء كما نستطيع ان نرى ذلك في بعض كتبه وبخاصة في « اذا لم تمت البذرة » Si le grain ne meurt وفي غيرها . وله فوق ذلك

اقلاق راحتهم . فهل يمكن أن يفسر هذا التحفظ بالبرود ؟ لا شك لا . وهل يمكن أن نوصي الكل بمثل هـــذا التحفظ ؟ وأن نوصي به في كل حين . لسنا واثقـــين من ذلك . واني لاعاهد نفسي بأن أنظر في هذه المسألة .

هل سنردد كلمة قالها موررياك Mauriac فجرت على كل الالسن ؟ وهل سيظن بجيلنا أنه لم ينشأ هو الآخر على يد أستاذ ؟ آه ! لنقل لا . ولكن لنتحدث أولا عن أولئك الذين كنا نعتبرهم أساتذتنا . يجب أن نسائل ذكرياتنا وأن نعترف بما كنا نطلبه اذ ذاك منهم ، وما كنا ننتظره أو نؤمله .

ان لفظة « جيل » لفظة سهلة غامضة . وفي الحق أني أفكر في بعض الأصدقاء الذين هم من سني كما أفكر في نفسي . وعندما كنا شبانا دخلنا في الادب بنشر قصائد من الشعر كما جرت التقاليد اذ ذاك . والروح الشعرية باستطاعتهـــا أن تستغني عن التجـــارب البشرية . فالموسيقيون والشعراء يؤتون ثمارهم غالبا قبل العشرين ، اذ لا حاجة لمن يغني بأن يعرف العالم ، بل ربما كان من الخير أن يجهله . والمسرح يتطلب حنكة أكبر . وأما الرواية فعمـــــل النضوج ، اذ أن التأليف الروائي القوي الدسم ليس من عمل اليافع مع استثناء حالتين أو ثلاث لا تقدح في صحة الحكم العام . كانت اذن كتبنا الاولى دواوين شعر ، وكان أساتذتنا الأول شعراء ، وكان نفر كبير من الاموات يدخل في عداد من كنا نجلهم كأساتذة ، ونرفع اليهم كل يوم أناشيد الاعجاب والعرفان بالجميل . وأسارع فاقرر أنه لم يكن لذلك في نظرنا أهمية كبيرة . نعم لقد كنا سعداء بأن نذكر أن كلوديل وماترلنك يستنشقان على الارض في نفس الوقت الذي نستنشق فيه ، وهذه فيما أذكر هي بنصهـــــا الالفاظ التي استخدمتها في ذلك الحين . ومع أننا كنا ننتظر اذ ذاك من عبقريتهما الحية نتاجا وشواهد أخرى فاننا لم نكن نتطلع الى أن نفيد أي شيء من معاصرتنا لهما .

= دراسات قيمة عن اوسكار وايلد ودستوفسكي وغيرهما كما انه ترجم الى الفرنسية عن الانجليزية شكسبير وكونراد ويتمان ورابندرانات تاجور ووليم بليك . وكتب كذلك عدة مسرحيات .

وفي هذا الكاتب مزيج من الصياغة الكلاسيكية المتينة والتفكير الغامض الذى لايكاد يدرك ، وهو متأثر بويلد ودستوفسكي ونتشــه ، وهو وان لم يتخلص نهائيا من تأثير الديانة البروتستانية التي نشأ بين احضانها ومن تأثير الانجيل الا انه لا يخضع لغير مقتضيات الفن .

وهو في مؤلفاته يدعو الى تحرير العقل ويمجد رغبات الحس ، بل انه ليدعو الى شهوات مخالفة لطبائع الرجال ، وذلك في غير تردد ولا مواراة . ولقد كان لجيد أكبر الاثر في الآداب الحديثة .

لقد أعطانا أساتذتنا الحى منهم والميت ، الشاب والآخذ فى الأفول ، درسا مزدوجا • أولهما درس فى الفن • فلقد كانت مؤلفاتهم بين أيدينا نتخذ منها قوت حياتنا ، وكنا نعجب بتلك المؤلفات فى حرارة قوية ، وان لم نتخل قط عن اعمال ملكة النقد فيها اعمالا حارا ، وكانت تلك الحرارة تسعى الى أن تتأجج فى مبادلاتنا النفسية ، اذ كنا نجتمع فى المساء عند انتهائنا من أعمالنا فنمتع أنفسنا بالقراءة بصوت مرتفع ، ونتبع ذلك أحيانا « بمنازعات » جميلة حامية الوطيس ، ولقد يتفق أن نقابل اعجابنا شبه البنوى بآراء أكثر هدوءا ، بل وأحيانا بتجاربنا المدرسية •

كنا نأتى بموليير وشكسبير بعد ملرميه Mallarmé ورمبو Rimbaud وكلوديل Claudel وتلك تجارب تبدو شاقة على نفوسنا المتحمسة الفتية ، ولكنى أقول رغم ذلك إنها كانت هينة ، اذ يجب أن نكتشف جلال القدماء بقراءتهم عشرات المرات ، كما يجب أن نعود اليهم أكثر من مرة لنتذوق ما فيهم من جدة حقيقية ، أى من خلود •

وأثناء معاشرتنا لتلك المؤلفات ، كان يحدث أن ننسى المؤلفين ، فلزمن طويل لاح لى كلوديل أبعد من « بوذا » وخياليا مثله ، حتى أن الصداقة الشخصية التى يظهرها لى اليوم لم تستطع بعد أن تمحو من نفسى ذلك الاحساس • وأنا لم أكن أتعجل معرفته اذ كنت أخشى أن أضطر الى عملية مواجهة أو توافق شاقة(١) •

كنا اذن نعيش أولا مع المؤلفات ، ولكننا مع ذلك لم نكن نجهل أشخاص المؤلفين جهلا تاما • ولقد تحدثت عن درس مزدوج ، وفى الحق أننا التمسنا فى الأمثلة التى ضربها لنا أساتذتنا علاوة على درس الفن الخالص نموذجا للحياة الفنية ، وأكرر « الحياة الفنية » ، فأخبار التهتك لم تتناولنا قط ، وكان ما نريد أن نعلم هو : كيف نحيا لننجز عملا جميلا نبيلا •

والغالبية العظمى من الشعراء الرمزيين – ولا أقول طبعا كلهم –

---

(١) لعل ديهامل يشير بالمواجهة والتوافق ، اللذين كان يخشاهما لو قابل كلوديل الى موقف كل منهما من الدين واثر ذلك في أدبه ، فديهامل باعترافه قد فقد الايمان بالديانة الكاثوليكية منذ يفاعته وكلوديل شاعر كاثوليكى متدين ، ومع ذلك كتب ديهامل كتابا عن كلوديل وفهم روحه فهما لم يوفق اليه غيره ، ولعل ديهامل أقرب الى الدين مما يظن ، ولا أدل على ذلك من اله الذى عبر عنه غير مرة لفقده الايمان ، والذى لاشك فيه ان ديهامل قد تأثر بكلوديل الى حد كبير ، وأثر ذلك واضح في شعره وفي رواياته وخصوصا في رواية « سيسل بيننا » فروحه رغم ما يقوله من فقد الايمان يمكن أن تواجه بروح كلوديل ، ولكنه يحتاط فيقول بامكان مجرد التوافق على رأى أو فكرة دون أن يكون ذلك صادرا عن اتفاق في الاتجاه الروحى للرجلين •

قد عاشوا فقراء ، وان كان بعضهم قد عرف الرخـــاء بل الغنى دون أن يخرج فى الغالب من ظلال العزلة ، وهؤلاء الرمزيون كانوا هم الشعراء الذين يكبروننا • وكنا نمجدهم ونبجلهم ، وان ظل عدد منهم مجهولا من الجمهور ، ملفوظا من الادب الفقهى الجامعى ، لا يتنـــاوله بالحديث والمناقشة الحادة الا فريق من خيار المثقفين • ولقد قاسوا أكثر مما قاسى الشعراء الرومانتيكيون من ذلك الانفصال الذى باعد خلال القرن التاسع عشر بين الطبقة المتوسطة وبين الروح الخالقة • وبرغـــم كل ما كان المستقبل يستطيع أن يأتى به من مفاجآت ، فان تلك الحالة قد دفعتنا الى الحرص على أن نحيا حياة شريفة نحميها من كل عثرات العصر ، حياة أمينة على قداسة فن عنيف مرهف •

وماذا كنا نستطيع أن نطلب فى المجال الزمنى من رجال كان أغلبهم لا يزالون يكافحون فى الظلام ، ويطبعون أحيانا مؤلفـــاتهم على نفقتهم الخاصة ، وقد استهدفوا لسخرية الجمهور ولعنة الفقهاء دون أن يعرفوا مجدا غير مجد ندوات الادباء المر يثملون به ؟

وهكذا لم نطلب اليهم شيئا ، وقد اتحد منهم الاحياء والاموات فى تقديسنا لهم • كنا نطلب اليهم أن يوجدوا (١) أو كنا نمتدحهم لانهم قد وجدوا • ولقد كنا نضيف أحيانا الى آلهتنا ، فنعترف بأساتذة جدد دون أن ننكر أساتذتنا القدماء ، وذلك لاننا كنا نحس دائما برغبات جديدة وكنا نكتشف كل يوم آفاقا واتجاهات جديدة •

لقد كان ما نطلبه اذن الى أساتذتنا هو نفس تلك التعـــاليم التى سبق أن أعطونا اياها فاخترناهم من أجلها وحببناهم • وكنا نطلب الحق فى أن نحبهم فى الخفـــاء ، وهذا أقل الحقوق عرضة للمناقشة وأكثر الامتيازات تواضعا • فمحبة التلميذ تخلق الاستاذ قدر ما تخلقه قيمته الشخصية •

فى كل هذا أفكر بينما أجوب مماشى حديقتنـــا فى صباح هذا الخريف • جيل بلا أساتذة ؟ لا • لقد كان لنا أساتذة • أساتذة وجدنا فيهم ما كنا نريد ، أساتذة ما زلنا بعد ربع قرن نحييهم فى انفعـــال وعرفان بالجميل ، أساتذة لا نلقاهم نحن الفنانين الناضجين المخضوبى العوارض الا وقبعاتنا بأيدينا ، وقلوبنا سريعة الضربات •

وأنا أعلم أن العالم قد تغير ، وأنه فى الربع القرن الاخير هذا — قد فقد اتزانه ، بل هل لنا إن نقول معنى الحيـــاة ؟ فالمشاكل الفنية

---

(١) يقصد ديهامل بالوجود الكتابة لان الكاتب كلما ازداد مايكتبه ازداد وجوده وتحقق كيانه .

التى كانت أولى مشاغلنا يلوح ان مشـــــاكل أخرى أخلاقية وسياسية واجتماعية قد سيطرت عليها وشوهتها • وأنا أفهم أن أرى شبانا يمكن أن يكون بعضهم من أبنائنا ، وبعضهم الآخر من اخوتنـــــا الصغار ، يشكون الى من يكبرهم سنا بأقوال مرة متمردة أو متحدية • وما أرميهم بالخطأ ، بل أريد أن أفحص شكواهم ، ولكى أمهد لهذه المناقشة لا أرى من فضول الحديث أن أبدأ وأتابع فحص ضميرى فحصا شاملا •

لقد وضحت كيف اخترنا أساتذتنا وماذا كنـــا ننتظر من هؤلاء الأساتذة نحن الكتاب الذين ابتدءوا فى أوائل هذا القرن •

أما أن يحاول شبان اليوم تكوين أنفسهم بوســـــائل تختلف عن وسائلنا فهذا بعيد عن أن أدهش له • وأما أن يشكوا فهـــذا ما يشغل بالى • واذا كان هناك ما يبرر شكواهم ممن يكبرهم ، فاننى عندئذ أقف لأقول : هيا نتناقش :

يلوح أن الذى بدأ هذه المناقشة هو فرانسوا مورياك أحد أفراد جيلنا • وذلك فى مقال ظهر منذ زمن فى احدى المجلات فكان له دوى • ومن بين الكتابات التى استمدت منها هذه الخصومة المؤلمة عناصرها أضع فى الصدر بحثا نشره Daniel Rops دانيل روبس(١) فى الكرسبوندان Le Correspondant بهذا العنوان الدال « محاكمة الاساتذة » • ولقد رأى الكاتب أنه يستطيع أن يدعونى الى المحاكمة • وفى هذا أكثر مما يكفى لتبرير مخاوفى ، واعطائى حق الدفاع بل واجبه • وعمل دانيل روبس عمل محكم يمكن تلخيصه فيما يأتى : ان الرجال الذين بلغوا الثلاثين أو تخطوها بقليل ، أولئك الذين كانوا أثنـــــاء الحرب تلاميذ مهملين تقريبا ، لم يعثروا فيما بعد بأى كاتب يستطيع أن يكون لهم أستاذا ، أو يرغب فى أن يكون ذلك الاستاذ عندما أخذوا فى ممارسة الادب بل وممارسة الحياة اليومية بوجه عام • وفى الحق أن بعض هؤلاء الشبان لا يريدون أن يكون لهم اى أســــتاذ • وقد بذل الآخرون كل جهدهم ليستغنوا عنه • يبدأ دانيل روبس فيترك جانبا «التأثير الشكلى» و «التأثير الفنى» اذ يقول : « لا يستطيع الكاتب أن يكون أستاذا الا اذا كان ممن يقلبون أفكارا تستطيع أن تمس الشبان بمضمونها وبالصيغة التى أخذتها • »

ولنترك مناقشة تعريف الاستاذ على هذا النحو الى أن يأتى حينها ، وهو تعريف مغر تحكمى ، اذ يجب أن نقابل أولا بين هذه الصورة التى

---

(١) كاتب فرنسي معاصر .

يرسمها دانيل روبس للشبيبة الأدبية الحالية وبين الصور التى توحى الى بها تجربتى الخاصة ٠

لقد راسلت فى الخمس عشرة سنة الأخيرة عددا كبيرا من الشبان ، ومن الواجب أن أسارع الى القـــول بأن فكرة بعض من الشبيبة المثقفة لا تختلف كثيرا عن الفكرة التى كانت لدينا كما بسطتها فى الصفحات السابقة ٠ ولست أقصد بذلك الى إن أنكر دانيل روبس كممثل ممتاز نشيط لهذا الجيل ، يتحدث باسم جزء من هذه الشبيبة ، وهو بلا ريب الجزء الاكثر جرأة ، والاكثر لذعا ، والاكثر مطالب أيضا ٠ ولكنه لايتكلم ولا يستطيع أن يتكلم باسم كل الشبان الذين لا يطلبون الى من يكبرهم — كما قدمت — الا مؤلفات ودلائل على الاستاذية ومثلا للحياة الفنية ثـــم أحيانا صداقة وحرارة ، ودلائل اهتمام شخصى ٠

ولنترك جانبا الصامتين ، وعددهم أقل بكثير مما نظن ٠ ولنحاول لساعتنا أن نعرف نوعا آخر ، أعنى أولئك الذين يودون أن يروا الكتاب الكبار ، وأن يدنوا منهم ، وأن ينفذوا الى المجتمعات ، بل الى الحيـــاة الداخلية لهؤلاء الكتاب الكبار ٠ لقد لاقيت واستقبلت وسألت عددا كبيرا من الشـــــبان ، عرفت أنا وكثيرون من الكتاب الذين فى سنى كيف نفهمهم ٠ ولقد لمست عند عدد منهم مجرد رغبة فى الاستطلاع ، رغبة لا أهمية لها ، اذ سرعان ما تشبع وبعضهم اذ جاءنى عاد الى المجىء ٠ وكنت دائما أنظر الى هؤلاء وجها لوجه ، وأقول بابتسامة جادة : « عودوا كلما أحسستم بالرغبة فى ذلك ، ولربما يأتى يوم لا ترغبون فيه العودة الى رؤيتى ٠٠٠ هو ذا ، صدقونى ، فأنا أعرف سير تلك الظاهرة : حب الاستطلاع نهم فى نفوس الشبان ، وهو يتطلب باستمرار غذاء جديدا ، فاذا جاء يوم لم تعودوا تشعرون فيه برغبة فى المجىء لرؤيتى فلا تخجلوا ، ولا تأتوا الى ، وسوف أفهمكم ولن ألومكم على ذلك ، ولكن اذكروا بنوع خاص أنه اذا عاودتكم بعد ذلك بســـنين رغبة فى رؤيتى من جديد ، فلا تخجلوا أيضا ، ولتأتوا بكل بساطة ، واذا كنت لا أزال عندئذ حيا ، فسوف تجدوننى على استعداد للاستماع اليكم » ٠

ولقد سارت الأمور غالبا على هـذا النحو الذى ذكرت وتوقعت — اذ اختفى بعضهم ثم عاد الى الظهور بعد عدة مغامرات ، والبعض الآخر هجر آفاقى ، ولربما الى الابد ٠ كما أن عددا كبيرا منهم لم يول عنى ، بل أصبح من رفاقى وأصدقائى يقصون على أنبـــاء كفاحهم ويفهموننى مصاعب موقفهم كما يشهدوننى على محنهم ، ولقد طلبوا الى أحيانا أن أعينهم ٠ أى عون ؟ ذلك ما أريد أن أفصله ٠

لقد كان الاستاذ قديما ، فى نظر الفنانين والصناع ، ذلك الذى

يجيد فنا أو علما ما عن معرفة وخبرة فيستطيع بتعاليمه وبالمثل الذى يضربه أن يساعد على تكوين المبتدئين ، وهذا التعريف الذى يتبادر الى الذهن لا يدع قط مجالا الى الخطأ أو اساءة الفهم ولذلك أرى أن « دانيل روبس » قد عقد المشكلة تعقيدا كبيرا ، اذ نحى منذ البدء ما يسميه « التأثير الفنى » ، فعزز بذلك الخلط المخيف بين الاستاذ والكاهن ، وهو خلط لن أتخلى عن ايضاحه فى النهاية ٠

أول واجبات الاستاذ هو أن يتفوق فى فنه ، وهناك عدة أنواع من التفوق فى الفن الواحد ، وهذا يمكننا من أن نفهم لم ينصرف بعض الجدد « الى أستاذ ما ، بينما ينصرف عنه الآخرون ، بل يحتقرونه » ٠

وانا أعرف جيدا أن فن الكتابة لا يوضح كصناعة الخزف أو كالتشريح (١) الوصفى ، ومع ذلك يجب أن نعترف بان المشاكل الفنية أو — اذا أردنا — هموم المهنة والعناية بفن الادب لم تحتل المكان الاول من نفوس الكتاب الشبان ٠

وعندما ننعم (يقال انعم النظر أو : امعن فى النظر) النظر لا نجد فى هذا ما يدعو الى الدهشة ، فمن جهة نجد أن الشبيبة المضطربة المرهقة بما يسود العالم من فوضى قد لجأت فيما يختص بفن العبارة الأدبية الى انكار محنق كما ألقت بنفسها فى يأس الى نزوات مسرفة ٠ وأمثال تلك التجارب لا تذهب قط عبثا ، والمرء يلاحظها فى حسرة ، ولكن فى عطف ، وانه لمن الجنون أن نكتفى بالسخرية منها ، أو نحاول عرقلتها ، بل انه لمن القسوة أن نعلن الى هذه النفوس الحارة — باسم الحقيقة التاريخية الجافة — أن النصر النهائى الذى لا يمكن أن يدفع ، كان دائما لتلك القوانين التى حكمت حتى اليوم اللغة والآداب ، فى فرنسا على الأقل ٠ ومع ذلك فهناك حقيقة لا شك فيها ، هى عدم فائدة الحديث عن المسائل الفنية مع شبيبة طموحه الى قلب الأوضاع الفنية بل تحطيمها الى حين ٠

وكثير من الكتاب الشبان الذين برئوا من تلك التجارب الثورية أو تدرعوا بالحذر ، قد جابهوا المشاق التقليدية ، فوجدوا أنفسهم عند ساق العمل ، ان صحت هذه العبارة ، وانه — وان كان لهم أن ينتقدوا ماتلقوه من تعليم بالمدارس ، وذلك أثناء اضطرابات الحرب — فانهم بلا ريب لا تعوزهم المعارف ولا المواهب ٠ وأنا لا أستطيع أن أقول انهم يجملون

---

(١) هذه الأمثلة لم يخترها الكاتب اتفاقا اذ من الواضح ان فن وصناعة الخزف تشبه الادب التصويرى ، ولكن اصول الصناعة الادبية ليس من السهل تلقينها للغير كما تلقن اصول فن الخزف وصناعته. والتشريح الوصفى اشبه مايكون بالادب التحليلى الذى يشرح النفس البشرية كما يشرح الاشياء ليظهر عناصرها ، ومع ذلك فللتشريح العضوى اصول معروفة ، واما التشريح الادبى فالامر فيه اشق وايضاحه اصعب ٠

جميعا رسالة كبـيرة ، ولكنهم كانوا ولا يزالون يملكون روح الملاحظة وسهولة الحديث ومهارته ، وأخيرا مواهب سعيدة بل مشرقة أحيانا ، واذا كانوا لم يحاولوا دائمـا بل ولا غالبا أن يتعهـدوا تلك المواهب بالاستفادة من تجارب من يكبرهم ومن تعاليمهم فليس الذنب ذنبهم ، كمـا أنه ليس ذنب هؤلاء الكبار ، والواجب أن نصب كل اللوم على مغامرات الناشرين المسرفة فى المدة التى تقع بين سنتى ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ٠

فبينما كانت أقصى آمال المبتدئين قديما أن يعثروا على ناشر ، نجد أن جمهورا من الشبيبة الثملة التى فقدت حاسة الاتجاه ، قد أحيط فجأة بأسوأ المغريات : بمال يكسب بسهولة ، واعلانات وشهرة مصطنعة ٠ فأى قديس وأى راهب قد جففت العبادة من نفسه وحصنته من غوايات الشيطان كان يستطيع أن يقاوم مثل هذا التيار ٠ واذا كانت الشبيبة الادبية تريد حقا أن تطلب حسابا الى أحد على نحـو ما سمعنا فى هذه الخصومة ـ فلتطلبه الى « ناشريها » ٠

وهنا استطراد فلعل مورياك وروبس يستطيعان أن يعترضـا على بأنهما قد وضعا الاشكال فى مستوى أعلى بكثير من هذا ، وأن الحسابات المطلوبة ليست من نوع الحسابات الزمنية ٠ ولكن صبرا ، اذ يجب أن نواجه المشكلة طبقة بعد طبقة ٠

هل كان الكتاب الجدد يستطيعون أن يحاولوا الكمال ، على فرض أنهم كانوا يحسون بضرورته ، بينما كانت كتاباتهم تختطف من أيديهم اختطافا ، بل وأحيانا قبل أن يلقوا عليها نظرة تصحيح أو يقرأوها قراءة نقدية ؟ ولقد حدث ابان تلك المدة العجيبة أن اعترفنا الى رفاقنا الشبان بأننا اضطررنا جميعا حوالى سنة ١٩٠٦ الى أن نطبع كتب شعرنا الاولى بمدخرنا الخاص ٠ وكيف نستطيع أن نصف ابتسامة الدهشة والاشفاق التى كان يثيرها هذا الاعتراف فى بعض الوجوه ٠ ولقد سمحت لنفسى يوما بأن آخذ على شاب من أكثر لاحقينا اشراقا آثار اسراعه فى الكتابة ، فأجابنى رافعا ذراعيه « انك لا تستطيع أن تتصور الى أى حد يلحون علينا » ٠ ولقد أجاب آخر من خيرة الموهوبين فى جيله ، عندما وجهنا اليه بعض الانتقادات ، معترفا بأنه اضطر مرة الى أن يؤلف كتابا فى ثلاثة أيام لكى يفى بتعهداته ٠ ولقد تقدم شاب صغير جدا لم يكن بعد قد نشر شيئا ، بكتاب متعال مبتور لا يقرأ ، وعندما اقترحت عليه أسماء عدة ناشرين أجابنى فى جزم « سأذهب الى من يقدم الى أحسن عقد » وكان رجال فى السادسة والعشرين من عمرهم يقولون بأوجه جافة « لا بد لى من ستة آلاف فرنك كل شـهر ٠٠٠ » أو « سأترك فلانا لانه لا يعلن الاعلانات الكافية ٠٠٠ » أو « أستطيع أن أذهب حيث أشاء فلى خمسة

عشر ألف قارىء موثوق بهم » وعندما كنت أقول لهم ان رجال جيلنا قد تعلموا وأحيانا زاولوا مهنة أخرى ليكونوا أحرارا فى الادب ، كان هؤلاء الرفاق الشـــبان يرسلون التنهدات • ولهم العذر فى ذلك ، فقد كان الناشر يدق النواقيس على أبوابهم ويدفع لهم « شهريات » ويطبع حتى دون أن يقرأ ، ثم يحرك لهم جهاز الاعلان النابح بأكمله • وأخذ الآباء فى اعداد أبنائهم لمهنة الكتابة ، وتلك ظاهرة ـ اذا صدقنا جوتييه ـ لم تر منذ عهد شبلان(١) « مؤلف العذراء » (٢) •

لقد كان « المتعهدون » الذاهلون يتخاطفون هؤلاء المبتدئين الذين لم يلبثوا أن ضلوا فأحسوا بمعنى الامانة يموت فى نفوسهم • تلك الامانة التى بدونها يستحيل كل عمل مشترك وكل تضامن حقيقى •

ومن ثم اذا كان هؤلاء الشبان لم تشغلهم أثناء تلك المدة التعسة أى أحاديث ، هادئة كانت أو حادة ، عن الفن الادبى والتقاليد الادبية وأخلاق الادب وحياته ، فمن ـ فى صراحة ـ يستطيع أن يدهش لذلك ؟

فرعشة القداسة التى كنا نحسها أمام الصفحة البيضاء والشعور بأننا نمسك فى اجلال أداة مجيدة ، وأننا نكتب تحت رقابة مائة من الاساتذة المبجلين ينظرون الينا بأعين يقظة ، كل هذا لا يمكن أن يتفق مع هيئة اجتماعية مشدوهة بعجيج الاصوات وصيحات المزايدات وصخب التجارة •

لقد قضيت أياما كاملة مع رجال من سنى ـ الكثير منهم فنانون ممتازون ـ فى مناقشات حادة عن النصوص والاحداث ، أو فى المقابلة بين المنـــاهج والمواد الاولية ، أو فى نقد دوافع فننا ومصادره ، ولكن الفرص لم تواتنى كثيرا لمثل هذه المنازلات مع رفاقنا الشبان ، اذ كانت مشاغلهم من نوع آخر • كان عليهم أن يشبعوا أولا رغبات الهواة وأن

---

(١) شبلان Chapelain ـ شاعر فرنسي ولد ومات في باريس سنة ١٥٨٥ ـ ١٦٧٤ ، ولقد لعب دورا كبيرا بين شعراء القرن السابع عشر ، وكان واسع الثقافة، وهو من واضعى نظام المجمع اللغوى الفرنسي وأحد اعضائه ، ولقد كتب « العذراء » وهى ملحمة يمجد فيها فرنسا في شخص جان دارك ، ولقـد كان معاصروه يظنون انه سيكتب ملحمة تساوى ان لم تسم على الالياذة ، ولكنها لم تكد تظهر حتى انهالتعليها سخرية بوالو وغيره من النقاد مما أخمد مجد شبلان . واليوم لم يعد يقرأ لشبلان غير « حكم المجمع اللغوى على رواية «السيد » «لكورنيل» وفيها يجرح شبلان كورنيل وهو تجريح لا اخلاص فيه اذ أنه لم يصدر الا عن ايعاز من ريشلييه الذى كان ينافس كورنيل في فن التأليف .

(٢) العذراء المقصودة هى جان دارك والواقع أن في اللغة الفرنسية لفظين بمعنى العذراء La Vierge ويقصد به عند أطلاقه « مريم » أم المسيح عليه السلام ، La Pucelle ويقصد بها « جان دارك » عذراء أورليان .

يقاوموا نزوات « الموضة » وتقلبات الناشرين وانصراف الرأى العام ، وكان لا بد لهم طبعا من المناقشة فيما بينهم ، وكأنهم مسايفون(١) فى ساحات صاخبة ، وهكذا لم يطلبوا الينا ما كنا نستطيع أن نعطيهم الا فى النادر ، وعلى العكس من ذلك كانوا يطلبون الينا أحيانا أن نتدخل لمصلحتهم فى تلك المعركة المضنية التى التحموا فيها ، وما أظن أحدا من الكبار قد تنحى يوما عن هذا الواجب ، وان كانوا قد اضطروا غالبا الى جرح هذا لارضاء ذاك ٠

والذى لا شك فيه أن الجيل الناشىء ، قد لقى فى المجال الزمنى أكبر التسهيلات وأحيانا أخطرها ، وأما أنه قد وجد فى المجال « الفنى » أساتذة تحت تصرفه ، فذلك ما لا يستطيع نفس دانيل روبس الناقد اللاذع أن ينكره ٠ ولكننا لا نكاد نترك المسألة الزمنية الى المسألة الروحية ، حتى يتغير الاشكال دفعة واحدة ، وتزداد شكوى الشبان قوة وايلاما ٠

يلوح لى لأول نظرة أن اليافعين الذين اتجهوا بعد الحرب الماضية الى من يكبرونهم ليتخذوا منهم أساتذة ، قد خلطوا فى سخاء بين الاستاذ والرئيس ، بل أحيانا بين الاستاذ والقديس ، وأحيانا أكثر بين الاستاذ والمتنبىء أو اذا شئت العراف ٠

وهنا تبدأ مناقشة جديدة ٠

فى الفقرة الاخيرة من البحث الذى خصصه دانيل روبس « لمحاكمة الاساتذة » نجد هذه الخاتمة « نحن نحترم الكثيرين ممن يكبروننا ، ولكننا لا نتبع أى واحد منهم مغمضى الاعين » ولقد كتبت لاول وهلة بالهامش « لحسن الحظ » ولكنى بمعاودة النظر وجدت أن جملة دانيل روبس تستحق تعليقا أطول ٠ اذ من الواضح أن الشبان يحسون فى أيام الاضطراب بالرغبة فى أن يتبعوا أحدا ما « مغمضى الاعين » ٠ وهذه الرغبة المؤثرة يمكن فهمها ٠

---

(١) Gladiateurs : رجال من المسجونين او العبيد كانوا يحملون على منازلة بعضهم بعضا أو منازلة الحيوانات المفترسة بالسيوف في ساحات رملية تعرف بـ (Arena) وكان ذلك في روما القديمة حيث كان الشعب يتحمس لتلك المناظر المرعبة ، كما يحضرها الامبراطور ، وكان المسايفون يمرون بمقصورته قبل النزال قائلين « نحييك يا قيصر ، نحن السائرون الى الموت » وكان على المنتصر أن يجهز على منازله مالم يحظر عليه المشاهدون ذلك . وكل هذه المعانى تثيرها في اللغات الأوربية لفظة Gladiateur « مسايف » ولهذا لم نشأ أن نترجمها بلفظة « منازل » وذلك لكى نخصصها بمعناها التاريخى وما تستدعيه من معانى القسوة والبشاعة وسفك الدماء ٠ والنزال لا يفيد عندنا كل هذه المعانى ، ولقد اشتققنا لفظة « مسايف » من السيف ، وهذا هو المعنى الاشتقاقى للفظ الأوروبى ٠

ولو أنه أتيح لى أيام شبابى الاولى أن أتردد على أولئك الذين كنا نعتبرهم أساتذتنا ، اذن لربما كانت تبلغ بى الجرأة أن أسألهم رأيا فى المجـــانسة أو فى الاوزان (١) الشاذة ، وذلك لا لأنى لم أكن مشغولا بمسائل أهم ، ولكن لان معظم تلك المسائل كانت ألصق بقلبى من أن أطرحها للبحث أمام الغير • ولقـــد وجهت نفسى وان كنت لم أفلت من الالم خلال أزمتى الميتافيزيقية الاولى ، أزمة اليفاعة ، ولقد لاح لى عندئذ ـ ونحن على أبواب انقلابات لم يكن من السهل التنبؤ بها أو تصورها ـ أن العالم ليس بســـيطا بلا ريب ، ولكننى كنت أعتقد أنه سيكون لدى من الوقت ما أستطيع أن أواجه فيه كل المشاكل الواحدة تلو الاخرى ، وأن أتغلب عليها بالصبر ، ولما كنت قد حرمت منذ اليفاعة مما يسمونه هدى الدين ، فقد أخذت أبنى فى مشقة كبيرة عالما لنفسى •

وفجأة ردت سنة ١٩١٤ جزءا من بنائى الى العدم • وكنت عندئذ فى الثلاثين من عمرى ، ولا أستطيع أن أقول ان الحاجة الى أستاذ روحى لم تضنننى أثناء تلك المغامرة المخيفة ، ولقد أحسست مرتين بأننى قـــد وجدت القادة الحقيقيين وهزتنى نشوة الى الطاعة فى ثقة تامة • وأما عن النصائح التى كانت تمس أخطر المشاكل الاخلاقية ، فلم يكن لى بد من أن أطلبها بالمراسلة • والغالبية العظمى من الرجال الممتازين الذين كنت أعتبرهم أساتذة فى الفن كانت حيرى من حوادث ذلك العهد ، ولقـــد انسحب كل منهم معتزلا ناحية من النواحى المتعارضة بالافق • وهكذا اضطررت أن ألتمس وحيدا سلوة عما كنت أواجه من صعوبات ، وأن أرسم لنفسى خطة للسلوك فى الحيـــاة • وفى سرعة كونت ذلك الرأى الحكيم الذى دفعنى ـ وقد حرمت من أوامر الدين وما يماشيها من قواعد الاخلاق والسياسة ـ الى ألا أعتمـــد على أحد فى العثور على ســـبيلى الشخصى •

عند انتهاء الحرب اتفق لى مرتين أو ثلاثا أن سألت ـ فى لحظات ضعف أو حب استطلاع ـ رجالا أعلاما يعتبرون عرافين ، ان حقا وان باطلا • ولقد استخلصت من تلك الاسئلة مبادىء « جاهزة » فامسكت عن أن أستمر فى التجربة •

---

(١) المجانسة ترجمة للفظ Assonance وهى عبارة عن انتهاء الابيات بحروف متقاربة المخارج بدلا من انتهائها بنفس الحروف كما هو الحال في الأبيات ذات القافية ، فالمجانسة في الشعر المرسل تقابل التقفية في الشعر العادى . ومن الواضح ان هذين المثلين (المجانسة والاوزان الشاذة) لم يخترعهما ديهامل اتفاقا كمطلق أمثلة للمســائل الفنية التى يستطيع التلميذ أن يسأل فيها استاذه في الفن ، وانما هما في الواقع من أخص ما تميز به الرمزيون أساتذة ديهـــامل أيام شــبابه وفي اول عهـــده بالادب وبخاصة بالشعر .

وكنت قد نضجت وقد تكون لى رأى عن المشاكل الاساسية التى يواجهنا بها العالم ، ولم يكن هذا الرأى جامدا بل كان يتغير ، وما يزال يتغير حتى الآن من يوم الى يوم ، أولا ، لانى أنا نفسى أتغير بالنضوج ، ثم لان العالم من حولى لا يقف عن التغير •

وبعيد ذلك التاريخ ــ تاريـــخ الهدنة والسنين الاولى للسلام ـ أحسست أن الموقف سيتغير وأنه ســــتنهال على بدورى أسئلة الجدد واليافعين ، اذ كان الامر قد انتهى بأن أصبحت أعتبر أستاذا شابا ، وكان ذلك عقب نشرى لكتاب كتبته فى أحلك سنى الحرب ظلمة • ولقد مس هذا الكتاب ــ الذى ألفته لأنفس عن نفسى ــ أرواحا أخرى فلاقى محبتها •

وما زلت أرى صديقى « س » ذا القلب الكريم ، والعقل المغذى ، وهو يصيح عند نهاية حديث اجتمع له عدد كبير من أعضاء مؤسسة تير Thiers « لقد أعطيتنا الاخلاق فعليك أن تعطينا الميتافيزيقا » •

ولقـــد اضطربت لتلك الكلمات اضطرابا لا أستطيع وصفه ، اذ كنت ــ ولا أزال ــ أمقت عدم الكفاية الذى لمسته أحيانا عن بعد ، وان كنت أحسست دائما بأنى شديد الانتباه الى هذا الامر بل والحذر منه •

وثمة مثل أستطيع أن أستعين به ، فانه وان يكن شخص باريس Barrès قد ظل بعيدا عنى بل وأوحى الى نوعا من النفور ، فانى كنت أحترم الكاتب وأعجب به ، الى أن كنا فى أوائل الحرب ، وكان من عادتى أن أتتبع المقالات التى كان ينشرها فى صحيفة باريسية كبيرة فأثار يوما اهتمامى أن رأيته يكتب مقالة عن فرقة أطباء الجيش التى كانت جديدة فى نوعها ، والتى كنت من أفرادها ، وقد جئنا الى أرتوا Artois تجارب• قرأت المقالة فى نهم ، فوجدتهـــا تحوى أخطاء عديدة وآراء مسرفة ، فاستنتجت من ذلك بكل بساطة ــ أنه ما دام باريس قد أخطأ فى احدى تلك المسائل النادرة التى كنت أنا على علم تام بها ، فهناك احتمال قوى جدا فى أن يكون قد أخطأ فيما عدا ذلك وخدع قراءه • وهكذا بدا لى أن مؤلفات باريس « اليومية(١) » فانية ، وأنا أعترف أن هذا الحكم ربما كان مسرف الخشونة •

ومن ثم يسهل تصور اضطرابى عندما أدركت أنه سيطلب الى كل يوم ، وربما كل دقيقة من اليوم ، مالا أملك ، وأننى سأحمل على الحديث فى كثير من المسائل التى لا أعرفها ، ولا يمكن أن تكون قد وصلت الى

---

(١) L'oeuvre diurnale يقصد بها فيما يظهر اليوميات Les Chronipuea de guerre التى كتبها باريس عن الحرب العظمى سنة ١٩١٤ ــ ١٩١٨ •

« معلوميتى » كما يقول رجال القانون ، ولكن سرعان ما ذهب هـــذا الاضطراب وحل محله تصميم ثابت ·

وأنا أعلم الآن بالتجربة أن حاجات الناس ورغباتهم لا نهاية لها · فعابر الطريق الذى يقفك ويطلب اليك عودا من الثقاب ما عليك الا أن تتركه يتكلم ليطلب اليك بعد عشر دقائق أن تأتيه « بربنا » فكلهم ـ علموا ذلك أو جهلوه ـ يريدون قانونا أو قاعدة أو قيادة أو قيـودا ، وهم يبحثون عمن يلقون اليه عن كواهلهم مهمة التقـــدير أو الاختيار ، مهمة التصميم والفصل والانتهاء الى خاتمة · وكلهم فى النهاية يريدون الرب والحياة الباقية حتى ولو كانوا فيمـا عدا ذلك مستهترين شاكين غلاظا ميتى الاحساس ·

هـــذا ما عندى أقدمه ، وما أعلمه أقوله · فأنا كاتب فى سن النضوج ، وقد رأيت الكثير من الناس ، كمـا قمت ببعض الرحلات وأنا فوق ذلك طبيب وقد استقيت من الطب معلومات انسانية ضافية ، هذا ميدانى وهو ليس متناهيـا فى الصغر ، فأستطيع أن أرد على كثير من الاسئلة ، وان يكن ما لا بد لى من تركه بغير جواب أكثر ، وتلك أسئلة يجب على كل رجل شريف أن يتركها كذلك ·

هناك كتاب ممتازون وفنانون كبار بلا ريب ، قد أيقظوا فى قلوب الناس بتأثير كتاباتهم ثقة لا يكاد يكون لها حد ، وأمجد مثل لهم هو تولستوى وسرعان ما اتجه الناس الى هؤلاء الأساتذة يطلبون اليهم مايمكن أن يطلب ، ومايطلب بالفعل عند الحاجة من الله ، ولقد أجاب هؤلاء الأساتذة فى كل الأحوال تقريبا ، وهذا ما ألومهم من أجله ·

ودانيل روبس مصيب بلا ريب عندما يقول ان الاستاذ الحقيقى هو ذلك الذى يقلب الأفكار ، ولكن هل يجب أن نعتبر أستاذا ذلك الذى « يقلب الأفكار » فى غير حذر ؟ وعندما نعلم ضخامة بؤس الانسانية ، هل نستطيع رغم ذلك أن نعتقد أنه من الممكن أن نرد فى حذر وحكمة على تلك الأسراب من الأسئلة التى تدخرها الجماهير البائسة من الناس ؟ ·

وأنا أعلم أن الاغراء قوى ، وأن الجواب يتفجر أحيانا فى صيحة غضب أو بداهةعقل ، أو صداقة أو رحمة · جاءنى يوما قسيس بروتستنتى شاب وأخذ يحدثنى عن شكوكه ، أعنى شكوكه الدينية ، وأخيرا قال : « هل يجب على أن أترك الكهنوت » فانتفضت قائلا : « مادمت قد ألقيت هذا السؤال فقد تخليت عن الكهنوت » · لقد انطلق من قلبى هذا الجواب فى قوة · وهو معقول فى ظاهره ، وعاد القسيس الى بيعته حيث لا يزال منذ عشر سنين ، ولربما كان فى هذا خيره وخير الجميع ·

يريد الناس أنبياء • يريدون رسلا • يريدونهم باستمرار وفي غير انقطاع • ومن ثم كان من واجب الرجل الشريف ، أن يردهم عن تلك الغواية • ولقد حدثت عن هندى نشيء خصيصا ليكون رجلا من هذا النوع ، ولكنه عندما حان الحين أعلن رفضه لهذه الوظيفة نهائيا • لقد أحسست بتقدير كبير لهذا النبى المستقيل •

سنحت لى الفرص بمقابلة ربندرانات تاجور عدة مرات فى اجتماعات قاصرة على عدد صغير جدا ، ولقد فهمت أن الشرقيين لا يرون فى هذه المسألة الرأى المتواضع الذى أبديه هنا ، وهم بلا ريب يستمدون من تقاليدهم الدينية ضمانا ونفوذا من الطبيعى ألا يستطيع المفكر الغربى أن يعرفه •

والمتنبئون نافعون فى بعض لحظات التاريخ ، ومع ذلك فأنا أحذرهم وأرفض أن أقلدهم • وعبارة كل تلميذ هى « ماذا أفعل ؟ » وهى عبارة مؤثرة جدا ، والرجل الذى يقولها ينتظر جوابا شبه الهى ، والمتنبىء لا يجوز له أن يظهر بمظهر المتردد والا ذهب ذلك بشهرته وبأشياء أخرى كثيرة ، بقضية الرجل وايمانه •• المتنبىء لا يتردد ولكنه يمد ذراعه ويرفع لحيته ويفوه فيفصل فى تأكيد • وهو يبرع فى تكرار الصيغة الفعالة التى قد تكون سبيلية (١) ، وعلى التلميذ أن يستوضح كنهها فيما بعد على مهل ، وشيئا فشيئا تنمو عادة الفصل فى كل شيء ، ولينزل بالتلميذ والمتنبىء ما ينزل •

لا أريد أن أمثل دور المتنبئين ، واذا لم يكن بد من أن أتحدث كالمتنبىء لأكون ما يسميه دنيل روبس أستاذا حقا فلن أكون قط ذلك الأستاذ لن أكون الا كاتبا من بين الكتاب •

والأستاذ فى نظرى هو من يردنا لنقف أمام ضميرنا الذى هو الحكم الوحيد فى كثير من المواقف •

---

(١) Sibylline سيبليه نسبية الى سيبل Sibylle وهو لفظ كان يطلق على العرافات عند اليونان ثم عند اللاتين ، ولقد اشتهرت بنوع خاص عرافة كيوم Cumes احدى مدن ايطاليا بحيث اصبحت هى التى تقصد عادة من هذا اللفظ في اللغات الاوروبية الحية ، وفي أساطير روماالقديمة ان هذه العرافة اتت الى «تركانس الفخم»أحد ملوك روما القدماء بكتب تحتوى مصائر روما تسمى « الكتب السيبلية » وقد حفظها الرومان طوال تاريخهم في معبد بأعلى الكابتول احدى التلال السبعة التى بنيت فوقها مدينة روما . والصفة سيبلىSibyllinتستعمل كثيرا في اللغات الاوروبية فيقولون « أشعار سيبلية » و « نبوءات سيبلية » . الخ ويقصدون بذلك الى الغموض والضرب في المجهول ، وهذا هو المعنى الذى يشير اليه الكاتب هنا .

قيل ان الرومانوف(١) كانوا يشعرون بلوعة شديدة فى السنين الأخيرة ، لأن أحدا لم يكن يطلب اليهم شيئا ، وأنا أفهم تلك اللوعة . واذا حدث فى المستقبل أن صمتت تلك الأصوات التي تتجه الى منذ سنين طويلة فى ثقة ومحبة فانني ربما أحزن ، ولكن اذا كان لابد لتعهد الجوقة من أن ألعب دور المتنبىء فانني أقول : فلتصمت الأصوات .

لى ثلاثة أبناء ، فموقفى بسبب ذلك موقف خاص الى حد ما . وعندما يتجه ذهنى الى الشبان ، أرانى أفكر – هل لى أن أقول ؟ – فى مصلحتهم ، وفى مصائرهم أكثر بكثير مما افكر فى تأثيرى الشخصى وفى اسمى وفى مجدى .

- ٢ -

الطفل المدلل

لست أدرى، هل لايزال الشبان يتذوقون بيرلويس(٢) Pierre Louys وبودى أن أعرف رأيهم فى قصة صغيرة له عنوانها «الرجل الأرجوانى» (٣) L'homme de bourbre اكتشفتها منذ خمس وعشرين سنة ، وسأمسك عن أن أبدى فيها أى رأى نقدى ، فالكتب كالرجال تتغير بالنضوج ، وكل

(١) الرومانوف : Romanov اسم الاسرة التى ملكت في روسيا من سنة ١٦١٣ الى ١٩١٧ .

(٢) بير لويس :Pierre Louys أديب فرنسي ولد في جان سنة ١٨٧٠ ومات في باريس سنة ١٩٢٥ . ابتدأ كشاعر بنشر ديوانه المسمى Astarté (اشترتيه) سنة ١٨٩١ ثم بترجمة اشعار الشاعر اليونانى القديم ملياجر Méléagre ترجمها الى الفرنسية ترجمة جميلة ثم اخذ يكتب قصصا صغيرةرمزية غامضة مثل ليدا Léda (١٨٩٣) ، اريان Ariane (١٨٩٤)«البيت المطل على النيل» «La maison sur Le Nil» ثم ترجمة لبعض اشعار لوسيان من اليونانية ألقديمة ، « أغنية بليتيس » Chanson de Bilitis واخيرا كتب رواية حرة من قواعدالاخلاق حريةمسرفة هى «افروديت» Aphrodite سنة ١٨٩٦ ولكن خيررواياته هى فيمايرجع رواية«المرأةالوحش «La femme et le pantin» ومن رواياته الشهيرة ايضا رواية «مغامرات الملك بوزول Les aventures du roi Pausole وغيرها وبعد موته نشرت له بعض مؤلفات اخرى من أهمها « يومياته » Le Journal وبير لويس كاتب حزين حسي ، ولقد تغنى بجمال الجسم ولذاته غناء صوفي النغمات ، وهو فنان مرن مرهف الحواس جميل الاسلوب ، ولموسيقاه وقع خطر في النفوس .

(٣) « الرجل الارجوانى » أى الرجل « الملطخ بالدماء » .

حكم يلوح مجازفا فيه اذا لم يتجدد ويصحح بقراءة حديثة جدا تقرأ فى السنة نفسها ، بل هل لى أن أقول فى الاسبوع نفسه • وأما وقائع تلك القصة الصغيرة فها هو ملخصها : كان لمصور اغريقى شهير ـ ونحن فى أغريقيا القديمة ـ عبد ذكى اتخذه نموذجا ليصور بروميتيوس(١) • فأنزل به العذاب بأن أحرق جنبه ليمثل بأقصى دقة ممكنة ملامح رجل يتألم ، وعلم الشعب بهذه القسوة فطالب بالقصاص ، وعجت الثورة تحت نافذة الفنان الجلاد ، ولكن هذا الاخير ظهر فى تلك اللحظة وقدم الى الجمهور اللوحة وقد انتهى منها ، فاذا بالشعب فجأة يهتز حماسة وينصرف عن القصاص مدويا بصيحات الاعجاب هاتفا للفن الخالد •

وثمة الكثير مما يمكن أخذه على المناهج التجريبية التى استخدمها هذا المصور الواقعى ، فالحديدة الملتهبة لا تخلف نفس الآثار التى يخلفها النسر ، وذلك اذا قصدنا الى الدقة • ثم ان كبد بروميتيوس كان يعود الى النمو باستمرار ، وهذه حقيقة تجريبية كان من واجب تلك العبقرية الأمينة أن تحاول توليدها ، وفى استطاعتنا أن نواصل التعليق الى مالا نهاية على عمل هذا الفنان الفقير المواهب ، وقد احتاج الى أن يثير الألم لكى يصفه. واذا كنت لا أزال أذكر هذه الحكاية ، مع أننى فى العادة أنسى سريعا وقائع الروايات ، فذلك لأنها تلقى بعضا من الضياء على خصومة غامضة مافتئت تبعث من جديد ككبد بروميتيوس • أذكرها لانها تحدثنا عن ذلك النزاع الذى ينشب بين الفنان والهيئة الاجتماعية •

عندما نشر بيرلويس « الرجل الارجوانى » كنت لا أزال حديث عهد بالحياة ، حديث عهد بالآداب ، وكانت الرمزية قبس ضيائنا ، وهذا ما لا أشكو منه ، وبالرغم من انتصارات الرومانتزم ، وبالرغم من سيطرة كبار الواقعيين ، كنا نحس فى قوة بالعداوة القائمة بين الجمهور والروح الخالقة ، وكان ذلك العهد عهد الشعراء «الملعونين» ، والموسيقيين الشهداء، والمصورين «المنبوذين» ، وكان الفنانون يقابلون الكثير من الاحتقار بالكثير من الكبرياء ، وهل كانوا يستطيعون أن يذكروا تاريخ أسلافهم فى غير مرارة • لقد اضطروا اذ أعوزهم شرف الميلاد أو وفرة الثروة أن يعيشوا خلال قرون على جيوب الكبراء يأكلون فى مطابخ الامراء ، ويلتمسون المعاشات ، وينتظرون فى غرف الانتظـــار الجانبية ويقدمون المدائح ،

---

(١) برمثيوس Promeutheus اله يونانى تقول الاساطير انه سرق النـــار من السماء واتى بها الى البشر فاعتبر لذلك خالق الحضارة البشرية ، ولكن زيس Zeus كبير الآلهة عاقبه بأن شده الى صخرة عالية وأرسل اليه نسرا ينهش كبده بالنهار حتى اذا جن الليــــل تركه النسر ليعود كبده الى النمو وعنـــد طلوع النهـار يستأنف النسر نهشه •

ويلتقطون الفتات ، يلبسون مثل موزار(١) البدلة الحمراء ذات الشرائط الذهبية كموسيقيين خـدم ، ويقاسون مثل موليير من غلظة لافياد(٢) La Feuillade ويحنون رءوسهم كجيته (٣) أمام السادة المنبعجين ، أو يسكنون السجون كبومارشيه (٤) Beaumarchais أو يبتلعون المفاتيح كجلبير (٥) Gilbert. ثم تغير وجه العالم اذ انهار الكبراء وتعلم الشعب

---

(١) موزار ـ ولفجانج اميديه موزار Wolfgang AmadéeMozart (١٧٥٦ ـ ١٧٩١) ـ الموسيقى النمساوى الشهير . ولد في سلسبرج ومات في فينا . وقد ظهرت مواهبه وهو في السادسة من عمره فقاده ابوه مع اخته الصغيرة الموهوبة أيضـا الى ميونج وفينا ، وفي العـام التالى اى وهو في السابعة اتى مع أبيه وأخته الى فرنسـا حيث لاقى الطفلان نجاحا كبيرا في البلاط الفرنسي بفضل مواهبهما الشاذة المبكرة ، واشارة ديهامل تتناول تلك الفترة من حياة موزار كما تتناول الفترات اللاحقة وخصوصا عندما كان يعمل موزار كموسيقى في بلاط الامبراطور بفينا .

(٢) لافياد هو جورج دوبيسون لافياد George d'Aubisson la Feuillade (١٦٠٩ ـ ١٦٦٨) احد أفراد عائلة دوبيسون الشهيرة في تاريخ فرنسا . كان سياسيا كبيرا واحد كبار رجال الكنيسة ، واشارة ديهامل تتعلق بالخصومة العنيفة التى شنتها الكنيسة ضد موليير بسبب رواية « ترتيف » التى يهاجم فيها نفاق رجال الدين .

(٣) اشارة ديهامل عن جيته تختص بعـلاقته الطويلة المستمرة مع دوق فيمار Auguste Duc de Weimar وقد تعرف به جيته في أواخر سنة ١٧٧٥ اذ دعاه الدوق اليه وقد اتخذ منه مستشاره ووزيره وصديقه : وفيما بعد لاقى جيتـه نابليون فاظهر كلا الرجلين للآخر احتراما بالغا .

(٤) بومارشيه : بير أوجستان كارون دى بورما Pierre-Augustin Caron de Beaumarchais أديب فرنسي ولد ومات في باريس (١٧٣٢ ـ ١٧٩٩) ، ولقد ألف بومارشيه ثلاث مسرحيات وصلت اثنان منها الى قمة المجد وهما « حلاق أشبيلية » « وزواج فيجارو » ، واما الثالثة « الأم الآثمة فكان نجاحها اقل ، والروايات الثلاث تتناول نفس الشخصيات في مغامرات مختلفة ، وهو في رواية « زواج فيجارو » يهاجم الأشراف وامتيازاتهم . ولقد كانت بينه وبين هؤلاء خصومات سجن بسببها ، كما حظرت مسرحيته ولم تمثل الا بعد أن حذف منها الكثير ، وكان سجنه بالبسـتيل ، وتعتبر روايات بومارشيه من طلائع الثورة الفرنسية .

(٥) جلبير . نيكولاجوزيف لوران جلبير Nicolas Joseph-Laurent Gilbert شاعر فرنسي ولد بمقاطعة اللوار سنة ١٧٥١ ومات بباريس سنة ١٧٨٠ . قدم الى المجمع اللغوى مجموعة قصائد بعنوان « الشاعر البائس » سنة ١٧٧٢ وفيها يلقى تبعة سوء حظه على أهله وعلى الهيئة الاجتماعية ، ولكنه لم يلق نجاحا فانصرف الى الهجاء اللاذع ، ولقد سلخ بألسنة حداد الفلاسفة وكتاب دائرة المعارف في كتب بعضها شعر وبعضها نثر ، ولكنه كتب غير ذلك عدة قصائد أهداها الى لويس الخامس عشر والسادس عشر والى الامير الصـغير الذى أصبح فيما بعـد لويس الثامن عشر . ولعـل خير ما كتب قصيدته الجميلة المؤثرة عن « يوم الحساب » التى لا يزال الفرنسيون يرددون حتى اليوم بعض مقطوعاتها .

وأما الحادثة التى يشير اليها ديهامل فاسطورة يظهر أنها غير صحيحة ، وانماراجت

القراءة حتى كان من الممكن أن يظن أن شمسا جديدة قد تشرق • أمل ضائع • فقد اضطرت النفوس الخالقة الى أن تكافح من جديد ، وأن تكافح ساقا بساق ضد أمواج دافعة(١) من الحمق والجهل ، وأن تناضل دون غايتها وسط صخب الجموع ، مسلمة مؤلفاتها التى ترتعد حماسة الى سخرية أناس لا يعرفون – على حد تعبير فلوبير – الا ّ ان يفكروا بحقارة • ولقد انتهى القرن التاسع عشر وسط المشاجرات ، ولاح أن المعركة بعيدة عن النصر • وهل ستصل اليه يوما ما ؟ هل سيأتى يوم يتمتع فيه الفنان – فى هيئة اجتماعية محكمة البناء – بمكانة مشرفة وتقدير واف عادل ؟ هذه هى المشكلة التى كان زملاؤنا الأكبر منا سنا يثيرونها فى مناقشاتهم الصاخبة عندما كنا نحن أطفالا • ولقد لونت النفوس صلابة الرومانتزم الأبية ، حتى مستهل القرن الجديد بل حتى يومنا هذا • لقد سخر من العبقرية فجرحت وتألمت ، وكان ردها أن طالبت محتقريها بامتيازات استثنائية بل مرهقة ، وهذا الرد لا يعتبر سطرا تافها فى تاريخ أسلافنا • ولقد كانت تغرس فى ندوات الأدباء اذ ذاك Les cenacles أخلاق متعالية نفورة ، أخلاق ترى أن للعبقرية كل الحقوق وأن الانتـــاج الفنى يبرز الوسائل ، وأن النفوس الممتازة تفلتمن المقاييس العامة، وأنهمن الواجب أن يسمح لها بكل شيء • وتلك كلها حكم أظنها كانت تبعث الى الدهشة

الذكر الفـــــريد دى فنى لهـــا في روايته « ســـتلو » Stello ثم هيجيزيب مورو Hégesippe Moreau في قصته « ذكرى المستشفى » Souvenir d'Hôpital ومؤداها انه توفي بمستشفى « هوتيل ديبه » H. Dieu بعد ان ابتلع مفتاحا في ازمة جنون . والثابت اليوم أن جلبير مات على أثر سقوطه من فوق حصان مما اســـتدعى اجراء عملية في جمجمته مات بسببها بعد ان أعطى ثلاثة معـــاشات أحدهما من الملك والآخر من اسقف باريس والثالث من مجلةالمركيزدى فرانس Mercure de France.

(١) لقد ترجمنا « بأمواج دافعة » لفظة Mascaret وهي لفظة جسكونية الاصل ويقصدون بها في جنوب فرنسا الى العبارة عن ظاهرة تتولد أحيانا عند مصبات الانهار، اذ تاتى أمواج البحر تتحاول صد مياه النهر عن التدفق ، والكاتب يحمل كلامه بفضل هذا اللفظ تشبيها ضمنيا اذ يشبه الفنانين بالانهار والجمهور بالبحر ، وكما تحـــاول أمواج البحر أن تدفع مياه النهر وتمنعها من التدفق ، كذلك يصد جهل وحمق الجماهير الفنانين ومنتجاتهم عن التغلغـــل بين صـــفوفهم ، فالمعنى عميـــق رائع نستطيع أن نستنتج منه عدة مقابلات : كعذوبة الانهار وملوحة البحـــار وكلين الانهار أو رقتهـــا وعنف البحار وجبروتها ... الخ مما يستطيع القارىء أن يدركه بتصور الصورة ، وان تكن الترجمة الحرفية غير ممكنة لعدم وجود لفظ يعبر عن الظاهرة المشار اليها ليقابل لفظ Mascaret بما فيه من غنى وايحاء •

عند لافونتين(١) وراسين(٢) وجان سبستيان باخ(٣) وبوسان(٤) ، الأعلام ذوى الطموح الهادىء • وهذا المذهب ـ الذى لم يمت بعد ـ مازال يثير فى أيامنا حماسة المجادلين والمعلقين ، فيقول مؤرخ لحياة موزار : « ان كبار الخالقين فى حاجة الى حرية كبيرة ماديا وروحيا » ، وهذا تصريح يدعو الى الابتسام عندما نذكر حياة المسكين ولفانج أميديه Wolfgang Amadée (٥)

قصة بير لويس الصغيرة ، التى لخصتها فيما سبق ، توضح الى حد بعيد ـ فيما أظن ـ صفحة كاملة من أسطورتنا • الفنان اذن سيد من أسياد الأرستقراطية الحديثة ، فهل سيرفض الناس دائما أن يعطوه تلك السلطة المطلقة الشبيهة بسلطة الملوك، وهو يقدم اليهم مقابل ذلك كنوزا من الجمال الخالد •

---

(١) لافونتين: La Fontaine جان دي لافونتين . شاعر فرنسي ولد في شاتوتيرى Chateau-Thierry سنة ١٦٢١ ومات بباريس سنة ١٦٩٥ واساس مجده الأدبى هو مجموعات قصصه Contes وحكاياته على ألسنة الحيوانات Fables وقصصه لا تدعو الى مبادىء الاخلاق ولكنها اشعار مثولبة خفيفة لبقة ، واما « حكاياته » فكل منها يتمخض عن درس أخلاقى ، ولقد أصبحت أداة قوية في تربية النشىء . ولقد اشتهر لافونتين بدماثة أخلاقه وانتظام حياته حتى سموه « الرجل الطيب لافونتين » Le bonhomme La Fontaine

(٢) راسين : جان راسين : شاعر فرنسي تراجيدى شهير ، ولد في لافرتيه ميلون Le Ferté Milon ١٦٣٩ ومات سنة ١٦٩٩ . وهو اقرب من كورنيل الى الطبيعة وواقعية النفوس ، ولقد تتلمذ لرهبان بور رويال Port-Royal وفي مسرحياته يتحقق المثل الأعلى للتراجيديا الكلاسيكية ، ورواياته تمتاز ببساطة وقائعها وانما تمشيها تتركز في حركات نفوس أبطاله ووصفه وتحليله لها ، ولقد ترجم له الدكتور طه حسين «رواية أندرماك» . ولعل رواية Phèdre فيدر خير ماكتب . وفي آخر حياته انصرف الى الموضوعات الدينية فاستعار من الكتاب المقدس موضوعي روايتيه «استير» Esther و « أتاليه » Athalie وله كوميديا « الخصوم » Les Plaideurs ، ومن الواضح أن حياته لم يكن بها شذوذ وهذا سبب استشهاد ديهامل به ليدلل على أن الفنان ليس بحاجة الى الاستشهاد لينبغ .

(٣) جان سباستيان باخ: Jean Sebastien Bach هو الموسيقى الالمانى الشهير (١٦٨٥ ـ ١٧٥٠) ولقد تميزت حياته باطرادها ، اذ تزوج منذ الصغر ورزق اكثر من عشرين طفلا ولم يعرف في حياته أى شذوذ .

(٤) نيكولا بوسان: Nicolas Poussin (١٥٩٤ ـ ١٦٦٥) من اشهر المصورين الفرنسيين ، وله عدة لوحات شهيرة نذكر منها « راعى اركاديه » ، «الطوفان» ، « نجاة موسى من المياه » ، « الهرب الى مصر » ... الخ ، ولقد تميز ببعثه لمشاهد التاريخ ، ولقد أقام زمنا طويلا بايطاليا . وقد عرف بنبل اخلاقه وبساطة ذوقه واستقلاله النفسي ، وكان لكل هذا أثر في فنه المتقن القوى الرائع ، ولذلك يعتبر بوسان المثل الحقيقى للكلاسيكية في التصوير .

(٥) «ولفجانج أميديه » هو اسم موزار ، ولقد مات موزار في بؤس بمرض السل كما أن حياته لم تعرف بأحداث شاذة أو مغامرات من أى نوع ، ولذا يعجب ديهامل من مطالبة هذا الكاتب بالحرية وهو بصدد الحديث عن رجل كموزار لم يشعر بحاجة ماسة

سك الأفكار مجازفة خطرة(١) • والفكرة التى تشغلنا الآن قد انتشرت فى أنحاء العالم فهرمت وتغيرت وانحطت يوما بعد يوم ، حتى أصبحنا نرى الرجال ذوى العقل الراسخ يبتسمون منها ، ومع ذلك فهى لا تزال تسير وتدوى •

فأما أن الفنان « كائن فريد » فهذا ما لا يجد أفراد الطبقة الغنية(٢)

= الى الاعفاء من مواضعات الهيئة الاجتماعية ولو أنه اعطى ذلك لما وجد مايستخدمه فيه . ولعل القارىء يلاحظ ما في طريقة العبارة عند ديهامل من براعة مؤثرة ، وذلك باستخدام اسم موزار بدلا من لقبه ، ثم اضافة الصفة « مسكين » الى هذا الاسم .

(١) سك الافكار مجازفة خطرة : هذا التعبير الجميل مجاز استعير من سك النقود Monnayage ، والمقصود منه هو تركيز الافكار في جمل صغيرة تحمل أحكاما عامة ، وذلك لان تلك الجمل لا تلبث أن تسير بين الناس كما تسير النقود وكما تسير الحكم والامثال فيتغير معناها وتنفصل عن المناسبة التى قيلت فيها ، وتصبح قابلة لأن تؤدى معانى قريبة أو بعيدة من معناها الاصلى ، وهذه ظاهرة شائعة عند كل الشعوب . والكاتب يقصد هنا الى الافكار الاتيـــة التى ركزتها طبقة البرجوازية في جمل مثل : « الفنان كائن فريد » أو « الفنان انسان شاذ » أو « هوائى » أو «نمرة » الخ بما يتبع ذلك من تحريف في مدلولها واستخدامها في المدح والقدح والسخرية والعطف والتسامح ... الخ .

(٢) البورجوازية La Bourgeoise ، لهذا اللفظ تاريخ طويل يتلخص فيه تطور نظام الطبقات في البلاد الاوربية ، كما أن معناه اليوم قد تغير وأصبح يفيد مدلولات كثيرة .

فمن الناحية التاريخية يلاحظ أن اللفظ معناه « المدنيين » أى سكان المدن ، فهو مشتق من (بورج)Bourg أى « حصن » ثم « مدينة » على سبيل المجاز ، ولقد نشأت هذه الطبقة بالفعل في المدن أيام العهد الاقطاعى ، وذلك لان المدن استطاعت أن تحصل على دساتير من الملك تخلصها من حقـوق أمير الاقطاعية وتجعلها رعية للملك مباشرة . وعلى المدن اعتمد الملوك فيما بعد في القضاء على سلطة أمراء الاقطاعيات ، وكان سكان المدن عادة من التجار والصناع وذوى المهن الحرة ، ومن ثم أصبحت لفظة بورجوازية تدل على تلك الطبقة ، ولذا نرى مؤرخى العهد القديم السابق على الثورة الفرنسية يميزون بين الاشراف والبورجوازية والشعب كثلاث طبقات مختلفة ، وان كانوا أحيانا يضيفون البورجوازية الى الشعب ، ويجعلون الطبقات الثلاث مكونة من رجال الكنيسة والأشراف والشعب .

ولكن عندما حطمت الثورة الفرنسية الاشراف ورجال الكنيسة لم تلبث أن قفزت طبقة البورجوازية الى المكان الاول واحتلت مكان الاشراف الذين انضم فلولهم اليها . ولقد لعبت هذه الطبقة دورا هاما في نظام الحكم الملكى الذى أعقب نابليون وبخاصة أيام حكومة لويس فيليب الذى كان يسمى الملك « البورجوازى » .

وعادت الخصومات بين الطبقات من جديد فاخذ الشعب يحارب طبقة البورجوازية، حتى اذا ظهرت مبادىء الاشتراكية تجدد النزاع فأصبحت طبقة البورجوازية هى طبقة الاغنيـاء الرأسماليين بالمعارضة مع طبقة العمال المسماة Hroletarita في اصطلاح الاشتراكيين . وأما الفلاحون فقد ظلوا بعيدين عن نظام الطبقات وكفاح الطبقات . =

(البرجوازية) الذين أفلتوا من صواعق (١) فلوبير ـ حرجا فى التسليم به • ولكن الصورة التى رسمها الرومانتيكيون لم تلبث أن فقدت اشراقها عندما تأقلمت بتلك العقول الهينة ، فالفنان لم يعد ذلك الكائن الشبيه بالآلهة ، الغامض المحير ، حامل النار المقدسة ، لم يعد كالكاهن أو الرسول من رواد السموات الذين نعجب بهم فى الدمى ، بل أصبح « شاذا » « هوائيا » « نمرة » وهم لا يعفون عن كل ما يفعل ، بل يتسامحون معه فى أشياء ، فيغضون عن بعض هفواته • وهم يذكرونه بابتسامة هازين أكتافهم ويسلمون له فى غير حماسة ـ ولكنهم على أى حال يسلمون ـ بامتيازات يؤسف لها كأن لا يدفع ديونه مثلا أو أن ينسى تعهداته أو أن يخون أصدقاءه ، وبالجملة هو طفل مدلل يتحدثون عن « حوادثه » فى مزيج لطيف من الدهشة والخبث • طفل مدلل يلهو أحيانا بأن يصيد الذباب لكى ينتزع أجنحته فينهرونه ضاحكين •

قال لى الفريد فاليت ذات مرة : « لقد خالطت الكتاب والشعراء والفنانين خلال خمسين عاما ولم تقم قط بينى وبين واحد منهم خصومة ، وذلك لأننى أعلم أنه لا يمكننا أن نخضعهم للمقاييس العامة • ولو أننا حاولنا أن نتمسك معهم بحرفية القوانين لوجب أن نختصم مرارا • فكثير منهم يسلكون فى المعاملات مسلك الأطفال الهوائيين ، وفى الحياة اليومية مسلك سيئى النية • أظن أنهم يدهشون ـ ولربما حزنوا ـ اذا حاول أحد أن يوضح لهم أخطاءهم • انهم على جانب كبير من السذاجة » •

وأضاف الفريد فاليت فى ابتسامة الفيلسوف : « عدد منهم سحرة غير مسئولين ، وكل الناس متفقون على ألا يسرفوا فى اختصامهم من أجل ذلك » •

لقد ملأتنى هذه اللذعة الرقيقة بالخزى لأولئك الذين أظن أنها تتجه اليهم ، وهى تلقى بمسألة الأخلاق فى وسط المناقشة •

= واليوم يختلف معنى اللفظ باختلاف من يستعمله ، فعند الاشتراكى طبقة البرجوازية هى التى تعيش من جهد العمال دون أن تزاول هى عملا ما ، وذلك بفضل ماتملك من رءوس أموال • وعند الكاتب أو الاديب هى الطبقة التى لاتأبه لمنتجات الروح وعمل الروحيين ، وكل همها هو التمتع بالحياة المادية وللذاتها ، وعند طبقة البرجوازية نفسها يفيد اللفظ معنى الكرامة والاستقلال المادى والوجاهة الاجتماعية واستقرار الحياة •

(١) لقد كان فلوبير يمقت طبقة البرجوازية ، ولقد قال عنها : « انها طبقة حقيرة تفكر بحقارة » ، وهذه الجملة وأمثالها هى التى يقصدها ديهامل بقوله : «صواعق فلوبير» أى الصواعق التى صبها على تلك الطبقة •

الأخلاق هى التى تنفث دائما الروح فى العبقرية(١) génie ، وان كانت تبقى أحيـــانا غريبة عن النبوغ (٢) Talent والأخلاق أندر من العبقرية اذا أخذنا لفظة أخلاق بمعناها المطلق ، وهى أثمن ما يوهب ٠

لقد ألقى قلم فوفنارج(٣) Vauvenargues هذه الجملة التى تلوح غير موفقة « لم يقتسم قط انسان كل الهبات » ٠ أقول غير موفقة لأن فـكرة الكلية تنفى فكرة التقسيم ، وأضيف الى ذلك أنها تدعو الى الابتسام اذ نراها تحمل من الجد والسذاجة ما تحمله الحكم السائرة ٠ ولكن ليقلها فوفنارج عن شاعر وها نحن جميعا نلقى السمع ٠

وذلك لأننا نود فى حرارة أن تحظو كل الهبات بعض الرجال ٠ نود ذلك لحبنا الكبير للانسان ، لحبنا الكبير لأنفسنا ولاحترامنا البالغ للحياة، فاذا اجتمعت لفنان حقيقى كل الهبات وجب أن يغمرنا ذلك بالسعادة ٠

وهبة الأخلاق — من بين كل الهبات — هى الهبة التى نرجوها بكل حرارة والحاح للفنانين الذين نعجب بهم ٠

أعرف رجالا سخت عليهم الطبيعة ، فلهم ملكات خالقة ممتـــازة وذوق مرهف ونبرات لا تحاكى ، بل وأحيانا كثيرة أنواع من ملاحة المظهر ، وجه ساحر وصوت مؤثر وقبضة يد حارة ٠ ثم ماذا ؟ لن أطلب اليهم كوب ماء ، لن أطلب اليهم أن يذهبوا لرؤية صديق فى ضنك ، أو أن يتدخلوا فى خصومة ، أو يقتسموا عبئا أو أن يقبلوا واجبا ، بل ولا أن يمدوا يدا أو يفتحوا عينا أو يعيروا سمعا ٠ هؤلاء فنانون ماهرون Virtuose مغنون ممتازون acrobate tenors حواة كلاب عالمة ، وأنا أعجب بهم أو على الاصح أعجب بما عندهم من هبات ٠ الحظ الذى لا مثيل له ونزوة

(١ — ٢) لفظة genie في اللغة الفرنسية ولفظة genius في اللغة الانجليزية تفيد بمعناها الاشتقاقى « الخصائص الطبيعية » اى الخصائص المميزة ، وفي هـــذا المعنى يقولون :L^geinde lalenque.Frencaire اى « خصائص اللغة الفرنسية » لا عبقريتها كما يترجمها أحيانا بعض مترجمينا ويقولون « خصائص الروح اليـــونانية في الفن » مثلا وهكذا ، ومن هذا المعنى تطورت الى معنى « العبقرية » لان الرجـــل العبقرى هو من يملك خصائص تميزه عن غيره ، وثمة معنى آخر تستعمل به في الاساطير وهو معنى «روح» فيقولون«روح خيرة» و«روح شريرة»لان اا génie في الاساطير كانت كالنات فعلية . وكلمة genie بمعنى عبقرية تمتاز عن Talent التى ترجمها « بالنبـــوغ » ، فالعبقرية هبة فطرية ، واما النبوغ فيكتسب بالجهد ، فالعبقرية اسمى من النبـــوغ ، ومن ثم تدرج المعنى في نص ديهامل .

(٣) مركيز فوفنارج Le Marquis de Vauvenargues مفكر اخلاقى فرنسي سامى النفس وله مجموعة حكم Maximes شهيرة ، وهو اقل تشـــاؤما من لارشوفوكو La Rochefaucould في حكمه ، ولد فوفنارج سنة ١٧١٥ ومات سنة ١٧٤٧ ونص جملته بالفرنسية هو Nul iomme n'a eu en partage tous les dons وقد ترجمناها حـرفيا لتستقيم مناقشة ديهامل اللفظية لها .

الملاك . ومع ذلك أشعر نحوهم بنوع من الاحتقار مع عمل كل ما يلزم كي لا يظهر من ذلك الاحتقار شيء ، ولو أن هذه الهبات سلبت منهم ـ وذلك ما قد يحدث ـ لأصبح هؤلاء الرجـــال فجأة أقل في نظري من قشرة برتقالة . أقل من تخت زهرة النسرين Une pomme d'eginiter

أعرف رجالا لهم ـ ما يسمونه في الفن ـ شخصيات قوية ومع ذلك يعجزون أحيانا عن أن يتخذوا قرارا ، أو أن يفصلوا في نزاع ودي ، أو أن يقدموا نصيحة ، أو أن يؤدوا أقل خـدمة ، وانا لا أطلب اليهم غير اللذة وأضعهم في تقديري غير بعيد من العاهرات الجميلات .

لقد عشت ما يكفي لأقول في عزم انني اذا كنت أعجب بالفنانين الكبار فانني أعجب أكثر من ذلك بالأخلاق الكبيرة فأتلمسها وأجلها .

ثم ماذا ؟ ان المستقبل القريب سيتولى تطهير تلك الخصومة . وفي كل يوم تعيد الهيئة الاجتماعية توزيع الأدوار والتيجان ، وقد أوشك أن ينتهي زمن الطفل المدلل البهلوان ودور المسلين . ثم ماذا سيفعل الفنانون غدا في هيئة اجتماعية فريسة للتجارب السياسية والاجتماعية ؟ مجنون من لا يريد أن يفكر في هذا .



- ٣ -

نقيض النجاح

يمكن أن نعثر بين الحكم اللاذعة التي ينفثها قلم لوجان سميث (١) Logan Persal Smith على مثل قوله : « العبودية والانحطاط جزاء وفاق للنجاح ... فالكتاب الذي يروج قبر مذهب للموهبة غير الممتازة » .

لوجان برسال سميث أديب مرهف ، وقد نشر قصائد صغيرة نثرية يسميها فالري لاربو Valéry Larbaud (٢) قصائد مهموسة à mi-voix

---

(١) لوجان برسان سميث ـ شاعر انجليزي له قصـــيدة جميلة هي Trivia أي « الثلاثية » .

(٢) فاليري لاربو Valéry Larbaud اديب فرنسي معاصر . ولد في فيشي سنة ١٨٨١ وهو غير الشاعر فليري . وللاربو عدة روايات قيمة ، كما أن له أكبر الاثر في تعريف الاجانب بالادب الفرنسي المعاصر ، وتعريف الفرنسيين بالاداب الاجنبية المعاصرة . وذلك=

وقد ترجمها فيليب نيل Philippe Neel (١) ترجمة ممتعة ،وانه لمما يؤسفنى ان ارى مؤلف تريفيا Trivia يركن الى مسلمات مسرفة . لوجان برسال سميث يستحق عقابا قاسيا . وليكن عقابه مثلا نجاحا حقيقيا .

وكلمة « نجاح » ليست اليوم من تلك الكلمات التى يمكن أن نفوه بها جزافا . فمنذ ثلاثين سنة تقريبا ، أى منذ أن أدخلت على جماعة الادب وسائل التجارة وغاياتها المادية ، اخذت تلك اللفظة نبرات مزعجة . فشيطان الكم ــ الذى سيحكم العالم عما قريب ــ يلوح أنه زاد تمكينا لنفسه وتقوية لاستحكاماته فى الآداب وغير الآداب فى بلادنا وفى كل البلاد وان كنت على ثقة من أنه لا يزال هناك مؤلفون يرون فى استلام خطاب من جيد أو كلوديل نجاحا بينا . أو ما يعتبر الرجل العاقل نجاحا أن يقرأ أصدقاؤه ما كتب ويتذوقوه ؟ وفى حمل شخص ممتاز على أن يبكى أو يحلم أو يضحك ما يمكن أن يعد شيئا جميلا ، ومكافأة كافية لنفس لم تفسد . ولكن ما هذا ؟ والفنانون والكتاب والشعراء لا يرمون الى النجاح الساحر ، النجاح الذى يستسيغه ذوقهم فحسب ، بل يطاردون النجاح بمعناه المطلق ، وهو النجاح الوحيد الذى يحسب ، أو على الأصح الذى يحسب بعملية حساب ، أعنى الذى يحسب أرقاما .

وانه لشىء غريب أن نرى أن تدخل شيطان الكم لا يبسط المشاكل فى الظاهر الا ليزيدها فى الواقع تعقيدا ، اذ مامعنى المعيار ازاء اللامحدود، ازاء اللانهـــائى ؟ أين يبتدىء النجـــاح ؟ وما هى أمارته المميزة ؟ ثم أين يجب أن يقف ؟ بل هل يجب أن يقف ؟ فالخمسة الآلاف نسخة التى يفتخر بها بول Paul تبدو متواضعة بالقياس الى الخمسين ألفا التى يطبعهـــا بير Pierre والخمسون ألفا التى يطبعها بير تتضاءل ــ وان تكن فيلقا محترما ــ ازاء الثلثمائة ألف التى يطبعها ايزيب Eusèbe وازيب نفسه يمتقع لونه اذا جرؤ أحد أن يواجهه بجحافل المكتبات الألمانية والانجلو سكسونية ! وفى هذه الحسابات الفلكية يموت الحب والاعجاب، وما الارض الى جانب المشترى الا تفاحة ابيوس (٢) والمشترى حقير ازاء الشمس ، والشمس نفسها لا تزن شيئا اذا فكرنا فى المائة نجمة التى نعرف أنها ليست أكبر ما بالعالم المحير ، وهذا أهم ما نعرفه عنها .

ــ بفضـــل مقالاته الكثيرة في النقد ، وهو ينشرها اما بالانجليزية او الاسبانية بجرائد تلك البلاد من الادب الفرنسي المعاصر أو بالفرنسية في الجرائد الفرنســية من الآداب الاجنبية المعاصرة .

(١) اديب معاصر .

(٢) pomme d'ap نسبة الى رجل رومانى اسمه Appius استطاع ان يحصل بالتطعيم على نوع جديد من التفاح ، وهو تفاح صغير احمر وابيض كثير السكر .

لقد سممت الأرقام كل شيء ، وان كانت لا تستطيع أن تعطى عيار شيء ، فهى تنزل الدوار أحيانا ببعض النفوس المتزنة القوية • ومن المؤلفين الذين لاخوا معززين بشهادة ذوق الذوق ، من يحلم ــ وهذا ما لا يحققونه دائما ــ بما يسمونه النجاح الشعبى ، وذلك طبعا ، «لمجرد حب الاستطلاع» ، ولمعرفة « الشعور الذى يبعثه فى النفس » ، ليتموا جمع الاسلاب ، وليتذوقوا ولو مرة بعض تلك الاحساسات الغليظة القوية • ولما كان « النجاح الشعبى » ظاهرة لم يكتشف بعد سرها فان حب الاستطلاع هذا قــد كلفنا عددا من التجارب المؤلمة •

فمن الشبان من هزتهم اقتراحات التجار ، وأنزلت المنافسات الشهيرة برءوسهم الدوار ، كما دفعتهم تلك الحمى التى يجب أن نسميها جونكورية(١) الى أن يروا فى النجاح « الكمى » شرطا أساسيا لمستقبلهم ، ودليلا يدفعهم الى الادب أو يصرفهم عنه ، وعندهم أن حركة الآداب قد أصبح العالم كله مسرحها ، ذلك العالم الذى يسخر من المؤلفــات ويتطلب بوجه خاص معارض ومنتصرين ومهزومين وأسبقيات وجثثا •

يشعر الملاحظ الصافى البصر أمام هذه الظواهر « بضيق » لايستطيع أن يتغلب عليه ، وهـــو ــ اذا كان ذا كبرياء غيور المزاج ، وكان ممن يتصورون الفن فى صورة أبية لا تقنع بالقليل ولا تنزل عن رأى ــ لم يجد بدا من أن يرفض الموافقة على حكم الجمهور وأن يجحد النجاح •

وهو لا يفعل ذلك فى غير مناقشات وخصومات بينه وبين نفسه • فالرجل الذى يقرأ كتابا سامى الذوق يقدح فى عدم احساس الجمهور ، ويأخذ ــ اذا لم يكن أثرا ــ فى بث حماسته للكتاب فى نفوس أتباع جدد ، ولكنه لا يكاد ينتهى من كسبهم حتى يبتدىء يتألم ، فهو يجدهم غير أكفاء أو مهاترين سفهاء • وهو يأسف مر الأسف لعدم استمراره فى الحب وحيدا ، ثم لا يلبث أن ينصرف سخطه الى موضوع حبه • فعندما اشتهر ماترلنك دفعه أقدم أنصاره بأرجلهم وشتموه فى مضاضة « فيلسوف مجلات » •

وأنا أعرف أناسا حسنى النية لايزالون يجلون كلوديل وذلك لأنه لم يوسم بعد بميسم الأكاديميا ، ومع هذا فحماستهم قد ابتدأت تخبو لانهم أخذوا يظنون أن شاعرهم قد لايكون فى النهاية الا شهاب معبد(٢) ، وهذا خوف لا يليق ، وجيرودو لم يعد من المتعة بحيث كان منذ أخذ جميع

(١) نسبة الى جيل وادمون جونكور Goncourt الكاتبين الفرنسيين اللذين تحدثنا عنهما فى هامش آخر •

(٢) شهاب معبد Météore de Chappelle وهذا تشبيه رائع ، اذ يشبه ديهامل كلوديل بأحد تلك الشهب التى تصور بسقوف المعابد والكنائس ، وهى شهب مصطنعة ، وكل الشهب فانية ولو صورت بقباب المعابد ، ويزداد التشبيه لذعا اذا ذكرنا ان كلوديل شاعر كاثوليكى متدين •

الناس يتمتعون بمسرحياته ، وليسرع المسيو أندريه مالرو (١) في تذوق آخر جرعات المجد بندوات الادب ، فانه اذا وافق – وليس هناك ما يدل على أنه سيرفض – سيصبح اسمه غدا فى كل النفوس ، وستصبح كتبه فى كل المكاتب ، ولربما غضب عندئذ أولئك الذين يكونون قد تمنوا ذلك أعظم التمنى • وهكذا يتعثر الحب ؟ ولسوف يرددون مع لوجان برسال سميث : « الكتاب الذى يروج قبر مذهب لموهبة غير ممتازة » ، واقول انهم سيكونون على خطأ •

سيخطئون اذ يبسطون – وفقا لهواهم – مشكلة دل التاريخ على أنها معقدة الى حد ما • أحقا أن موهبة كورنيل وراسين وموليير كانت موهبة غير ممتازة ؟ وما معنى هذه الحدة فى المزاج ؟ هل لنا لاسرافنا فى الذوق ، ولحرصنا على المرهفات أن نتخلى عن العالم للحيوانات ، وأن نهجر رسالتنا ، وأن نخون الفن نفسه ، ونحن ندعى خدمته ؟ والخصومة ليست وليدة اليوم ، اذ أنه بعد نجاح هوراس Horace (٢) نجاحا أوشك أن يضمن للممثلين قوتهم ستة أشهر رأينا المسكين شبلان يكتب الى جي دى بلزاك Guey de Balzac (٣) قائلا : « هذه مواضع الشعراء المأجورين ، وهذا مصير المسرحيات التجارية » ، فيا للعجب ! كورنيل شاعر مأجور ! اللهم رحماك !! •

وفي الحق أنه لأمر هين أن ينتصر برادون Pradon (٤) دائما على راسين • ولكن لحسن حظ العصر الذهبى (le grand siècle) (٥) ، كانت لراسين الكلمة العليا ويلوح أنها لا تزال له •

---

(١) اندريه مالرو . كاتب فرنسي معاصر ، وله عدة روايات اشتراكية النزعة منها : « الباب الملكى » و « الغزاة » ، « أمل » . وهذا يفسر السخرية الخفيفة التي يستطيع أن يلمحها القارىء في اشارة ديهامل اليه ، فاندريه مالرو كاتب اشتراكى اى شعبى ، واذن فستمتد شهرته بين الشعب لانه يسعى الى ذلك أو « إنه لا يرفض أن يتمتع بها » كما يقول ديهامل ساخرا .

(٢) احدى مسرحيات كورنيل وهي تراجيديا .

(٣) جى دى بلزاك Guey de Balzac (١٥٩٤ – ١٦٥٤) ، أديب فرنسي له مجموعات من الخطابات أهمها « خطابات سقراط المسيحى » و « خطابات ارستيب » Lettres d'Aristippe أسلوبه خطابى ضخم الالفاظ والعبارات ، ومع ذلك لقد ساهم بلزاك في التقدم باللغة الفرنسية نحو المرونة والفنى . ويلاحظ أن جي دى بلزاك هذا غير الروائى الكبير هونوريه دى بلزاك المؤلف القصاص الذي عاش في القرن التاسع عشر .

(٤) برادون شاعر فرنسي (١٦٤٢ – ١٦٩٨) اراد أن ينافس راسين فنسخ رواية « فدر » وقدمها للمسرح على أنها من وضعه ، ولقد انتقم منه بوالو الناقد الشهير بسخريته اللاذعة .

(٥) العصر الذهبى هو عصر لويس الرابع عشر ، ويسمونه بالفرنسية le Grand Siècle اى القرن الكبير .

وعبقرية موليير موهبة غير ممتازة مادام قد صفق « للمتفيقهات » Les Précieuses خلال أربعة أشهر ، وما دامت « البخيل » ، عند العودة اليها ، قد مثلت سنة كاملة بغير انقطاع · لا · لا · لنحذر أمثال تلك المكابرات فانها قد تكون ضارة ·

وهل يجوز لكي نكفر عن نجاح المرورين والحمقى والمخاتلين أن نبلغ من الجرأة المسرفة حد التنكر لما أصاب أساتذتنا من نجاح ؟ ذلك النجاح الذى يجب أن يكون فيه عزاؤنا وعلة حياتنا ، وهو الضوء العزيز الذى يضيء ما نتعثر فيه من ظلال ·

يقول سانت بف ان نجاح أتالا(١) كان خارقا ، وهذا لا يحط من قدر شاتوبريان وألشناحون والنقاد يجمعون على الاعتراف بأن نجاح فرتر كان باهرا ، ولست أرى فى هذا ما يمس احترامى لجبينه · وفى الحاضر ما يسرنى فوق ما يسرنى الماضى ، فنجاح هاردى Hardy وكونراد Conrad (٢) ، وسلمى لاجرلوف Selma Lagerlof (٣) ، وجوركى Gorki (٤) ، وبراندللو Pirandello (٥) ونجاح فليرى

---

(١) اتالا رواية لشاتوبريان ·

(٢) كونراد — جوزف كونراد · كاتب انجليزى بولونى الاصل · ترك جامعة جركوفيا وهو في السابعة عشر من عمره ، واتى الى مرسيليا حيث أبحر لمدة ثلاث سنوات فوق البواخر الفرنسية ، وفي سنة ١٨٧٨ التحق بالبحرية الانجليزية كبحار وظل بها الى أن وصل الى رتبة « كبتن » وقد حصل على الجنسية الانجليزية سنة ١٨٨٤ ، ونشر سنة ١٨٩٥ أولى رواياته ، وقد لاقت نجاحا كبيرا ، ومنذ ذلك الحين انصرف الى الادب فكتب الكثير من الروايات الجميلة ، وهو كاتب مجيد في الانجليزية ، ورواياته روايات مغامرات ووصف ، وهو صادق النغمات متشائم الى حد بعيد ، وفي رواياته ما يشبه راوايات لوتى في الفرنسية · وولد كونراد سنة ١٨٥٧ ومات سنة ١٩٢٤ ·

(٣) Selma Lagerlof سلمى لاجرلوف — كاتبة سويدية ولدت سنة ١٨٥٦ ، وهى كاتبة رومانتيكية ، ولها عدة قصص وروايات ترجمت الى كل اللغات الحية ، وقد نالت جائزة نوبل ١٩٠٩ ، وتمتاز لاجرولف بخيال خصب في اختراع الاساطير ومحبة صامتة للمتواضعين من الناس · وتعمق في الحياة الروحية ، وهى قريبة في منحاها من اندرسون التى ترجمت قصصه للاطفال اخيرا الى اللغة العربية ·

(٤) مكسيم جوركى Maxime Gorki الكاتب الروسي الشهير ولد سنة ١٨٦٩ وفقد ابويه صغيرا فعاش متجولا دون أن يتعلم تعليما منظما ، ولعل من خير ماكتب كتبه عن حياته مثل « الحب الاول » و « ذكريات حياتى الادبية » و « حياة طفل » ، وأسلوبه فعال ولكن مصدر قوته يأتيه من عمق رؤيته للناس والاشياء وامعانه في الواقعية ، وهو كاتب الثورة الروسية ، ومن أجرأ من دافعوا عن النظام السوفيتى الشيوعى ، وفي كتابه المعنون « كتابات الثورة » جماع هذا الدفاع ، ولقد تولى جوركى الوزارة كما اشرف على المطبوعات ولقد مات اخيرا ·

(٥) Luigi Pirandello كاتب ايطالى كبير ، ولد في صقلية سنة ١٨٦٧ درس في روما وفي بون بالمانيا واشتغل كاستاذ بروما من سنة ١٨٩٧ الى سنة ١٩٢١ ، وفي =

وأندريه جيد وكوليت Colette – وأنا أختار عمدا أشخاصا مختلفين – هذا النجاح الذى رأيناه أحيانا يطلق جناحيه ويحلق فى جوف السماء ، هذا النجاح يجب – اذا كنا نحب الآداب ونؤمن بمصائر فننا – أن نقدره ككسب شخصى ، اذ أنه انتصار لنا وفيه ما يعززنا بالأمل والكبرياء بالمشروع •

ومع ذلك لو حدث أن جازف أحد أولادى يوما بالمغامرة فى الأدب ، وسألنى أن أنصحه – وهذا فرض يمكن تصوره فى حالة اندفاع عن هوى – اذن لما قلت له غير هذه الكلمة (احذر النجاح) •

وسأفكر عندما أقول ذلك أول ما أفكر فى « نجاح القرن العشرين » ذلك النجاح الذى أميل الى تسميته « بالنجاح الأمريكانى » ، فتلك الظاهرة القاسية قسوة القتل نراها – وقد فك عقالها كالوحش – تمسك بالانسان وتقتلعه وتنتزعه وتمزقه ثم تتركه يهوى وقد مات معظمه وتعفن وضاع فى ظلال الفناء •

سأفكر أيضا – عندما أهمس بنصيحتى – فى النجاح الملتوى المخاتل ، ذلك الذى يثنى يوما بعد يوم من مدى أهداف الرجل ، ويقلم من أظافره وأجنحته ، حتى يزج بقدميه فى رفق الى مباذل المجد • سأفكر فى هذا النجاح الذى ينال من الشجاعة الحقيقية برضاب قبلاته السامة كما يجفف ماء الحياة •

احذر النجاح ! – كل نجاح باب يغلق ، كل نجاح أمل يكبل ، كل نجاح مستقبل يقبر ، كل نجاح عدول •

نعم احذر النجاح • احذر هجماته واحذر مكايده • احتقر النجاح • ولكن كيف تحتقره اذا لم تكن قد سيطرت عليه ؟

النجاح تجربة مضنية يجب ألا نخشاها ، كما يجب ألا نسعى اليها • اذا كانت لك رغبة فى النجاح فاحذر أن تكون رغبتك اندفاع الطوى ، واذا كنت تحتقر النجاح فاحذر أن يكون فى احتقارك نبرة الحقد •

هناك رجال أقوياء يتخذون من كل شىء وسيلة للسيطرة على أنفسهم ، حتى ولو كان ذلك الشىء هو النجاح •

= معظم ما كتب ما يدل على نظرته الى الانسان ككائن تافه عاجز عن أن يفهم نفسه ، وله عدة روايات وعدة مسرحيات ، وقد ترجم بنجمان كرمييه الكثير من مسرحياته الى الكثير من مسرحياته الى الفرنسية ، ولقد مثلت بباريس بعضها ومات برندللو أخيرا •

وهناك عبقريات ساحرة تتفتح لأول نظرة من نظرات النجاح ، ثم تذوى على الأوصفة وتنتهى الى المجارى •

وهناك نفوس متقلصة يحل النجاح عقدها فجأة، كما ينيرها ويحررها، ولكنى أعرف غير هؤلاء ممن يعميهم النجاح فيترنحون •

هيا : افتح يديك • ضع الكرة البيضاء فى يدك اليمنى والكرة السوداء فى يدك اليسرى ، النجاح فى جهة وعدم النجاح فى الجهة الأخرى، وحاول أن تسير قدما معتدل القامة محافظا على اتزانك •

ولا تذكر غير كلمة واحدة « احذر النجاح » ، وأما الباقى فلم أقله لقد إكتفيت بأن فكرت فيه ، ولنفسى فقط •

- ٤ -

أشباح العبقرية

هذا الطفل ، هذا الشاب الذى يسير وحيدا على طول الرصيف الباريسى ، انظر اليه جيدا ، واتبعه وسط الجمهور والضوضاء ، كما يمكن أن يفعل ملك يقظ •

انه ما يزال يافعا • وهو بلاريب يذهب الى المدارس حيث يقطف - على نحو مايلقط الطير - مايروقه ويغريه ، وهو يلتهم فى الخفاء الكتب المثملة • انه فخور خجول هروب يمكن جرحه • اذا أحس أن الأنظار تتجه اليه شد من قامته ، ولكنه مايكاد يخلو الى نفسه حتى يحز فيه يأس قاتم، وهو مستكين فى ردائه وحركاته ، سرعان مايجفل ، ومع ذلك لا ترى فى نظراته الا انتقاما ومجدا وسيطرة • يضحك لأن نفسه غضة رقيقة ، ثم يسرع فيتماسك ، وهو يحتمى بالنقمة والثورة •

تتبع هذا الشاب خطوة خطوة ثم انقض عليه فجأة كشيطان ، وأمسك به واختطفه واحمله بضربة جناح قوى الى أعلى الجبل ، وامنحه كنوز العالم •

وهذه تجربة ماكرة • ففى تصور كنوز الأرض ما يكفى ليحمل على التذبذب بعض الرجال الذين نضجوا فى التجرد • ولكى نصدف عن المرأة، نعم المرأة أولا ، ولكى نصدف عن الانتقال الى حالة جديدة ، وعن الآفاق

والبلاد والرحلات والمسارح وأنواع الطعام والسرعة بوسائلها الطيعة والاعيبها المذهشة ، لكي نصدف عن الأرض والبيوت والفواكه والأزهار ، لكي نصدف عن السلامة وضراعة الضعفاء وعزلة البذخ ومجتمعات النشوة — لكي نصدف عن كل هذا لابد لنا من روح انغمست مئات المرات في تأمل الموت ، أو من رغبة أوسع وآخذ من كل ما يعد شيطان الشر .

ومع ذلك نرى فتانا يتردد وهو ممزق ، مقطع الأنفاس ، وفجأة يدفع الاغراء وينفض رأسه في عنف : لقد اختار .

لا . يقولها بصوت خافت ينم عن الكبرياء خيثا وعن الخجل حينا آخر . لا . ليس هذا ما أريد . أريد . . أريد العبقرية فحسب . .

أما أن العبقرية تجر وراءها كل المغريات الزمنية وأنها تأخذ وتقبل أضفى المكافآت ، فذلك مالا يفكر فيه الطفل أى تفكير ، فالذى يريده — وأنا واثق من ذلك — هو العبقرية بغير تيجان ولا أعلام ، عبقرية شوبرت Schubert (١) » ورمبو « Rimbaud و « فيلون »(٢) Villon

(١) موسيقى نمساوى ولد سنة ١٧٩٧ في لشتنتال ومات بالتيفوس في فينا سنة ١٨٢٨ وقد ظهرت مواهبه مبكرة فاخذ يؤلف منذ الرابعة عشرة من عمره ، ولكنه لم يستطع قط أن يستقر في حياته المادية حتى لنراه يضطر اكثر من مرة الى مساعدة بعض أصدقائه ، ولقد عاش حياته كلها تقريبا بفينا ، وليس بين الموسيقيين من يتميز بما تميز به شوبارت في فنه من بساطة وقرب من الموسيقى الطبيعية غير المتكلفة ، ومع ذلك لموسيقاه عميقة مؤثرة ، ولعل أحدا لم يبلغ في العبارة عن الحزن ما بلغ هذا الرجل ، ولقد كان الحزن لون نفسه الداكن ، وبالرغم من أنه مات في الجادية والثلاثين من عمره ، نقد ترك تراثا موسيقيا ضافيا ، منه الاغاني ومنه الأوبرات ومنه السمفونيات ، وهو يعتبر رأس موسيقيى الاغانى . وموسيقى شوبارت من أسير الموسيقات في أوربا ، بل العالم كله . وموضع استشهاد ديهامل به كاستشهاده برمبو وفيلون . . . الخ هو ما كان في حياته من بؤس .

(٢) فيلون — فرنسوا فيلون François Villon شاعر فرنسي ولد في باريس سنة ١٤٣١ — وفيلون اسم احد الأشراف في ذلك العهد ، وقد تبنى هذا الرجل شاعرنا الذى ولد من اصل متواضع . ولقد كان فيلون في حداثته تلميذا غير منتظم ثم التحق بجماعة من الصعاليك كانوا يسمون انفسهم « ذوى المحار » Coquillards ، وكتب بأسلوبهم بعض مقطوعات شعرية ، وفي سنة ١٤٥٦ كتب « اغانيه » Lais المسماة « الوصية الصغيرة » Petit Testament وفي نفس العام اشترك في « سرقة مع كسر » من احدى مدارس باريس التابعة لكلية اللاهوت ، ومن ذلك الحين هرب الى الارياف حيث عاش متجولا لعدة سنوات يسرق وينهب ، الى ان قبض عليه في مونج Meung واودع صيف عام باكمله في سجن اورليان ، واخيرا افرج عنه بمناسبة تولى لويس الحادى عشر عرش فرنسا ، فكتب عندئذ « الوصية الكبرى » Grand Testament وفيها يعترف بخطاياه في نغمات مؤثرة لا تدانى ، وفي سنة ١٤٦٢ حكم عليه بالخنق والشنق لأسباب نجهلها ، ولكنه استانف الحكم فاستبدل سنة ١٤٦٣ بالنفى ، ومن ذلك الحين لم يعلم منه شيء اذ اختفى ، ولكن الراجح انه كان قد مات سنة ١٤٨٩ م

و «ڤان جورج» (١) Van Gogh وبودلير(٢) وشيلي(٣) ، العبقرية التي يصحبها نوع من عطر الاستنكار والألم والاستشهاد وتضحية النفس .

= عندما ظهرت أول طبعة كاملة لمؤلفاته التي منها الوصية الصغيرة والوصية الكبيرة ، وعدة قصائد أخرى بعضها يتعلق بمحاكمته مثل « الرباعية » Quatrain، و « قصيدة القبر Epitaphe و « الشكوى الى البرلمان » Requête au Parlement و « قصيدةالاستئناف » Ballade de l'appel وشعر فيلون جميل صادق ساذج وهو في فرنسازعيم الشعراء الصعاليك .

(١) ڤان جوج Van Gogh مصور هولندي (١٨٥٣ ــ ١٨٩٠) ، وهو مصور واقعي من مذهب ميبه Millet ، ومن لوحاته الشهيرة « آكلو البطاطس » و « ذارى القمح » Le vannier وكان ڤان جوج مريضا بالتشنجات العصبية ، ولقد انتحر بطلقة نارية ، ولقد تميز ڤان جوج بحرصه على تأثير الالوان وانسجام الخطوط ، ولوحاته ليست كلها في درجة واحدة من الجودة .

(٢) بودلير شارل بودلير Charles Baudelaire هو الشاعر الفرنسي الذائع الصيت (١٨٢١ ــ ١٨٦٧) ولقد كانت حياته حياة بؤس ، حياة بوهيمية ، ترجم قصص وشعر ادجار الن بو من الانجليزية ترجمة رائعة ، ثم كتب « قصائد منثورة » و « فن الشعر الرومانتيكي » ، وفيه يهاجم في عنف الشعراء الرومانتيكيين . ثم مقالات في علم الجمال Curiosités esthétiques ولكن مجده كله وشهرته يتركزان في ديوانه الشهير في العالم كله باسم « أزهار الشر » Fleurs du Mal وهو يحوى كل ماكتب من شعر ، ولقد حوكم من اجل هذا الديوان وأمر القضاة باستبعاد بعض قصائده . وبودلير يعتبر بهذا الديوان شاعرا كبيرا جدا ، بل ان من النقاد من يحله في المكان الاول بين شعراء فرنسا ، كان له تأثير عظيم في الشعراء المحدثين ، وقال عنه هيجو « انه أدخل في الشعر رعشة جديدة » ويمتاز شعر بودلير بغنى الصور وروعة البساطة في العبارة وعمق الاحساس ، ثم بتقديسه للفن واصالة موسيقاه اللفظية ، وفي كل هذا ما يغري رغم ما في بعض قصائده من شذوذ أخلاقي وميل الى المشاعر غير الطبيعية واسراف في الواقعية . ولقد نشرت له أخيرا « يومياته » Journaux intimes وخطاباته» وغيرها وفيها ما يصحح من حكم الخلف عليه ، في يومياته بنوع خاص ما يدل على انه لم يكن مستهترا الى الحد الذي قال به ، وأن الكثير من أقواله لم تصدر منه الا عن رغبة عنيدة في مكابرة الرأى العام ومهاجمته ورد عدوانه وأنه على العكس من ذلك كان نفسا خيرة ضعيفة معذبة الضمير متلهفة الى رحمة الله ، وفي شعر بودلير من التصوف حتى في حديثه عن اللذات ما يحمل على الاعتقاد بأن نفسه كانت أعمق مما تبدو .

(٣) شيلي : برسي بيتش شيلي Percy Bysshe Shelly شاعر انجليزي رومانتيكي كبير (١٧٩٢ــ١٨٢٢) ، وأول أحداث حياته المهمة كانت طرده من جامعة اكسفورد سنة ١٨١١ بسبب كتابه الصغير عن « ضرورة الالحاد » ، ومنذ ذلك الحين اندفع في تيار السياسة المتطرفة يخطب الجماهير ويصدر النشرات ويفر من مسكنه ليفلت من البوليس وفي قصيدته « الملكة » Queen Mab جماع آرائه السياسية والاجتماعية. ولقد تزوج من هريت وستبروك Harriet Westbrook ربابا منذ السادسة عشرة من عمرها ، ولكنه بعد مشاجرات مؤلمة افترق عنها وسافر الى اوروبا وقد قص ذلك في (تاريخ رحلة في ستة اسابيع) سنة ١٨١٧ . وقد اصطحب معه بنت صديقه السياسي جودون Godwin واسمها مارية . وقد تزوج بها بعد انتحار زوجته الأولى سنة ١٨١٦ ، وكان في تلك الاثناء قد نشر قصيدة طويلة حزينة بعنوان « الستور Alastor

نعم • سعال « شيللر »(١) لا صحة « جيته » • قبو « بيتهوفن » الخانق لا سيطرة فاجنر المشرقة • وسم شاترتون » (١) Chatterton لا شيخوخة

ـاو روح الوحدة» وفي اوروبا تعرف بكليير في رحلة اخرى الى كليرمون Claire Clairemont التى تبنى فيما بعـــد ابنتها من بيرون ، واخيرا اضـــطرته تخبطات حياته الى الهجرة من انجلترا نهائيا فزار ايطاليا حيث لاقى بيرون ورد اليـــه ابنته الجرا Allegra ومات شيلى في زوبعة وهو يعبر بوغاز سبتزيا Spezia وحرق جسمه كما كانت تحرق الاجسام عند القدماء . حرقه بيرون مع لى هنت Leigh Hunt صديق شيلى الحميم ســنة ١٨٢٢ . ولشيلى عدة مؤلفات منها مسرحيته الغنـائية العميقة الرمزية « بروميتيوس طليقا » « ودفاعه عن الشعر » ومجموعات من القصائد التى تعتبر من أروع الشعر الرومانتيكى الغنائى في انجلترا ، ويمتاز شيلى بأصالة اسلوبه ونضرته وضخامة صوره ، ثم بعمق تفكيره وكرم نفسه كرما مؤثرا ينم عن غنى قلبه . ولقد ذكرنا كل هذه الاحداث في حياته لنفهم سبب استشهاد ديهامل به .

(١) شيلر : فردريك شيلر Friedrich Schiller ولد في ميونخ سنة ١٧٥٩ ومات في فيمار سنة ١٨٠٥ . اعده أبواه ليكون قسيسا ، ولكن دوق فرتربرج أمرهم بارسال ابنهم الى مدرسة شارل التى كان الدوق قد افتتحها في مدينة شتدجارت وهنالك عاش الشاعر من سنة ١٧٧٣ الى سنة ١٧٨٠ يدرس كما أمر القانون والطب ، ولكنه كان ينصرف في السر الى الادب وهكذا ظل بعيدا عن كل اختلاط بالحياة والناس . وقد اصبح روسو قائده الفكرى وعلى هذا النحو نما في قلب الشاعر بغضه الشديد للحضارة وللحياة الاجتماعية ، ولذلك ظهرت نزعته المثالية المتشائمة المسرفة في كل مؤلفات صعباه غنائية كانت أو مسرحية كما هو واضح في روايته « اللصوص » سنة ١٧٨٠ « والحب والدسيسة » سنة ١٧٨٤ وقد ترجمتا الى اللغة العربية (ترجم الاولى الاستاذ عبـده الزيات والثانية الدكتور حسن صادق) ، ثم في رواية « مؤامرة فيسك ودون كرلوس » (١٧٨٣ ـ ١٧٨٧) وفيها يمجد النظام الجمهورى الانسانى . ومنذ سنة ١٧٨٧ انصرف شيلر الى دراسة التاريخ والفلسفة فكتب « ثورة الاراضي الوطيئة » ، « تاريخ حرب الثلاثين عاما » ... الخ ، ثم تعرف بجيته واصبح صديقا له فعاد الى الشعر الغنائى وكتب عدة قصائد ثم الى الشعر التمثيلى . وقد تغير اتجاهه النفسي كما تغيرت أفكاره فاتزنت كما يظهر ذلك في « مارى ستيوارت » ، « عذراء اورليان » و « وليم تل » ... الخ ، ولقد تمتع شيلر بشهرة واسعة ونفوذ قوى وخصوصا بين أفراد الشعب الالمانى . واما المثقفون من الالمان فيفضلون فيما يظهر جيته . وحياة شيلر اذا قيست بحيـــاة جيته حياة فقيرة بائسة وهذا سبب استشهاد ديهامل به . ولقد مات صغير السن على عكس جيته وكان مريضا معظم ايامه ، والى سعاله يشير المؤلف .

(٢) شاترتون ـ توماس شاترتون : Thomas Chatterton : شاعر انجليزى ولد في برستول سنة ١٧٥٢ ومات منتحرا بالسم بلندن سنة ١٧٧٠ ، وقد ظهر ميله الى الشعر منذ طفولته ، وكان لقراءته للمخطوطات القديمة أثر قوى في ولعه بالعبارات العتيقة ، فنشر سنة ١٨٦٨ قصائد على غرار شعر القرون الوسطى ، اهمها القصيدة المسماه « معركة هستنجز » نشرها باسم توماس رولى Thomas Rowley ، وهو شاعر وراهب معروف في القرن الخامس عشر ، ولكن معاصريه لم يخدعوا وان أقروا له بالعبقرية ، واغرى النجاح شاترتون فذهب الى لندن حيث تلقفه البؤس ثم الموت بالسم وهو في الثامنة والعشرين من عمره ولقد اوحت ماساة هذا الشاعر الى فنى بمسرحيته الرومانتيكية الجميلة « شاترتون » ، كما اوحت اليه بجزء من روايته الشهيرة «ستلو» Stello ، وبذلك عرف شاترتون في فرنسا معرفة واسعة .

وتأليه « هيجو » ، ومقصلة « شنيييه »(١) لا سفارة « روبانس »(٢) ذات الهالة من الضياء • ولكن اليقظة ! اليقظة ! فما يريده الطفل ثمنا لكل

---

(١) شنيييه : اندريه شنيييه André Chenier – شاعر فرنسي ولد في القسطنطينية من أم اغريقية وأب فرنسي كان يعمل بالسلك السياسي وذلك سـنة ١٧٦٢ ، ومات بباريس سنة ١٧٩٤ . ولقد عاش في فرنسا منذ الثانية من عمره والتحق بالجيش ثم بالسلك السياسي لمدة سنتين بلندن ، وعندما نشبت الثورة الفرنسية أعلن حماسته لها ، ولكنه عندما جـاء حكم الارهاب قاومـه محتجا في شجاعة ، فقبض عليه وأعدم في ٧ ترميدور ، اى قبل سقوط روبسبير بيومين اثنين ، ولم ينشر شنيييه وهو حي الا القليل من قصائده ومقالاته ، ولكن بعد موته جمعت أشعاره ونشرت في مجلد ، والذى لاشك فيه أن القضاء عاجل شنيييه ، فمنعه من تنفيذ خططه الواسعة في الشعر والنثر ، ولدينا مقطوعات من قصائد طويلة لم يتمها كقصيدة « هرميس » و « قصيدة أمريكا » . هذا الى ريفياته ومراثيه وقصائده الاخرى الجميلة ببساطتها الافريقيـة النغمات ، ويتلخص فنه الشعرى في بيته الشهير «لنكتب أشعارا قديمة بأفكار جديدة» وهو يقصد بذلك الى ان تكون الصياغة كصياغة الاغريق القدماء لشعرهم ، أى بسيطة موسيقية خفيفة منسجمة النغمات ، وأن تكون الافكار حديثة على نحو ماكان ينوى ان يفعل في قصيدة « هرميس » التى لم يتمها ، فقد كان يريد أن يقص تقدم العلم والتفكير وأن يجعل منها مايشبه قصيدة « طبائع الاشياء » للشاعر اللاتينى الشهير «لوكريس» ، والى موته على المقصلة يشير ديهامل .

(٢) بول روبانس Paul Rubens مصـور وسـياسي هولنـدى (١٥٧٧ ـ ١٦٤٠) عاش روبانس في النفى بسبب الحزازات السياسية التى تورط فيها أبوه ، ولكنه لقى في النفى مجدا وعزا ماكان يستطيع أن يصل اليهما في وطنه ، ففي ايطاليـا عزز في بلاط مانتو ، وقد ارسله دوقها الى روما ثم الى ملك اسبانيا ليحمل له بعضـا من الهدايا ثم عاد الى مانتو وروما وجنوة ، وأخيرا انتهى به المسير الى بلاط الارشديك البرت حاكم البلاد الوطيئة ، واستقر في انفرس حيث ماتت والدته ، وهنالك عاش في بذخ ومجد ، الى أن كانت سنة ١٦٢٢ فاستدعته مارية دى مديشي الى باريس ليحلى بصوره جدران وأسقف قصرها بحديقة الكسمبور ، ثم عاد الى انفرس ، وفي سنة ١٦٢٦ ماتت زوجته فسافر الى هولندا وطنه الأصلى ، موفدا في سفارة من الارشيدوق البرت وزوجته ، وفي ١٦٢٨ نجده في أسبانيا في بلاط فيليب الرابع ، وفي سنة ١٦٢٩ أرسله فيليب هذا الى لندن كسفير . وفي سنة ١٦٣٢ عاد الى لاهاى ، وهكذا ظل حياته كلها يتردد بين الملوك والامراء كسياسي وكمصور عظيم ، الى ان مات بأنفرس سـنة ١٦٤٠ بانفرس ، وروبانس من أمهر المصورين وأغزرهم انتاجا ، حتى لتجـد بمعظم قصـور أوروبا ومتاحفها آثارا له . وتمتاز صيغه بفخامتها ، والوانه بعمقها الشفاف .

وأما عن جيته الشاعر الالمانى الشهير ، وعن بيتهوفن وفاجنر الموسيقيين الالمانيين الذائعى الصيت ، وأما عن فكتور هيجو أكبر شعراء فرنسا الرومانتيكيين فمجدهم معروف وكذلك تاريخ حياتهم ، والكل يعلم حياة بتهوفن البائسة اذا قورنت بحياة فاجنر المطردة المجيدة ، كما يعلم ماوصل اليه جيته وهيجو من شيخوخة مبجلة معززة ، وان كانت سعادة احدهم وشقاء الآخر لاتفيد تفوقه في فنه أو عدم تفوقه ، وانما هى مقابلات يلجأ اليها ديهامل تمهيدا لفكرته التى سيعرضها فيما بعد اذ يهاجم أوهام الشبان الذين يعتقدون أن المجد لايكون الا مع البؤس ، وأن الفن لايحيى الا بالاستهتار والمغـامرة الباطلة .

هذا الحرمان ليس « عبقرية » أو « عبقرية سعيدة » أو « موهبة ممتازة » لا · لا · انما يريد العبقرية خالية من كل حد أو وصف أو تحفظ · انه يريد العبقرية الملكة الخالقة التى تذكرنا بالله ·

***

هذا الشاب · هذا الطفل المستعد لأن يصدف عن العالم مقابل شرارة مقدسة ، ألاقيه كل يوم تقريبا فى الشوارع وفى المنازل فأعرفه وأحييه فى الخفاء ، لأن نظرته تملؤنى عطفا واشفاقا ·

وماذا يعلم عن العبقرية · تلك العبقرية التى يحبها أكثر من حبه للحياة ؟ لا شك أنه لم يستنشق منها الا النسيم ولم يدرك غير الصدى · فهو يشرف على النبرات الأصيلة لكبار المؤلفات ، ولكنه لم يدركها بعد ، وهو لا يستطيع أن يقيس عمق تلك الهوة الأليفة التى تحفرها الأرواح المهيمنة · وهو يكون عن كل الحقائق الكبرى للنفس صورا حية نزوية مشوهة · هذا على الأقل ما يلوح لنا · وأما عن العبقرية فلديه احساسه الداخلى بها ، وهذا طبعا خير من كل شرح مدرسى · لديه ما تحس به كل نفس فى ربيع حياتها : شعور شخصى بالعبقرية وبالارتفاع وبتخطى حدود ذاته ·

واذن فليمسك بهذا اللهب الذى لا يمسك به ، وليسجنه فى المادة ، ولينفثه كبذرة الهية فى هيكل الطمى الفانى ، وها هى المعركة قد كسبت · لقد فتح الأولمب ·

وعندئذ يبتدىء الصراع · ولكن أهو صراع حقا ؟ والصبى الصغير يتخذ طورا بعد طور أوضاع المروض وكأهن التثاؤل وساحر الطير · يغفو فى إنتظار حلم · يضرع على ركبتيه أحيانا أن يزوره الوحى ، وأحيانا يهيم كمن به مس ، رافعا كل الحجارة ، محطما كل الأبواب ، سائلا فى كل مخبأ ، « لقد كانت العبقرية هنا بالأمس ، بل هذا الصباح · لقد ظهرت لى أثناء نومى · لقد عبرت سمائى كالشهاب ، لقد همست بأذنى وأنا ذاهب لألحق بأعز أصدقائى · وهى التى جعلتنى أنفجر ضاحكا فى وجه رئيسى ، وهي التى ألقت بنفسها فجاة بينى وبين عشيقتى كحجاب من اللهب ، وهى التى كانت تسبق خطواتى فى الطريق عند الغروب » ؟ · · ·

ويثور الطفل لمخاتلتها · وما دام قد اختار ، وما دام قد تجرد عن العالم ، فلا أقل من ألا تحمله العبقرية على طول الانتظار · فلتتنزل ولتسقط من السحاب · وليكن فيها ما يغنى ــ بسخاء ــ عن كل شىء · وهم يتحدثون عن النظام والمنهج والعمل · نعم ! لا ! انما نحن بحاجة الى اللهب والاحتراق · يحدثوننا أن موزار ظل خــلال سنين قاسية تلميــذا لأبيه

ولعشرين معلما مغمورا • ويؤكدون أن رودان قد اصطفت قدماه زمنا طويلا بغرفة الانتظار المجاورة لفنه ، وأن بازاك قد سود صفحات كثيرة قبل أن يلقى بلزاك • لا • لا • ما نريده هو الاشراق دفعة واحدة ، هو شق الحجب شقا تاما ، وهذا ماسيكون ! سنعرف كيف نصل الى ذلك بالاغراء والعنف•

والطفل المعذب يضم قبضته ويقطب جبينه ، وهو يتساءل فى هياج، أما من سبيل الى اثارة العبقرية ؟ وهو يستعيد اللحظات المباركة التى عرض له فيها الالهام • ويحاول أن يستذكر الملابسات التى واتته فيها من العبقرية احساسات ذاتية ، وتلك عنده أرفع لحظات حياته سموا •

ان طموحا فى هذه الحرارة لجدير بأن نلقى عليه ضوءا كاملا •

***

والشيء المزعج هو أن يقين الشباب من العبقرية يقين ذاتى ، يصطحب بشعور عجيب ــ الشعور باللا مسئولية • فبينما ترى الرجل الخالق المحنك الناضج يحس غالبا بأنه الأداة التى تألم فى انتساج ما تعمل ، ترى الشباب يعتقد أنه قبل كل شيء مستودع ذلك العمل ، وهو يحس ــ سواء قدر ضعفه أو لم يقدره وسواء اعترف بسذاجته أو لم يعترف ــ أنه قد حظى باعفاء لذيذ ، وليس فى عدم حنكته ما يقلقه ، ما دام يرى نفسه رسول الروح ، وما دام يحس بالعبقرية تضطرب فى حناياه ككائن طفيلى الهى •

ويزيد الحيرة من تداعى تلك الأفكار كونها غير ارادية ، فالشاب يذكر فى أوقات الجدب أنه قد شدهه ما أفاد منها ، وبخاصة فى ساعات التعب خلال سهرة طويلة مضنية ، أو عند فجر ليلة بيضاء ، أو عندما وصل الى نهاية الاجهاد العقلى أو النفسى •

وهذا حق ، اذ سرعان ماتخل سموم التعب بآلية النفس ، وعلى نحو ما ترى القلب المجهد يستسلم الى خفقات ضخمة متنافرة كذلك العقل تراه يخلق ــ فى صراعه ضد الاعياء والنوم ــ أفكارا بشعة مسرفة غير محكمة الصلات فيما بينها • ولتلك الأفكار عند صاحبها المأخوذ بها وبما فيها من اختلاط واسراف مخايل العبقرية ونبراتها •

وتوتر الاعصاب توترا مسرفا ، والآلام التى تسببها شهوة حقيقية تترنح أحيانا من أخفى الألياف ، نغمات لم تسمع من قبل • والشاب يحس بكل ذلك ، فيحدث نفسه ــ فى انتظار المولة ــ بأن سموم التعب ليست بلا ريب السموم الوحيدة ، وأن هناك ما هو أكثر تعذيبا وأفعل أثرا ، وأنه ربما استطاع الانسان أن يرغم تلك الروح الكسول المتجمدة على أن تنفجر منها دمعة من اكسير الهى • وأنه لا بد من أن نحرقها حية ، وأن نسلمها لآلات التعذيب ، وأن ندفعها الى حافة الهاوية ، ولو أصابها

الدوار واستهدفت للموت • « الدخان تسلية تافهة ، والخمر مهمـــاز عنيف مبتذل • ولكن هناك الافيون والاتير • هنـــاك المورفين وأخواته السحرة • يتحدثون عن الخطر ويحركون بذلك اللفظ صورا مخيفة • ولكن • فليكن ! فليكن ! ولتذهب حياتنا • نعم حياتنا العزيزة الثمينة ثمنا لساعة عبقرية حقة » •

***

ولأقص آخر حديث لى مع الشـــــاعر فاليرب .. Valère B. وقد أصبح اليوم ظلا بين الظـــــلال • جاءنا من الطرف الآخر لأوربا ، وكان يتمتع بثقافة مرهفة منوعة • أتى الى باريس وطلب الينا ـ بعض الاصدقاء وأنا ـ أن نذهب لنراه بفندقه • وعندما هممنا بالانصراف ـ بعد نصف الليل ـ أمســـك فاليرب .. Valère B بذراعى وقال : دعهم يذهبون معى ، وقادنى الى غرفته حيث فتح درجا وأخرج منه حقنة وزجاجة رفعها الى السماء فى يأس ، وقد تغير صوته فخفت ، وأخذ يتحدث فى نبرات مخيفة « خالية ! الزجاجة خالية ! لم يعد عندى مورفين • والليل الحقيقى لم يكد يبدأ • انت طبيب يامسيو ديهاميل • أكتب لى تذكرة • أرجوك» • وبينما أنا مصغ وقد عقد الفزع لسانى أضاف هذا الرجل البالغ الاباء « اكتب والا جثوت على ركبتى وجررت نفسى على السجادة أمامك »

وعندما أغلق عينى أتخيل ... ت T الشاعر الفيلسوف الماهر فى الجنات المصطنعة • كان يغتم فجأة وبدون سبب ، ثم يأخذ فى النظر الى الاشياء بعين شاردة كالسمكة التى صيدت • ثم يقطع الحديث فى جموح ويولى الى لذات مروعة • وها أنا أتخيـــــل ج .. الذى كان يحتضن زجاجة الاتيربيد وقد أمسك فى سذاجة بالقلم فى اليد الاخرى • وأتخيل ... م وجها جميلا ونفسا صافية وقد وجدوه يوما متصلبا باردا فى قاع سريره • وأتخيل ... ب الذى لم يعد يفكر منذ زمن طويل حتى ولا فى الالهام العارض ، بل فى السبل التى يخدع بهـــا حراسه ، ويهرب من النوافذ ، ويهدد باعة العقاقير ، أتخيل كل هؤلاء • هؤلاء البؤســـاء الذين لم يملكوا عبقرية بل مجرد حب للعبقرية ورغبة يائسة فيها كما أتخيل تلك الجوقة من الفحول وهى تترنح وتقىء على طول الحوائط عند الفجر منادية ب « فيلون » و « فرلين » (١) ثم بمن ؟ « بمسيه » •

الا • لا • ليست العبقرية ثمرة للمصادفة أو الاتفاق أو الاسراف

---

(١) انظر الهوامش السابقة ، واما موسيه فالمعروف انه مات من اثر اسرافه فى شرب الخمر المسماة الابسانت •

أو المخدر والا لكان أمرها هينا سخيفا مثيرا حقا • وليس هناك وسائل كيماوية ولا عضوية لتهيئة حالة الالهام وخلق الكتاب الممتاز • ولقد مضى رجال كبار ـ أصيبوا ببلوى مخيفة ـ حياتهم كلها في صراع ضد الداء ـ ولقد أنقذوا عبقريتهم من السم النباتي والحيواني ، ولم يدينوا له بها ، وأنا لا أجرؤ أن أقول أن العبقرية صحة ، ولكنى أعلم جيدا أنها دائما انتصار على قوى الانحطاط والموت •

وأنا لا أكتب هذه الكلمات لأخيف رفاقنا الشبان • ولكن لأعبر عن يقين عميق • فالافيون والمورفين والأثير والكحول نفسه يولد عند آلاف البؤساء شعورا ذاتيا بالعبقرية ، ولكن هذه السموم لم تهب العالم البشرى كتابا واحدا ممتازا • ولا يسارعن أحد الى ذكر بودلير « والجنات ••• Paradis (٢) فبودلير لم يمتز الا عندما كان مخه باردا ونظرته قاسية الصفاء •

ولنترك فرلين لشأنه • فهو لم يبلغ الكمال الا عند صومه • ولقد أملت عليه مياه السجن الصافية خير قصائده •

وأنا أعلم الى أى حد من الرونق تبلغ أوهام السكر • ولكن ماذا يبقى منها عند الصحو ؟

لقد قص على الدكتور شارل نيكول Charles Nicolle ما يأتى : « لقد أرغم أحد أصدقائه ممن يتعاطون الحشيش ، وكان يدعى أنه يكتب قصائد رائعة تحت تأثير السم • أرغمه أن يقيد بالكتابة ثمرة الهامه أثناء سكره ، واذا به لا يخترع من أول الموضوع الى آخره ، غير هذه الترنيمة الهينة :

في مخ الحشاش • عصفور صغير جاف • يحطم أعشاب الخشب •

وأنا أحب النبيذ وأشربه • وهو هبة فخمة من الطبيعة حتى لأفهم أن يتخذ منه دم التناول ولكن الفنان الحقيقى ينتظر ـ لكى يمسك بالقلم ـ أن تحمل النسمات أبخرة النبيذ ، وأن تنشط حدقة عينه • والسكر لا يجب أن يأتى من الخارج •

وسم الامراض العصبية • هل لا يكفى مانقاسى من ناره ؟ لقد حدثت عن شاعر لا يشك أحد فى أنه موهوب ، أصيب بمرض خطـــر ، وما أن أكدوا له التشخيص حتى أخذ يثب فرحا ، وهو يصيح ملء حنجـــرته :

---

(٢) اشارة الى كتاب لبودلير عن الحشيش والافيون وما يخلقان من جنات كاذبة موهومة • وعنوان الكتاب « جنة الافيون » •

« ستأتيني اذن العبقرية » ألا هدوءا أيها القلب المحموم • فالزهري لا يمنع دائما من وجود العبقرية ولكنه لا يعطيها • وهو في الاغلب خانق للعبقرية

لقد ألح الداء على موبسان ، فالقى القلم وصمت،اذ أحس أن عبقريته قد ماتت • ولكن قد يقال والهورلا Horla (١) ؟ لا • نحن نعلم أن هذه الصفحة الجميلة ترجع الى سنة ١٨٨٧ فهي ليست ثمرة الهذيان ، كتبها موبسان وهو في كامل قوته وسط حياته الخالقة بناء على اشارة من ليون هنيك Léon Hennique

ولقد عاش فلوبير ودستوفسكي في رعب من مرض الهبوط وهما على وجه التأكيد لم يتعهداه • وفي المدة من حياة فلوبير التي ظهرت فيها حقا عبقريته لم تصبه أزمات ولاح أنه رجل سليم • وأنا أومن في ذلك بديمينيل (١) Dumesnil الطبيب الماهر والاديب الكبير •

لابد من وقت طويل لتأليف كتب ممتازة ، ومدة الهياج التي يسببها الشلل العام مدة قصيرة في جملتها • ولقدعمل نتشه ضد مرضه ولم يتعاون معه ، حتى كان يوم اشتد فيه المرض فكان الصمت المخيف قبرا للحم الحي أحد عشر عاما •

وكل ما يمكن أن يقال عن السموم والمرض ، هل من اللازم أن نقوله عن الشهوات التي هي بالغة القوة في « عجز العبقرية » ؟ والشهوة الحقيقية تتحملها النفوس الكبيرة وسط الآلام ولكنها لا تسعى اليها • وهي تستقل بحملها شنقية صائحة كل يوم « رباه ! رباه ! لم تركتني وحيدا » وانما يمثل مهزلة الآلام المسرحية تلميذ من تلاميذ المدارس يحدوه ألم خادع في أن تنبعث عنها يوما شرارة من الضوء •

لم تعد الرومانتزم تخلق كتبا ممتازة • ولكنها لم تنته بعد من أن تضل افهامنا • أيها الشبان ، افتحوا النوافذ واطردوا الأشباح •

---

(١) الهورلا Horla رواية جيدة لموبسان • وأما ليون هنيك فأديب فرنسي محدود المواهب محدود الشهرة كان صديقا لموبسان • ومرض موبسان الذى يشير اليه ديهامل هو مرض عقلي فقد انتهى هذا الكاتب العظيم بالجنون ومات عقب مرضه بسنوات قليلة (١٨٥٠ — ١٨٩٣) •

(١) لديمينيل الطبيب والاديب المعاصر كتاب قيم عن فلوبير — حياته ومؤلفاته — وفيه يحلل ويحدد الازمات العصبية التي تشنج فيها فلوبير وهي في جملتها قليلة فان الداء لم يكن قويا عنده •

النماذج الوهمية

ما هذا ! كوميدى صغير كهذا يجرؤ أن يضع على المسرح رجلا مثلى ثم لا يعاقب ! سأرفع دعوى • وفى نظام صالح يجب أن يجازى هؤلاء الناس على وقاحتهم • انهم طاعون المدينة • انهم يلاحظون كل شىء ليحيلوه هزؤا، بذا تحــدث أحد أعيـــان bourgois باريس اذ اعتقد أنه المعنى بـ Le cocu imaginaire « أوهام الزوج المخدوع » (١)ويضيف جريماريه Grimarist الذى يروى هذه الحكاية أن نفسا خيرة استطاعت أن تهدىء الشاكى بأن أفهمته أن خيانة زوجته لم تكن وهما بل حقيقة واقعة •

ومن المعروف أن موليير لم يتخلص دائما بهذه الســهولة ، وأنه قد اشتبك فى خصومات مؤلمة مع نماذجه المدعاة • ولما كان التاريخ قد فصل منذ ذلك الحين أكثر من مائة مرة فى تلك القضية ، فانه يحلو لنا اليوم أن نعتقد أن المسألة قد فهمت ، وأنه اذا كان الكتاب ما يزالون يتعرضـــون لضروب من الحقد والانتقام فانهم على الاقل لم يعودوا يستهدفون الى خطر كبير من جانب القضاة المثقفين المستنيرين الحكماء •

ولكن لسوء الحظ يلوح أنه لا يجوز أن نسرع الى تدخين النرجيلة ، فلقد أفزعتنى بعض خطـــابات من بلجيكا • نشر بيير هيبرمون (٢) Pierre Hubermont الروائى القوى منذ حين حكاية رائعة المداد أطلق عليها هذا العنوان المسرحى « همام ! يامونرشان Hardi ! Monarchin وهى عبارة عن لوحة لمعركة انتخابية بقرية بالريف ليس فيها مرارة ولا سموم ، بل ضحك وضحك صراح • تصوير واضح غزير المادة ، وبالجملة كتاب يحب لما فيه من رائحة الريف وطعمه الحى الحار •

وكم كانت دهشة المؤلف عندما رأى نفسه أمام القضاء ، فقد ادعى خمسة أشخاص أنهم المقصودون فى هذا الكتاب ، وحكم قضـــاة هانو Hainaut ـ الذين تأثروا بلا ريب أكثر ممـــا يجب بأهواء الشـــعب

---

(١) احدى مسرحيات موليير ، وجريماريه لغوى وناقد ، كان معاصرا لموليير ، وله كتاب من « حياة المسيو موليير » سنة ١٧٠٥ ، ثم كتاب آخر « اضافات الى حياة المسيو موليير » وكتاباه مليئان بالحكايات التى يظن انه اخذها من الممثل بارون Baron الذى كان يمثل مع موليير في الفرقة ، والحكاية التى يقصها ديهامل تعطى فكرة عن نوع كتابته الفكهة اللطيفة .

(٢) هيبرمون : أديب بلجيكى معاصر ، واما هينو وبرابنت اللذان سيأتى ذكرهما في الاسطر التالية فمقاطعتان ببلجيكا .

المحموم ـ حكموا على المؤلف بأن يدفع لرافعي الدعوى المبلغ الباهظ ، مبلغ واحد وعشرين ألف فرنك • واستؤنفت القضية وطلب الى قضاة برابنت Brabant أن يفصلوا فيها ، وقدفصلوا لسوء الحظ على نحو ما فصل زملاؤهم قضاة هانو Hainaut وخلف الحكم بنفوسنا السخط بل الغضب •

ومثل تلك الخصومة خصومتنا جميعا ، فلربما اضطررنا فى الغد ، كما اضطر هيبرمون Hubermont وكما اضطر كثيرون غيره،الى أن ندافع ضد فرائس الاوهام أو ضد هؤلاء الممرورين أمام القضاة عن كتبنا ، عن مخلوقاتنا ، أبناء آلامنا وتأملاتنا • بل ربما اضطررنا مرغمين الى أن نتنكر لمبادىء الفن نفسها ـ ذلك الفن الذى يتغذى بالحقيقة •

واذا كانت الآداب الفرنسية تتميز بروعتها بين غيرها فذلك لانها ـ فى مصدرها ـ لوحة رسمت من الطبيعة مباشرة • نعم ان الخيال والابتكار بحمد الله لم يعوزا قط أساتذة أدبنا ، ولكن خير مؤلفاتهم قد استقوه من قلب الحياة ، عند أنفسهم أو عند الغير ، ولقد ذكرت موليير ومن الواجب أن أذكر راسين ـ بكل تأكيد بل وصاحب قصص الحيوانات (١)ولابروبير طبعا ثم فولتير ، وديدروه ، جان جاك ، ديتوش ، بومارشيه (٢) Beaumarchais, Destouches, J. Jacques, Diderot, Voltaire يجب أن أذكر ستندال Stendhall وميريميه Mérimée فلوبير Flaubert « بوفارى » « والتربية » Bovary-Education يجب أن أذكرهم جميعا • لا : ليسوا كلهم • فلكم من مرة تركت الرومانتيزم ضوء الطبيعة الساطع ، ونحن لا نعرف نماذج لهرنانى «Hernani» ولا لروى بلاس Ruy Blas ولا لكازيموود Quasimodo (٣) ولكن ها هى تلك الاشباح ، أشباح الاحلام قد انحلت

---

(١) يعنى لافونتين La Fontaine ـ وفولتير وجان جاك روسو معروفان ، وهما من أدباء وفلاسفة القرن الثانى عشر ، وكذلك بومارشيه ، وديدروه ، وستندال ، وفلوبير وميرميه من روائيى القرن التاسع عشر وقد خصص ديهامل فلوبير بروايتيه (مدام بوفارى) (والتربية العاطفية) ، لان هاتين الروايتين واقعيتان ، حوادثهما معاصرة ونماذجهمامعاصرة . واما الروايات الاخرى لفلوبير امثال سلمبو Salammbo فروايات تاريخية قصد منها المؤلف الى بعث الماضي أكثر منه الى تصوير شخصيات ..

(٢) دتيوش Destouches مؤلف مسرحى فرنسي ، ولد في تور سنة ١٧٥٤ ، ومات سنة ١٨٣٦ وروايته الشهيرة « المجيد » Le Glorieux كوميديا اخلاقية جيدة.

(٣) هرنانى ، روى بلاس : اسماء أبطال دوامتين لفيكتور هوجو تحملان هذا الاسم وأما كازيمودو فبطل رواية قصصية لهيجو أيضا ، وهى المعروفة باسم « نوتردام دى بارى » وقد مثلت أخيرا في السينما بعنوان « أحدب نوتردام » ، وكازيمودو هو داق الناقوس ، والشخصيات الثلاث شخصيات خيالية ورومانتيكية ، ولذلك يحكم عليها ديهامل بأنها فانية ، أو قد فنيت بالفعل لبعدها عن الواقع ومشاكلة الحياة .

دخانا اذا أعوزها لحم ودم (١). التناول البشرى ·

وعند زولا ـ ذلك الرومانتيكى العنيد ـ نحس ـ بوضـوح كاف ـ اللحظات التى تحل فيها الحيل البلاغية محل المعرفة الفعلية ، ولقد قيـل ان بلزاك لم تترك له مشاغل حياته فراغا للملاحظة من صور من أشخاص ·. ولكن من قال ان بلزاك رجل ملاحظة ؟ بلزاك رجل تأمل · وهو لم يكن فى حاجة الى أن يجرى أمام العالم · لقد كان العالم يجىء اليه ·. لقد وجد بلزاك العالم فى نفسه ·

ونحن لا نخلق شيئا من العدم ، فالمؤلفات التى تصدر عن العدم قد تسلينا ساعة من الزمن ، ولكنها تفتقر الى المادة افتقارا مسرفا ، ولذا ترتد الى العدم ·

ألم تكن لبلزاك نماذج ؟ لننظر فى هذا ! فنماذجه ماتزال حية ومازلنا نلقاها كل يوم · ولكن ، لما كان بلزاك خالقا بالغ القوة ، فانه قد أعاد خلق نماذجه ، واذا بهؤلاء فيما بعد يحاكون فى أغلب الاحيان صورهم ـ على غير علم منهم ـ ويتمون خلقهم وفقا لتلك الصورة التى اقترحها لهم بلزاك(٢).

ليس للروائى الحق أنموذج واحد لمخلوقاته ، بل له عشرون ، بل له

---

(١) التناول البشرى (Communion humaine) ولقد استعار ديهامل كلمة التناول من الديانة المسيحية ، ومعروف أن المسيحيين يقصدون بالتناول الذى هو احد أركان دينهم الى الاشتراك مع المسيح في حياته وآلامه ، فالنبيذ والقربان هما دم ولحم المسيح ، وقد أريق الدم وعذب اللحم وفقا للديانةالمسيحية ، فتناول المسيحيين لرمزهما يجعلهم يتحدون بالمسيح ويشاطرونه ماقدر له ومن ثم كان معنى اللفظ الذى يفيد هذه الشعيرة هو الاتحاد(communion) ولكن العرف جرى عند أقباطنا باستعمال لفظ التناول ولهذا فضلناه ، وان كان قد ذهب بما في تشبيه ديهامل من جمال وعمق . فهو يحكم على أبطال هيجو بالفناء والتبدد لانها لاتشارك البشر حياتهم ولا تمت اليهم بصلة وما هى الا عبث خيال .

(٢) في هذه الفقرة ايضاح عميق لعبقرية بلزاك الخالقة ، وعند ديهامل أن بلزاك قد خلق نماذجه بنفسه ، فهو لايصور الاشخاص الواقعيين بل يعيد خلق هؤلاءالاشخاص وبعبارة ابسط أن بلزاك عندما يصور شخصية الاب مثلا تراه يظهر ماخفى من نفسية الاب ويوضحها ويحللها وهو بذلك كانه يخلقها من جديد ، لان شخصية الاب في الحياة ليست من الوضوح والعمق والغنى كما يصورها روائى عبقرى كبلزاك ، واذن فبلزاك يعيد خلق نماذجه ، ثم يأتى الاشخاص الواقعيون فيفهمون انفسهم على ضوء ماصوره بلزاك ، وبذلك يدركون ماخفى في حنايا نفوسهم ، وبهذا يتمون الصورة التى لديهم عن أنفسهم وتلوح لهم تصرفاتهم التى كانت عندهم غامضة كأنها محاكاة للصورة التى رسمها بلزاك ، وهم في الحقيقة لايحاكون ، وانما يفهمون أنفسهم ، فاذا بها تشابه الصورةالتى رسمها هذا الروائى الممتاز . فالمحاكاة هنا هى الفهم ، واتمام خلقهم هم لصورتهم هو اتمام فهمهم لانفسهم ، والفهم لاشك خلق .

وهذا الحكم يصدق على غير بلزاك وخصوصا على شكسبير .

مائة ، وهو نفسه أرهف نماذجه حسا ولو قصد الى تصـــوير ديدان أو وحوش ، وهو يذوق كل شراب ، ويرتدى كل مسوح ، ويجرب كل شعر مستعار ، وهو من سطر الى سطر يسائل نفسه ويجيبها ، يعزها ويحتقرها، يتهمها ويدافع عنها •

فما لهؤلاء المشاكسين القرويين وتلك المأساة ؟ ما لهم وتلك المحنة المؤثرة ؟ ما لهم وهذا الحوار بين الروح والمرايا ؟ وأين هذا من شـــكاوى الحوذيين والخصومات الحزبية والاحقاد المستأصـــلة والتعصب والاوهام التى تشغلهم ؟ ونحن بإزاء تصوير الانسان وفهمه ، بل ربما كان فى ذلك تنوير له وعون على مغامرة الحياة ، وليس الامر على وجـــه التحقيق أمر تسلية هينة أو انتقام حقير أحمق من ناس صغار •

وأنا أعلم أن هناك قوما يتخذون السباب والتشنيع حرفة لهم ، وهم يتمنون الفضائح ويثيرونها ، ولكن هؤلاء لا علاقة لهم أصلا بالادب ، وفى جرهم أمام القضاء تحقيق بلا ريب لأقصى آمالهم ، اذ أن ذلك يضـفى على حقارتهم بريق الشهرة •

وأما الفنان ، وأما مصور الانسان والاخلاق ، فواجبه الاســاسى أن يكون شاهدا على عصر ، وتلك مهمة شاقة من القبح أن تجعلهـا مستحيلة عليه •

وليعلم قضاة هاينو **Hainaut** وقضاة برابنت **Brabant** ، بل وقضاة العالم أجمع أن الروائى الحقيقى لا يرسم صـــورة لـ نيومى **Noémi** وأناستاذ **Anastase** وماتييه **Mathieu** (١) بنية حمقى فى مضـايقة الطيبين من الناس ، وهو يرمى الى أعلى بكثير من نيومى وماتييه• انه يساهم بنصيبه فى تاريخ الرجل والمرأة ، وهو اذ يأخذ قسمة من هذا أو يستعير كلمة من ذلك ، انما يؤدى واجبه كشاهد ، ويلعب دوره كنحلة تجمـــع أسلابها • وما ينبغى لنا أن نطالبه باعادة خلق العالم ، اذا كنا لا نسمح له بالحكم على مشاهده • فلا يلومنه أحد اذا رأى بوضوح وســمع بدقة • وانما يجب أن يكون اللوم اذا لم يحسن الرؤية أو السمع • واذا أخـذ مبضعا قاطعا ليفتح خراجا ، فذلك لانه لا يمكن أن يكتفى بتضميده بأقوال طيبة •

وما تكاد عين الروائى تدرك شيئا ، حتى تصيب ذلك الشيء تغييرات معقدة ، فهو يختلط بغيره ويختمر ويهضم ، وهو يخضع لتجارب كيماوية

---

(١) وهذه الاسماء تقابل عندنا زيدا وبكرا وعمرا ، ولكنها اسماء غريبة في اللغة الفرنسية ، وفي نغماتها مايحمل الشيء الكثير من السخرية ، والى هذه السخرية قـد قصد بلا ريب ديهامل •

مكبرة أحيانا ومنقية أحيانا أخرى ، حتى ينتهى الأمر بالصورة الى البعد عن النموذج بعدا يحررها منه تحريرا حقيقيا ، والنماذج ضرورية ، ولكنها تتخطى دائما • فمن يصر على أنه قد اتخذ أنموذجا يسرف فى الغرور • ولى فى هذه المسائل تجارب شخصية عـديدة بحيث أسـتطيع أن أؤكد أن الاشخاص الذين نستوحيهم ـ الى حد ما ـ لا يعرفون قط أنفسـهم فيما نكتب ، بينما يفعل ذلك بسهولة من لم تفكر فيهم اطلاقا ، وفى هذا مايلقى الى الموضوع بشرارة مضحكة • ولو أن جميع الناس الذين اعتقدوا أنهم وجدوا فى سلفان (١) Salavin شيئا من طبائعهم قد رفعوا على دعوى اذن لتهددنى خطر قوى فى أن أقضى بقية أيامى فى السجن •

وأنا أفهم أن من واجب القضاء أن يجيب اذا طلب اليه ، ولكن أسمى امتيازاته هو أن يهدىء المشاكل ويذللها ويحللها ، وأن يرفض الجزاءات الجنائية • ولقد رجع الخلف دائما الى أمثال تلك القضايا وأعادوا النظر فيها بابتسام •

ثم انى لا أعتقد أن قضاء البشر يستطيع أن يعلم كل شىء ، وأن يفصل فى كل شىء ، والا لجازف بما له من احترام وقوة • ولقد قضت طبـائع الامور أن يطلب اليه التدخل فى أعمال الاطباء والجراحين والعلماء الذين لم يكن حتى اليوم لغير الرأى العام أن يصدر عليهم حكما • وهذا تدخـل مستطير الشرر ليس من المبالغة أن نخاف من نتائجه ، فهو يشل مهنة الطب، ويضع العلم تحت الوصاية ، ويضر فى النهاية بالصالح العام للناس • وهل سيصبح واجبا على الفنانين والكتاب بدورهم عندما يمسـكون بالقلم أو الريشة أن يستشيروا محاميا ، وأن يزنوا مواد القانون ، وأن يتخذوا ـ فى دهاء ـ الضمانات ضد عداوة المشتكين المحتملين الذين لا يمكن بلا ريب تجنبهم ، ما دامت كلمات السلام والوفاق والحب نفسها يمكن أن تطن فى بعض الآذان كالفاظ سباب ؟ ألسنا نلمح فى ذلك استرقاقا لايتفق وجوهر الفن نفسه ؟

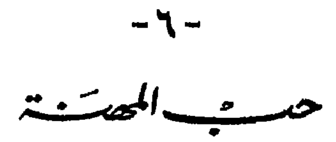
يتمتع القضاة حتى اليوم بحصانة فى مزاولة مهنتهم ، ولكن الحصانة بكل تأكيد غير العصمة من الخطأ ، ومن الممكن أن يعترفوا بخطئهم، ولكنهم لا يحاكمون قط من أجله • فليدعهم اذن هذا الامتياز الفريد الى الاعتدال،

---

(١) سلفان : بطل يظهر فى خمس روايات لديهامل ، وهو أنموذج خالد بين النماذج التى خلفها الادباء فى كل العصور ، وهو يمثل الموظف الكتابى المسكين بحياته الغامضة المغمورة وبؤسه اليومى ونزعاته التافهة الغريبة ، وباستطاعة القارىء أن يتتبع هـذه الشخصية الجذابة خلال روايات ديهامل الخمس : « اعتراف نصف الليل » و «رجلان» و « يوميات سلفان » و « نادى الليونيين » و « كما هو » .

وذلك ما سوف نشكرهم من أجله ، وليتفضلوا بألا يظهروا من الرقة والقسط ـ عندما يستخدمون سيفهم المخيف ـ أقل مما يطلبون الينا عندما نرفع قلمنا .

- ٦ -



فى كل خريف أمتع نفسى بحضور دورة مؤتمر الجراحين السنوى ، وأنا لا أومن قط بما اتفقوا على تسميته « أعمال المؤتمر » ، وذلك لان العمل العقلى الحق يلوح لى قليل التلاؤم مع نشاط الجماعات . وتصحب مؤتمر الجراحين ـ كما تصحب أمثال تلك الجماعات عادة ـ ليلة عيد ، ليلة يمكن أن تكون حفلة راقصة . وأنا أحضر أحيانا تلك الليلة وأجد فيهـــا سرورا اذ أحيى أصدقائى ورفاقى القدماء . أسير بين الجماهير وهم يرقصون قليلا ويتحدثون كثيرا ، وأصغى لانى طلعة ، فماذا أسمع ؟ نتفا من جمـل من جماعة الى أخرى . « وفى المساء ترتفع الحرارة يا عزيزى الى ٣٩ سنتيجراد فأحمل المريض الى المشرحة ... » « أنا أصل الى نتائج طيبـــة بسحب ما فى الجروح ... » « أنت مخطىء فى حكمك ضد الراديوم » « وفتحت فوجدت البطن مليئا بسائل غريب ... » « نعم ـ أنا أعرف ذلك ـ يجب أن نخشى من تضافر المكروبات ... » « هذا مريح ولكنه ضد التشريح ... »

وينبغى أن نعلم أن بين هؤلاء الرجال من يتمتعون عن جدارة بشهرة مجيدة ، وأغلبهم ليسوا « عمالا مهرة فى اللحم البشرى فحسب » . وأنا أعرفهم وأعلم أن لعدد منهم مكتبات جميلة ومجموعات من اللوحات ، وأنهم يتذوقون الموسيقى ، وأن منهم من قام بسياحات كثيرة . وباستطاعتى أن أذكر منهم أسماء اعتبرها ـ بحق ، وفى نبل ـ دوائر للمعارف ، ولكنهم قوم يحبون مهنتهم ، واذ تتاح لهم فرصة الاجتماع فيما بينهم جراحين ورفاقا ـ على حد تعبير أصحاب المهن قديما ـ فانهم يتحدثون عن مهنتهم العزيزة ويفتحون قلوبهم لمسرات هـــذا الحديث ، فيقص بعضهم لبعض تجاربهم ، ويتبادلون أنباء نجاحهم ، ويعترفون بما أصابهم من اخفاق ، ويتقاتلون فى نشاط حول مناهج فنهم وحول ما يفضلون ، ويدافعون عن آرائهم وآمالهم . وليس التعلق بالمهنة ميزة للجراحين وحدهم ، فالاطباء يحســـون ذلك ويظهرونه فى حرارة مماثلة . وما أستطيع أن أذكر دون

انفعال زيارة أديتهـــا منذ بضع سنين لمريض صغير كان يعـــالج بقسم الدكتور فورنييه (١) Fournier بمستشفى كوشان Cochin فلقد رأيت هذا الرجل الممتاز ـ بعد أن أديت له واجب التحية ـ يأخذ بكتفى فى ألفة نصـــف أبوية ونصف أخوية ، ألفة لا يستطيع أصدقاؤه أن ينسوها ، ويقودنى فى الصالات ثم يقول : لعلك تســـائل نفسك ماذا حدث ؟ تسائلها لماذا يلوح علينا كل هذا المرح ؟ ذلك لما نظنه من أننا قد اكتشفنا دواء جديدا · وبأى بساطة قيلت هذه الجملة الرائعة ؟!

ولقد يتفق أن تجد نفسك فى عيد سياسى ـ وهـــذا لحسن الحظ ما لا يحدث لى قط ـ أو فى حفل عائلى ، أو فى سياحة بحرية حيث يسافر الناس جماعات ، فلا تلبث أن ترى الاطباء يجتمعون بعـد زمن قليـــل ويكونون كتلة ، حتى ولو لم يكونوا على وفاق تام فيما يتعلق بالافكـــار والمصالح · ولم ذلك يا ترى ؟ لكى يتحدثوا طبعا عن المهنة ، فلا لذة أقوى من تلك ·

وبودى لو استطعت أن أقول مثل ذلك عن زملائى الكتاب ، ما دمت قد وجدت نفسى فى ذلك الموقف الغريب ، موقف من له مهنتان يزاولهما معا على نسب متفاوتة ، وان كنت أعزهما اعزازا متساويا · نعم أنا أعرف كتابا لا يستطيعون أن يخفوا أذواقهم ، وهم يأخذون فى المناقشة ما واتتهم الفرصة ، يتناقشون بحماسة فى ولعهم بمهنتهم ، ولكن لنتجنب الخطأ ، فأنا اذ أتحدث عن المهنة لا أفكر فى الاراجيف التى يحدث مثلهـــا فى كل الجمعيات ، ولا فى هنات البؤس الملازمة لحالتنا ، ولا فى العـــلاقات مع الناشرين أو مديرى الجرائد والمجلات ، ولا فى الخصومات مع الوسـطاء التى لابد منها بلا ريب ، وان كانت ثانوية جدا · لا · وانما أقصد الى فننا ، الى رسالتنا · الى مهنتنا ·· أقصد الى كل تلك الصعوبات المثـــيرة التى نلقاها فى تكوين أفكارنا والعبارة عنها ، فى البناء والوصف ، فى السيطرة على المادة وعلى الوسائل · أقصد الى ذلك الحوار البســـيط بين النفس والاسلوب الذى فيه مصدر لهفتنا اليومية ·

ولعل زميلا متزمتا يقول : « ان هذا الحوار أمر شـخصى بحت فهو لا يمكن أن يكون موضوع خصـــومات حتى ولو كانت ودية ، وأن التحفظ والحياء ··· » فليكن · ولكنى ممن يحبون العزلة كل الحب ويخشـــون

---

(١) طبيب فرنسي كبير (١٨٣٢ ـ ١٩٤١) ، له أبحاث ومؤلفات عـدة في الامراض الجلدية ومرض الزهرى ، وأما مستشفى كوشان فاحدى مستشفيات باريس الكبيرة فلقد كان فورنييه أستاذا بكلية الطب ورئيسا لقسم أمراض الجلد والزهرى في مستشفى سان لويس ، ولهذا اخشي أن يكون مستشفى كاشان قد اختلط في نفس ديهامل بمستشفى سان لويس .

المهاترة ، ومع ذلك فاذا اجتمع الناس كان هناك مئات الاحتمالات في أن يتحدثوا عن سفاسف الامور · حتى ولو كانوا من أنبه الرجال · نعم · سفاسف الامور ، أو على الاقل أمور لا فائدة فيها · هناك احتمالات في أن يسقطوا الى أحاديث السياسة المعـــادة ، أو الى النمائم المحلية · لتحى المهنة التى نجد فيها منبعا لا ينفد لكل حديث نبيل ذكى · لتحى المهنة التى تجنبنا الثرثرة والتخبط شرقا وغربا ! لتحى المهنة موضوعا طبيعيا لأحاديثنا وأفكارنا ·

وليس معنى هـــذا أنى لا أحذر من المتفيهقين الذين لم تحرم منهم جماعتنا ، أضراب ترسوتان (١) Trissotin المتعددى لون الاهاب · تراهم يأتون للحديث عن أنفسهم بنوع خاص تحت ستار الحديث عن المهنـــة · فلننح هؤلاء السادة المساكين ولا يمنعنا خجل ــ عندما نجتمـــع ــ من أن نتحدث عن ذلك الفن الذى لا نحمل لشىء آخر قدر ما نحمل له من حب · وأنا لا أتذوق « المقابلات » ولكنى سأنتهى الى الاشادة بها اذا كانت حقا تضطر بعض الكتاب الى الحديث عن مهنتهم والتفكير فيها وفى حيل فنهم وأسراره ومعمياته ·

وانه لمن ظواهر بؤس عصرنا بؤسا كبيرا مختلطا أن نرى الناس فى كل مكان يظهرون عدم تعلقهم بالمهنـــة التى عليهم أن يزاولوها · وتلك نتيجة طبيعية لاستخدام الآلات · ومن الواجب أن نمســـك عن كل لوم نوجهه فى هذا السبيل الى أناس قد حرموا وسيحرمون من لذات العمـــل الشخصى ليرهقوا بالعمل الآلى فحسب · ويؤكد روائيو روسيا الحديثـة أن حب المهنة لايزال حيا ، يتعهده عمال النظام الجديد بعناية · وأنا أرجو أن يكون هذا صحيحا ففيه شرف الانسان ، كما أرجو الا يكون مجرد قرار نظرى لبناة المشروعات أو أن يكون حقيقة للاعلانات فحسب ·

وأما عنا ــ نحن رجال المهن الحرة ، نحن الذين نجد النشوة والشرف والامتياز فى أن نعمل ما نختار فى حرية تامة فى الغـــالب ، نحن الذين يحبون عملهم ــ فمن واجبنا ــ رغم صعوبات الساعة ــ أن نضرب المثل على الأقل بأن نتحدث فى اعتزاز عن مهمتنا التى جعلتنا ما نحن عليه اليوم ·

---

(١) ترسوتان: Trissotin شخصية مضـحكة من شخصيات رواية (النســـاء العالمات) لموليير ولقد خلد به موليير شخصية الشاعر المتفيهق المتكلف السقيم الشعر الذى يتسقط دائما المديح لاشعاره الخاوية ، ولقد راى فيه كل معاصرى موليير شخصية الاب كوتان Cotin والواقع إن موليير قد حاكى بالفعل شخصية هذا الاب المضحك ، بل انه اورد فى روايته اشعار الاب كوتان نفســها ، تلك التى قالها فى البرنسيسة اورانى Uranie.

- ٧ -

حدود الروح النقابية

مثل فصل الرواية بمنزلى . فى مكتبى .

الشخص الذى يتشدق فى الناحية الاخرى للمنضدة كاتب له بعض الشهرة . لقد طلب منى موعدا ، ونحن نتحدث منذ خمس دقائق ، وأنا انتظر أن يصل الى الموضوع .

ثم وصل بعد ابتسامة وصمت .

أيها الزميل العزيز . فى عزمى أنا وعدة أصدقاء أن نؤلف نقابة ، ولقد رأينا أن نحصل منك على موافقة مبدئية من أول الامر .

ـ قلت وقد شكرته بحاجبى : ولكن هناك عدة جمعيات مهنية قائمة بالفعل ، احداها على الاقل ـ وهى جماعة رجال الادب Association des gens des lettres ـ جمعية ممتازة ، وهى تلعب دورها باتقان بل وتلعبه فى تحفظ خاص ، أعنى أنها لاتتعدى سلطتها ، وهذا خير . وهى كذلك لاتتعدى واجباتها .

ـ وهذا هو السبب .

ـ السبب ؟ وهل ترجو أن تتعداه ؟

ـ طبعا لا . ولكننا نظن رغم كل شىء أن هناك مجالا خارج تلك الجماعة المحدودة الاختصاص . مجالا لجمعية أخرى تكون الروابط بين أفرادها أوثق ويكون برنامجها أوسع . جماعة تصدر عن روح نقابية حقة .

ـ نعم . ماذا تقصد بالروح النقابية ؟

وهنا أخذ وجه الزائر سمة من الجد ورفع اصبعا الى السماء كمن يعترف بديانة .

ـ أقصد بالروح النقابية تلك الروح التى تقف نفسها وقفا كاملا على مصالح الجماعة . مصالحنا المشتركة .

ـ أنت تعرف طبعا أن المصالح أنواع . والمصالح الروحية لاتتمشى دائما جنبا الى جنب مع المصالح الزمنية .

ـ وهذا سبب آخر لوجوب العناية بهما معا عناية متساوية . ففى

المجال الزمنى يجب على نقابتنا أن تحقق لاعضائها عونا متبادلا لايحده حد ، وأن تضمن لهم مزايا عملية بالمعنى الذى سيحدد فيما بعد . وفى المجال الروحى تسهر على نقاء الاخلاق وتدافع عن قضية أنبل الفنون واعزها . كما ستنظر فى بعض الخصومات ، ولن تخشى أن تشترك فى بعض المجادلات التى يكون فيها مساس بشرف النقابة .

ـ نعم .

ـ اذن يمكننا أن نعتمد على موافقتك المبدئية .

وكان وجه محدثى ينم عن يقين هادىء .

ـ قلت أمهلنى قليلا ، سنتحدث عن تلك المسألة بعد بضعة أيام . دعنى أسترد أنفاسى قليلا · هل لك ··· ؟ سأفكر فى الأمر ·

***

وفعلا فكرت .

العالم واسع . واسع سعة كافية ـ مهما ظن أحفاد ملتس (١) ـ لكى يأوى ويقوت كل الرجال الصادقى العزم بل ونفرا آخر مشكوكا فى عزمهم ، ولكى تكون الآداب على ماهى عليه لابد من أن يعمل على جوانب الجبل المقدس (٢) مؤلفون مختلفون فى ملكاتهم ومواهبهم وآمالهم وأعمالهم كل فى مكان · رجال ظاهرو التفاوت فى الصفات · رجال قد لايستطيعون ان يتفاهموا فيما بينهم بل ولا أن يحتمل بعضهم بعضا ، ومع ذلك يتعاونون فى العمل على مجد الفن وتنمية الادراك على تفاوت بينهم فى الشهرة والتوفيق والمثابرة . وعندى أنه من الخير أن يكون لكل هؤلاء الرجال المتمازين مكانهم فى ضوء أبولون (٣) Apollon والا يسعوا للمحافظة على هذا المكان فحسب ، بل وأن يجملوه ويزيدوا فيه .

وأنا أمقت « التخير والتوفيق » «Eclectisme» (٣) واميل الى

---

(١) ملتس Malthus احدعلماء الاقتصاد الانجليز (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤) وهو يقول بأن عدد السكان في العالم يزداد بنسبة متوالية هندسية بينما مصادر الرزق لاتزداد الا بنسبة متوالية حسابية ، ومن لم يتوقع مجاعات واضطرابات ... الخ وللنظرية أنصار كثيرون .

(٢) الجبل المقدس المقصود هنا هو جبل البرناس ببلاد اليونان ، وأساطير تلك البلاد تقول انه مسكن ربات الشعر Muses.

(٣) أبولون Apollon اله الفنون والآداب عند اليونان .

(٤) « التخير والتوفيق » ترجمة للفظة الفرنسية éclectisme وهو مذهب فلسفى يرمى الى أن يختار من المذاهب المختلفة الآراء التى تلوح أقرب ماتكون الى الحقيقة ، ثم يؤلف ويوفق بينها ليكون مذهبا كاملا متماسكا ، ولقد ظهر هذا الاتجاه ـ

التسامح . أحب عددا صغيرا من المؤلفات ، وأقدر الكثير منها ، وأقبل اكثر من ذلك . ولكن ماذا ؟ هكذا نحن خلقنا ، فقوة حبنا لابد من أن يصاحبها شيء من قوة البغض ، فهناك مؤلفات أمقتها ، ومن المؤلفين من يلوح لى نشاطهم موجبا للاسف بل مستطير الشرر .

« مصالح مشتركة » قال زائرى . لاريب أن لى مصالح مشتركة مع جميع من تقل الارض من رجال ، كما أن لى مصالح كثيرة مشتركةمع الكتاب الذين احترمهم أو أقدرهم ، ولكن هناك من الكتاب من لاتثير مصالحهم فى نفسى أى اهتمام ، وذلك لاننا نحس كلنا تقريبا ، نحن ذوى الرءوس الصلدة ، بأن مصلحة الفن تسمو وتحلق فوق مصالح النقابة بل اننا على يقين من أن المصلحة الكلية للنقابة تتركز فى عظمة الفن ومجده ونحن مقتنعون — ان حقا وان باطلا — بأن قضية الفن — فننا — تماشى قضية الروح ، بل انها تأتى مع قضية الانسان ، ولكى نقبل أو نرفض أولئك الذين يتقدمون كخدام لتلك القضية ، ليس لنا أن نعتمد على أى أمارة خارقة ، وانما نعتمد على عقلنا فحسب ، عقلنا الارادى المعرض للخطأ ، كما نعتمد بوجه خاص على ذوقنا الجموح المحتدم المتقلب .وهو بلا ريب عقل غير عادل ولكنه لايراض .

لقد اجتمع الصناع (١) artisans والتجار وأصحاب المعامل وبالجملة كل من يزاولون الحرف المختلفة فى جمعيات نقابية قوية .

وبعد أصحاب الحرف (٢) اجتمع أصحاب المهن (٣) .. كالمربين والأطباء وهم يحدثوننى عما ارى من أن الروح النقابية قد حطمت فى كل مكان عدة عوائق ، وأملت ارادة الجماعات وأنقذت مصالح الافراد اثناء المنازعات . وأنا أرى أن الخير ماكان . الخير بوجه عام مع الاحتفاظ ببعض الاعتراضات .

ولكن اذا كان الأشخاص الذين يمارسون الفنون لم يتبعوا تلك

= الفلسفى عدة مرات فى تاريخ التفكير البشرى ، ولكن أصبح يقصد به الآن بنوع خاص الى فلسفة فكتور كوزان Victor Cousin وتلاميذه ، وكوزان احد فلاسفة فرنسا فى القرن التاسع عشر ، وعنده أن التفكير البشرى قد تقاسمته أربعة مذاهب كبرى هى : المثالية والحسية ومذهب الشك ومذهب التصوف ، وان الحق فى التاليف بين مافى كل منها من صواب .

(١) الصناع ترجمة لكلمة Artisans ، ويقصد بهم الصناع الذين يعملون لحسابهم الخاص كالنجارين والحدادين ... الخ أصحاب المحلات الصغيرة .

(٢) الحرف ترجمة لكلمة Metiers ، وهى الحرف اليدوية ، كالنجارة والبرادة والحدادة ... الخ .

(٣) المهن ترجمة لكلمة professions ، ويدخل فيها المهن الحرة ، كالمحاماة والطب ... الخ .

الحركة الخارقة المتهللة بالنصر ، فذلك على الراجح لأنه ليس لديهم — ولايمكن أن يكون لديهم — فكرة بسيطة أو قابلة للتبسيط عما يسمى بالمصلحة المشتركة ، ولأنه من المحتمل الا يقبلوا أوامر التضامن الأعمى بغير مناقشة ، وذلك لأنهم يصدرون فى عملهم وفى رسالتهم عن فكرة أبية لاتسلس قيادها لنظم الجماعات .

وواجب الزمالة الذى هو ضرب حر من ضروب الواجبات النقابية كثيرا ما أؤديه بقلب كريم ، ولكن على شرط الا يلوح لى أنه يتعارض مع ما أعتبره — بعد طول التفكير أثناء عزلة حارة — من واجباتى كفنان ، ومعنى هذا أن الكاتب الحقيقى ، ليس ولايمكن أن يكون ، فى نظر الروح النقابية « مندمجا » أو بعبارة أخرى حرا من كل المشاغل الخارجة عن الروح النقابية .

فأما أن تلك المشاغل تدل على تمرد الفردية ، فذلك مايرجح ، وهو من حسن التوفيق ، وأما أنها لايمكن أن تبرر فى غير عالم الآداب الخاص وعالم الفنون فذلك مالست منه على ثقة . وانهلمن الممكن فى بعضالجماعات الا تبلغ المصلحة العليا للحرفة ذاتها من التجريد مبلغا يكفى لأن يحيد بالاعضاء عن اطاعة أوامر النقابة طاعة عمياء . وان صح ذلك فلن أقبله الا آسفا ، اذ يلوح لى أننى لو كنت صانع أقفال — وهذا الفرض لاعيب فيه ، فقد زاولت عدة حرف وزاولتها دائما فى حماسة — اذن لتمثلت المصلحة العليا لصناعة الاقفال فى قوة تكفى لان تحملنى على الاحساس بضعف تضامنى مع صانع أقفال لايجيد عمله أو يثير فيه القلاقل والاضطراب .

وأنا أعلم أن أفكارا كهذه لابد أن تغشى عقول الصناع المهرة ، وأن تقلق أحيانا اطمئنانهم الى الروح النقابية ، ولكن الضرورات الملحة تخمد عادة كل مايهب فى قلوبهم من حب . كما أن فن الحرب الاجتماعية قد اضطر الى أن يضحى بميول الافراد وأهوائهم وأذواقهم الفردية لكى ينال مزايا ملموسة . وفى النهاية أعلم أيضا أنه كلما دنونا من الاعمال العقلية البحتة ازدادت صعوبة تمييز ما أسميه مصلحة العمال العليا ، ومن ثم : هل تقدم مصلحة عامل الطرق على مصلحة الطريق المعتبر فنا ؟ آه . لست على ثقة من ذلك اذ تنهض فورا تلك الفكرة القديمة العامة الانتشار فكرة العمل كاله يبجل لذاته بين الآلهة . ان مصلحة عامل الطرقالردىء تقوم فى سبيل مصلحة العمل العليا .

انه وان يكن قد بعد العهد بيننا وبين « أولاد سليمان » والرفقة(١)

---

(١) اشارة الى نظام المهن وجماعاتها كما عرفت فى القرون الوسطى .

فان compagnonnage واختبــارات الأستاذية examens de maîtrise المذهب النقابي لايزال يذكـر النبل المهنى ، وهو يســعى الى أن يحتفظ للاخلاق النقابيةبسموها ، بل انه قد فكر فىالمحاكم الداخلية وفىالجزاءات وفى بعض الحالات كالطب تمنح النقابات نفسها الحق فى أن توبخ بل تهين من أعضائها من ترى أنه قد خرج على الواجبات ، أو ارتكب خطأ ضـد نزاهة المهنة أو شرف الطب . ومن الواضح أنه كلما سمونا نحو الروحية ازداد دور النقابة خطرا وهذا هو السبب فى أن الروح النقابية اذا حاولت أن تصل الى الآداب ، لن تلبث أن تصطدم بعقبات لاتذلل .

ولنتصور نقابة ادبية تبلغ من الجراة أن ترتفع الى ماوراء المسائل الزمنية فتحكم على المؤلفين والمؤلفات باسم اللغـة والبـداهة والذوق والأخلاق والفن . بين اى أيد ستسقط عن قـريب أو بعيد أمثـال تلك الهيئة ؟ وفى اى اتجاه ستوجه سلطتها الحقيقية ؟ انني لا أجرؤ أنأتصور ذلك . اذن لرأيت بودلير يطرد من حضن النقابة ، ورومبو Rimbaud توصد فى وجهه الابواب ، وفرلين يصيبه اللوم ، وملرميه Mallarmé ينهك بالدعوات القوية الى النظام (١) .

لا . لا . ان الروح النقابية التى قلبت أوضاع العالم لتتردد عند مدخل امبراطوريتنا . وهى اذا اتجهت ببصرها الى أسفل لم نكن فىحاجة اليها ، واذا رفعته الى أعلى رفضناها لساعتنا (٢) . ألا فلتنسنا ولنتجنبها لتتركنا الى ماقدر لنا فمزاياها لن توازى شيئا الى جانب مطالبها . نحن آخر الفرديين فى العالم . فلنقاوم فى خنادقنا .

---

(١) لماذا هذا الاختيار ؟ لان ديهامل من انصار الحرية ، وهؤلاء الشعراء الاربعة من أكثر الشعراء حرية ، اما في منحاهم الاخلاقى كرامبو وبودلير وفرلين ، وأما فيمنحى فنهم وخروجهم على مواضعات اللغة كملرميه رئيس الرمزيين واجرائهم في قلب تراكيب اللغة واستعمالاتها ومعانى الفاظها .

(٢) المصالح المادية والمصالح الروحية . فاتجاهها ببصرها الى أسـفل معنـاه اشتغالها بالمصالح المادية ، وارتفاعها ببصرها الى اعلى معناه اشتغالها بالمسائل الروحية . وديهامل لايريد ان تتدخل النقابات في المسائل المادية ولا في المسائل الفنية لانه يخشى ان تفسد كل شيء اذا تدخلت فيه .

- ٨ -

التوقيعات والاحتجاجات

كثيرا ماتتلخص الأفكار الاجتماعية خلال الزمن بخط بياني متموج، فبعض تلك الأفكار يولد ويحيا ويموت موتا نهائيا ، والبعض الآخر يبعث في عناد بحيث تتكون حياته من اقبال وادبار يعقب أحدهما الآخر .

وفكرة الجمعيات التى سيطرت على القرون الوسطى كانت قد فقدت قوتها أثناء زمن طويل ، ثم عادت فاستردتها اذ تحكمت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وفى مستقبل الأيام لن يفنيها بلا ريب الا فرط نجاحها نفسه .

وفى الحق انى لست خصما لكل صيغ روح الاجتماع فى المهن العليا التى مانزال نسميها – ولو الى حين – بالمهن الحرة . أقول الى حين وأنا أفكر فى مطامح مذهب تدخل الدولة واعتداءاته ، ومع ذلك فأنا أرى كما بينت فيما سبق ان روح الاجتماع فى العلوم والآداب والفنون يجب أن تترك للأفراد حرية تامة ، وأن تحصر عملها فى مسائل المصالح الزمنية وفى واجبات المهنة وفى الدفاع عن بعض الأفكار العامة الكبيرة التى لايجوز أن يولد الاشتراك فيها اى خصومة . وفيما عدا ذلك فليحتفظ الفرد باتجاهه وخطاه وطرق استجابته الأصيلة وبالجملة بسيادته .

وقوة الروح لاتزال كبيرة حتى فى هيئة اجتماعية قد أسرفت فى وقف نفسها على مامون (١) Mammon ، والزمنيون يعرفون جيدا أنه لكى يثبتوا من سلطانهم لابد لهم أحيانا من أن يستوثقوا من موافقة الروحيين ، فان لم يكن ، فمن تجنب أذاهم ، فان لم يكن هذا ايضا ، كان عليهم أن يحيطوا بهم وأن يحطموهم ، ولاينبغى – فيما يتعلق بقوة الروحيين ولست أقول قوة الروح – والى هذا ألفت النظر – لاينبغى أن نستسلم الى الأوهام كما لاينبغى أن نستسلم الى اليأس . فان تلك القوة مازالت تتدخل فى حساب الحاسبين .

ولقد كانت تلك الحقيقة ، حقيقة وجود تلك القوة وانشغال الحاسبين بها ، سببا للرغبة فى اخضاعها لقواعد علم الحساب ، اذ ظن بعض الناس ويظنون وسيظنون زمنا طويلا أن القوة الروحية لعشرة

---

(١) اله الذهب عند الآراميين .

رجال ذوى قيمة تساوى عشرة أمثال كل واحد منهم ، وهانحن بذلك من جديد ازاء المشكلة البرجسونية(١) على الامتداد(٢) والعمق .

عندما تهز العالم أحداث جسيمة ، يجب أن يؤدى الشهادة أولئك الذين يستطيعون أن يحكموا على تلك الحوادث ، اما لأنهم شاهدوها ، أو لأن لديهم عنها بعض المعلومات ، أو لما بعثته فيهم من النفور والسخط. فالكتاب الذين اشتركوا فى الحرب(٣) مثلا ، كانوا على حق كامل فى أن يدلوا بشهاداتهم ، أى أن يقصوا ذكرياتهم ، ويصوروا الاشخاص،ويعلقوا على الحادثة ، وأخيرا أن يشهدوا ضمير العالم .

وهكذا — بصوت جهورى — تدعو كبرى محاكمات التاريخ « الروحيين » الى التدخل والعمل . وعندما نرى رجلا يقذف بنفوذه فى شجاعة وسط الخصومة ، بعد أن يكون قد استنار فى حكمه الاستنارة الكافية ، فيرفع صوته ويطالب باجراء عادل أو رحيم ، أى يتقدم كمحام متطوع فى قضية صعبة خطرة ، عند ذلك يجب أن ننصت اليه فى احترام، وأن نحييه دائما ، وأن نساعده قدر طاقتنا . وتوقيع أحد هؤلاء الرجال الذين أسميهم « روحيين » ليس كما يدل اللفظ ، وقع (٤) نفس وخلق وعبقرية أو موهبة فحسب ، بل هو أيضا حياة بأكملها وعمل بأكمله لهما رأس مال من الثقة والتقدير والاعجاب الناتج عن الاعتراف بالجميل ، رأس مال جمعته فى بطء تلك الحياة وذلك العمل .

ومثل هذا التوقيع ولو كان متهورا أو مسرفا ، يستوقفنى دائما ويؤثر فى ويدعونى الى التفكر ويميل بى الى الرحمة كما يسلحنى للمعركة .

---

(١) نسبة الى برجسون Henri Bergson الفيلسوف الفرنسي الذائع الصيت . ولد في باريس سنة ١٨٥٩ وتوفي في العام الماضي وفلسفته كما هو معروف تصدر عن اللقانة ، والحياة عنده زمن نفسي وخلق مستمر ... الخ .

(٢) الامتداد والعمق ترجمة للفظين l'intensif et l'extensif وبرجسون في فلسفته يصف بالعمق الاشياء التى لاتقاس الفروق بينها بابعاد في الحيز بل بماهيتها ، فالخوف العميق والخوف البسيط لايمكن أن يقاس الفرق بينهما بمعيار من معايير الحيز ، وانما الفرق في الماهية ومن ثم فاضافة أحدهما الى الآخر لاتولد زيادة في الناتج، وكذلك الامر في الرجال عند ديهامل فهم يوصفون بالعمق ولايوصفون بالامتداد بحيث ان اضافة بعضهم الى بعض لاتولد زيادة في ناتج الاضافة على نحو مايحدث في الاشياء التى توصف بالامتداد كحجر يضاف الى حجر مثلا ، ومن ثم يرى ديهامل ان النظر الفلسفى نفسه لايتمشى مع روح الاجتماع وتاليف النقابات الخ .

(٣) الاشارة الى حرب سنة ١٩١٤ .

(٤) توقيع ووقع ترجمة للفظين signe, signature ، وقد ترجمنا Signe بوقع ومعناها الدارج (علامة) أو (امارة) ، والمقصود بها هنا تاثير الكاتب ونفوذه في الجمهور ، ولاشك أن لفظة (وقع) يمكن أن تفيد هذا المعنى مع المحافظة على الجناس .

ولكن التوقيعات لاتجمع ، وهى تفلت من دقة قواعد الحساب وسذاجتها ، وأنا أقرر ذلك فى قوة بعد تجارب لاعدد لها .

لقد أسىء فى كل البلاد استخدام الاحتجاجات المتعددة التوقيعات فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة ، ولقد وقعت أنا نفسى الكثير منها ، ومن ثم فلدى معلومات جمة عن تلك الظاهرة التى أستطيع أن أتحدث عنها فى حرية ، وعدد من تلك الاحتجاجات التى قصد بها استنكار بعض مظاهر التخلى عن العدل تلوح لى مشرفة كل الشرف . فانا لاانتقد موضوعها ولا عباراتها . وانما قيمتها وأثرها هما اللذان يلوحان لى عرضة للمناقشة .

والذين اسميهم « روحيين » بالمقابلة مع « الزمنيين » كلهم لحسن الحظ ـ مع بعض الاستثناء أحيانا ـ فرديون حقيقيون . فرأى أحدهم لا يطابق قط رأى غيره مطابقة تامة ، ولو كان ذلك الغير أخاهم أو زوجهم أو اعز أصدقائهم ، وهم يعلمون ذلك ويعلنونه ، ولديهم فوق هذا قلم فى خدمة مشاعرهم وولعهم وايمانهم ، كمالديهم احساس واضح بأن توقيعهم يعبر عن نفس ، ان لم تكن منعزلة ، فهى فريدة أو على الأقل لايمكن ردها الى غيرها ردا تاما .

وذلك التوقيع الذى يطلب اليهم ، يحتفظون به عادة لتمييز تلك المؤلفات التى يخلقونها وسط الآلام ويزنونها خيطا خيطا . يطلب اليهم ذلك التوقيع لتأييد نص راته نفس أخرى وحررته . يطلب اليهم فيعطونه لماذا ؟

أولا ـ لأن النص المقترح يتفق فى بعض أجـزائه على الأقل ، مع شعور الشخص الذى طلب اليه التوقيع ، وفى الغالب لايكون الاتفاق تاما . فصاحب التوقيع اذا استطاع ، وكان لديه الوقت والرغبة ـ ولا اقول الحق والا تعقدت الخصومة ـ يود أن يصحح بعض الفقرات وأن يغير بعض الألفاظ ، وأن يعيد توزيع الأفكار والحجج ، ولكنه لايملك الوقت بل ولايحس بالرغبة ، وليس لديه فى الغالب الوسائل لذلك . تراه يرفع كتفيه وينفض رأسه ، ثم يوقع فى تردد أو بدون تردد . وفى الغالب، فى الغالب الأغلب ، يثيره الاحتجاج ويؤثر فيه ويهزه ، بل ويوقدانفعاله ، وهو بلا ريب قد يفضل صياغة أخرى ، ولكن لاعلينا من ذلك . هاهو القلم ، وها هو المداد ، والى البريد .

والتوقيع لايعطى دائما فى حماسة ، بل أغلب الأحيان فى استسلام ، لقد قدم الاحتجاج صديق ، ولقد يحدث أن يقدمه خصم نريد أن نلعب معه دور الكرم النفسى . كما يتفق أن تعمل المجاراة والمباغتة عملهما فى

مناسبات كثيرة ، ثم ان أسبابا أخرى قد تتدخل : الخوف من ألا نعمل كما يعمل الغير أو أن نغضب حزبا كبيرا دائم الحركة ، وأحيانا ذاك النوع من الجبن الذى يسببه الخوف من أن نظهر بمظهر الجبان .

وأنا أظن انه من بين من يوقعون احتجاجا ما نفر يفعلون ذلك لضعف أو عدم مبالاة أو جهل أو تساهل أو مجاملة أو لياقة ، أوليريحوا انفسهم أو ليسايروا التيار ، وبالجملة لآلاف من الأسباب raisons التى ينكرها العقل (١) raison .

ولنتفاهم جيدا ، فالمسألة ليست أصلا أن يتخلى « الروحيون » عن سلطتهم ، عن رسالتهم ، عن امتيازاتهم ، ولهم قلم وجمهور ونفوذ . فليستخدموا قوتهم منفردين عندما يرون داعيا الى ذلك ماداموا رجال عزلة بحكم استعدادهم وضرورة عملهم ، فليكتبوا آراءهم وليوقعوها فى كبرياء ، ولكن ليحذروا التوقيعات الجماعية ، والكثيرون منهم يدركون بعد فوات الوقت أنهم قد تعهدوا بما يخالف أفكارهم العميقة ، والكثيرون منهم لابد لهم من أن يعدلوا عما وقعوا كما فعل عدد كبير ممن يسميهم اخواننا (٢) السويسريون الثلاثة والتسعين مفكرا . والكثيرون منهم سيفهمون أنهم ــ بتخليهم عن وحدة الرأى الذى لايتجزأ ــ سيضعفون من سلطة الروح ، بل ويعرضونها للخطر ، فتلك الروح التى أرادوا بالذات خدمتها ، لا تتفق مع الجمعيات المغامرة ولا مع ما يسمونه فى جهة أخرى بمظاهرات الكتلة الشعبية .

ولقد يعترض على بأن الاحتجاجات تسمح فى بعض الظروف لأنصار رأى ما بأن يحصوا أنفسهم علنا ، وهذه وجهة نظر مبسطة . فالنفوس لا تعد كقوالب الحجارة أو كالتفاح ، وأضيف الى ذلك أن هذه الاحصائيات التحكمية تنمى الفوضى ، وتوقد الحزازات .

يجب أن نحذر من المغامرة بالعهود ، وأنا لا أؤكد اننى لن أوقع فى

---

(١) فى هذه الجملة جناس لايمكن نقله الى لغتنا ، فكلمة raison فى اللغة الفرنسية لها معنيان : أولهما « العقل » وثانيهما « السبب » . وأكبر الظن ان هذا الجناس قد جرى على قلم ديهامل كذكرى لجملة بسكال الشهيرة : « للقلب أسبابه التى لايدركها العقل Le coeur a ses raisons que la raison n'entend pas

(٢) اشارة ديهامل الى السويسريين هنا ترجع الى سبب لغوى بحت ، وذلك لان السويسريين والبلجيكيين لايسمون التسعين اربع عشرينات وعشرة كما يقول الفرنسيون quatre vingt dix بل تسمين nonante ، وكذلك السبعين فهم يسمونها Septante لاستين وعشرة كما يقول الفرنسيون soixante dix واما الثلاثة والتسعون مفكرا الذين يشير اليهم الكاتب فهم اولئك الذين وقعوا احدى احتجاجات حزب الشمال فى فرنسا أيام الجبهة الشعبية .

المستقبل احتجاجات جماعية ، ولكنني على الأقل منعقد العزم على أن امبر عن افكارى بنفسى ومنفردا عندما ارى ضرورة لذلك كما فعلت قبل اليوم مائة مرة ، وانه ليلوح لى أنه من الخير أن اقول عندما يستسلم الناس لكل هذه الأنواع من الهذيان الجماعى ! ان الفرد وحده يستحق حركة ايمانى .

- ٩ -

عن وظيفة الكاتب الاجتماعية

الوظيفة الاجتماعية ، من بين الوظائف التى يستطيع الانسان أن يؤديها ، هى تلك التى تلاقى حاجة من حاجات الهيئة الاجتماعية . ومعظم المواطنين فى هيئة اجتماعية عادية تشغلهم مهام عملهم الشخصى وأعبائه عن أن يجدوا المقدرة والوقت اللازمين لمعرفة العالم بالمعنى الفلسفى والشعرى للكلمة ، وان يعبروا فى لغة لبقة عن خلاصة ما يكتشفون ؛ وهم يكلون ذلك الى الرجل المختص أى الى الكاتب الذى يناط به — فى حدود ما يتمتع به من ثقة — أن يزاول أعمال المعرفة .

فالكاتب اذن يؤدى فى نظرى وظيفة اجتماعية عندما يعيننا على فهم الانسان والعالم فهما أصح وعندما يأخذ فى « نقل المجهول الى المعلوم » كما يقول كلوديل ، أى عندما يكون مكتشفا حقيقيا ومخترعا ومنقبا ، سواء كان ذلك بطريق مباشر ، بأن تتناول تلك المقدرة على التنقيب الكائنات والحوادث والظواهر ، أو كان بالواسطة بأن تعمل فى أفكار ومؤلفات أحد الرجال أو الشعوب أو الحضارات .

وهذه الوظيفة — التى يلوح منذ بدء الزمن أن لا غنى عنها لنمو كل هيئة اجتماعية نموا منسجما — لا يمكن أن تؤدى بتوفيق — أي بثمرة — ما لم تعززها حرية عادلة ، وليست هناك حرية لا تعرف الحدود . ومهما أكن عميق الفردية فلست انسى أننى أعيش فى هيئة اجتماعية ، ولهذا اقبل فى الحكم على الحرية التى أمنح أن أتنازل فى كرم نفسى عن مواضعاتى الخاصة ، وأنا أعتبر الحرية كافية عادلة حكيمة عندما يبدو لى أن كبار الشعراء والفلاسفة الذين نحيى فيهم أساتذتنا يستطيعون أن يؤلفوا عيون كتبهم بعيدا عن كل ضغط . وحينما يغل بالسلاسل جيتة وهيجو ، ودانتى

ومونتين (١) وشكسبير وسرفنتيس وسبينوزا مثلا ، أقول انني لست حزا • هذا هو مقياسي •

وقيود الحرية لم تمنع الكتاب دائما من أن يخلقوا ، ولكنها أفسدت العلاقة بين الكتاب والهيئة الاجتماعية افسادا بينا ، وبعبارة أخرى أدت الى اضطراب الكتاب في تأدية وظيفتهم الاجتماعية الحقيقية •

***

كل كلمة يكثر استعمالها تأخذ معـــاني جديدة متميزة عن معناها الأصلي تميزاً يتراوح بعداً وقرباً ، ومن ثم كان من الواجب أن ننظر في المعنى الأصلي بل وأن نحدده عندما نريد أن نتـــابع تفكيراً او نأخذ في مناقشة •

ووظيفة الكاتب الاجتماعية كما عرفتها لا تترك مجالا لجدل كبير ، ولكن الموقف يتغير بلا ريب اذا أعطيت لكلمة « اجتمـــاعي » نبرتهـــا الحديثة •

ولعبارة « الوظيفة الاجتماعية » في أذني المعنى البسيط الذي رأيته فيما سبق ، ولكن من الواجب أن أضيف اليوم أن كلمة اجتماعي أصبح لها في نفوس كثيرة معنى سياسي • فالوظيفة الاجتماعية للكاتب يمكن أن تفيد اذن الوظيفة المحتملة للكاتب في السياسة الاجتماعية •

ومن الممكن اذا تمسكنا بدقة الألفاظ أن نجهض المناقشة ؛ فالكاتب ليس له ولا يمكن أن تكون له وظيفة فيما تسميه السياسة الاجتماعية • ومن المنتظر ـ في هيئة اجتماعية محكمة البنـــاء ـ أن يوكل الاجتماع والسياسة الى عناية اخصائيين أكفاء يختارون في حذر من بين من أنضجتهم التجارب • نعم انه من الممكن أن يرى الكاتب أن عليه واجبات في هذا الميدان بل أن يقبل بعض الأعباء ولكن وظيفته الحقيقية ليست في هذا •

وبعد هذا الايضاح الذي قصدت منه الى تجنب اســـاءة الفهم في مدلولات الألفاظ ، أضيف أنه من العبث أن نترك جانباً مشكلة تعـــرض لتفكيرنا كل يوم ، وهذه المشكلة ليست حديثة ، ولكن سير الحوادث يجعلها اليوم أكثر الحاحاً مما كانت في أي وقت مضى • يجب اذن أن نتناولهـــا

---

(١) مونتين Montaigne ـ فيلسوف أخلاقي كبير (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢) لعله من أعمق من أنجبت فرنسا من المفكرين، وفي « مقالاته » (اربعة أجـزاء) Les essais خلاصة تفكير اليونان واللاتين القدماء ، كما ان بها فلسفة أصيلة قوامها الشك في مقدرة العقل والسخرية مما يجزم به ، ولكن هذه الروح الشاكة قد عرفت للقيم العاطفيـة قدرها ، وفي الحق ان ماقاله مونتين في رثاء صـديقه لابويتيه La Boëtie لمن اجمل ماسطره قلم .

وجها لوجه ، وفى رأيى أنها تعرض على النحو الآتى : هل على الكاتب أن يشترك اشتراكا فعليا فى المعارك السياسية وبخاصة فى المنازعات التى تشتبك فيها طبقات الهيئة الاجتماعية ٠

يجيبنا التاريخ فورا بعدة اجابات ؛ فعدد من الكتـــاب الذين كانوا كتابا كبارا ، كتابا مجيدين ، لم يخشوا أن يشتركوا فى الجهاد السياسى ، لم يخشوا أن يضعوا فى خدمة الأحزاب قيمتهم الانسانية فحسب ؛ بل ونفوذهم الذى اكتسبوه بفضل مواهبهم الأدبيـــة ٠ تدخل بعضهم فى الحوادث مدفوعاً بشهوات نفسه ، وتدخل آخرون لحبهم للقتال أو للسلطة ، كما تدخل نفر ثالث مجرد عن كل هوى استجابة لصوت ضميرهم ، وكل هذه ــ وكثير غيرها ــ بواعث يمكن أن تلوح موجبة فى نظر هذا الشخص أو ذاك ، وكل كاتب هو الحكم الوحيد فيما يختار من موقف ، ومع هـــذا فمن واجبنـــا ونحن نفكر فى الوقائع ، أن نبحث عن عناصر رأى نستقر عليه ٠

وأنصار التدخل يستمدون حججا ثقيلة الوزن من الامثلة الشهيرة ، التى خلفها التاريخ ، وهم يقولون انه ما دام الكاتب يعطى نفسه الحق فى أن يكون شاهداً وحكما ، فانه يسىء الى مهنته ذاتها اذا لم يضع موهبته ونفوذه ؛ بل وشخصه فى خدمة القضايا العادلة ؛ فى خدمة المظلوم ضد الظالم ، وبوجه عام فى خدمة الانسانية ٠

ومن الكتاب من لا يؤثر فيه هذا الجدل البسيط ، وهم يرون أن معظم الكتاب لديهم احساس عميق بمسئوليتهم ما داموا قد وهبوا هبات ممتازة ، وما داموا يستطيعون أن يصلوا الى الحقائق الكامنة خلف الظواهر ، وأن يعبروا عنها فى عبارات ترفع القلوب ، وهم لا يريدون ــ اذا كانوا فاعلين أو شهوداً فى حادثة ما ــ أن يعملوا بقصصهم لها عملا فنيا فحسب ؛ بل أن يدلوا بشهادة ، والشهادة عمل فعلى ، واذا لم تكن لهم معرفة مباشرة ببعض الوقائع احتفظوا لأنفسهم بحق الحكم فيها بموجب الوثائق ونشر هذا الحكم ٠ وهذا الموقف الكريم الذى لايخلو من اخطار يذهب بالتفضيل، فالمحرر الذى يرفض أن يتدخل لا يبدو سامياً حرا فى تجرده ؛ بل عقيما أسيراً لأنانيته ٠

***

على هذا النحو تقريباً كانت تعرض المسألة لبنى عمومتنا السالفين ، فى أيام الرومانتيزم مثلا ، ولكنها قد تعقدت منذ ذلك الحين تعقداً خطيراً .

لقد بذلت الأحزاب المشتبكة فى الجهاد السياسى ــ وبخاصة منـــذ أوائل القرن العشرين ــ أكبر المجهودات لتحمل العلماء والفنانين والكتاب

بوجه خاص على الاشتراك في العمل ، وذلك لأن أعضاء الأحزاب يقدرون النفوذ الحقيقى الذى يتمتع به الكتاب عند الرأى العام حق قدره ، ومن ثم يعملون كل ما في وسعهم لكى يضموا الى جانبهم قوى فعالة كهذه ، ويرى الكتاب أنفسهم موضع الرجاء فى كل يوم ، وبخاصة من الأحزاب المتطرفة .

وكثيراً ما تكون لديهم أسباب شديدة الملاءمة للسقوط كما أشرت من قبل . فالبعض ينطلق فى حماسة ، والبعض يسلم لصداقة ، والبعض الآخر ينحنى لضعف ، ومنهم من يدفعهم الكبراء حين يرجون أن يرفعوا الصوت وقد انعقدت بهم الآمبال ! فينهضون ولا يتراجعون أو يصـل صوتهم الى الآذان .

ورجال السياسة الذين تشجعهم حالات النجاح الكثيرة ؛ بل المدوية احيـانا ، لا يحجمون عن أن يسيئوا فى استهتار استخدام ما فى نفوس الكتاب من كرم ، وهؤلاء الرجال قوم ليس لدى معظمهم أى سبب يحملهم على احترام الروح وخدام الروح .

ففى كل يوم ؛ بل وفى اليوم الواحد أكثر من مرة يطلب الى الكتاب أن يعلنوا آراءهم فى مشاكل أو مواقف لا يكادون يعلمون عنها أى شىء ، أو فى أشخاص لا يعرفونهم الا بالاشارة عن بعد ، ولقد يكون الطلب أمرا : بل قد يكون تهديداً .

وفى هذه الظاهرة مايمس قضية الروح والادب مسـا قويا . فهى — بميلها الى الانتشار — تعرض الكتاب لخطر فقدان نفوذهم الذى اكتسبوه بجهدهم الطويل ؛ وذلك فى غير نفع لأحد ؛ وانه لمن الممكن أن ينتهى فرط الاعتماد على قوة جماعتنا ونفوذها الى الذهاب بما لها من حسن الصيت ، ولئن حدث ذلك لكانت فيه محنة كبيرة .

ولكن هل معنى هذا أنه يتعين على الكاتب الحريص على أول واجباته ، أن يلجأ الى المقاطعة بسبب تلك الظروف الشاذة ، شذوذاً يبلغ الأسف له أقصاه ؛ طبعاً هذا ليس رأيى .

كما يطيل شجر الند (١) التفكير سنين طويلة قبل أن يدفع بزهره الى الضياء ، كذلك يجب على الكاتب أن يصـبر على تجربة طويلة ليبلو القضية التى يريد أن يفصل فيها . يجب أن يستجم وقتاً طويلا قبل أن يتناول الحديث كما يجب الا يتناوله فى غير الوقت الملائم ، والا يقول غير الضرورى ، وهو بذلك قد يوفق فى استخدام قوله وتغليبها .

وللنهوض بعمل شائك كهذا والنجاح فيه يجب على الكاتب أن يصم

---

(١) l'aloès.

أذنيه عن الحاح رجال الأحزاب والعصب . يجب ألا يقبل قط تنفيذ أمر ، كما يجب أن يعرض عن مقتضيات المجاملة .

قال فني (١) : « أذ رسـالتك وحيداً حراً » ، ولست أرى اليوم موجباً لتغيير تلك الحكمة ، وأضاف الشاعر : « لا قداسة في غير الوحدة » ، ألا فليهد هـذا القول الجميل من بيننا أولئك الذين لا يقبلون أن يبحروا مغامرين على غير بينة ،أولئك الذين يدرسون كل يوم موقفهم ويسترشدون بالنجوم ، ويجددون مكانهم على خريطة العالم .

— ١٠ —

الكتابات السياسية

كنا لا نزال شبانا صغارا عند مادوت في آذاننا لأول مرة هـذه الصيحة « السياسة أولا ! » ، ولربما كانت تلك العبارة عندئذ كلمة العهد mot d'ordre ولربما كانت مجرد ملاحظة ، ولربما كانت نبوءة . وهل يجب أن أقول انها ملأتنا ذعرا ؟

كنا في بدء القرن العشرين ، ولم تكن فرنسـا طبعا بعيدة عن السياسة ، فلقد كانت تهتز بالمسالة (٢) ، وكان قانون (٣) الفصل قد أثار شهوات صاخبة حتى في أقصى الريف ، وكانت البلاد خارجة من مغامراتها الاستعمارية قلقة وان تكن ثملة ، كما أن قنابل العدميين (٤)

---

(١) الفرد دى فنى (Alfred de Vigny) (١٧٩٧ — ١٨٦٣) شاعر الفكرة بين الرومانتيكيين الفرنسيين ، وله مجموعة قصائد رائعة بعنوان (الاقدار) كما له ديوان آخر بعنوان « قصائد قديمة وحديثة »وله مسرحيات أظن أن « شاترتون Chatterton خيرها كما له روايات . وافكاره الاساسية تتلخص في الوحدة التى تقضي العبقرية على صاحبها بأن يعيش فيها ، وعنده ان الطبيعة والبشر جامدان لايستجيبان ، وانه ليس للرجل العبقرى أن يلاقى جمودهما بغير صلابة الرواقية الابية .

(٢) اشارة الى مسألة دريفوس Dreyfus وهو ضابط اسرائيلى حكم عليه بالنفى للخيانة سنة ١٨٩٤ ، ولكنه برىء سنة ١٩٠٦ بعد حوادث طويلة ومراجعات ومحاكمات انقسمت فيها فرنسا الى قسمين معه وعليه خلال هذه المدة الطويلة .

(٣) اشارة الى قانون فصل الدين عن الدولة الذى صدر سنة ١٩٠٥ .

(٤) Nihilistes ، وهم انصار المذهب الفوضوى الفردى الذين لايريدون حكومة ولا نظما ، ورجال فدائيون كانوا يملأون الروسيا قبل أن تشب فيها الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ .

من الروس كانت توقظ كل أسبوع أصداء جديدة في أعماق كل الشعوب وشعبنا بنوع خاص ، وكانت الروح النقابية تعدد من تجاربها ومظاهرات احزابها. ولم يكن فرنسي تلك السنين منصرفا بلا ريب عن المسائل العامة، ولكنه لم يكن يخضع لها في غير تحفظ كل أفكاره وكل أعماله . لقـــد كان لا يزال يعرف الدفاع عن نفسه .

كنا في زمن يستخدم فيه الشبان الذين كانوا يترددون على المعامل، كل ملكاتهم في مناقشة آراء لدنتيك Le Dantec ودستر Dastre وريشية Richet (١) ، وكان اسم برجسون عند صبيان الفلاسفة من تلك الكلمات الفعالة التي تكفي لتحمل على الهرب كل الأفكار الطفيلية . أما نحن التلاميذ الكتاب فكنا نستخدم خير ما نملك من حرارة في تقديس الأســـاتذة الذين اخترناهم تقديسا حقيقيا ، وما يستطيع المرء أن يذكر في غير أسف تلك الحماسة الروحية الجميلة الخصبة ، حماسة شبيبة كانت تعرف كيف تتحدث في الفلسفة والفن والشعر والأخـــلاق ، متجنبة الخطابة الانتخابية وأسلوب المجتمعات العامة البغيض بوحي من غريزتهم . كان زمنا أعطى فيه المجمـــع الفرنسي Académie Française - اذا كان لا بد من ضرب مثل - جائزته الكبرى عن طيب خاطر لمؤلف « جان كريستوف » Jean Christophe (٢) الذي قبلهـــا في سرور ، ومع ذلك أكرر أننا كنا عقب « المسألة » مباشرة ، وعلى أبواب الحرب العالمية ، ولكن الروح في نشاطها وأعمالها كانت لا تزال تعرف كيف تفلت من هوس السياسة، فتسجنها داخل ذلك الفلك المقدس ، الذي أعطانا ديكارت أنموذجا محكما له (٣) .

لقد تغيرت الامور تغيرا كبيرا ، فعبارة « السياسة أولا » ، اذا صح

---

(١) ليدنتيك (١٨٥٩ - ١٩١٧) عالم كبير من تلاميذ باستير ، وله أبحاث كثيرة في علم الحياة ، كما له كتب في الفلسفة وهو من انصار مذهب التطور .
دستر (١٨٤٤ - ١٩١٧) عالم كبير من علماء وظائف الاعضاء .

القريد ريشيه (١٨١٦ - ١٨٩١) جراح كبير . وأما ابنه فرانسوا ريشيه المولود بباريس سنة ١٨٥٠ فأبحاثه تنصب على العلاج بالسيروم .

(٢) مؤلف جان كريستوف هو رومان رولان وهي رواية من عدة اجزاء تقص حياة موسيقي في مراحلها المتتابعة ، كما تدل عناوين الاجزاء المختلفة « الفجر » ، « الصباح» ... الخ . وموضع استشهاد ديهامل هو أن رولان منذ نشأته يميل الى أحزاب الشمال بل لقد انتهى به الامر فأصبح اشتراكيـا ، والمجمع اللغوى الفرنسي يمثل المحـافظة والمحافظين ، فاعطاء المجمع جائزته لرولان يدل على أن النزعات السياسية لم تكن قد أفسدت النفوس ، وأن التقدير والحكم على المؤلفين لم يكن خاضعا للاهواء السياسية التي تفسد كل شيء .

(٣) يقصد ديهامل بقوله : « ان الروح كانت تسجن السياسة داخل تابوت مقدس على نحو مافعل ديكارت » الى أن الاشخاص كانوا يحكمون عقلهم ذلك العقل الذي نادى

انها كانت فى الأصل برنامجا • فانها قد أصبحت الآن حقيقة واضحة . حقيقة مؤلمة ، ففى كل النفوس تقريبا تشغل مهام السياسة المكان الأول ، وأنا أسلم بأن مهام السياسة تزداد كل يوم الحاحا وايلاما واستئثارا بنا ، ولكنها لن تلبث أن تحتل مكان كل المهام الأخرى وتنحيها وتفنيها ، ان لم يكن ذلك قد تم بالفعل • وعند ما أفكر فى امتيازات الروح ، وفى واجباتها ، أقول انها حقا لمحنة كبيرة •

***

فى كل يوم أتسلم عددا من الكتب ـ ككل زملائى من الكتاب ـ وذلك علاوة على الخطابات والجرائد والمجلات وأكداس الاوراق المتعددة الالوان • ومن الممكن أن يكون النقاد المحترفون أوفر حظا منى ، وانهم يجنون محصولا أكبر من محصولى ، ولكنى أجد أن نصيبى لا بأس به ؛ ففيه القصص والروايات والتاريخ الجاف والتاريخ الروائى والأساطير والشعر ، والأبحاث والعلم والفلسفة ؛ وأنا أختار من بين هذا الحشد كل ما يمكن أن يغذينى ، ولست أحس بداع الى الشكوى ، وأنا لا أعمل احصائيات ، وما بى ميل اليها ولا لى قدرة عليها ، ومع ذلك أدرك فى الجملة ـ تبعاً لوفرة أو ندرة هذا النوع من الكتب أو ذاك ـ مقدار الخطوة أو الاعراض الذى يذهب به كل نوع ، وفقاً للأزمنة والفصول •

والذى يسترعى انتباهى الآن هو كثرة الكتب ذات اللون السياسى ، وفى الحق أن السياسة مجال رحب يمتد من الاقتصاد الى الأخلاق • وللسياسة كل الأوجه وكل الأقنعة ، لها قناع الفلسفة البالغة فى عبوس الجد ، كما أن لها قناع التشهير الفاضح والسباب المخزى ، ولا علينا من ذلك ، فحتى الملاحظ ـ الذى لا يترك لتخبط الحوادث المعاصرة سبيلا الى التأثير فى حكمه ـ يرى أن الكتب ذات اللون السياسى تحتل بين كتلة المطبوعات فى الوقت الحاضر مكاناً مسرفا ، ومن ثم غير عادى •

ولقد اتفق لى فى الشتاء الماضى أن تسلمت فى يوم واحد ثلاث أو أربع نشرات ، تعرض على كل منها خطة كاملة للاصلاح أو لتدعيم النظام القومى أو النظام الاجتماعى ان لم يكن نظام العالم كله ، وهذه الكتب الصغيرة التى أشير اليها لا تشبه فى شيء المذكرات والبيانات التى ينشرها ويوزعها فى سخاء صناعى دعاة بعض الأحزاب السياسية • لا • بكل تأكيد • فمعظم تلك « الموسوعات » أو « البرامج » التى أشرت اليها فيما سبق من وضع

ديكارت باحترامه والصدور عنه حتى لكأنه قد بنى منه فلكا يسجن فيه الاهواء المختلفة وبذلك تخضع لحكمه ، والسياسة هى أقوى تلك الاهواء . هذا ويلاحظ أن ديهامل استعمل لفظة archesainte وقد ترجمناها بلفظة « الفلك المقدس » الذى يقصد به عادة « فلك نوح » ، ولكن المقصود منه هنا هو المكان المنعزل عن العالم بحيث يعتبر من يوضع فيه أسيرا أو سجينا .

أفراد منعزلين ، وبعضها مطبوع بواسطة جماعات حديثة التكوين ليست لها علاقات محسوسة بالطوائف البرلمانية ، ومن السهل أن نتوقع وأن نفهم أن بعض الأفراد قد ضحوا تضحية شخصية حقيقية ـ لكي ينشروا مشروعهم أو وثيقتهم أو مذهبهم ـ وأنهم قد استنفدوا مدخرهم وجازفوا بكل ما لديهم ، وهذا لا يخلو من بطولة • وفى الكثير من هذه الكتابات نرى حبا حارا للصالح العام يظهر بل يتفجر رغبة مخلصة فى النهوض والنظام والسلامة ، وليس للانتقاد أو الهجاء غالبـــا فى تلك الكتابات وجود ، وانما هو مجهود لا يبذل فى أغلب الأحيان للتشنيع أو للتدمير بل لاقامة التوازن والبناء •

ولقد يتفق أن تدل بعض العبارات على سذاجة ، فتلقى ـ غير بعيد من الملاحظات الماهرة ـ أمانى صبيانية وجملا شديدة الشبه بتلك التى أصدر فيها العالم حكمه ، فالمحرر يقترح مثلا « أن ننهض بفرنســا فى جو من الثقة » أو « أن نقيم نظاماً أساسه العدل » أو « أن نصلح النظام المــالى اصلاحاً يقوم على التبسيط ، وتحقيق العدل » ، وهذا مالا يريد أحـــد فى فرنسا أن يعارض فيه •

وأقول بعيداً عن كل رغبة فى الانتقاد أن هذا الازدهـــار العجيب للكتابات السياسية أمارة من أشد الأمارات خطورة •

وأنا أعلم أن الفرنسيين يحبون السياسة ؛ بل السياسة الخالصة • والسياسة والحب فى فرنسا هما لذتا الفقير ، اللذتان المجانيتان حقا • والطلب فى القهوة الصغيرة يكلف فرنكات وسنتيمات ؛ أما الســياسة فلا تكلف شيئاً • وهى تثمل وتثير انفعــالات وتخبىء مفاجآت • وهى تسوط غرائزنا ، وتهيىء لنا انتظارات حارة ، كما تهيىء بعض السنات • وهى تتغذى بكل الشهوات ؛ وخاصة باحطها • فهى غنيمة طيبة للنفوس الخاوية التى تبرأ من كل قراءة بعد أن تنفد الجريدة ـ نعم ان الفرنسيين ساسة كبار بلا ريب حتى فى الأيام الهادئة من تاريخهم •

ولكن عندما تأخذ شهوة السياسة الاتجاه الذى نراها قد اتخذته اليوم ؛ وعندما نرى أن الحمى السياسية قد وصلت الى أناس كان من الواجب أن يظلوا بعيدين عنها بحكم أذواقهم وأخلاقهم وطبيعة اعمالهم ، وعندما لا يستطيع أى مواطن فى أوقات فراغه وأرقه أن يمنع نفسه من أن يعيد بخياله خلق الدولة فى حنق ويأس ، أقول عندما يحدث كل ذلك تدل تلك الظاهرة فى نظر الطبيب ، بل فى نظر الملاحظ العادى على اختلال عميق خطر فى حياتنا الاجتماعية •

وأنا أسلم راضيا بأن تصبح السياسة عندنا حرفة ، كما هى فى كل

مثال ، وأسلم بأن توضع في يد المحترفين ، في هيئة اجتماعية قائمة على التخصص ، وتقسيم العمل تقسيما قد بلغ أقصاه • ولكن على هؤلاء ـ اذ يضطلعون بهذه الوظيفة ـ أن يحررونا على الأقل من كل مهامها •

ودليل الصحة ـ في نظر الطب الصحيح ـ هي الا يفكر الفرد في جسمه : فهو يتخذ كل يوم بعض الاحتياطات الأولية ، وبذا تتم عنايته به ، فيأكل ويشرب ، ويغتسل ويعدو الى أعماله • فهل تراه من ساعة الى ساعة ، ومن دقيقة الى اخرى يتساءل في لهفة عن حركة بنكرياسه أو غدده الكاوية ؟ أبدا ! بل ان هناك مجالا للأمل في أن يجهل حتى اسمها وحتى موضعها من الجسم ، فاذا أحس بمعدته دل ذلك على أن هذه المعدة ليست في حالة جيدة ، واذا استمر الاضطراب كان من الخير أن نخبر به الاخصائي ، أي الطبيب ، وأن نسأله رأيه • وانه لمن الخير بنوع خاص أن نثق بهـذا الاخصائي ، وأن نقدر على الاستسلام لقراراته • ولكن عندما يأخذ المريض في الرجوع بنفسه الى كتب الطب ودوائر المعـارف الشعبية ، وعندما يشرع ـ وقد أخذته اللهفة واليأس ، ولربما الثورة ـ في أن يضع لنفسه نظاما للتغذية ، وأن يبحث عن أدوية ، وأن يتخيل عمليـات جراحية ، عندما يحدث كل ذلك ، أقول ان الحالة سيئة وأن المستقبل مفزع •

في هيئة اجتماعية محكمة البناء سديدة الادارة ، لايجوز أن يخصص الرجل العادى من وقته للسياسة أكثر مما يخصص للبس ملابسـه في الصـباح • ماذا أقول ؟ بل أقل من ذلك بكثير • لسرعان ما استرعى انتباهي أثناء اقامتي في روسـيا منذ سنة ١٩٢٧ ما يجب أن نسميه بالفهم السياسي •

فالمواطن الذي كان يريد أن يشبع واجباته الأولية ـ أقول « كان يريد » ، لأنه من الممكن أن تكون الأحوال قد تغيرت ، اذ كل شيء يسير حثيثا في روسيا ـ هذا المواطن كان عليه أن يخصص عدة ساعات من كل يوم لما سماه جاك رفيير Jacques Rivière « ظاهرة السوفيت » (١) ، أي الاجتماع والمداولة • وأنا واثق من أن الصالح العام يتطلب مجهـودا أقل من هذا بكثير •

الرجل المختص في عمله والموظف في وظيفته والمواطن في بلد حسن الادارة يجب أن ينسى السياسة في كل يوم تقريبا ، فاذا لم ينسها ، واذا فكر فيها بعناء ، واذا فكر فيهـا بألم ، كان الداء مخيفا وكان الدواء عاجزا •

ولقد جاهدت فرنسا زمنا طويلا ضد هذه العدوى المميتة ، ولكنها

---

(١) السوفيت ، معنى اللفظ في الروسية : جماعة او جمعية •

انتهت بالسقوط فيها · والنادر من النفوس المستقلة التى لم تيأس بعد من أن تحدث معاصريها ، ان لم يكن عن المسـائل الخالدة ، فعلى الأقل عن المشاكل الكبرى فى العلم والفن والأدب والفلسفة ، تلك النفوس لن تلبث أن تحس بأن هذه الأمور الأساسية لم تعد تهم أحداً ؛ فالسياسة كالثوم ، تابل بلغ من القوة أن خير الأطعمة تبدو بدونه ولا طعم لها ·

ان الشعب الذى يضطر راضياً أو كارهاً الى أن يخصص خير وقته وخير ما فى نفسه لمسائل السـياسة ليلوح لى فى حالة انحلال · وذلك لأنه ـ على فرض احتفاظه بمكانته وثروته وقوته الزمنية ـ مقضى عليه قضاء يكاد يكون حتميا ، بألا يعود فينتج تلك العبقريات الكبيرة الخارقة التى يجب لكى تنمو وتثمر أن تظل طليقة من استرقاق القطيع ومن تحكم المعتقدات العمياء والأوامر العـامة · والشعب لا يعتبر عظيما حقا الا اذا أنتج رجالا عظماء ؛

- ١١ -

السلطة الزمنية

لست أتحدث الا عن الأدب · ولكن القضايا التى سأصوغها تنطبق على كل المهن التى يمكن أن تظهر فيها المقدرة على الخلق ·

وانما أسمى بالسلطة الزمنية كل سلطة خارجة عن الانسان ، كل سلطة تضاف الى قيمة الانسان الذاتية ، وتغير بطبيعتها من نفوذه وتأثيره واستجاباته ، ولقد تستند سلطة كهذه الى بعض المواهب الروحية ، كما يمكن أن تخفى نقصا فى تلك المواهب كبير الوضوح أو قليله ـ وأنا أقول عن كاتب ما انه يملك نوعاً من السلطة الزمنية ، اذا كان يدير جريدة أو مجلة ، أو كان يرأس أو يوجه داراً من دور النشر ، أو مجموعة كتب ، وكذلك عندما يكون مشرفاً على باب هام من أبواب جـريدة منتشرة ، أو شاغلا لمركز فى بعض الادارات أو اللجان أو عضواً فى المجامع أو الهيئات الفنية النشيطة · وأخيراً اذا كان يتمتع بتلك الميزة الواضحة المخيفة ، ميزة الحظوة بالمال عن ميراث أو نسب ·

وأنا لأترك اليـوم جانبـا مشكلة المال والثروة الشخصية ، فهى تستحق أن ننظر فيها نظراً خاصا ، وهى علاوة على ذلك مشكلة يمكن أن

تمحى فى الغد ، ولو على نحـو وقتى ، وسـط الاضرابات الاجتماعية والسياسية ٠

وأما عن مشكلة النفوذ الخارجى للسلطة الزمنية المستمدة من المراكز والوظائف فمن الممكن أن ننظر فيها على مهل فهى مشكلة خالدة ٠

ولو أن أحد أبنائى مال الى الاشتغال بالادب ، وهذا مالا أتمناه أصلا ومالا أرى فى الساعة الراهنة أى دليل عليه ، اذن لحدثته بما لاحظته وما أعمله ٠

ولقلت له ان حياة الكاتب ، حياة الفنان ، حياة الرجل الذى يسعى الى خلق قيم ومؤلفات ، هى قبل كل شىء تجربة ، وان شئت فقل محنة ٠ وأهم مشكله بالنسبة لك ليست أن تترك مواهبك تمرن وتنمو ، وأن تقسو عليها وتهيىء لها ميداناً ، وتحدد لها اتجاهاً فحسب ، بل أيضاً أن تعرفها لتحسن استخدامها ، فكل عمل غاية ووسيلة ٠ نعم غاية ووسيلة فأصغ الى هذا ٠ وسيلة الى أن تنهض يوماً بعمل آخر أسمى وأشق ، وبالتالى أحسن ٠ واذا قبلت مبادىء على هذه البسـاطة ، كان عليك أن تقود تجربتك ، تجربة حياتك ، بأكثر ما تستطيع من دقة وقسوة ، وليست هذه مسألة أخلاقية بسيطة ، فمصلحتك ذاتها منوطة بها ٠ واذا أردت أن تعرف قيمتك وأن تتميز ملكاتك ، وأن تدرك مواضع نقصك ، وأن تزن ثمار عملك فى ميزان دقيق ؛ فلتحذر كل ما يمكن أن يفسد حسـابك ويثنى من أحكامك ٠

لست غنياً ولابد لك منذ الآن أو عما قريب من أن نعثر على قوتك ٠ تعلم اذن حرفة وحاول أن تزاولها على نحو يضمن لك حياة شريفة دون أن تبدد فيها كل قواك ما دمت تعد نفسك للأدب فى خفايا قلبك ، ومشكلة الحرفة الثانية قد حلها جميع الناس السديدو الرأى على نفس النحو ، افعل ما تشـاء ، افعل ما تريد ، ولكن زاول حرفة تقوتك طوال الزمن اللازم ، حتى لا تطلب الى الأدب شيئاً قبل أن يحكم القضاء ، ولتهرب بنوع خاص من الاعمال شبه الادبية أو المجاورة للأدب التى ستفسد يدك وتستنفد ملكاتك وابتكارك وتحملك على ضروب من السخرة لم تخلق لها ، وعندما تأتيك فكرة كتاب ، وتجد فى نفسك ميـلا وفى وقتك متسـعا لعمله ، ألق بنفسك اليه بكل قواك ، ولكن لا تنس أن تعيش أولا ٠ ولدينا دائماً بين العشرين والثلاثين من الوقت متسع لنكتب ٠ عش بحرارة ثلاثة أشهر لتكتب ثلاثة أيام وتنتج ثلاث صفحات ٠

لربما لفتت الأنظار كتاباتك الأولى ، بل لنفرض أن الحظ واتاك ليمسك بجناحه ٠ حسن ، حسن جداً ٠ فكر عندئذ فى السلطة الزمنية لأن الاغراء لن يلبث أن يأتى ٠

اني أسمعك • أيها الرجل الحكيم ، أسمعك أيها الحاسب الماهر تقول « لقد سرت قدما فالناس يتحدثون بنجاحي ، لقد عرضوا على مركزا او وظيفة أو مهمة بل قد تكون رتبة • كل هذا يمكن أن يساعدني في عملي كفنان • كل هذا يمكن أن يزيد في نفوذي » •

آه • انني لست على ثقة من ذلك ، فحديث النفس الجيدة المعدن هو أن تقرأ ، وأضيف لفوري أن تقرأ في ملابسات تامة الصفاء ، وهذا ليس بالأمر الهين ؛ فالكاتب الذي ينطلق في تلك المهنة العجيبة يأمل أن يقرأه الجمهور الذي قصد اليه، جمهوره المختار ، الجمهور الممتاز الذي يكتب في الواقع من أجله رغم كل ما يمكن أن يقول ، بل وما يمكن أن يكون له من رأي • وكسب هذا الجمهور يحتاج الى صبر ، وأشق المهام هي أن يقرأنا الزملاء • نعم ، أن يقرأنا الكتاب الآخرون ، وهذا أصعب الأمور وأبعدها عن اليقين ، ومع هذا فهو الشرط الأساسي للانتصار ؛ يجب أن يقرأك زملاؤك ، يجب أن يحكم عليك زملاؤك • اذا كنت حقا تريد أن تعرف قيمة مواهبك ومعنى مؤلفاتك فلا تطلب ولا تقبل — لزمن طويل وخلال كثير من السنين القاسية — أي ذرة من السلطة الزمنية •

وهل تأمل أن يقضى فيك ببرودة ، وأنت تملك قوة غير قوة روحك أو نفوذاً غريبا عن شخصك ! احذر الرجاء ، احذر الحقد ، اعرض نفسك على القضاء عاريا ، عاريا ، هادئا ، وقد ملأت يديك بأعمالك ، أعمالك فحسب •

قاوم لانك ستغرى ، وحافظ على هذا المسلك زمنا طويلا • اصغ • لاحظ وأحص كل يوم ما لديك ، سل نفسك كل يوم عن معنى عملك وعن مجرى حياتك ، واذا ظلت تجربتك نقية فستعرف على وجه التحديد ماذا يزن المديح وماذا يساوي النقد ، وستتخذ ما يلزم لكي لا يشلك أي واحد منهما ، وستعمل أثناء الجزء الأكبر من حياتك في أمان جميل •

ولربما أتى يوم ترى فيه أنك تعرف شيئاً عن نفسك، وسيأتي حتما يوم تكون فيه قد استقيت من عملك تجربة قسوية ، وأملي أن يأتي يوم ثالث تصل فيه الى الخمسين ، عندئذ ستكون قد عملت كثيرا وسيكون ظهرك مثقلا بحمل من المؤلفات الكبيرة ، وستتمتع بنفوذ لن تدين به لغير ملكاتك وعملك ، وعندما يحين ذلك الحين — اذا اعتقدت أنك تستطيع أن تستخدم ما تعلم لمصلحة الأدب وفي خدمة الآخرين — ففكر طويلا ، طويلا جدا • ثم لتقبل — اذا وجدت في نفسك القوة على ذلك — شيئا من السلطة الزمنية ، ولكن اعلم أن هذه دائما مغامرة مرة ، واذن فلتكن حريصاً • كن حريصاً •

- ١٢ -

محنة الاختراع

تقول الأسطورة عن جل رنارد J. Renard انه عندما كانت تضنيه مراقبة الصفحة البيضاء كان يأخذ في الضرب خلال الطرقات ، طالبا العون الى مشاهد العالم التى لا عداد لها ، وأحيانا كنت تراه ــ وهو صـائد الصـور ــ يصعد هنيهة عند راشيلد Rachilde (١) وذلك اذا خشى أن يعـود صفر اليدين . يصعد ليقبس شرارة ثم يعـود وقد استجيبت دعواته .

ملكة الاختراع : ملكة خلق حكايات ــ بأن تقبض على عناصر الحياة وتعيد توزيعها لكي تؤلف منها صوراً جديدة ، ثم القدرة على أن تجعل شخصيات مخترعة تعمل وتتحدث ، وقد منحتها روحا واتجاها أي قيادة ــ هذه الملكة هي بلا ريب أشد الملكات جموحا . فالانسان يستطيع أن يمرن على الصبر والشجاعة والقوة . بل على دقة الاحســاس ذاتها ، ولكنه لا يستطيع أن يثير القدرة على الاختراع ، كما لا يستطيع أن يقهرها .

وعلى من حبى شيئا من تلك الهبة الثمينة بين الهبات أن يعبد لهـا مجراها وأن يخصبها بالعمل ويؤججها بالبلاء ، وأخيراً عليه أن يحققهـا فعلا مع حمايتها من الفساد الذى يستنفدها ويفنيها .

فى فرنسا شبيبة شجاعة مثقفة متحمسة تلقى بنفسها الى انواع من الصحف فى حرارة بل فى انفعال قوى ، وأنا أوافق راضيا على أن يطلب الى ذلك الحشد مقالات عن الأفكار أو الآراء أو النقد أو الأخبار أو الوصف . وأما القصة من مائة سطر التى تنشرها كل يوم جميع صحف فرنسا تقريبا ، فذلك ما أعلن فى وضوح أنه احدى أخطاء صحفنا ، وأن فى ممارسته خطراً كبيراً على ملكات الاختراع عند شعب يعتبر رغم ذلك ماهراً فى تلك المهنة السعيدة ، مهنة اختراع القصص .

والافكار أو الصـور التى يمكن أن تكون مادة لعمل فنى تحتـاج دائماً الى نضوج بطىء ، فهى تولد فينا كالديدان ، وتبقى بلا حراك زمناً طويلا ، ثم نحس شيئا فشيئا أنهـا تتغذى وتأخذ فى التكون ، وأخيرا تبدأ فى الحركة ، بل فى أضنائنا ، ومع ذلك تمر الاعوام قبل أن يتهيأ

---

(١) راشيلد Rachilde زوجة الفريد فالت مؤسس مجلة المركيز دى فرانس وناشر كتب ديهامل ، وراشيلد (ولدت سنة ١٨٦٢) كاتبة كبيرة لها عدة روايات وبعض مسرحيات وهى تمتاز في رواياتها بدراسة الحالات الشاذة .

الكائن الوهمى للمجيء الى الضوء فتبدأ عملية الوضع الشاقة • ونحن نستطيع أن نفسد كل شيء ، ولكننا اذا انتظرنا الى نهاية الحمل فستكون لدينا على الأقل فرصة لأن تخرج الى العالم كائناً قابلا للحياة كاملا حسن التكوين •

وكل من له خبرة بالآداب يعرف أنه قد انتظر أحيانا عشر سنين وأحيانا أكثر من ذلك قبل أن يترك هذا الشبح ينبعث أو تلك الصورة تنطلق ، قبل أن يفسح الطريق لهذه الفكرة أو تلك الحكاية •

فى رأيى أن القصة الصغيرة التى تتمتع اليوم بالحظوة لدى صحفنا اليومية كلها تقريباً ، تمثل بالنسبة لروح الاختراع محنة عقيمة أكاد أؤكد أنها مميتة : فهى عقيمة لأنها لاتستطيع أن تثير أو أن تخصب المواهب التى فى سبيل التكوين ، وهى مميتة لأن هناك كل الاحتمالات فى أن تنتهى بأن نقتل الفنان الذى يتعرض لها •

وأنا أرجو أن يشرفنى القارىء فيعتقد أننى قد فكرت طويلا قبل أن أواجه هذه الخصومة التى ليست عديمة الأهمية بالنسبة للروح وبالنسبة لمستقبل آدابنا •

فن القصة الصغيرة فن شاق • وان القارىء ليدهش عندما يفتح مجموعة أقاصيص لموباسان فيجد قصة طويلة ممتازة حسنة العرض فى الغالب قد اتخذت عنوانا للمجموعة ثم يكتشف — مختفية خلفها — « حكايات » أخرى سقيمة تشتم منها بقوة رائحة « الجريدة » • لقد أثم موباسان ضد المبادىء الاساسية لذلك الفن الذى برع فيه ، اذ كان يدفعه الزمن الى حصد قمحه عشباً • لقد نشر مئات من القصص مع أنه لم تكن لديه حيوية لغير ما يقرب من ثلاثين حكاية ، وهذا قدر جليل • وأنا أقرر أن هذا المثل الشهير لا يجوز أن يحتذى ، فحاجات الجرائد — على نحو ما نرى اليوم — ستستنفد — فى غير نفع لأحد — ملكة الاختراع عند جيل قوى ولكنه وجد نفسه خاضعاً لنظام مدمر •

« هذه الفكرة السعيدة القوية التى ازدهرت فى رفق بحنايا روحنا • والتى قد تصبح بعد ثلاث أو أربع سنوات مادة لمؤلف كامل ، هذه الفكرة التى نعزها ككنز من كنوزنا الخفية ، لا نريد أن نضحيها هى الاخرى على مذبح موبوخ (١) Moloch ولكن الزمن يمر ولكن الزمن يدافعنا •

---

(١) مولوخ هو كبير آلهة الكنعانيين ، ومعناه « الملك » ، وهو يقابل « بعل » عند الفينيقيين • وكانوا يقدمون لهذا الاله الفظيع الاطفال قربانا وكانوا يحرقون هؤلاء الاطفال ، ويقول ديودور الصقلى انهم كانوا يصورون هذا الاله في شكل تمثال ضخم يمثل جسم انسان ورأس ثور ، وكان هذا التمثال يصنع من المعادن ثم توضع النار في جوفه ويوضع الاطفال بين الذرعه الى أن يلتهب كله فيحترق الاطفال،والى هذا يشير ديهامل

علينا أن نقدم الى جريدتنا قصتين كل شهر ، لقد قرب الموعد · ها هو قد حان·لم يبق غير ساعات معدودة · ليس لدينا ما نقول أو نصف أو نقص· هناك أيام لعينة يكون فيها المخ جافا صلداً ، فلا أثر لحكاية ولا ظل لقصة ولا شبح على شاشة ذاكرتنا الملساء · هل نأخذ مضطرين خير مدخرنا · تلك القصة الجميلة التى داعبناها منذ زمن طويل · وا أسفا ! لا مفر من ذلك ما دام الزمن يدق ببابنا · فلنلفق مائة سطر فى ذلك الموضوع العزيز الجميل الذى ربما كان يهبنا مؤلف حياتنا ، غرة مؤلفاتنا » ·

أؤكد أن القصة اليومية هى احدى قروح أدبنا الخفية · قرحة يسيل منها كثير من الدم الجميل الزكى ويضيع ·

ولقد يعترض على البعض فى قوة بأن المواهب التى تقبل تلك المحنة اللعينة قد لا تستحق أن تنقذ ، وهذا رأى كافر · فأنا أعرف وأستطيع أن أذكر كتابا سامىي المواهب قد جففتهم كتابة الأقاصيص وأضاعتهم · ولقد يتفق لى فوق ذلك أن أقرأ احدى تلك الأوراق التى يقذف بها الى الهاوية كاتب محدود الشهرة ؛ كاتب مايزال شابا فأحس عندئذ باحساس من يشاهد مأساة انتحار ، ولكنى أعترف أن هذا نادر ، فمن بين الألف اقصوصة التى تظهر فى الصحف اليومية يستطيع الانسان أن يؤكد أن ثلاثة منها تستحق أن تعاد قراءتها ·

ولقد نشرت كجميـــع الناس بعض الاقاصيص فى الجرائد · فأنا أعرف الداء الذى أحاول وصفه بل مهاجمته ، وأنا أعلم أن عدداً لا يحصى من الكتاب فى حاجة لكى يعيشوا ويعولوا ذويهم الى المال الذى يكسبونه على هذا النحو بما يهدرون من دماء قلوبهم ، وأنا أتصـــور بسهولة أن المشكلة ليست بسيطة ، واذا كنت أسمح لنفسى بالتدخل فيها فذلك لحرصى العميق على مصلحة الأدب والأدباء ، وأنا أرى أن الانسان يستطيع فى غير خطر أن يكتب الكثير من المقالات عن الأفكار أو الوقائع أو الرجال أو المؤلفات ، فالكاتب الذى يأخذ القلم ليناضل فى المسائل التى تهمه لا خطر عليه من أن ينضب بل العكس فهو يستثير نفسه ويجددها ، وأما ذلك الذى يحس بأنه مرغم على أن يقص بأى ثمن أجنة من القصص ؛ ذلك الرجل أحييه كفريسة وكشهيد ·

هذا ، وفى تلك الخطة التى تجرى عليها الصحف اليومية ما يضل ذوق الجمهور ، فهى تغرس عند القراء الشاردى الانتبـــاه عادة القناعة بحكاية نحيلة لا قوة فى عصبها ولا احكام فى تاليفها ، وذلك على الأقل فى أغلب الأحيان · واذن فأنا أرى فى هذا ضرراً كبيراً بذوق الجماهير ، وبملكة الخلق عند حشد من الكتاب ·

عن الاصالة

كنا نتناول الغداء في الفندق ، وكان اليوم مطيرا · وذلك بساؤو بولو Sao Paulo المدينة الوحيدة ذات الزوائد (١) التي خصصتها البرازيل الوديعة لآلهة الحضارة الحديثة النهمة ، وكان جارى كاتبا ممتازا لاح لى مشغولا بعبقرية مدينته الكبيرة ، وقد أخذ يتحدث فى حماسة عن المستقبل قائلا « اننا نريد ثقافة قوية حديثة أصيلة برازيلية بحتة ··· » واذ انطلق جارى فى الحديث عن هذا الموضـــوع الحار ثارت به أقوى الفصاحات توثبا · وكنت أصغى اليه بكل آذانى وان لم أخل من دهشة ·

وهذه اللهجة ، هذه الرغبة ، هذه الحاجة الى ثقـــافة أصيلة كثيرا ما أحسست بها أثناء سياحتى بأمريكا الجنوبية ، فالأحاديث التى نظمت فى بوينس ايرس Buenos-Aires بواسطة المعهد الدولى للتعـــاون الفكرى Institut international de Coopération intellectuelle قد دارت فى صبر حول هذه المشكلة ، ولقد اعترف كل الملاحظين الذين اجتمعوا لهذه المناقشة بأن الحضارة التى حملها الفاتحون الاوربيون الى أمريكا الجنوبية قد خضعت لتغيرات ملحوظة ، ولكن القيم الثقافية فى جملتها ـ تلك القيم التى يعمل فيها ذكاء العالم الجديد ـ قد ظلت ـ مع تجاوز بسيط ـ قيم أوربا القديمة ·

وعدد من مفكرى أمريكا اللاتينية يقبل فى شىء كثير من الحكمة تلك العلاقة التى ليست تبعية بالمعنى الدقيق · يقولون : وما علينا من أن يستعير العالم الحديث من العالم القديم قواعد تفكيره ومناهجه وقيمه ؟ والشىء الأساسى هو أن يفكر العالم الحديث وأن يعمل · وهذا مالا ينكر أنه بسبيله ·

ويحكم آخرون فى قسوة لا أرى أنها فى موضعها على ثقافة ليست على حد اعترافهم أنفسهم الا ظاهرة ثانوية (٢)

(١) ville tentaculaire المدينة ذات الزوائد ويقصد بها المدينة ذات الزعانف كناية عن امتداد اطرافها على نحو مائرى في كافة المدن الحديثة حيث تمتد المبانى الى كل ناحية بدلا من تجمعها كما كان يحدث في المدن قديما .

(٢) أولئك الذين يحكمون على الثقافة الخاصة ببلادهم في امريكا الجنوبية يرون أنها ليست أصيلة لانها صادرة من الثقافة الاوروبية ، وكلمة « ظاهرة ثانوية » ترجمة للفظة Epiphenomene تستعمل خصوصا في علم النفس للدلالة على مذهب اولئك الذين يرون أن حياتنا العقلية ليست الا ظاهرة ثانوية لحياتنا الجسمية ، ودليلهم على ذلك هو تداعى العقل بتداعى الجسم والعكس .

وهؤلاء يولون وجوههم عن عمد نحو أوربا التى يعتبرونها وطنهم العقلى الحقيقى ، وهم ينتظرون منها كل شىء رغم محنها وأخطائها وتخبطاتها ٠

ونفر ثالث أحد أحـــلامه ــ وقد يئس من تصرفات أوربا ــ هو أن يسرح تلك الخليلة غير الحكيمة ، وهم يعتقدون أن الوقت قد حان لتنطلق فى كبرياء عبقرية الشعوب الحديثة الى شوط بكر ، وأن تخلق ما يسمونه ثقافة أصيلة ؛ وعلى هذا النحو كان يفكر جلرى فى ســـاؤو بولو وأنا لا أسجل شعوره دون أن أضيف ما لاح لى من أنهم فى البرازيل يواجهون عادة تلك المشـــكلة الخطيرة بفلســـفة أهدأ ما تكون، وأغلب المفكرين البرازيليين الذين واتتنى فرصة الحديث معهم قد بدوا لى عاقدى العـزم على أن يستمروا فى أن يطلبوا الى أوروبا ــ رغم بعض الشكوك ــ النماذج والمناهج التى قدمتها لهم منذ زمن الغزو ٠ ولكن البرازيل ليست كل أمريكا الجنوبية ، وهناك من الكتاب أمثال تيران Teran (١) من أعلن جهرة رغبته فى أن يرى أمريكا الأيبيرية (٢) وقد طلقت أوروبا وصفوة الاوروبيين لتسير الى غايات جديدة ، وهذا رأى يحس المرء أنه خليق أن يتلون فى السنين القادمة بلهفة صوفية تغير تغييراً خطيراً من علاقات أوروبا بجمهوريات أمريكا الجنوبية الفتية ٠

وهبنا سلمنا بأن هذا الانفصال يمكن أن يكون كنتيجة لمجـــرد قرار ، ثم لنتساءل كيف تبنى وتنمى الشعوب « المحررة » على هذا النحو تلك « الثقافة الأصيلة » التى تتجه اليها كل آمالها ٠

سرعان ما يبدو أن الثقافة الأصيلة ليست ــ ولايمكن قط أن تكون ــ نتيجة لمداولة أو قرار أو استفتاء ٠

الثقافة كالايمان الذى لا يكفى أن نطلبه لنناله ، فهى نتيجة لمجموعة من الملابسات التى لم يكشف لنا العلم بعد عن تكوينها الحقيقى٠ ومع ذلك فنحن نعرف على الاقل بعضا من عناصرها المكونة ، وهـــذه العناصر قد جمعتها شعوب أمريكا الجنوبية فى ورع كامل رائع ، فالأرجنتين وأرجواى والبرازيل ــ وأنا لاأذكر الا البلاد التى لى عنها بعض المعلومات الشخصية وان كان من الواجب أن نضيف الكثير غيرها ــ قد بنت مدارس عديدة كثير منها جميل ، وفى تلك البلاد أساتذة ممتازون وجامعات ومعاهد معـــدة اعدادا مدهشا ، وسياسة الحرية التى يأخذون بها تسمح لـكل المواهب بالظهور ، ومن ثم يمكن أن يقال ان المهد قد أعد فى تلك البـلاد لتلقى

(١) كاتب من كتاب أمريكا الجنوبية المعاصرين ٠

(٢) امريكا الايبيرية اى الاسبانية اللغة ، نسبة الى شبه جزيرة ايبريا التى تتكون منها اسبانيا والبرتغال ٠

ثقافة عظيمة ، بل لقد حمل فعلا هذا العمل التمهيدى ثماره الجميلة • وستتلوها ثمار أجمل • متى ؟ ذلك مالايعلمه أحد ، يجب الانتظار فى ورع • يجب الانتظار والابتهال ، أى العمل فى حماسة وثقة •

ولكى تكون هناك حضارة أصيلة لابد من مناهج أصيلة تزدهر بفضلها مؤلفات أصيلة • والآن وقد توافرت الملابسات المادية ، فالى أى الاعمال يجب الانصراف ؟ أجيب بلا أدنى ظل من التردد ، الى المحاكاة • الى محاكاة النفوس الكبيرة وأمهات الكتب التى حكم لها الزمن • والمحاكاة حتى اليوم هى المدرسة الوحيدة للأصالة ، ولا ضعة فيهـا لغير النفوس السيئة التركيب أو المغرورة •

لقد نشر لافونتين أشهر كتبه بعنوان «Fables (١) حكايات مختارة نظمها دى لافونتين » • ومعنى هذا كما تقرر المقدمة « حكايات ايزوب مختارة ••• الخ » ومع ذلك هل هناك من يقول أو يظن أن لافونتين لم يضع كتابا أصيلا ؟ والنماذج الاخلاقية Les Caractères التى نسميها نماذج لابرويير La Bruyère نشرها مؤلفها بعنوان «نماذج تيوفراست(٢)

---

(١) حكايات لافونتين اغلبها على السنة الحيوانات ، والذى لاشك فيه انه لم يخترعها وانما اخذها من القدماء في الشرق والغرب كما اخذها عن الشعب ، ففيها من بيدبا الهندى ومن لقمان الحكيم كما فيها من ايزوب Esope الافريقى ومن فيدر Phèdre اللاتينى ، وقد نشرها بعنوان « حكايات ايزوب » . كتبها شعرا جان دى لافونتين » .

واما ايزوب فلا نعرف عن حياته شيئا على وجه اليقين . قالوا انه كان من يونانيى فريجيا في آسيا الصغرى وانه كان عبدا ثم تحرر وانه عاش في القرن السادس قبل الميلاد . ولكننا نعلم ان قدماء اليونان لعهد سقراط كانوا يتداولون شفويا عدة حكايات تحمل اسمه وان دمتريوس الفليرى Demetrius de phalère قد جمعها في القرن الثالث قبل الميلاد وان تكن المجموعة التى وصلت الينا من تحرير بلانيد Planude الراهب اليونانى الذى عاش في القرن الرابع عشر بعد الميلاد .

وحكايات ايزوب وصلتنا نثرا ونثرا جافا .

وعندما كتبها لافونتين شعرا لاريب أنه قد خلقها خلقا جديدا بما كان يملك من جمال الشعر ورقة الاحساس بمناظر الطبيعة ودقة اسهم للحقائق النفسية ثم بعنصر الدراما الذى نفثه في كل تلك الحكايات بحيث ان عنوانه « حكايات ايزوب ... » ان هو الا تواضع يزيد من مجد لافونتين .

(٢) لابرويير : جان دى لابرويير Jean de la Bruyère ولد في باريس سنة ١٦٤٥ ودرس القانون ثم اشتغل بالمحاماة ولكنه تركها للعمل في جباية أموال الدولة بمنطقة « كان » وعاش طول حياته بباريس ، وفي سنة ١٦٨٤ اختاره كونديه الكبير ليدرس لحفيده دوق بربون الفلسفة والتاريخ والجغرافيا ، ولقد شقى ببلادة تلميذه وعصيانه ولكنه أفاد كثيرا من هذه المهمة اذ بفضلها استطاع ان يختلط بالامراء والاشراف ورجال البلاط ويلاحظ أخلاقهم

أخـــذ شكسبير موضوعات مسرحياته من Caractères de Theophraste بلوتارك Plutarque (٢) ، وجيرالدى سنتيو Geraldi Cynthio فهـل من الواجب أن نعتقد أن لابروير نفس صغيرة وأن شكسبير شاعر مسكين ؟ الأمر واضح ، فما على الشعوب التى تريد أن تكون لنفسها ثقافة أصيلة الا أن تحذو حذو المؤلفات التى ظهرت فى الثقافات القديمة الشـــهيرة ، ولكن أليس هذا هو ماتفعله أمريكا اللاتينية منذ قرون ، ثم أليس هـذا هو عين الحكمة ؟



— وفي سنة ١٦٨٨ ظهرت الطبعة الاولى من كتابه الشهير عن النماذج الاخلاقية بعنوان « النماذج الاخلاقية لتيوفراست ، مترجمة عن اليونانية ومضافا اليها نمـاذج أخلاق عصرنا وعاداته » وفي سنة ١٦٩٣ انتخب عضوا في المجمع اللغوى الفرنسي وبعـد ذلك بثلاث سنوات اى في سنة ١٦٩٦ توفي في فرساى بالسكتة .

وبالكتاب بالفعل ترجمة لتيوفراست وهى تشغل ثلثيه ولكنها ترجمة غير صحيحة لان النص الذى ترجم عنه لابروير لم يكن صـحيحا ، وأما مجد لابروير ففى الثلث الذى كتبه من نماذج الاخلاق والعادات في عصره وهو عبارة عن وصف وتحليل للمشاعر المختلفة والنفوس المتباينة والعادات المتفشية ، وفيه من دقة اللاحظة ونفاذ البصيرة وجمـال التصوير مايفوق به تيوفراست .

وتيوفراست فيلسوف وعالم يونانى ولد في جزيرة لزبوس سـنة ٣٧٢ ق . م ومات بأثينا سنة ٢٨٧ ق . م وكان اسمه في الاصل ترتاموس Tyrtamos ولكن ارسطو سماه تيوفراست ومعناه باليونانية « المتحدث الالهى » ، ولقد تتلمذ لافلاطون ثم لارسطو وخلف هذا الاخير في ادارة الليسية ، وقد عدد له مؤرخ الفلسفة ديوجين لايرس ٢٤٠ كتابا ، وقد كان يسعى في كتبه الى تكملة أبحاث أستاذه أرسطو ، فهو باحث أكثر منـه مفكرا اصيلا ، ولقد فقدت كل كتبه ولم يبق لنا منها الا اثنان أحـدهما (أبحـاث عن النباتات) والآخر (أسباب النباتات) وفيه يحاول معتمـدا على آراء أرسـطو تفسير أسباب وجود أنواع مختلفة من النباتات وأسباب تنوعها .

ثم ان معظم ماوصل الينا من كتب ارسطو كان على الراجح مذكرات تيوفراسـت هذا ، مذكراته التى أخذها عن أستاذه .

وأخيرا لدينا « النماذج الاخلاقية » التى ترجمها لابروير وفيها تحليل لنفسيات مختلفة من بين الرجال والنساء ، ووصف لمشاعر متباينة من حب وبغض ... الخ ، وقد ترجمت نماذجه عدة تراجم اخرى من أحسنها الترجمة المنشورة في مجموعة جمعية بديه Budè بباريس .

(٢) بلوتارك ، مؤرخ ومفكر اخلاقى أغريقى ، ولد حوالى سنة ٥٠ بعـد الميلاد ومات سنة ١٢٥ وقد تعلم في اثينا ثم قام برحلات في آسيا الصغرى ومصر ، واسـتقر زمنا في روما حيث أشرف على تربية الامبراطور أدريان واخيرا عاد الى أثينا وله عـدة كتب أشهرها كتابه الهام (أربعة أجزاء) من تاريخ حياة العظماء اليونان واللاتين .

- ١٤ -

روح الخلط

لو أن الفوضى الأخلاقية التى نحن مضطرون الى أن نعيش فيها لم تظهر كل يوم فى عدد من الحوادث المفجعة ، لكان من الشيق أن نبحث عن أعراضها فى بعض التغيرات والامراض الوبائية التى تظهر فى اللغة ·

وكل النـــاس متفقون على الاعتراف بأنه مادامت اللغة تعبر عن حركات الروح فانها تعكس حتما محنها وعاهاتها ومواضع نقصها ، وبعض تلك المحن بالنسبة الى شعب ما خالدة ، وهي انسانية بحتة،بينما البعض الآخر وقتى ، نسبى الى ملابسات تاريخية ، والرجل الذى يصغى بأذن منتبهة الى مناقشات مواطنيه لابد أن يسأل نفسه كل يوم عدة أسئلة يمكن أن نعثر لها على جواب بمساعدة المنطق مجتمعا الى تلك الملـــكة البدهية التى نسميها باللفظ الفرنسى الصحيح «العقل(١) · Jugeote.

والنحويون ينعون ــ منذ زمن ما ــ انحلال صـــيغة الاســتفهام واختفاءها ، وهم يفسرون تلك الظاهرة بتفسيرات علمية لاتوقفنى طويلا، واذا كانت صيغة الاستفهام قد اختفت فذلك على الراجح لان مرضا نفسيا قد سبب هذا الاختفاء · ولننظر أولا الى الوقائع ·

الاستفهام فى اللغة الفرنسية الصحيحة تركيب خاص تختتمه فى آخر الجملة غلامته ، والقارىء ليس بحاجة الى أن يعدو الى العلامة النهائيه لينغم الجملة بالنغم المناسب ·

ومن الواضح أن رجل العامة فى فرنسا يحتقر احتقارا صريحا هذا التركيب الضرورى الدال ، وأنا أسلم أن للكسل دخـــلا فى هذا العيب وذلك الاهمال · فلكى ننطق «ماذا تقول ؟(٢) » Que dîtes vous? لابد من نوع من الشجاعة الرياضية التى يحتفظ بها أغلب مواطنينا لمباريات البوكس أو السيارات أو الدراجات ، وأســـهل من هذا بكثير أن تقول

---

(١) Jugeote لفظ فرنسي عامى من ارجو Argot باريس اى من لهجتها العامية وهو مشتق من الفعل (Juger: يحكم) فمعناه « ملكة الحكم » ولكنه على الاصح يقابل في لغتنا العامية لفظة : العقل في قولنا « هذا الشيء يعرف بالعقـل ... الخ » وقـد ترجمناه بهذا اللفظ على هذا المعنى .

(٢) نفس الظاهرة موجودة في اللغة العربية حيث تقدم علامة الاستفهام « ماذا تقول » بينما نحن في العامية نستغنى عن التقديم بتنغيم الصوت فنقول « بتقول ايه » ولهذا ترجمنا الامثلة :

«بتقول ايه» ؟ Vous dîtes مع تلوين الصوت تلوينا استفهاميا خفيفـــا ولكني مع ذلك أعتقد أن الكسل لايلعب فى هذه المسألة الدور الاساسى ، بل ان الداء لاشك أخطر وأخفى ٠

والغالبية العظمى من الاشخاص الذين يستخدمون الصيغة التقريرية أو صيغة النفى بدلا من صيغة الاســـتفهام يظهروننا بذلك فيما أرى على رغبتهم فى أن يخفوا جهلهم ٠

فأنت تقدم مثلا نبيذا طيبا من بورجونيا الى شخص ليس من غواته بنوع خاص ، ولكنه مع ذلك يحرص على ألا يظهر بمظهر الغفل فيـــذوق السائل الثرى مع كل «التكشيرات» المعهودة ، ثم يجازف فى هيئة مترفعة ولكنها مفهومة بإحدى تلك الجمل :

انه من بورجيا ؟

انه من بوردو ؟

انه ليس من شاتونف ؟

وقد نظم التنغيم فى كل حالة بحيث يهيئ لكبرياء السائل ملجأ ، وهكذا يستمر الحديث وفقا لعدة طرق :

انه من بورجونيا ٠

نعم ــ انه من بورجونيا ٠

وهذا بالضبط ما أحسست به ٠

أو ٠

انه من بوردو ٠

لا ٠ انه من بورجونيا ٠

طبعا ــ لقد توقعت ذلك ٠

أو ٠

انه ليس من شاتوف البابا ٠

أو ٠ لا ٠ انه من بورجونيا ٠

بكل تأكيد ، انه من بورجونيا ٠

وأما الرجل الذى لايدعى أنه عالمى الاختصاص فيقول فى تواضع ٠

ما هذا النبيذ ؟

ولقد يضيف فى بعض الاحوال :

هل هو من بورجونيا ؟

أو ٠

أليس هو من بورجونيا ؟

ولكنه من المفهوم بجلاء أن استعمال صيغة الاستفهام الصريحة أو المخففة معناه ان المتكلم يعترف بجهله ورغبته فى المعرفة ، ورجل القرن العشرين لايكاد يعترف بجهله · وهو من جهة أخرى يعرف أشياء أكثر مما يلزم ليظهر أقل رغبة فى المعرفة · فهو بفضل الصحافة والتبسيط العلمى والادبى ، وبفضل الأفلام الثقافية ومحاضرات الراديو يعرف كل شيء ، ويفصل فى كل شيء ، فما حاجته اذن لهذه الصيغة الاستفهامية التى تنم عن التفيقة فى زعمه ؛ والتى ليس من السهل النطق بها ، كما يمكن اعتبارها أثرا من آثار عصور الظلام عندما كان جهل الناس بكل شيء يضطرهم الى السؤال ـ فى غير خفر ـ عن كل شيء · وليس هناك محل للشك فى أننا على مقربة من ذلك الزمن الذى سنرى فيه رجل القرن العشرين وقد سمع سؤالا فى صيغة الاستفهام الصحيحة يقول مشفقا فى صوت خافت : « هذا خطأ ؟ طبعا لقد توقعت ذلك » ·

وتلك الروح · روح الغرور والفوضى والخلط تظهر أيضا فى استعمال الكثير من التراكيب والالفاظ ، وعدد من الكتاب يسرفون فى استعمال بعض العبارات التى وان لم تكن بلا ريب خاطئة ، الا أنها تدل على نوع من فقد الاستعداد للتحديد الدقيق · فليس من الخطأ أن نكتب «نوعا من» Une espéce de ، ولكنه من القبح أن نكثر منها ، ورجل الشارع لايسرف فى استعمال هذه العبارات فحسب ، ولكنه يخطىء أيضا فى استعمالها يقول «نوعا من الأبله» Une espèce d'imbecile (١) والخطأ فى اللغة من الصغائر المضحكات ، والاخطر من ذلك بكثير ـ فيما يلوح لى ـ هو ذلك الداء العميق الذى يدفع الى الاسراف فى استعمال عبارة خاطئة كهذه ، ولغة محككة شهيرة سخية سخاء حقيقيا كاللغة الفرنسية تملك ـ فيما عدا استثناءات نادرة ـ لفظا دقيقا للعبارة عن كل شيء يحدد تحديدا دقيقا ، وفى معظم الحالات التى يقول فيها المتكلم «نوعا من ···» يكون فى ذلك اعتراف منه بالاهمال أو العجلة أو العجز عن العثور على الكلمة الدقيقة أو الخوف منها والرغبة فى تخفيفها أو تحقيرها ، فهو ليس نوعا من الجبن وانما هو جبن ·

ورجل القرن العشرين يرهف من هذا العيب حتى لنراه فى سبيل فقدان معانى الالفاظ · وهو لا يكتفى بأن يضعف تلك الالفاظ بل يتركها راضيا تهوى الى النسيان · وهكذا تصبح كل الاشياء الموجودة فى العالم «بتاعه» machine «شغله» truc «حاجه» chose. · وحتى الاشخاص قد اتخذوا ، فكل الرجال يسمون « «بتاع» machin وكل النساء «بتاعه»

---

(١) هذا الاصطلاح العامى في اللغة الفرنسية يقابله في لغتنا العامية ـ حتة بتاع او حتة مغفل كده الخ .

machine • وفي هذا مايلوح لى استعجالا مشئوما لخطى الزمن(١) ، ولا شك أن فرنسى القرن العشرين ينسىأن عمل الذكاء الأساسى وواجبه هو: أولا أن يحدد الأشياء ، وثانيا أن يسميها بأسماء مميزة •

ونحن عندما نريد أن نحكم على انسان وأن نتسقط أخلاقه ونتبين بواعثه الخفية لايكون لما يقوله من الأهمية قدر ما للطريقة التى يعبر بها •

أنصت يوما الى رجال أعمال يتحدثون ، وكان لدى مايحملنى على الاعتقاد بأنهم يحاولون أن يخدع بعضهم البعض ، وقد ظل مايقولونه بغير دلالة تكشف عن نفوسهم ، وانما كانت الدلالة فى طرق تعبيرهم •

وهناك عدة طرق لترتيب الكلمات :
أول مائة ألف فرنك كسبتها •
المائة الاولى من آلاف الفرنكات التى كسبتها •
المائة ألف فرنك التى كسبتها •

ولا شك أن خزينة الدولة توفق توفيقا كبيرا لو أنها استخدمت فى أبحاثها نحويين لهم بعض الدراية بعلم النفس ، وبلا ريب لو استخدمت أيضا أطباء •

- ١٥ -

أخطاء الشهرة

كل الجزارين مرضى بالنقرس لانهم يسرفون فى أكل اللحم ، على الأقل ذلك الذى لايشتريه زبائنهم • ويذهب الكتاب الذين هم فىالغالب صناع الشهرة ينفخون فى بوقها ، بنصيب وافر من تلك الوليمة النابحة وانه لمصدر للعجب أن نقارن مجد عالم شيخ — حتى عندما يكون مغطى

---

(١) اللفظ المستعمل كاسم جنس في اللغة الفرنسية العامية للدلالة على الرجال هو «machin» وقد ترجمناه بـ « بتاع » وللدلالة على النساء هو machine الذى ترجمناه « بتامه » وديهامل في قوله « وفي هذا ما يلوح لى استعجالا مشئوما لخطى الزمن » انما يشير الى ما توحى به الكلمات machine ، machin من معنى « الآلات » وهو معناها الحرفي في اللغة الفصيحة ، فهو يرمى بذلك الى الوقت الذى سيصبح فيه الناس كالآلات . وفي كلمتى « بتاع » و « بتامه » ما يوحى بما يقرب من هذا المعنى اذا ذكرنا انهما تحريف لكلمتى « متاع » والمتاع لا يكون الا شيئا من الأشياء ، ومعنى « الشىء قريب من معنى الآلة » ولهذا اخترنا تلك الترجمة .

بأمارات الشرف ومزينا بالأشرطة — بمجـــد روائي شاب نشر كتيبين جديدين يمثلان عمل ستة أشهر ، وحظى بغار احدى لجان التحكيم الادبية وانه ليغضبني أحيانا أن أرى معاصرينا يجهلون — في استخفاف المنكر للجميل — حتى اسماء شارل ريشيه Charles Richet (١) وشارل نيكول Charles Nicolle، وداستر Dastre ، ورينيه لريش René Leriche (٢) وليس في معرفتهم بأســـماء أرفـــير Aruers (٣) وهيجيزيب مورو Hégisippe Moroau (٤) معرفة لابأس بها مايعزيني الا بعض العزاء .

---

(١) شارل ريشيه وشارل نيكول وداستر اطباء وعلماء تحدثنا عنهم في هوامش اخرى .

(٢) رينيه لريش . René Leriche — عالم وطبيب فرنسي معاصر .

(٣) أرفير . اليكس فليكس ارفير Alexis Felix Arvers شـــاعر ومؤلف مسرحي ، ولد ومات بباريس (١٨٠٦ — ١٨٥٠) وقد ابتدأ حياته الأدبية بمجمـوعة قصائد نشرها بعنوان « ساعاتي الضـائعة » وفيها « سونته » كانت سبب شـهرته . وها هي ترجمتها :

« لروحي سرها ، لحياتي لغزها ، حب خالد أدركته في لحظة ، الداء بغير أمل ، لذا آلزمته الصمت ، وتلك التي سببته لم تدر قط عنه شيئا .

واحسرتاه : امر قريبا منها فلا تراني ؟ الى جوارها دائما ومع ذلك وحيد . هكذا انفق أيامي على الارض حتى النهاية دون أن أجرؤ فأطلب شيئا او اعطى شيئا .

من اجلها — تلك التي خلقها الاله رقيقة وديعة ، ستسير في طريقها ذاهلة لاتسمع حفيف حبي يرتفع تحت أقدامها .

وفية في قداسة لواجبها العفيف — ستقول عندما تقرأ هذه الابيات العامرة بها . « من اذن هذه المرأة »ولن تفهم .. »

والمظنون أن الشاعر كان يقصد مدام مينسييه Mme. Menesier بنت شارل نوديه .

ولا شك أن في بساطة هذه القصيدة وجمالها ما يبرر غبطة ديهامل بأن يرى ان هذا الشاعر الرقيق لم يبتلعه الزمن .

ولارفير مسرحيات وضعها بالاشتراك مع آخرين ولكنها لم تضف شيئا الى مجده ، وهو غير معروف الا بقصيدته الصغيرة السابقة .

(٤) هيجيزيب مورو Hégesippe Moreau روائي وشاعر فرنسي ، ولد ومات بباريس (١٨١٠ — ١٨٣٨) ، ولد يتيما ونشأ في منزل من منازل الاحسان ، ثم اشتغل كمصحح في احدى مطابع برفانس Provins ، وهناك تعرف بتلك التي يسميها في شعره ورواياته « باخته » ، ثم ذهب الى باريس حيث عمل كصفاف عند الناشر ديدو Didot ولقد اقتتل في ثورة يوليو سنة ١٨٣٠ فوق الحواجز ، ثم عمل كمشرف في مدرسة ولكن البؤس اخذ يطارده ، فهام على وجهه بغير مال وبغير مأوى ، ولقد كتب عندئذ قصيدته الشهيرة « قصـيدة الجوع » Ode à la faim ثم اصدر صحيفة هجائية بعنوان ديوجين Diogène سببت له عـداوات كثيرة عنيفـة ، وأخيرا توفي بالمستشفى ١٨٣٨ وهو في الثامنة والعشرين من عمره .

لقد ترك مورو مؤلفات صغيرة ولكنها ساحرة بخفتها وسـذاجتها ، منها خمس —

واذا كان فى عدم المساواة على هذا النحو ما يجرح النفوس الخيرة، فانى أود أن أقيم النظام ـ وربما العدل أيضا ـ بأن أبوح ببعض الاعترافات. ان شهرة الكتاب مشرقة متوثبة ، ولكن ذلك لا يفيد أنها أكيدة أمينة . لقد نشرت على الاقل خمسين مجلدا وأنا كل يوم فى فرنسا وخارج فرنسا ألقى أشخاصا حسنى النية ، يقول لى أحدهم : « يا سيدى لقد قرأت كل كتبك». وأجيبه على الفور : « معنى هذا أنك قرأت منها أربعة ، بل قد يكون اثنين، وهذا فيما أرى قدر طيب » ، وهكذا يبدأ الحديث .

الذاكرة ملكة يغبط عليها ، والمربون المحدثون مخطئون خطأ كبيرا فى اهمالها ، على الاقل عند تلاميذهم . وعندما يأخذ القراء فى الكلام عن كتبى أجدهم ـ كما أعلم وأرى ـ مأخوذين بحماسة الادب ، ولكنهم لا يستخدمون دائما ذاكرة لا تلام ، ولكم من مرة سمعت من يقول لى : « لقـــد تذوقت بوجه خاص روايتك الجميلة « المتحضرون » «Les Civilisés» وأنا أمسك دائما عن مقاطعة مثل هذا الحديث . نعم اننى قد نشرت قديما كتابا باسم « الحضـــــارة »، وأما « المتحضرون » فقد بنوا بحق مجـــــد كلود فرير Claude Farrère (١) والخطأ بعد جائز ، فالمسألة مسألة مقـــاطع (٢)، والمجاملة التى توجه تتناول فى أغلب الاحيان « الصلبان الخشبية » (٣)ـ

= قصص صغيرة نثرية . وقد نشرت هذه الاقاصيص مع شعره في مجلد واحـد بعنوان الزهرة الجميلة المسماة « لا تنسنى » Myosotis ، ومن بين اشعاره السياسى والهجائى ، كما أن بها بعض أغانى مستهترة ، ولكن الاستهتار لم يكن في طبع هـذا الشاعر العظيم ، ولهذا لم ينجح في ذلك النوع وانما نجح في الاشعار البسيطة التى تبعث في النفس ما يشبه نسيم الريف كما تثير فيها عبيرا من الحزن يكاد يشمل. ولو لم يكن لمورو غير قصيدتيه « لوازى » La Voulzie ، و « الريفية » La Fermière لضمن الخلود .

انه بلا ريب احساس مرهف ذلك الذى دفع ديهامل الى اعلان سروره بخلود اسم هذا الشاعر الرقيق الجميل .

(١) كلود فرير Claude Farrère . بحار أديب فرنسي ، ولد في ليون سنة ١٨٧٦ ، عمل في البحرية الفرنسية الى سنة ١٩٠٩ حيث أحيل على المعاش ، وله عدة روايات تمتاز بقوة مواقفها الدراماتيكية وبوصف البلاد النائية ، ثم بأسلوبها البسيط الجاف ، ومن أشهرها رواية «المتحضرون» التى يشير اليها ديهامل ، ثم رواية «المعركة» ولعل هذه الأخيرة أحسن ما كتب ، وقد مثلت بالسينما أخيرا بمعاركها البحرية ومناظرها التى تمر باليابان ، ثم شخصياتها وبعضها أمريكى وبعضها يابانى .

(٢) يقصد ديهامل الى أن الفرق بين عنوان روايته « الحضارة » ورواية فرير « المتحضرون » هو فرق بسيط لا يعدو عدة مقاطع : هو الفرق بين الكلمتين الفرنسيتين Civilisation Covilisés فالخطأ واللبس جائزان .

(٣) الصلبان الخشبية Croix de bois رواية شهيرة جدا عن الحرب الماضية وصاحبها هو دورجليس كما يأتى ، والصلبان الخشبية هى التى توضع على مقابر الجند الذين يدفنون في ساحات القتال .

وفى الخطأ دائما مصدر للحقيقة ، فالصلبان الخشبية قد نشرت بين الشعب باسم « رولان دورجليس » Rolanddorglès • ولقد نشرت أنا سنة ١٩١٧ كتابا عن الحرب بعنوان « حياة الشهداء » «Vie des Martyrs» فعند ما أهنأ من أجل « الصلبان الخشبية » أترجم ذلك الى « حياة الشهداء » ، وبذا ـ ولله الحمد ـ يعود النظام الى مكانه •

وأحيانا تكون المسألة أشق • كنت أتناول العشاء ذات مســـاء فى الخارج عند أحد رجال السلك السياسى الذى لن أذكر طبعا اسمه ، واذا بربة البيت تصرح الى فجأة فى صوت رقيق : « يا سيدى لقد قرأت كل كتبك » ، والذى أفضله من بينها هو « حفلة رقص الكونت دورجوليس » Bal du Comte Dorgelès وبعد لحظة تردد أقمت التسلسل على وجه لا بأس به (حياة الشهداء ـ الصلبان الخشبية ـ حفلة رقص الكونت دورجوليس) حسن ، وأحيانا لا يتندر الخطأ فى الالفاظ بل يغامر فيسلك السبيل الى الموضوع • فى شهر يناير الماضى كان جارى على المائدة ، فى وليمة شـــبه رسمية ، رجلا سياسيا شهيرا من بلد أجنبى ، رأى من واجبه أن يقول لى: « يا سيدى • لقد قرأت كل كتبك • وأنا أحبها كلها طبعا ••• (تحيــة بهزة رأس خفيفة) • ولكن الذى أفضله من بينها هو « وكيـــل قضايا الهافر Le Notaire du Havre` معقول • لقد قضيت عدة سنوات أثناء الحرب فى الهافر » ، وأضاف جارى فى تنهد جملة أخرى تشبه « أتقدر••• ••• » أوه ! لقد قدرت كل التقدير ، وابتسمت فى مرح • الكتــاب المسمى « وكيل قضايا الهافر » لا دخل فيه للهافر •

بينما كنا نتحدث عن تلك الاخطاء فيما بيننا ، نحن الكتاب والاصدقاء، ذات مساء من العام الماضى فى منزل أحد الاخوان أثناء سياحة ، اذ جاءنى من يخبرنى أن شخصية سياسية كبيرة تريد أن أقدم اليها • وقد أجبت تلك الدعوة ، واذا برجل الدولة الذى وجدته فى منتهى اللطف يقول بعد هنيهة : « يا سيدى • لقد قرأت كل كتبك •• (انحنـــاءة رأس خفيفة) والكتاب الذى أفضله هو المعنــــون « صلبان النار » (١) Les Croix du Feu (ترجم • حياة الشهداء • الصلبان الخشبية ـ صلبان النار)

وأنا اذ أذكر تلك الاشياء ، أرجو مخلصا ألا يرى فيهـــا أى ظل للسخرية ـ انه من الشاق أن نكون لطفاء ، فالخطأ فى كل مكان • الخطأ يهددنا ويفاجئنا من كل ناحية • ولقد يحدث أن يخطأ الخطأ وعندئذ تظهر الحقيقة ، وان يكن هذا استثناء نادرا ولكنا نعيش على المقاربات •

---

(١) « صلبان النـــار » اسم لحـــزب ســياسى وطنى قومى متطرف الفــه أخيرا لاروك Larocque لمناهضـــة « الجبهة الشــــعبية » التى الفها الاشـــتراكيون والشيوعيون وجانب كبير من الراديكاليين سنة ١٩٣٥ وما بعدها .

لقد حضرت مصادفة أثناء الحرب استجواب فرقة من المجندين ،وهي لم تكن على التحقيق من زهرة الشـــبان ، بل كانت مكونة من كل قادم ، أخلاط من الناس جمعوا من هنا وهناك في مشقة طبعا ، ورأى الضابط أنه من الخير أن يؤدوا شيئا يشبه الامتحان فسألهم جميعا : « من كان يحكم فرنسا عند ما أعلنت حرب سنة ١٨٧٠ » ، فظل المســاكين فاغري الافواه حتى أصبح من الممكن أن يظن أن السؤال سيظل بغير جواب ، واذا بأكبر الاخوان سنا يقول في سرعة كبيرة وقد احمر وجهه : « بادنجيـــه » (١) Badinguet ، وبذا أنقذ التاريخ بعد أن ساورنا الخوف من أجله٠وهكذا نرى أن للشهرة ـ مجيدة كانت أو ساخرة ـ حدودا نلقاها بكل سبيل ٠

وانه ليسرني دائما أن أحيي أخطاء الخطأ ، فمنذ بضع سنين قبل أن ألقي محاضرة قدمني الى الجمهور أحد وزرائنا ، ويجب أن أقول انه أدى المهمة باخلاص ٠ وعندما انفضت الجموع ، قدمت لمقدمي شكرا خالصــا قائلا : « يا سيدي الوزير ـ ولم أفكر عندئذ في غير الوقائع ـ لقد كانت في العبارات الرقيقة التي تفضلت بالقائها أخطاء قليلة جدا » ٠

وكنت أحسب أن في قولي هذا مدحا رائعــا ، ومع ذلك فهمت أن عبارتي لم تقدر كما حسبت ، اننا لا نستطيع أن نرضي أحدا ٠

- ١٦ -

هـــواة الظـــلال

لقد رأيت جورج برنديس (٢) مرتين بين الاولى والثانية اثنا عشر عاما ، وفي المرتين تركت المقابلة في نفسي ذكريات حية قوية مثيرة، ولست أستطيع أن أفكر في هذا دون أن أحس بضيق يكاد يكون بغضـــا ، وأن انتهى الامر كله بابتسامة ٠ آه لقد مات الشيخ ، وحان الحين لان ننظرالى صورته ، ونشجبها بالحائط في غير ولع ، ولكن أيضا في غير حقد ٠

وأنا أرجع أولى المقــابلتين الى شتاء ١٩١٢ ـ ١٩١٣ ، ولربما كان ذلك في سنة ١٩١٣ ، وباستطاعتي أن أبحث عن الخطابات وأؤرخ الحادثة تأريخا دقيقا لافائدة فيـه ، وكل مايجب أن نذكر لنلقي ضياء على الاوجه

---

(١) اسم مستعار كان يطلق على نابليون الثالث استهزاء ٠

(٢) عن برنديس ، انظر الهامش في الجزء الرابع ٠

والنفوس هو أن ذلك كان قبل الحرب ، وكنت اذ ذاك في الثامنة والعشرين من عمري ، وكان أندريه أنتوان قد مثل في الاديون مسرحيتي الثانية « في ظلال التماثيل » «Dans l'ombre des statues» وهي تعرض ابنا لرجل عبقري تلقى به عظمة أبيه الى استرقاق لا يحتمل ، وأثر موضوع هذا الكتاب في برنديس شارح ومؤرخ جيته ، برنديس الذى طالما حلم — فيما أعتقد — بمصير الطفل الذى كان لجيته من كرستين (١) ٠

في تلك الاثناء جاء برنديس الى باريس ، وأبدى رغبته في أن يراني ، وبالفعل الى تناول الغذاء بواسطة مضيفة أندريه روفير André Rouveyre الرسام اللاذع الذى كانت لي به علاقات ودية ما زلت أغتبط بقيامها حتى اليوم ، ولم تعدم تلك المقابلة أن تهزني مقدما ٠ كان برنديس في نظري من أكثر النفوس تفتحا في أوربا — نفس بلا شك خالقة ولكنها ناقدة في قوة ، باحثة الى حد الاعجاز ٠ رجل خالط أبسن وتولستوى ، وجاب في توثب عالم النفس ، جابه بذلك الذكاء اليهودى النهم الذى يلقف كل شيء في ثناياه البعيدة الغور ٠

بينما كنت أسير نحو شارع سوفلو (١) Soufflot تذكرت اعترافات الرجل الطيب فرهيرن (٢) وذهوله عندما استقبله يوما أمتع ما كان في ألمانيا اذ ذاك من مفكرين ، وكان من سذاجته أن أدلى بملاحظة ودية — رغم كل شيء — عما كان يسميه « مسألة اليهود » ، واذا ببرنديس يستجوبه في تلك الالفاظ المفاجئة « وهل لم تلاحظ بعد — أيها الفيرهيرن — أنك هنا الوحيد الذى ليس يهوديا » ٠

واذا فقد مازج الانفعال والقلق ما كان بنفسي كشاب في ذلك اليوم من حب الاستطلاع ٠ وكان برنديس قد ناهز فيما أظن السبعين ، فتوقعت

---

(١) معروف في حياة جيته أنه بعد عودته من رحلته في ايطاليا (١٧٧٦ — ١٧٨٧) قطع علاقته بمدام دى شتين Mme de Stein وانه تعرف منذئذ بعاملة بسيطة هي كرستين فولبيوس Christiane Vulpius وقد انتهى الأمر بزواجه بها ، ومنها رزق ابنه أوجست الذي ولد سنة ١٧٨٦ ومات سنة ١٨٣٠ أي قبل وفاة أبيه بعامين ٠

ولقد كتب برنديس عن تاريخ حياة جيته وعرض لعلاقته بكرستين ولولده منها ، فكان من الطبيعي أن يجد في رواية ديهامل التمثيلية « في ظلال التماثيل » وجه شبه بين أوجست ابن جيته وبطل رواية ديهامل ، وكلاهما قد نشأ في ظلال تمثال ضخم أي في ظلال أب طبقت شهرته الآفاق حتى لم تترك مجالا لأن يعيش أحد الى جوارها عيشة نابهة ٠

(٢) شارع سوفلو أحد شوارع الحي اللاتيني بباريس — وواضح من النص أن روفيير مضيف برنديس كان يسكن هذا الشارع فسير ديهامل اليه معناه سيره الى بيته الداعي ٠

(٣) عن فرهيرن راجع هامش ص ٧٢ ٠

ان ألقى شيخا ، وكان روفيير قد ثبت فى نفسى هذا الظن ، اذ أخبرنى أن برنديس يتعب بسرعة ، وأنه يفضل لذلك الغداء على العشاء .

وبالرغم من أننى لم أكن بعد قادرا على تمييز دقائق السن ، فان برنديس أدهشنى عندما رأيته . لم يكن طويل القامة ، ولكنه كان معتدلها وكان نشيطا فى كل حركاته ، وكان شعره ولحيته وما اليها لم يكد يخطها الشيب ، وأما عيناه فكانتا دائبتى الحركة . أجلسنى ، ثم أخذ يلقى على ألف سؤال . وسأعود الى هذ الاسئلة ، ولكن ثمة احدى التفاصيل الصغيرة . لقد كان حاضرا معنا : أعنى مضيفنا ، وبرنديس وأنا ــ فى تلك الوجبة الصغيرة المحدودة ــ بول فور Paul Fort (١) أيضا .

والرجال المشهورون لا يمكن الا يكونوا الى حد ما ثرثارين ، وكيف لا يثرثرون مع كل أولئك الاشخاص الذين يمدون آذانهم كالوطاب . شبع من يطبق منقاره . وفى الحق أن ثرثرة برنديس حيرت لبى حيرة تامة . فهى لم تكن ذلك الحديث الجليل Monologue الذى ينفرد به دون الحضور بعض الاساتذة ، ولا تلك الاسهم النارية اللبقة التى يرسلها المختصون بالنكات ، ولا تلك الغمزات والدعابات والمراوغات والردود التى يتقنها محترفو اللباقة ، وانما كانت أقاويل تدب كالنمل ، ولايشبع لها نهم . كانت كمهاترة البوابات من النساء اللائى يعملن عند الطبقة الراقية . تراهن يلكن بألسنتهن كل ما دق وأحرج « هل رأيت مدام دى س ، أنها جميلة فيما يقولون . هل تنام مع المسيو س ... أما تعلم هذا ؟ حقا ؟ هل تتردد على مدام ر ...؟ لقد حدثت أنها لا تكره صغار الشبان ، ولكن زوجها يسرقهم منها . انى لا آكاد أصدق ذلك ! أتصدقه أنت ؟ » وظننت أول الامر أنه بعد هذا الامتحان ــ وذلك أننى أحسست احساسا منفرا بانى أجتاز امتحانا ، وأننى غير موفق فى اجتيازه ــ ظننت أن الشيخ سيهم فجأة بحركة يطرد بها هذه الاشباح التافهة ، وانه

---

(١) بول فور Paul Fort شاعر فرنسي ولد في فرانس سنة ١٨٧٢، واشترك منذ حداثته مع الشعراء الرمزيين في مذهبهم ، وقد أسس مسرح التياتر دى زار Théâtre des Arts (مسرح الفنون) بباريس (١٨٩٠ ــ ١٨٩٣) حيث مثل عدة مسرحيات اصيلة واشترك في تحرير عدة مجلات الى أن تولى ادارة مجلة الشعر والنثر Vers et Prose من ١٩٠٥ الى ١٩١٤ وهى مجلة هامة في تاريخ الرمزية بفرنسا وفي سنة ١٩١٢ انتخب أميرا للشعراء Prince des poètes خلفا لليون ديركس Léon Dierx وقد جمعت أشعاره فيما ينيف على ثلاثين مجلدا ، ولقد كتب بول فور أشعاره على شكل النثر رغم ما فيها من ايقاع ومجانسة بل وتقفية أحيانا ، وهو في شعره ينهج منهج الاغانى الشعبية في أوزانها ، ولقد عبر عن مذهبه في الشعر بقوله : « لقد التمست أسلوبا يستطيع أن يمر من النثر الى الشعر وفقا لما تقتضيه العاطفة ، والنثر الموقع هو حلقة الاتصال » ، وأما معدن شعره فأحيانا عاطفى وأحيانا ساخر ، وهو دائما لبق متوثب وكثيرا ما يكون ساحرا نضرا .

سيستسلم لذكرياته • الى شياطينه العظيمة ، الى أفكاره الكثيرة فيخطط فلسفة الفن أو صورة لروسيا المفكرة أو تاريخا للقرن التاسع عشر • ولكن أبدا أبدا ، لقد كانت كل هذه أحلام طفل • فشيخنا المجيد لم يحرك حصى ، بل ترابا ، واستمر بعين حادة ، وصوت ملح ينقب عن الفضائح ، « يقولون ان س الشاب يتناول المخدرات ••• هل ترددت على ح التردد الكافى لتستطيع أن تكون رأيا ثابتا عن ميوله • لا • طبعا » •

واستمر الحديث ثلاث ساعات تركنى بعدها كسيحا ، وبعد ذلك بعدة أيام أرسل الى برنديس عند مغادرته لفرنسا ورقة غامضة ، اذ كان قد أحس بما أصابنى من ضيق فحاول فى خبث أن يلقى تبعة اتجاه الحديث على بول فور، ولكنى أسارع فأقول ان هذا — من وجهة نظر المؤرخ — لايمكن أن يقبل أو يبرر •

وأتت الحرب فلم أجد مشقة فى أن أترك صورة برنديس تهوى الى النسيان ، وان كنت قد أخذت فى حمل نفسى اذ ذاك على الاعتقاد بأنها صورة غير ناجحة أخذت صدفة واتفاقا • ولم تؤثر فى نفسى بخير ولا شر منازعات برنديس مع كليمنصو ، فبرنديس لا يدين بمجده لفرنسا ، ومن ثم كان من سوء التقدير أن نلومه على اعترافه بالجميل لالمانيا • أتت الحرب اذن ثم مرت • وفى سنة ١٩٢٥ بينما كنت فى كوبنهاجن علمت أن برنديس يريد أن يرانى ، وأن أحد أصدقائه يوجه الى دعوة لهذا الغرض • وكانت الدعوة للعشاء ، وكنت قد نسيت تقريبا المقابلة الاولى ، وكان برنديس قد وصل على الارجح الى سن جيته وهيجو ، وسرت الى هذه المقابلة الجديدة بادراك أنضج ، وان كان حب استطلاعى وتفتح نفسى لم يتغيرا • لقد هزت العالم أحداث كبيرة ، وفى هذا موضوع جميل لحديث شاهد شيخ رأى الجماعات والقرون •

لن أنسى قط هيئة برنديس عندما دخل فى ذلك المساء ، دخل متقلصا ، أحمر الجلد ، أبيض الشعر ، ودمعة برد تقطر من جفنه ، وكان لا يزال جميل المنظر ، قال وهو يتجسس بعينه واصبعه : « أين اذن ديهامل » ، فتقدمت وأجلسنى الى جواره على كنبة • لقد كنت منفعلا ولست أدرى أى أقوال جليلة كنت أنتظر •

وفى الحال عاودت الصوت العجوز حرارته ليأخذ فى تلك الثرثرة التى لا تنقضى : هل تعرف مدام ز••لا•يا للخسارة ! انها سيدة مدهشة ، كنا نلقى عندها الكونت دى م ••• لم تره قط ؟ هل هذا ممكن ؟• لقد كنت أعرف هذا « النطع » الشهير الذى عناه المعرفة الكافية ، الاكثر من الكافية ، ولكنى أجبت كاظما شفتى : « لا • لست أعرفه » ، وكان الشيخ قد استأنف : « هل تتردد عند ج ••• ربة المنزل سيدة مدهشة جدا •••

ولم لا تذهب عندهم ؟ هناك تستطيع أن تسمع خير الاحاديث التى يمكن أن تعثر بها فى باريس ، اللهم الا أن نستثنى صالون مدام دى س ٠ طبعا أنت تذهب اليه ٠ لا ! هلا تعرف مدام دى س ٠٠٠ »

نفضت راسى فى غيظ . ولو أن برنديس سألنى عند هذه المرحلة من الحديث هل أعرف أمى لاجبته على نفس النحو نافضا رأسي وقائلا : « لا » ٠

واستمر رجلنا ساعتين أو ثلاثا فى هذا الهرف الممتع الذى كان بروست (١) يستطيع فيما أظن يتخذ منه مقصفا ٠ وأخيرا قال فى صوت كالشبح وهو يجفف جفنه : « اذن أنت لا تعرف أحدا » ٠

وكنت قد تجمعت وتأهبت لان أعض ولكننى أحترم الشيوخ ، حتى ولو كانوا جليلى التفاهة ، نفضت رأسى وأجبت (لا أحد ، لا ، لا شىء) ٠

وبعد ذلك بعدة أشهر انطفأ برنديس وأنا أفكر فيه أحيانا وفى المساء ، بعد يوم عزلة ٠ صائد الظلال ٠ آه ٠ جامع الضباب !

---

(١) مرسيل بروست Marcel Proust اديب فرنسي ، ولد ومات بباريس (١٨٧١ – ١٩٢٢) ، ولقد انفق صدر حياته في الصالونات والمرح في الأوساط الراقية، وذلك رغم ضعف صحته ، ثم اشتد به الداء فلزم غرفته ، واذا بالربو يزداد به يوما عن يوم قسوة ، فأخذ نفسه عندئذ بأن يكتب ليعوض ما اضاع من سنى حياته وتوفر في الخمس عشرة سنة الأخيرة من عمره على كتابة مؤلفه الضخم المسمى « البحث عن الوقت المفقود » فنشر منه عدة مجلدات ونشر الباقى بعد موته ، وكتابه في شكل رواية، ولكنه في الحقيقة بعث لذكرياته الخاصة وقصص لها وتحليل دقيق طويل لحالاته النفسية المختلفة . وجماع فلسفته هو أن ما فقد من وقت قد عوضه اذ جمع ملاحظاته في أثناء السنين الضائعة واتخذ منها مادة لعمل فنى وتأمل نفسي ، وكتب برست مليئة بالاستطرادات والتحليلات المسرفة والتفاصيل التى لا نهاية لها ، ولكنه الى جانب ذلك قد نفذ أحيانا كثيرة الى خفايا النفس الانسانية ، كما كتب صفحات عديدة تنتفض شعرا واحساسا . ولا شك ان ديهامل لايحب بروست كما تدل اشارته ، وانه يبغض فيه التفاصيل التافهة أو التى يعتقدها تافهة ، ولكنه من الظلم البين فيما أظن أن يقيس ديهامل تفاصيل بروست الدالة بمهاترة برنديس معه تلك المهاترة المخرية التى ما نظن أن بروست كان يتخذ منها مقصفا اى مادة لرواياته كما يزعم ديهامل .

الأسماء

منذ بضع سنين خطر لأحد زملائي أن يسمى أحد أشخاص رواية له « ديهامل » ، ولقد دهشت في أول الامر ، فزميلنا لم يكن يستطيع أن يزعم أنه يجهل وجودي ، وقد كان يعد اذ ذاك — أو كان قد نشر بالفعل — كتابا صغيرا في النقد عن كتبي وعني وكانت بيننا علاقات طيبة ودية ، دهشت اذن ولا شيء أكثر من ذلك ، وعند التفكير امحت دهشتي ، ومع هذا لكي لا أترك لتلك الدهشة أية حجة للعودة ، فيما لو جعل رفيقنا الشاب «ديهامل» شخصية منفرة مثلا — امتنعت عن أن أقرأ من الكتاب غير الصفحات الاولى. وهكذا بعيدا عن كل انفعال احتفظت بالمزاج الخفيف الذى نرجو أن يظهر في خصومات الاسماء •

اسمى اسم فرنسى قديم ظل محتفظا بصيغته دون تغيير منذ القرون الوسطى وهو من أسماء شمالى فرنسا ، وهم يسمون في الجهات الاخرى ديبور Dubourg ، ديما Dumas ديمازير Desmasures ، ديميزون Desmaisons وما يشبه (١) ذلك ولو أنك ناديت ألف فرنسى لتقدم منهم على الاقل واحد ديهامل ، ونحن — فيما أظن — أربعة أو خمسة بدائرة معارف لاروس ، ولربما كنا مائة أو أكثر في دفتر باريس Bottin de Paris (٢) ، وان كنت لم أبحث فيه ومن اسمهم اسمى كثيرون ، وكلهم فيما أعلم لطفاء وأحيانا بالغو الظرف ، وأحدهم يستلم — خطأ — جانبا كبيرا من مراسلاتي ويحيلها الى منذ سنين في صبر يستحق الثناء بحيث لا أدرى بأى لسان أشكره ، وهو أحيانا يرد الى ثانية خطاباتي اليه ، ولكنه مع ذلك مشكور •

وهذا الاسم البسيط الدال يمكن أن يسارع الى خاطر روائي أو مؤلف مسرحى ولا يكون في ذلك الا أمر طبيعى جدا ، ولقد ورد أثناء حديث

---

(١) لتلك الاسماء معان لغوية ، فديهامل معناه صاحب العزبة لانه مكون من Du & hamel كلمة hamel صيغة قديمة للفظة الحديثة Hameau ، وهى كلمة جرمانية كانت تطلق قديما على مجموعة من المنازل لا تكون قرية بعمدة فهى أشبه « العزبة » عندنا أو « الضيعة » و « ديبور » كذلك معناه « صاحب القصر المحصن » و « ديما » معناه « صاحب الضيعة » أيضا وذلك في جنوب فرنسا ، و « ديمازير » معناه « صاحب الاكواخ » و « ديميزون » معناه « صاحب المنازل » .

(٢) دفتر باريس Bottin de Paris هو عبارة عن كتاب بأسماء وعناوين وتليفونات الطبقة الراقية ويسمونها بالفرنسية Bottin mondain.

فى الغربان (١) لبك Becque ذكر رجل من رجال الاعمال مشكوك فى سلوكه .كان يسمى « ديهامل » ، وأقول « كان يسمى » لانه منذ أن مثلت تلك المسرحية بدار موليير عرضت للممثلين تلك الفكرة اللطيفة ، وذلك من تلقاء أنفسهم تماما ، فكرة أن يجنبونى ... هذا الفضل ، وذلك بأن غيروا اسم الرجـل ، وهم محقون فيمـا رأوه ، ما دام الامر لا يتعلق بشخصية أساسية فى الدراما بل بكلمة تقذف عرضا . والاسم يمكن أن يعتبر فى بعض الملابسات رغم انتشاره ـ لا أقول محتكرا بل موجها وملونا ، أو اذا أردت مضاء بشخص حى ، وهو بذلك يفلت من عموميته الانسـانية ومن عـدم تخصصـه الطبعى ان جاز لى أن أقول ذلك ، وهـل لى ـ كى أنقى حكمى ـ أن أحمل الخصومة بعيدا عنى ؟ فاسم .كلوديل مثلا محمل بمعنى من الوضوح والاشراق ، بحيث لا يكون من الحكمة ـ بصرف النظر عن الجهل أو انعدام اللياقة ـ أن نسمى بهذا الاسم الفرنسى القديم احدى شخصيات مسرحية أو رواية ، والا كنا عرضة لان نثنى من انتباه القارىء ، وأن نثير فى نفسه أصداء آمرة يشق الخلاص منها .

واذن فكل ما على القصاص اليقظ هو أن يميل بشخصيته الروائية منذ البدء الى تغيير اسمها ، وأنا أسلم أن هذا ليس بالامر الهين ، اذ اننا لاننال من أبطال الروايات الا مايتفضلون بقبوله .

ولهذا كتبت فى حذر « يميل بشخصيته » ، اذ لابد من الاغراء .

سألنى ذات مرة سائل متطفل ، ورباه ! انهم جميعا كذلك ـ كيف اختار أسماء شخصياتى ، فأجبته فى نفس واحد « هه ! أنا لا أختـار لهم أسماء وانما هم الذين يظهرون ويسمون أنفسهم ، وأنا أسلم بأن بعضهم يتباطأ طويلا على نحو ما يفعلون فى الحياة تماما ... فهذا الشاب الذى ألمحه كل عام عند أصدقاء لى لست أعرف اسمه بعد ، وهو يعرفنى وأعرفه جيدا ، ونحن نتحادث بكل سرور . ألم يقدم الى ؟ أكنت ذاهلا ؟ أنسيت ؟ لاعلينا من ذلك . سأسأله عن اسمه فى المرة القادمة اذا تذكرت ، أو اذا راق لى ، أو اذا احسست بأقل حاجة الى ذلك . وهكذا الامر فى عـالم الاحلام فنحن نكتشف أولا شخصياتنا ونمسك بها ، ثم يأتى يوم يعلنون

---

(١) « الغربان » Les Corbeaux دراما شهيرة لهنرى بك مثلت فى الكوميديا الفرنسية ١٨٨٥ لاول مرة وهى رواية واقعية قاسية يصدر فيها المؤلف عن سـوء ظن بالبشر وكره لهم وتغليب لجانب الشر فيهم ، وموضوعها يمكن تلخيصـه فى ان رجلا من اعيان الريف يتوفى عن زوجة وعدة بنات ، واذا برجال الاعمال ينقضون على الزوجة والبنات يحاولون سلبهن ثروتهن وهن لا يستطعن النجاة الا بتضحية احدى البنات . والرواية رغم قسوتها قوية دقيقة الملاحظة نافذة التأثير .

ولد هنرى بك Henri Becque بباريس سنة ١٨٣٧ ومات بها سنة ١٨٩١ وله

اسمهم ، أو يتمتمون به ، وهذا الاسم ليس لنا نحن الا أن نأخذه ، وهو يدهشنا أحيانا ويحزننا أحيانا أخرى ، كما يحدث أن يملأنا غبطة ، بل لربما قلبنا في سخرية كما قال هيجو لمقاطعه « لم أكن آمل كل ذلك » .

وتغيير اسم بطل عمل خطر يمكن ألا ينجح • أعنى أن يتخذ اتجاها مخطئا وأن يفسد حركة مخلوقاتنا ، وسير قصتنا • وأنا أذكر كتابا قيما جيد الاسلوب جيد التأليف غير اسم الشخصية الاساسية فيه ــ بلا شك عند آخر لحظة ــ عند تصحيح الغلطات المطبعية النهائية ، وقد تمت هذه العملية التعسة في عجلة مسرفة أو على الاصح بغير اتقان ، وقد أفلت الاسم الاول من المصحح ، فظل يحملق هنا وهناك على نحو غير مفهوم في ثنايا الحكاية ، ونتج عن ذلك احساس لدى القارىء بالضيق والخداع وعدم الاطمئنان وبخاصة بعدم التمشى مع المعقول، وحياة مخلوقات الخيال كثيرا ما تعدو في عمقها الروحي حياة الكائنات الحية لحما ودما ، ولكن ذلك يرجع الى سحر تلك القوانين الخفية القاسية التى لا يمكن تخطيها• غلطة صغيرة من هذا النوع واذا بالاشباح تتبدد بخارا •

لقد أبديت في احدى الصفحات السابقة أسفي لرؤية القضاة يستمعون الى أولئك المشاكسين المسعورين ، الذين يرون أنفسهم ــ بوحي الغريزة ــ في كل صورة هزلية ، وأنا أخشى أن نرى الخصومات حول الاسماء تذهب هي الاخرى ــ أكثر مما يجب ــ الى المحاكم ، التى ستحسن صنعا برفضها دعاوى الشاكين •

وقد نزل الكتاب على مقتضيات الواقعية الدقيقة فعدلوا عن أن يعطوا شخصياتهم أسماء وهمية بحتة • فمن النبو عن الزمن ومن التفقيه الى حد بعيد أن يسموا أبطالهم اليوم Matamore أو Leandre أو Scapin (١)

---

(١) كل هذه الاسماء لها الوانها الخاصة واحيانا دلالتها اللغوية ، فمثلا :

ا ــ متامور Matamore : اسم أسبانى الاصل ، مكون من الفعل Matar اى يقتل ؛ و moro اى المور ، سكان شمال افريقيا ، فمتامور معناه « قاتل المور » . ولقد استخدم هذا الاسم في الكوميديا الاسبانية ، حيث اتخذ معنى الشخص الذى يدعى شجاعة كاذبة ويفتخر بأعمال بطولة وهمية لم يات بها ، ولهذه الشخصية نظائر عند اليونان واللاتين ، ففى الكوميديا اللاتينية عند « بلوت » مثلا كانوا يسمونه « الجندى الفخور » Miles gloriosus.

ولقد أدخل كورنيل شخصية متامور واسمه في روايته الكوميدية « الوهم المضحك L'illusion comique» ، واصبح هذا الاسم اليوم لا يسمع الا وانصرف الذهن الى ذلك الشخص الذى يدعى الشجاعة ويفتخر ببطولة هو برىء منها ، حتى اذ جد الجد التمس مخرجا للهرب .

ب ــ لياندر Leandre : احدى شخصيات الكوميديا الايطالية ، وكان في الاصل انموذجا للمغرم المخنث الذى يهيم بايزابيلا وبياتريس اللتين يقابلان عند =

او زربينت Zerbinette بينما تمر حوادث القصة أمام برج ايفيل بين مونمرتر ومونوروج ، واذن فأسماء حية تنبعث كالصيحات من الجمهور الفطرى ، اسماء حقيقية تنتزع من تاريخ الشعب نفسه ومن اللغة .

وفى ذلك يسر وانطلاق وحرية واسعة قاسطة لا تبغى أذى لأحد ، ولا يمكن أن تنال من احد . واما اذا رمي الفنان — وهنا أعود الى نقطة البدء — الى أن يسمى شخصياته ب هونيجير Honegger أو هريو Herriot أو جيرودو Giraudoux (١) فانه يخطىء ويسلم نفسه فريسة الى السخرية ويفسد كتابه . ولكن لنترك الحكم على أى حال الى الرأى العام .

= العرب ليلى وعزة ، كنت تراه نضرا مشرقا مغطى بأشرطة الزينة وبالدنتلا ، ولقد نقله كورنيل ايضا الى فرنسا حيث أصبح موضع سخرية الناس .

ج — اسكابان Scapin : احدى شخصيات الكوميديا الايطالية ايضا وقد تجنس بالجنسية الفرنسية في رواية موليير الشهيرة « خبث سكابان Fourberie de Scapin وهو انموذج الخادم الماكر المخادع الدساس ، وتبع موليير في عرضه على المسرح الفرنسي عشرات من المؤلفين .

د — اما زربينت ، فاسم اختاره ديهامل لما في أصواته من غرابة تبعث على السخرية .

فكل هذه الاسماء كما ترى تكاد تكون أسماء لاشخاص معروفين في تاريخ الآداب القديمة او الحديثة ، وقد تخصصت بمدلولها بحيث لا يسهل على الكاتب الواقعي الحديث أن يعطيها معانى جديدة لثبوت معانيها القديمة في كل الاذهان ، ولذلك يدعو ديهامل الى تسمية الشخصيات الجديدة بأسماء واقعية من اسماء افراد الشعب ، اسماء ليست لها دلالة خاصة ولا تمثل انموذجا معروفا ، فعندئذ يستطيع الروائى أن يخلق منها الانموذج الذى يريد .

(١) هو نيجير وهريو وجيرودو أسماء لاشخاص معروفين .

ا — هونيجير Honegger : أرتير هونيجير — موسيقي سويسرى شهير ، ولد في الهافر بفرنسا سنة ١٨٩٢ وتلقى ثقافة موسيقية المانية اذ كان ابواه من زوريخ ولكنه التحق بمعهد الموسيقى بباريس Conservatoire de Paris حيث تأثر بالموسيقى الفرنسية ، وبذلك استطاع ان يجمع في فنه بين الروحين الفرنسية والالمانية ، ولقد نال نجاحا عاليا بمزماره الدراماتيكي Le roi Davide المسمى «الملك دادو» الذى الفه سنة ١٩١١ ثم توالت مؤلفاته الموسيقية الجميلة .

ب — هريو : ادوار هريو Edward Heriot ، سياسي فرنسي ذائع الصيت، ولد في « طرواه » Troies سنة ١٨٧٢ ، والتحق بمدرسة المعلمين بباريس ثم حصل على درجة الاجرجاسيون في الآداب سنة ١٨٩٣ واشتغل بالتدريس في ليسيه نانت وليون ، ثم اشتغل بالسياسة فاصبح عمدة ليون سنة ١٩٠٥ ، ثم عضوا بمجلس الشيوخ سنة ١٩١٢ ، ثم عضوا بمجلس النواب منذ سنة ١٩١٩ ، وانتخب رئيسا لحزب « الراديكال الاشتراكي » وتولى وزارة الاشغال في وزارة بريان سنة ١٩١٦ — ١٩١٧ ، ثم رياسة الوزارة سنة ١٩٢٤ وسقط سنة ١٩٢٥ . ولكنه تولى وزارة المعارف في وزارة بوانكاريه القومية ، وعاد الى رياسة الوزارة سنة ١٩٣٢ ثم رياسة مجلس النواب ، وفي ايام الجبهة الشعبية تخلى من رياسة حزبه وخلفه فيها دالديه، ولهريو عدة كتب قيمة منها رسالته من « مدام ريكامييه واصدقائها » وكتابه عن حياة « بيتهوفن » وغيرها .

وهناك فيما أظن اثنان اسمهما جوريو Goriot (١) في دفتر التليفون. نعم اثنان، وواحد اسمه راكان Raquin (٢) ، واثنان جرانديه Grandet (٣) و « دستة » فوتران Vautrin (٤) وستة أو سبعة برجريه Bergeret (٥) وربع المائة من بونس Pons (٦) ، وبدلا من بيكوشيه Pecuchet ثمانية بوفار Bauvard (٧) تقريبا . فهل من الضروري أن نعطي هؤلاء الاشخاص المحترمين شهادة بعدم المبالاة والتسامح والتسليم لانهم لم يضرموا بعد النار — بموافقة القضاة — في أمجد صفوف مكتبتنا !

- ١٨ -

أسرار المواهب

الكلمات متاع شعب بأكمله ، وكنزه الواثق منه غير المنازع فيه . ليأخذها من يريد . ليستخدمها كل من يجرؤ على ذلك . فهي دائما في المتناول ،مثل ذلك الهواء الذى تحتاج اليه الكلمات لتجرى فيها حياة الأنغام .

يأخذ الرجل الكلمة واذا بها ملك له، بعد أن كانت للجميع. فبطريقة نطقه وتحركات عضلاته ، وبحجم أنفاسه ونسبة تصريفه لها، وبرنة صوته وتنغيمه بل وبالظواهر الاضافية من تغييرات وجهه الى دلالة عينيه الى حركة يده وأعضائه وجسمه كله، بكل هذه الوسائل يضع الانسان طابعه الخاص على الكلمة التى يفوه بها ، طابعه الذى ينم عن عاداته وشهياته وشهواته ومواضع نقصه وندمه وآلامه . يقول « نبيذ » — على بساطة الكلمة — فندرك جميعا هل هو يحب النبيذ أم يخشاه ، وهل هو فى عطش أم رى وهل هو من الخبراء فيه أم الدخلاء عليه . ويقول «حب» فيقلقنا بنطقه لهذا المقطع أو يؤثر فينا أو يثيرنا أو يحملنا على الابتسام . وبذا تصبح الكلمة التى هى للجميع كلمة شخص واحد ومتاعه وأمارته وملكه .

يلوح أن الطباعة تجرد الكلمات من تلك الصفة العارضة الخاصة وترجعها الى معناها الخالد العام . يلوح ذلك ، ولكنه غير مقطوع به ،

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) كل هؤلاء شخصيات في روايات بلزاك ، شخصيات شهيرة ونماذج معروفة .

(٧) بوفار وبيكوشيه بطلا رواية لفلوبير تحمل هذا العنوان .

فعند القارىء المرهف تغير الكلمة من نبرتها وصداها وتقريبا من معناها حسبما يكون من استخدمها شاعرا أو ناثرا ، أستاذا أو صبيا خجولا ، أو شخصا عنيفا ، رقيقا أو قاسيا . ولمزايا الاسلوب دخل فى الموضوع ، ولكنها ليست الوحيدة فى هذا الصدد . وأنا أستطيع ان أعدد الكتاب الذين يملكون أن يجعلونى أشعر بالجوع . فلقد يتحدث بعضهم عن كل أنواع الطعام والولائم ، ولقد يصفون الصيد واللحوم و « المفرومات » والفواكه ذات العصير ، والصلصات ذات النكهة ، ولكنهم لا يملكون الا فى النادر موهبة تحريك أعصاب معدتى واثارة غددها ، وعلى العكس من ذلك ديــــكنز Dickens فهو مدهش فى هذه المسألة ، يكتب « وجبة متواضعة » ومع ذلك لست أدرى ما ذا يعمــــل لكى يسيل لعابى ، فهو ليس بحاجة الى أى احتيال . انه يملك الموهبة . فالكلمات حتى ولو بردت بالترجمة أو الطباعة لها عنده طعم مغر . يكتب : «جمبون وبيرة وتوست» ولا شيء غير هذا ومع ذلك يلوح ممتعا ، ونفس الكلمـــات يكتبها كاتب عبوس سقيم الصحة فأعاف الطعام .

وكوليت(١) Colette التى كان لى سرور الغداء والعشاء معها مرات كثيرة لم تبد لى أكولة بوجه خاص . انها تقدر الاشـــياء الطيبة تأخذ منها وتلحظها عن بينة ، وهى عندما تذكر أمامى اســم المأكولات لا تحرك خيالى تحريكا غير عادى ، ولكنها تكتب أقل ما يمكن من الالفاظ التى يستدعيها المقام : « خبز أبيض طمــاطم . ثوم . زيت زيتون » وها شهيتى قد حضرت . حقا ان هذا أمر لا يفهم ولكنه أمر لا شك فيه . فالكلمة الواحدة يطبعها جيرودو Giraudoux وتطبعها كوليت Colette ومع ذلك لا يكون لها عندهما نفس الطعم حتى لكأنها قد غيرت صلصتها . الحسية هبة وهبة متعددة المظاهر .

والعربدة لا يستطيعها كل من يريد . اذ لا بد من طبع ، وبوجه خاص من براءة ، وخير من ذلك من سذاجة ، يقولون : لقد لاقى أونيزيم(١) Onésime أكبر نجـــاح فى سوق الحسان ، لم يكن يظهر حتى تخر

---

(١) كوليت : جبريل كوليت Gabrielle Colette كاتبة فرنسية ولدت سنة ١٨٧٣ وتزوجت سنة ١٨٩٣ من «ولى» Willy وقد ابتدأت حياتها الادبية بالكتابة مع زوجها وقد نشرا الروايات الاولى باسم زوجها فقط فلاقت نجاحا كبيرا ، ثم افترقا ســنة ١٩٠٤ فأخذت كوليت تنشر رواياتها وحدها ، ولها عشرات الروايات الجيــدة ، وهى تملك القدرة على العبارة من المشاعر الطبيعية ، وعن الغرائز والاحساسات التى تساور نفوس الحيوانات البسيطة ونفوس النساء العميقة الحسية ، وأسلوبها طبيعى وهو مع ذلك غنى بالصور والالوان ، أسلوب دقيق معبر .

(١) كل هذه الاسماء فرضية كزيد وبكر وليس من السهل ان نعرف من المقصود بها .

النساء على الركبتين . لقد كان ـ حقيقة وما يزال ـ شبه اخصائى بارع بهلوان ، وهو يكتب فى ذلك بكل ارتياح وبقلم مسرف الحرية ولكن كتبه لا تأثير لها . على الاقل بالنسبة لهذا الباب .

فهو خليق بأن يحمل اليافعين على التثاؤب رغم ما بهم من ظمأ الى الحب ، كما يحمل الشيوخ المسرفين . وكلمات الاستهتار عندما تمر بقلمه تفقد كل لونها وكل تموجاتها . لن يكون أونيزيم Onésime الا مؤلفا مملا ومستهترا فاترا .

أيزيب Eusèbe ذو موهبة كبيرة فهو كاتب ممتاز . وقد قرر فى يوم ما أن يكون شاعر الحب الكبير ، وهو يقصد الى الحب الجسمى ، ومن فوره أخذ فى العمل . فهو يقيم تمثالا شهوانيا لالهة اللذة الحسية . صوره مكشوفة ، وفنه مرهف ، ولكن من عجب أنها لا تحرك أحدا ، فهى تعليمية مدهشة البرودة . انها فلسفة الحب المدرسية ، حتى لنحسب اننا نقرأ كتابا للتلاميذ من وضع مستهتر ممتاز، أو احيانا «موجزا» فى الغرام للتعليم العالى ، ولكن الأيم الشابة التى يتفق لها أن تقرأ كتبه المقلقة تنتهى بأن تنام نوما هادئا لا حلم فيه . لا . لا . ليس حسيا من يريد .

وعلى العكس من ذلك بوفارى(١) الشهيرة فتهتكها مخيف ، ان اشرطة «صدريتها» ستصفر زمنا طويلا فى آذان القضاة الشهوانيين .

وبلزاك باشارات قليلة يحرك خيالنا . «فينس» بأكملها . فى الحق أن هذا لأكثر ممايجب . ديان دى موفرينييز Diane de Maufrigneuse تلبس فى سرعة ، ولكن القارىء يلمح فى ثانية جسمها الابيض خلال ضباب صاف من التيل . وتربط السيدة ثدييها بصدريتها المرتجلة التى تشجب من الامام ... وأميليه كميزو Amelie Camusot التى تعينها على شد جواربها تقبل بغتة ركبتها فى دفعة حماسية . الصورة هروب متقنة ، ولكنها أبلغ فى الدلالة من موسوعة علمية فى شهوات الحب .

الموهبة وحدها هى التى تعطى الالفاظ قوتها الحية ومعناها ، والمواهب أسرار غامضة . فمرياك يستطيع اذا أراد أن يصف الى ـ حد الاعجاز ـ الشمس المحرقة فى جاسكونيا مسقط رأسه ، وهى شمس مخيفة وما نكاد نلمحها حتى نحس لفورنا بعرق عاصف يتساقط لؤلؤا على عارضيه ، وفى الحق انها لشمس لهفة تشرق لتضىء الهوات ولتظهرنا على بؤسنا . وعبثا يكتب موریاك « كان الجو صحوا » ، فاننى أحس

---

(١) مدام بوفارى بطلة رواية فلوبير التى تحمل هذا الاسم ولقد حوكم مؤلفها من أجلها .

بروائح الصنوبر وعطور البرارى والزنابق ، ولكنى أشعر بأن أنفاسى ما تزال مختنقة ، فزرقة السماء مضطربة مؤلمة . وماذا يستطيع ضوء النهار ضد ظلمات الانسان ؟ (١)

وهكذا ندأب وقد تحكمت فينا مواهبنا التى اذا حاولنا أن نعبث بها ونخضعها ونقهرها لم تلبث أن تفتقر ، واذا قبلناها فى غير جدل أصبحنا لها عبيدا ، وأما القواعد فليس ثمة الا تلك القاعدة الريفية « لا تحاول قط أن تظهر بمظهر من لا تستطيع أن تكونه » .

وليست هذه الحكمة ـ رغم ما يبدو ـ بالنصيحة السهلة الاتباع .

---

(١) يقصد الكاتب بقوله عن الشمس التى يصفها مورياك « وفي الحق انها لشمس لهفة تشرق لتضيء الهوات ولتظهرنا على بؤسنا » الى ما تميز به مورياك من غوص وراء لهفة النفوس وبؤس البشر لجو قصصه كله محرق بحيث عندما يتفق له ان يتحدث عن جمال الجو الطبيعى لا يخفف شيئا من الحرارة المحرقة التى يشيعها في قصصه « وماذا يستطيع ضوء النهار ضد ظلمات الانسان » .

الجـزء الثالث

مذكرات فى فن القصص

لا يجد النقاد حرجا فى أن يحصوا اثنى عشر نوعا من أنواع الادب الروائى ، ولكننى فى الحق لا أرى غير اثنين : الرواية التى تنسينا حياتنا ، والرواية التى تثير لنا تلك الحياة وتساعدنا على فهمها . وما أريد أن أجازف فأفضل احداهما على الاخرى ، « فدومينيك » (١) رواية جميلة وأنموذج شهير ، ولكن « جزيرة الكنز » (٢) هى الاخرى كتاب رائع يستحق أن يتخذ مكانه فى كل مكتبة .

لو جاز أن نصدق فقهاء اللغة لانطبقت الصفة Romanesque « روائى » على مايمكن أن يرد بالروايات من أشخاص أو أحداث توصف لذلك بأنها وهمية خارقة . وكذلك الامر لو استعملت هذه الكلمة اسما فقلنا Le romanesque « الروائية » اذ تفيد عندئذ معنى مماثلا .

ولما كانت الرواية قد حلت فى تقدير الشعب محل الملحمة فانها

---

(١) دومنيك Dominique هى روايةايوجين فرومنتانEugène Fromentin (١٨٢٠ ــ ١٨٧٦) الوحيدة ، ظهرت سنة ١٨٦٣ ثم صمت المؤلف منصرفا الى التصوير الذى هو من كبار رجاله ، وهى قصة الكاتب نفسه . قصة شاب يحب فتاة حبا خفيا لا يتبينه ، حتى اذا تزوجت من غيره نما الحب فالضح للشاب واحست به الفتاة ، كما أدركت أنها تشعر بمثله ، ولكن الشاب يخفى حبه والزوجة تحتفظ بعفافها، حتى لم يعد للمحبين من سبيل غير الافتراق فسافر دومنيك الى حيث لن يرى مادلين Madeleine بعد ذلك قط ، بل لن يعرف عن مصيرها شيئا وبذا تنتهى القصة.

(٢) رواية المغامرات الشهيرة Treasure Island للكاتب الانجليزى روبرت لويس ستيفنسون Robert Louis Stevenson (١٨٥٠ ــ ١٨٩٤) .

تقصد الى أن تشبع لدى القارىء حاجة طبيعية ملحة ، هى الحـاجة الى خوارق الامور .

وعلى هذا التحديد يلوح أن كلمة « روائية » لاتتفق فى غير مشقة مع كلمة « مألوف » (١) ، اذ كيف يمكن أن يصبح المألوف خارقا ؟ ومع ذلك فتلك هى المعجزة . فما فى المألوف من روائية لايلبث أن يرينـا كيف يصبح العادى خارقا والحادث اليومى شاذا .

والانسان بحاجة الى من يسليه ، الى من يصرفه عن نفسه بالمعنى الذى يقصد اليه « باسكال » (٢) ، وذلك بأن يقص عليه أو يعـرض حوادث تستطيع أن تسترعى انتباهه فتستهوى لبه وتلهمه النسيان، اى تشمله . وعلى اشباع تلك الحاجة توفرت تباعا الملاحم والمسرحيات والروايات ، ثم السينما فى أيامنا هذه .

وفى الشرق لم تمت الملاحم ، اذ لاتزال تلعب هنالك نفس الدور الذى كان يلعبه هوميروس عند اليونان . وهى تعتمـد ـ لـكى تثير الاهتمام وتسحر الافئدة ـ على الموسيقى ووقع الاوزان ، كما تتخـذ من حكاية الحوادث الخارقة مادة لهـا مما يدهش أبطأ الاخيلة وأضيقها أفقا . وعلى هذا النحو كانت الرواية عند نشأتها . فمثـلا روايات

---

(١) familier « مألوف » يواجه الكاتب في هذا الفصل مشكلة الواقعيـة في الروايات على نحو ما فعل في قصصه ، ولذا يتساءل كيف يمكن أن نتخذ من الواقع المألوف الدارج مادة لرواية ما ، مع أن الرواية بحكم تعريفها ذاته ومدلول لفظها تفيد البعد عن هذا الواقع والضرب في الخيال والتماس خوارق الامور على نحـو ما نصف الحدث الغريب بأنه «رواية» ، وسوف نرى كيف يدلل المؤلف على أن في «الواقع» عناصر روائية تغنى عن كل الخوارق ، وذلك عند الكلام فيما يلي عن «روائية المألوف».

(٢) بليز باسكال Blaise Pascal (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢) عالم بالرياضيات والطبيعيات وفيلسوف فرنسي ، ومن أهم ما خلف مجموعة خطابات تسمى « الريفيات » Les Provinciales يناضل فيها من وجهة نظر احدى الفرق الدينية التى كانت تتطاحن في فرنسا اذ ذاك : ثم دفاعا عن المسيحية لم يتمه . وقد نشرت الفقرات التى كتبها بعنوان « الاراء » Les Pensées والى احدى فقرات هذا الكتاب (القسم الثانى نمرة ١٣٩) يشير « ديهامل » وفيها يعلل باسكال طلبنا للذات وحبنا للمغامرات والتماسنا للجاه والوجاهة الاجتماعية بل وسعينا وراء الفنى ، بحاجتنا القاسية الى الاشتغال بما يصرفنا عن انفسنا ، فالمرء لا يستطيع أن يتحمل الحياة اذا طال تفكيره في نفسه . ولقد كان بسكال من أعمق المفكرين وأنفذهم الى الحقائق الروحيـة ، كما كان من أكبر من أثروا في التفكير الفرنسي .

الفروسية التى حطم عليها « ميشيل دى سرفنتيس » (١) أكثر من رمح ، كانت قصصا لحوادث خارقة كثيرا ماكانت معجزة بطبيعتها ، وحوش وعمالقة وسحرة ، تلك كانت مادة اشـخاص تلك القصـائد الروائية التى كان يلتمس فيها القارىء سلوة خالصة ، والتى لم يكن مؤلفوها يحرصون فى كتابتها أقل حرص على أن يضيفوا شيئا جديدا الى معرفتنـا بالنفس الانسـانية . ورغم الثورة التى أحدثها الادب الواقعى لايزال هذا التقليد الادبى قائما الى اليوم ، لا فى أدب الاطفال فحسب ، بل فى طائفة كبيرة من الروايات التى تقص خوارق الحوادث. فروايات المغامرات التى اشتهر فيها أكثر من كاتب مجيد ، والروايات التاريخية وروايات البطولة ذات القوس والرمح ، والروايات التى تتنبأ بالمستقبل على نحو ما فعـل « ويلز » (٢) ، والروايات العلمية وشبه العلمية على نحو ما كتب « جل فرن » (٣) كلها وليدة لذلك النـوع القديم من روايات الخوارق واستمرار له .

وهذا التقليد الادبى لم يمح وان كانت الروايات الواقعيـة وما أصابت من نجاح قد أضعفت من قوته . ولقـد ملأت تلك الروايات القرن التاسع عشر ، حتى لتمثل فى تاريخ الآداب صفحة هامة، والكثير مما أفدنا فى ميدان البحث النفسى يرجع الفضل فيه الى تلك الثورة التى أحدثها الأدب الواقعى . ولولا الاسراف فى تلك الواقعية لاطرد نجاحها الى غير حد ، فان بعض الغلاة لكى يضمنوا انتباه القـارىء ويشبعوا لذته ، قد رأوا انه لاغنى لهم عن أن يستبدلوا بما عهـدت الروايات القديمة من حوادث خارقة وأمور معـجزة وسحرة وبطولة وفروسية ، ما تحمل الحياة الواقعية من غرائب الامور بل مخيفها ، يغلون فى وصفه . وهنـا نلمس عنف « الطبيعيين »(٤) ، ووحشية

---

(١) ميشيل دى سرفنتيس Michel de Cervantes اسبانى شهير (١٥٤٧ — ١٦١٦) مؤلف رواية « دون كيشوت » Don Quichote الذائعة الصيت ، وفيهـا يصور فارسا من فرسان القرون الوسطى تسمم بروايات الفروسية التى كانت منتشرة اذ ذاك ، فاخذ يجوب الارض التماسا لاعمال البطولة ، ولكن النـاس سخروا منـه او آذوه . فكتابه من هذه الناحية نقد لاذع لادب الفروسية وروايات المغامرات ، وهـذا يفسر قول ديهامل : «سرفنتيس قد كسر على روايات الفروسية أكثر من رمح » .

(٢) ولز Herbert Wells : كاتب انجليزىمؤلف رواية «آلة اكتشاف الزمن» التى ترجمها الاستاذ المازنى وغيرها من الروايات التى تقص بالآراء الفلسفية او تصور العالم كما يتوقع الكاتب ان يكون في المستقبل (ولد سنة ١٨٦٦) .

(٣) جل فرن Jule Verne (١٨٢٨ — ١٩٠٥) : كاتب فرنسىبسط فىرواياته العديدة الكثير من المعلومات العلمية وبخاصة الجغرافية والتاريخية كما تدل على ذلك أسماء رواياته أمثال « رحلة في جوف الارض » و « من الارض الى القمر » .. الخ .

(٤)انظر الهامشين الآتيين :

كتاباتهم وجموح عباراتهم ، وتلك تجارب لم تنته بعد ، وما أعرض لهذ بقدح وقد أفدنا منها الكثير . وعن كل تلك المحاولات صدر قصص المألوف اذ أيقن القصصيون أنه ليس من الضروري لكي نثير انتباه القارىء ونحتفظ به أن نلجأ الى ادخال السحرة والساحرات فى الرواية. فان تصوير الواقع كفيل بأن يأسر القارىء ، كما أنه من الممكن بل من الواجب أن نتجنب ذلك النوع الجديد من اللاواقعية الذى ولدته وحشية المذهب الطبيعى ، وقد فطنا الى أن المهم هو أن ندرك ما نراه كل يوم دون أن نلقى اليه بالا ، ومنه يتكون نسيج حياتنا اليومية العجيبة لو تأملنا . ونحن بذلك نضيف الى معرفتنا بالانسان وتصورنا له أشياء جوهرية . ولبيان كل ما أقصد اليه اقترحت استعمال العبارة المتواضعة الدقيقة عبارة « روائية المألوف » .

ولقد حل هذا الفن ــ فن قصص المألوف ــ الكثير من معضلاته، كما حدد مناهجه بفضل ما أفاد من محاولات الروايات الواقعية (١) والطبيعية (٢) فأثر البيئة الذى تحكم خلال نصف قرن فى أدبنا الروائى قد احتفظ بقيمته ، ولكنها أصبحت قيمة نسبية اذ تغير فن القصص تغيرا كبيرا ، فانصرف الروائى الحديث عن ذلك الوصف الطويل الذى كان يملأ اربعين صفحة عند من سبقنا ومن تتلمذنا له من أساتذة هذا الفن الذين كانوا يؤمنون بضرورة هذا الاسهاب فى الوصف.

---

(٢) الواقعية أو المذهب الواقعى réalisme (ومنها الروايات الواقعية Romans réalistes اتجاه في الفن والادب والنقد والفلسفة تكون كمذهب في منتصف القرن التاسع عشر ، في لوحات ميليه Millet وكوربيه Courbet ، في روايات فلوبير Flaubert وجونكور واخيه Goncourts والفونس دوديه Daudet ، في مسرحيات أوجييه Augier وديماس الصغير Dumas Fils في كتب النقد وكتب التاريخ التى الفها تين Taine في فلسفة أوجست كونت Auguste Conte. ولقد كان لها أصولها قبل ذلك العهد ، فبلزاك Balzac مثلا روائى واقعى الى حد كبير ، اذ يحرص في أغلب قصصه على أن يصور الواقع كما هو وبما فيه من قبح ، كما يمعن وصف البيئة التى يحيا فيها أشخاص قصصه لما كان يؤمن به من أن الانسان مسير بحكم البيئة ، والى هذا الاتجاه يشير « ديهامل » عندما يقول ان الرواية الواقعية قد احتفظت بوصف البيئة ولكن دون اسراف .

(١) الطبيعية أو المذهب الطبيعى Naturalisme ، ومنها روايات الطبيعة Romans naturalistes استمرار للمذهب الواقعى وسير به الى غايته ، اذ قال زولا رأس هذا المذهب بوجوب تطبيق مبادىء العلم ومناهجه التى بسطها كلود برنار في كتابه الشهير « مقدمة لعلم الطب التجريبى » على الادب فالروائى كالطبيب يسعى الى معرفة الانسان ككائن عضوى يخضع للغرائز وتكيفه قوانين الوراثة ، ثم يصفه كما هو في حياته العضوية التى هى أصدق حياة له فيما يزعمون . ومن رجال هذا المذهب الشهيرين غير زولا جى دى موباسان Guy de Maupassant وقد ظهر هذا الاتجاه في المسرح منذ رواية «الغربان» (١٨٨٢) لهنرى بك Henri Becque والى اسراف هذا المذهب في الاعتماد على الوراثة والحقائق العضوية يشير « ديهامل » .

كذلك لاينكر أحد أهمية فكرة الوراثة التى اعتقد الطبيعيون إنهم قد اكتشفوها فعلت بالحديث عنها أصواتهم ، فهى الى اليوم ما تزال تسيطر على ماتكتب ، ولكن دون أن تثقله . ولا ادل على اسراف مذهب « الطبيعيين » فى فن القصص من اننى لا أعرف عن أصدقائى وأبنائى وزوجى بل وعن نفسى من أمر الوراثة العضوية قدر مايرى هؤلاءالكتاب ضرورة لجمعه عن أقل أشخاص رواياتهم شأنا .

فى الرواية الحديثة لابد من الاعتدال حتى تتزن وتتعادل العناصر التى تتكون منها .

واخيرا لابد للروائى الحديث ليتمكن من فنه من أن يعرض فى الحاح وصلابة لتلك المشكلة القديمة المحيرة ، مشكلة الموضوع .

***

كلمة موضوع (١) من تلك الكلمات العديدة التى تحتمل فى اللغة الفرنسية معانى مختلفة ، وانه لمن الشاق أن نحدد معانى أمثال تلك الالفاظ ، فمعانيها الاشتقاقية فى أغلب الاحيان ضيقة للغاية اذ انها تدل على الكثير ، ولكن كثيرها قليل . ومع ذلك عندما نتحدث عن موضوع قطعة موسيقية أو لوحة زيتية أو تمثال منحوت أو قصيدة من الشعر ، ندرك على وجه التحديد معنى هذا اللفظ . ولكن كم من مرة نتحدث عن موضوع أوبرا أو قصيدة أو صورة حتى اذا حاولنا الوصول الى تعريفه تعريفا دقيقا اصطدمنا بصعوبات لا يكفى لحلها أن نقول أن كلمة موضوع ترادف كلمة « الغرض » (٢) ، اذ لا يمكن لاحداهما أن تحل محل الاخرى ، وكذلك الامر لو استبدلنا بها كلمة « موضوع البحث » (٣) أو « الباعث » (٤) ، واللفظ الاخير بنوع خاص لايمكن أن يستعمل عند الحديث عن المجسمات والاوضاع كما هو الحال فى فنى النحت والتصوير .

ونحن بعد لانستطيع أن نستعمل لفظ موضوع الا على حذر « فاغتصاب (٥) السابينيات » لوحة لها موضوع بينما صورة « مدام

---

(١) Sujet.　　(٢) Objet.

(٣) Thème　　(٤) Motif.

(٥) L'enlèvement des Sapines اغتصاب السابينيات لوحة زيتية بل لوحات لهاموضوع كمايقولديهامل فهىليستمجرد تصويرلاشخاص اومناظروانماهىحادثة تاريخية أو خرافية ، ملخصها انه بعد أن بنى روميلبوس Romulus جد الرومان الخرافي مدينة روما واستقر بها لم يجد لرجاله نساء لطلب من الشعوب المجاورة ان تمده بما يجب من امهات لسخروا منه ، فاحتال للأمر واقام العابا دعا اليها جيرانه ، وفي أثناء اللعب انقض هو ورجاله على السابينيات بنات وزوجات السابينيين سكان =

شلجران » (١) لاموضوع لها ، فقد اتخذ المصور أنموذجا لصورته ، ولكنه لم يعن بما نسميه موضوعا . وعلى العكس من ذلك نجد أن « لصبى الساحر » لـ « بول ديكاس » (٢) موضوعا كما أن «للسمفونية الريفية » (٣) موضوعا بينما « كونسرتو (٤) باخ » (٥) المكتوب لتعزفه

= احدى المقاطعات المجاورة لروما ، واغتصبهن مما أدى الى نشوب حرب طويلة بين الجماعتين .

وقد اتخذ كثير من المصورين هذه الحادثة موضوعا للوحاتهم ونخص بالذكر منهم المصور الفلامنكي Rubens (١٥٧٧ — ١٦٤٠) ثم المصور الفرنسي Nicolas Poussin (١٥٩٤ — ١٦٦٥) ولوحة الاول بصالة الـ National Galery بلندن ولوحة الثاني بمتحف اللوفر بباريس ، واكبر الظن أن ديهامل يشير الى هنا الى لوحة بوسان .

(١) صورة لاحد رسامي القرن الثامن عشر . ومدام شلجران هي زوجة المهندس المشهور Chalgrin شلجران باني قصر الكسمبور وقصر المعهد الفرنسي ودار الكوليج دي فرانس بباريس وبادىء قوس النصر بميدان الايتوال (١٧٣٩ — ١٨١١) . وهذه الصورة كغيرها لايمكن أن يكون لها موضوع من فكرة أو عبارة عن امر ما فاختيار ديهامل لها لا يفيد أي تخصيص وانما هو مجرد مثل .

(٢) L'apprenti Sorcier «صبي الساحر» سمفونية مشهورة للموسيقي الفرنسي المعاصر Paul Ducas بول ديكاس المولود بباريس سنة ١٨٦٥ وهو من كبار موسيقيهم ، والقطعة عبارة عن حكاية للسحرة وما يخلقون من عوالم الوهم فهي موسيقى ذات موضوع .

(٣) Symphonie pastorale السمفونية الريفية هي احدى سمفونيات بيتهوفن (١٧٧٠ — ١٨٢٧) التسع وهي السادسة ، وليست لكل سمفونياته أو سمفونيات غيره أسماء تدل على موضوعها ، وانما يحدث ذلك احيانا عند ما يريد المؤلف أن يحدد مصدر الوحي فيما ألف أو الفكرة التى يعبر عنها ، ومن هذا القبيل تسمية سمفونية بيتهوفن السادسة بالريفية وتسمية الثالثة بسمفونية البطولة اشارة الى أن السادسة تصدر من وحي الطبيعة كما ان الثالثة تحكي كفاحا حارا .

(٤) Concerto هذا اللفظ ايطالي الاصل معناه الاشتقاقي « اتفاق » ومعناه الاصطلاحي في الموسيقى « قطعة تأليفية كالسمفونية سواء بسواء ولكنها تختلف عنها في أن الالات المختلفة للجوقة تتوزع نغمات السيمفونية بالتساوي بينما يكتب الكنسرتو لالة خاصة هي التي تقود في العزف والالات الاخرى تصاحبها مجرد مصاحبة ، ولذلك يقال كونسرتو للبيان أو للكمان او للناي الخ .

هذا هو ما يجرى عليه الفن اليوم ولكن الكنسرتو كما قصد اليه أول من وضعه وهو الايطالي « توريللي » Torelli كان في الاصل لثلاث آلات تقود والاخرى تصاحب .

وقصد ديهامل من قوله ان كونسرتو « باخ » لا موضوع له هو أن مؤلفه لا يرمي فيه الى فكرة بذاتها ولا يصدر عن وحي خاص أو حالة نفسية معينة وانما هو موسيقى خالصة فهو يطربنا بما في نغماته من انسجام وتوزيع وايقاع أي بصورة الموسيقية .

(٥) باخ Jean Sebastien Bach « ١٦٨٥ — ١٧٥٠ » من كبار الموسيقيين الالمان . ولد في اسرة تعاقبت فيها الموسيقى الى اليوم ثلاثة قرون . نبغ في كل انواع =

كمانان لاموضوع له . وأما « لوكون »(١) و « هيجولان »(٢) فتستطيع،

= الموسيقى ماعدا موسيقى المسرح التى لم يحاولها ولم يكتب اى أوبرا ـ وميدانه بنوع خاص هو الموسيقى الدينية ، فقطعه التى كتبها للأرغون منقطعة النظير .

(١) Lacocoon لوكون بطل من ابطال « طروادة » وقسيس ابولون Apollon يذكر الشاعر اللاتينى فرجيلوس Vorgilius في الانيادة (الاغنية الثانية) أن اليونان عندما عجزوا من أخذ « طروادة » عنوة لجأوا الى الحيلة فصنعوا حصانا كبيرا من الخشب ووضعوا الرجال بداخله ثم تظاهروا بالانسحاب الى سفنهم كأنهم عائدون الى بلادهم ورأى أهل « طروادة » الحصان فأرادوا ادخاله الى مدينتهم فهدموا لذلك جانبا من سورها المتين وادخلوا الحصان ، فوثب من كان بداخله من الرجال واستولوا على المدينة واحرقوها .

وكان لوكون قد حذرهم من الوقوع في الشرك بادخال الحصان ولكنهم لم يستمعوا له ، وغضبت الآلهة التى كانت تناصر اليونان لتدخله في الامر فأرسلت اليه افاعى كبيرة خرجت من المياه والتفت حوله وحول ولديه فأماتتهم خنقا .

وفي متحف الفاتيكان بروما تمثال شهير للوكون وولديه تطوقهم الافاعى وقد تقلصت قسمات وجوههم لشدة الالم . وفي الكثير من متاحف أوروبا نسخ من هذا التمثال نضيفها الى وصف فرجيلوس فنفهم اشارة ديهامل عندما يقول بامكان اتخاذ لوكون وآلامه وقصته موضوعا لاى قطعة أدبية أو فنية .

وقد يكون من الخير ان نذكر أن الناقد الالمانى لسنج Lessing (١٧٢٩ ـ ١٧٨١) قد اتخذ أيضا من هذا المثال ، مثال لوكون بالذات ، سبيلا للبحث في الحدود التى تفصل مجال الوصف الشعرى من مجال التصوير مقارنا وصف فرجيلوس لآلامهما بما ينطق به التمثال المنحوت من تلك الآلام . وكانت كلمة الشاعر اليونانى الشهير Simonides « التصوير شعر صامت والشعر تصوير ناطق » موضع امعان لسنج ومناقشته وهو ينتهى الى التفرقة بين الفنين ، وعنده أن التصوير « صور والوان في المكان » بينما الشعر « نغمات متتابعة في الزمن » ولذلك كان عمل الشاعر تحليليا بينما عمل المصور تركيبى . والنظرية كلها مبسوطة بكتابه الذى يحمل نفس الاسم « لوكون » .

(٢) Uoglin della Gherardesca او Uugolin ظالم من اقسى الظلمة الذين لطخوا ايطاليا بالدماء في النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، اذ انه بعد أن استولى على الحكم بالخيانة والغدر في مدينة بيزا Pisa قتل أعداءه وهدم منازلهم ولكن أهل المدينة تآمروا عليه بقيادة الاسقف Ruggiero Ubaldini روجيرو اوبلدينى حتى اذا وقع بين أيديهم سجنوه هو وولديه وحفيديه في برج جيولندى Gualandi ثم القوا المفاتيح في نهر الارنو Arno . وبهذا البرج مات هيجولان آخر الاربعة بعد أن حاول ان يأكل ابناءه واحفاده من قسوة الجوع . ومنذ ذلك الحين يعرف ذلك البرج في بيزا باسم « برج الجوع » .

ولقد نسيت الانسانية لهيجولان قسوته ولم تعد تذكر الا آلامه التى اتخذ منها دانتى في الكوميديا الالهية « الجحيم ـ الاغنية ٣٣ » موضوعا لقصة مخيفة رائعة . هنالك في الجحيم رأى الشاعر هيجولان وهو ينتقم من خصمه روجيرو ينهش جمجمته بأنياب ماضية لشدة ماقاسى من الجوع .

ولم يوح هيجولان فقط لدانتى بهذه الاغنية بل أوحى الى الكثيرين من المصورين والنحاتين موضوعا لفنهم . واخص ما نذكر التمثال الذى صنعه من البرونز النحات الفرنسي الشهير Carpeaux سنة ١٨٦٣ والموجود بمتحف اللوفر بباريس .

كل الفنون أن تتخذ منهما موضوعا . ومناظر الطبيعة التى يصورها « شردان » (١) هى دائما لوحات لاموضوع لها .

ولذلك أسمى موضوعا الحادث التاريخى أو الاسطورة أو الفكرة الفلسفية أو القصة الخلقية ، بل وأحيانا أى مجموعة من عناصر قصصية متباينة يمكن أن تتخذ أساسا أو محوكا لعمل فنى . فالموضوع اذن كما يدل عليه معنى اللفظ الاشتقاقى هو مايرقد تحت المظاهر . هو الحقيقة الجوهرية التى تحدد الاوضاع الخارجية وتنظمها .

والموضوع لاغنى عنه فى بعض المؤلفات الادبية وهو مقبول فى البعض الآخر ، ولكن هنالك من المؤلفات مايجب عليها أن تتجنبه . فالاقصوصة الفلسفية لابد لها من موضوع يتخذ أحيانا شكل المغزى، والقصة قد تكون أحيانا لوحة ، وأحيانا صورة شخص ، كما قد تكون كتابا ذا موضوع ، والقصيدة يمكن أن يكون لها موضوع وان كانت تشقى به بعض الاحيان . وأما الرواية الحقة فأمر الموضوع فيها امر عسير لعل من الخير أن نلقى عليه فيضا من الضياء . فالكثير من الحكايات الرائعة نحس أنها قد صدرت عن فكرة لمحها الروائى فساق حكايته ليستغلها بكل ما تحمل من نتائج بعيدة .

فرواية « جلد الاحزان (٢) » La Peau de Chagrin انموذج لهذا النوع ، والكل يعلم موضوع هذا الكتاب . رجل يملك جلد(٣) احزان علقت به قوة سحرية تمكنه من تحقيق كل ماتحس نفسه من رغبات، ولكن الجلد اخذ يتقلص الى أن استنفد ماله كل رغباته فاستنفد حياته . مغزى تلك الحكاية ظاهر لايحتاج الى ايضاح ، وهل نحن بحاجة الى أن نضيف أن « جلد الاحزان » هى فى الواقع اقصوصة

---

(١) Jean Baptiste Chardin (١٦٩٩ – ١٧٧٢) مصور فرنسي ولد ومات بباريس . تميز بقدرته على توزيع الضياء والظلال وانعكاساتهما التى تعطى الاشياء ألوانا عديدة ، تغنيه مكتف بذاته في غنى عن كل موضوع .

(٢) رواية مشهورة لبلزاك Honoré de Balzac (١٧٩٩ – ١٨٥٠) – اشهر روائيي فرنسا وأغزرهم انتاجا – لقد وهب هذا الكتاب من قوة الملاحظة ودقة الاحساس بالواقع وخصوبة الخيال والمقدرة على وصف الاحساسات الانسانية العميقة ما استطاع معه أن يتناول كل مظاهر الحياة الانسانية وكل الشخصيات مهما اختلفت مهنها أو مكانتها الاجتماعية بالعرض والتحليل في عشرات من الروايات احاطت بكل شيء حتى سماها مؤلفها في آخر حياته « بالكوميديا الانسانية » موزعا لها بين أبواب مختلفة .

(٣) Peau de Chagrin هو الجلد المعروف عند صناع التجليد بجلد الشجران وهو جلد معز أو حمير أو غيرهما ، ولكن لفظ « شجران » في اللغة الفرنسية معناه « الحزن » أيضا ، ولقد لعب بلزاك على المعنيين ، ولكننا آثرنا ان نترجم اللفظ بالمعنى « الرمزى » فقلنا « جلد الاحزان » .

فلسفية أكثر منها رواية بمعنى الكلمة . لقد كانت لبلزاك عبقرية من القوة بحيث تستطيع أن تلهو بكل شيء .

« وصورة دوريان جرى » Picture of Dorian Grey من هذا النوع ، ولنلخص فى كلمات ما أذكر عن موضوعها : رسم مصور صورة لشاب جميل أغدقت عليه كل المواهب ، وارتكب الشاب أخطاء وخطايا، ولكنه ظل محتفظا بجماله الخارق ، بينما أخذت تظهر على الصورة التى اخفاها باحكام أمارات القبح والضعف الواحدة تلو الاخرى كلما ارتكب الشاب اثما من الآثام ، وامتد به العمر على تلك الحال حتى كان يوم ثارت فيه ثائرته ، فانقض على الصورة يبغى تحطيمها ليفلت من قسوتها ، واذا به يخر صعقا ، فرفعوه مثقلا بأوزار حياته الذميمة أمام صورة نضرة تشع الضياء كأول عهدها . يكفى أن نقص تلك الحكاية التى تكتنفها تلك الخوارق لنفهم أن «ويلد» (١) قد كتب أقصوصة (٢) أخلاقية بل نستطيع أن نقول أقصوصة وعظ .

---

(١) Oscar Wilde (١٨٥٦ ــ ١٩٠٠) : شاعر روائى انجليزى ، اتهم بالاباحية فسجن سنتين مع الاشغال الشاقة ، ولكن فيما خلف من روح الفكاهة ومن نفاذ الفكر ولطافته ما يغرى بقراءة ما كتب .

(٢) Conte Philosophique في اللغة الفرنسية عدة الفاظ تطلق على أنواع مختلفة من الحكايات .

أ ــ Roman : واصل معناها الاشتقاقى كما كانت تستعمل في القرون الوسطى كل حكاية شعرا او نثرا حقيقية او خيالية تكتب « باللغة الرومانية » ، وذلك أنه بعد سقوط روما في القرن الخامس الميلادى استمرت اللغة اللاتينية في بلاد الامبراطورية المختلفة تتطور الى ان نشأت منها عدة لغات تسمى الى اليوم باللغات الرومانية langues romanes. نسبة الى روما ، ومنها اللغة الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية على نحو ما نرى اليوم لهجات مصر والشام والعراق وشمال افريقيا تتطور من اللغة الفصحى . ولكن رغم ذلك ظلت اللغة اللاتينية الفصحى في كل تلك البلاد لغة العلم والادب الى أن كان القرن التاسع فاخذ الكتاب والشعراء يكتبون باللغات الرومانية التى كانت تعتبر عندئذ لهجات عامية . ومن هذا المعنى أيضا اشتقت كلمة romantique رومانتيكى للعبارة عن الادب الرومانتيكى الذى تكون مذهبا في اوائل القرن التاسع عشر ، وذلك لان انصار هذا المذهب نادوا بالرجوع الى ما كتب في بلادهم بلغاتهم الرومانية يستلهمونه كأصل من أصولهم القومية وكمنبع للأدب بدلا من الرجوع الى اليونان واللاتين كما كان يفعل الادب الكلاسيكى .

وتلك معانى هذه الالفاظ الاشتقاقية التاريخية ، ولكن الاصطلاح لم يلبث ان اعطاها معانى جديدة ، فاصبحت الـ Roman كل رواية طويلة تسهب في الوصف والتحليل وسرد الوقائع ، وأصبحت كلمة romantique تفيد مذهبا ادبيا بعينه ، ولقد ترجمنا كلمة Roman كلما لاقيناها بلفظة «رواية » .

ب ــ Nouvelle : معنى اللفظ اللغوى « الخبر » ولكنه في الاصطلاح يفيد حكاية اقصر من الرواية Roman واطول من الاقصوصة Conte على نحو ما كتب بروسبرميريميه Prosper Mérimée (١٨٠٣ ــ ١٨٧٠) وهو أكثر من كتب حكايات من=

وكانديد (١) فولتير من الجودة بحيث تضمن المجد لكاتبها. وهذه الرواية الصغيرة ليست رواية ، وانما هي اقصوصة فلسفية ، بل انموذج لهذا النوع من الاقاصيص .

لقد ذكرت ما اتفق من كتب ولا أرى ضرورة للاكثار من ذلك اذ بجانب تلك المؤلفات التي تسمى روايات والتي هي في الحقيقة اقاصيص فلسفية ، لدينا عدد من الحكايات التي تتوافر لهـــا شروط الرواية بما تحوى من تصوير جميل للشخصيات أو للاخلاق ، ولكنها رغم ذلك تحمل موضوعا ، اذ تنمى فكرة أو تنتهي الى التدليل أو البرهنة على امر ما . ومن هذا النوع الكثير من روايات الطبيعيين وبخاصة روايات اميل زولا (٢) .

وانه لجـديـر بالملاحظة أن نذكر أن الروايات أو الحكايات ذات الموضوع يمكن ان تقص أو تلخص في ســهولة ، اذ تظهر مرامي المؤلف الخفية في كل جزء من اجزاء الكتاب . فالمؤلف الذي لا يعرض فلسفة الاقصـــوصة يعهد بها عادة الى اشـــخاص الرواية الذين يلعبون دور المعقب (٣) في الكوميديا ، فقارىء الروايات اذا أراد أن يلخص كتابا من

ـ ذلك النوع . تقع الـ Nouvelle عادة فيما لا يزيد من مائة صفحة مقتصرة على السرد السريع والوصف المختصر والتحليل الموجز ، وهذا نوع شاق يتطلب مهارة كبيرة في الايجاز مع التركيز ، وقد ترجمنا هذا اللفظ بكلمة « قصة » .

حـ ـ Conte وهي القصة الصغيرة على نحو ما نعرف في مجلاتنا ، وأخص من برع في هذا النوع في فرنسا Guy De Maupassant (١٨٥٠ ـ ١٨٩٣) الذي ترجمت الى لغتنا الكثير من اقاصيصه ، وقد ترجمنا هذه اللفظة « باقصوصة » .

د ـ ثم هناك الفاظ عامة لا تفيد معنى اصطلاحيا محدودا ولا تدل على نوع ادبي بعينه مثل narration, récit وهذه ترجمناها بحكاية او قصص .

(١) Candide اقصـــوصة فلسفية لفولتير Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) الشاعر الثائر الفيلسوف الفرنسي الذائع الصيت . عاش في القرن الثامن عشر ، قرن الفلسفة ، فكتب أقاصيص فلسفية منها أقصوصة كنديد .

كنديد بطل الأقصوصة ومعنى اللفظ اللغوى (الساذج) ، وموضوع الحكاية كما يدل عليه عنوانها الكامل (كانديد او التفاؤل) السخرية من التفاؤل والمتفائلين وبخاصة الفيلسوف الالماني Leibniz (١٦٤٨ ـ ١٧١٦) الذى كان يقول : (انني على خير حال في خير عالم ممكن) ، والشاعر الانجليزى الكسندر بوب Alexandre Pope (١٦٨٨ ـ ١٧٤٤) وغيرهما .

وقد قاد فولتير الرجل الطيب الساذج كنديد واستاذه بنجلوس Pangloss الى حيث ذاقا المر من الامراض والحروب والمذابح والتعصب والاضـــطهاد الديني والنصب والقرصنة في اثناء سياحتهما في بقاع الارض حتى انتهى بهما المسير الى الرجوع الى حديقتهما المتواضعة بالاستانة يزرعانها وقد عادا من ضلالهما الساذج .

(٢) Emile Zola (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢) : رأس الروائيين الطبيعيين في فرنسا .

(٣) raisonneur de comédie . ترجمنا هذا الاصطلاح بلفظ « المعقب في الكوميديا » والمقصود به احدى شخصيات الرواية أو المسرحية يتخذه المؤلف لسانا ـ

هذا النوع يقول من فوره : « رجل يجد نفسه فى هذا الموقف أو ذاك فيضطر الى أن يفعل كذا وكذا مما يدل على ... » .

وموضع الخطر فى هذا النوع هو انه اذا لم يكن المؤلف كاتبا قديرا يستطيع ان ينحو فى كتابه منحى الأقصوصة الخلقية البحتة ، فان الشخصيات لاتلبث ان تمحى خلف الموضوع حتى لكأنه أمام معادلة جبرية : موقف معين يؤدى الى نتائج معينة ، فعلى الشخصيات ـ ارادت أو لم ترد ـ أن تمر بمراحل مرسومة من قبل . نعم ان الروائى القدير يستطيع أن يعالج بلباقة أى موضوع يستهويه ولا يمنعه ذلك من ان ينفث الحياة فى شخصياته ، ولو قيدته بل ولو استعبدته قواعد الفن الذى يكتب فيه ، ولكنه كثيرا مايقاسى وتقاسى معه الحقيقة من تعارض التدليل على الموضوع مع تصوير الشخصيات ، حتى لتتعرض هذه للاختناق كلما تقدم المؤلف من واقعة الى أخرى فى حكايته .

انصت يوما الى قصة كانت تتلى على بصوت مرتفع ، فأثارت الفكرة المتبادرة منها اهتمامى . ثم استمرت القراءة فاذا بى أحس بهذا الاهتمام يتناقص شيئا فشيئا . لقد تمتعت بادىء الامر : « ما أجمله موضوعا » ولكن بالمرور من حادثة الى أخرى فى القصة أخذت اشعر بأنى أستمع الى حكاية مصطنعة بعيدة عن الحياة ، ومن ثم جاءت كاذبة مملة . ثم جعلت أبحث عن أسباب هذا الفتور الذى اعترانى ، واذا بها تظهر لى فجاة مجتمعة فى أن الموضوع كان جميلاً وأن علاجه كان محكما . لقد كانت كل فصول الكتاب كتدليل على نظرية ، حتى لكنت أتوقع من سطر الى سطر تلك الرموز الدقيقة القاسية : س.ص. ح د .

لقد اتخذت كلمة مفكر (١) وكلمة فكرة (٢) فى ايامنا معنى سيئا، وأصبح الجمهور يقابل فى احتقار بينهما وبين كلمات أخرى مثل واقعى وواقعية ، وفى هذا لاشك تبسيط مسرف ، اذ يجب أن نقر بأن خطر الافكار انما يتهددنا بأن يحجب عنا رؤية الحقائق فيسلبنا ماتحمل من معنى (٣) .

= يعبر عن آرائه الخاصة كما نرى في كوميديات موليير حيث توجد دائما شخصية تنطق بآراء المؤلف فيما تثير حوادث المسرحية او تصرفات الشخصيات من امور .

(١) idéologue

(٢) idéologie ومعنى هذه الالفاظ idéologue هو المتشيع للمذاهب الفكرية الولوع بها و idéologie التشيع لهذه المذاهب ، وقد ترجمناهما بلفظى فكرة ومفكر لضرورة الموضوع والسياق الجديث .

(٣) يريد المؤلف أن يقول انه لا يجوز أن نقع نحن أيضا فريسة لفكرة أن الواقعية تقتل التفكير المجرد لنكون بدورنا مفكرين ، وبذا نقع فيما نعيبه . والواقعية الحقة تعرف القسط في النظر الى الاشياء كما هى دون اسراف أو تحيز .

وفي اعتقادي أن الكاتب الروائي لا ينبغي له أن يذهب الى أحد الطرفين فيطرح كل موضوع ، اذ هناك روايات يتحتم أن يكون لهذا موضوع ، وكم في هذا النوع من تحف أدبية (١) بل تحف رائعة • ومع ذلك أرى أن الرواية الحقة تتميز عن الأقصوصة الاخلاقية او الفلسفية بانه لاموضوع لها . الرواية الحقة في جوهرها صورة أو معرض صور، ولكنها ليست صورا ساكنة اذ سرعان ما تأخذ في الحركة أو الحركات تأتي بها لذاتها لا لتجتمع للتدليل على فكرة . فشخصيات الرواية عندما تحيا حياة حقيقية تولد بنفسها الحوادث ، وتحدد المواقف التى ان حدث ان دلت على شيء أو اتضح أنها تحمل درسا فانما يكون هذا اتفاقا لم يقصد اليه المؤلف ، ولا حرص على أدائه . والرواية الحقة — التي يندر أن تحمل درسا أخلاقيا كالحياة — من الشاق ان نقصها او أن نلخصها ، بل ان نفهمها بحيث انني عندما أرى النقاد يتعثرون في ذكر الحكاية التي يحتويها كتاب ما ، أحس بانتباهي يستيقظ لساعته ، اذ الحياة بدورها — تلك الحياة التي نتخذها أنموذجا لنا — من الصعب أن نقصها .

لابد للمؤلف من كثير من التضحية وانكار الذات ليتخلى عن الموضوع عندما يكتب رواية ما . ولكم من مرة سمعت روائيين جديرين بالاحترام يحاولون تفسير كتبهم ، فيقول أحدهم : « انها مشكلة الوحدة والتعدد لا أقل ولا أكثر » ، ويصيح الآخر : « انه النزاع بين الشرق والغرب معالجا في شكل روائي » . ومنهم من يرمون في قصص جيدة الى التحدث عما يلي الحرب من مشاكل أو عن تلك المعضلة الخطيرة « معضلة مسئولية الآباء » ، وأما « قصة رجل » أو « قصة أسرة » فذلك مايتنازل القليلون الى ذكره . وأرهفهم نفسا لايستطيع الثبات لاغراء الفكرة فلا يقول انها قصة رجل أو امرأة ، بل انها « قصة الرجل أو المرأة » ..

اني ولا ريب أقدر وأجل الطموح ، ولكني في الحق لا أحب إلا طموحا يتحقق بل يجب أن ننفذ الوعود التي لم نقطعها (٢) •

---

(١) Chefs d'oeuvre.

(٢) يريد الكاتب أن يقول انه يجب أن نعمل صامتين لتأتي اعمالنا تحقيقا لوعود لم نقطعها وانما نفذناها في صمت ؛ وهو لا يواجه هنا مسألة اخلاقية قدر ما يواجه مسألة ادبية ، وسوف نراه يقرر ان الرواية الجيدة لا تكتب حسب خطة موضوعة من قبل وتحقيقا لفكرة سابقة ، وانما هي تصوير مباشر للناس او الاشياء كما هم ، فالروائي الحق لا يقول انه يريد ان يصور الغيرة مثلا فيتصور اشخاصا يحملهم على الغيرة بمظاهرها المختلفة حملا وفقا لفكرته المكونة من قبل ، بل يصور ما يراه في ملاحظاته اليومية كما هو ، ولتمثل الصورة ما تمثل من غنى الواقع الذى كثيرا ما تختلط فيه الاشياء والمشاعر بحيث يدخل في الغيرة مثلا ما ليس منها وهكذا . والروائي في ذلك كالرجل العادى الذى يعمل دون ان يعد بالعمل .

... انه من الشاق إن نصمد لاولئك الذين يدفعهم حب الاستطلاع الى السؤال ، ولقد يتفق لي احيانا ان يعنيني لزوم الصمت فاستسلم وأفسر كتبي ، فاقول اني أتحدث عن مسائل كبيرة ، عن محاكمات أو عن أفكار أساسية .. الخ (١) اني لأعرف لمن لا يدفعني الى أمثال تلك المرافعات ما يستحق من عرفان بالجميل .

لا تأتي الشخصية الروائية أنموذجا بمجرد خلقها ولكنها قد تصبح كذلك . لابد للمؤلف من شيء كبير من السذاجة ليخلق شخصية نموذجية . والروائي الحق لا يقول سأصور فرنسيا متواضع التعليم من فرنسيي القرن العشرين «.وانما يصور رجلا على الفطرة » (٢) ثم يتفق ان يمثل هذا الرجل أصدق تمثيل الفرنسي في أوائل القرن العشرين ، بل — وان يكن هذا أكثر ندرة — قد يمثل الانسان في ذاته، انسان كل زمان وكل مكان ، ولكن تلك الصور لا ترسم وفقا لخطة سابقة (٣) .

الشخصية النموذجية صورة ساذجة يصورها فنان كبير، يرسمها هو أولا ثم تصبح بعد ذلك صورة لشعب أو لجنس او لعالم بأكمله ، اذ يحاكي العالم كله تلك الشخصية على غير قصد منه ، حتى ولو كانت مضحكة ، وفي النادر اذا كانت سامية .

خلق الشخصية النموذجية هو الذي يحدد فيما بعد فكرتها عند المؤلف أحيانا وعند الآخرين في كل حين . فثلاثة قرون من النقد هي التي سكبت في « هملت » أفكارا ومذاهب وفلسفات أكثر مما كان يستطيع شكسبير نفسه أن يتصور .

انه وان يكن التاريخ مصدر خلق مستمر لوقائع جديدة ، فان الموضوعات محصورة ، ولقد حرروا قائمة بالمواقف التمثيلية ، كما يمكن أن نعدد أغراض الشعر ، وكذلك الامر في موضوعات الروايات اذ يمكن احصاؤها ، وكل جيل يتناولها فيعالجها فيستنفدها ، حتى أصبح من الخير ان نطرحها كلية أو ان نردها الى خطوط لا اهمية لفن البناء فيها . وانه لمن الخير « لروائية المألوف » أن تبسط بعيدة عن كل موضوع ، وتلك روائية صريحة حرة من كل فكرة سابقة ، وفي هذه الخاصية ميزتها كما فيها خطرها . وهي اذا لم تحاك منطق الحياة لن تستعيض عنه بذلك المنطق المرسوم للأقاصيص الاخلاقية .

والكاتب الروائي الذي يستغل موضوعا ، يحاول أغلب الاحيان

---

(١) مانظننا بحاجة الى لفت القارىء الى مافي كلام المؤلف في هذا الموضوع وفي غيره من سخرية نافذة .

(٢) bonhomme (٣) programme.

ان يستخلص نخامه ، اذ يسير وراء فكرته الى النهاية حتى ولو انتهى به المسير الى مآلا يعقل ولا يشاكل الحياة ، وفي مصاحبة الافكار مايبعث الدوار . ولو أن فلوبير (١) استطاع أن يتم « بوفار وبيكوشيه (٢) » التى نعرف مشروعها لترك لنا أنموذجا للرواية ذات الخطة ولكن الموت قد ترفق به .

وليس أخلب للب الكاتب من رواية ذات موضوع عندما تثب فكرتها لاول مرة الى نفسه ، اذ تراها كقطعة أثاث تامة التركيب ، ليس عليه الا أن يملأ أدراجها . وعندما يصبح الموضوع مفضـوح المعالم ، تأتى الرواية مبتذلة لا أصالة فيها ، ولكم ذهب الموضوع ، ولو كان أجمل الموضوعات وأجدها ، بقيمة الروايات .

***

كثيرا مايفخر رجال السياسة الذين تعودوا صدم العقول بالعبارات الخاوية الطنانة « بأنهم يسـايرون فكرتهم الى النهـاية » وهم لاشك مخطئون ، فالجراح الماهر « لايساير قط فكرته الى النهاية » اذ يعمل مبضعه فى اللحم الحى فيحس أنه مسئول ، ولهذا يعرف كيف يقف عند الوقت الملائم فيغير من مناهجه أو يعود أدراجه .

والروائى الحق يساير شخصياته الى النهاية ، ولكنه لايحرص على أن يساير آراءه الى النهاية . لا آراءه هو ولا آراء كائن من كان .

فاستر قاق الفكرة للكاتب ليس استرقاقا حقيقيا بل تيسيرا ، والفن لايحيا بغير جهد القيود ، والتيسير يقتله .

---

(١) Gustave Flaubert (١٨٢١ ــ ١٨٨٠) مؤلف رواية مـدام بوفارى Madame Bovary التى يرى فيها الكثير من النقاد أعمق ما كتب في اللغة الفرنسية من روايات . وله غيرها عدد قليل من الروايات التاريخية او الواقعية ومن بينها رواية بوفار وبيكوشيه . «وفلوبير» كاتب واقعى وان لم يخل من نزعات رومانتيكية . لكنه في الحقيقة لم يصدر من مذهب ادبى بعينه وانما التمس الحقيقة النفسية وجمـال الفن وصبر على علاجهما في اسلوب دقيق رائع تضرب به الامثال في العناية والجودة .

(٢) Bouvard et Pécuchet رواية نشرت سنة ١٨٨١ بعد موت المؤلف : موضـوعها جنديان هما بوفار وبيكوشـيه يتلاقيان على مقعد فيؤاخى بينهما ضـعف الاستعداد وتفاهة النفس وينعقد عزمهما على أن يعيشا سويا ليشتريا بما ادخرا منزلا وعزبة بالريف ويحاولان الزراعة والتقطير وصـناعة المأكولات وتجفيفها،ولكنهما يفشلان في كل مشروعاتهما بعد أن يجوبا خلال علوم الكيمياء والتشريح والجيولوجيا والآثار . ولقـد كان في عزم فلوبير أن يعود بهما الى مهنتهما الاولى : مهنة الناسخين ، ولكنه مات قبل أن ينتهى من تحقيـق ما أراد بعـد أن أفنى عشرة أعـوام من حيـاته في كتـابة هذه الرواية .

ومن الواضح انها رواية ذات خطة ، اذ هى استعراض لكل مظاهر النشـاط البشرى وسخرية منه ، وتطير به يمليه ما عرف عن فلوبير من تشاؤم .

فن القصص عندما يتخلص من الافكار والموضوعات والصناعة الآلية يظل مثقلا بالقيود والصعوبات ، وما من كاتب لاينتهى مرة كل يوم الى حدود قدرته . وهو غالبا لا يصل الى تلك الحدود بمكتبه امام الصحيفة البيضاء ، اذ لا يأخذ فى الكتابة الا بعد أن تكون المواد الاولية قد اجتمعت لديه ورتبت منذ زمن طويل – وانما يصل اليها غالبا فى الحياة نفسها . فهناك يحس بمدى قدرته ومدى عجزه .

وكم من مرة استمع الى رجال أو نساء يتحدثون وسط الجموع فى عربة قطار أو اثناء وجبة طعام فتحدثنى نفسى كل مرة « هنا قد وقعت على صفة نفسية ، أو تسقطت علاقة ، أو لمحت دافعا خفيا ، ولكنى عاجز من أن اصوغ ما اكتشفت الفاظا . ربما استطيع فيما بعد أن أصور ما احسست به ، اما الآن فلا . وانا اعلم انى اذا أصبت التوفيق فسيأتى من بعدى غيرى يفيد من تجاربنا وتساعده عبقريته فينجح فى العبارة عما لمحناه نحن مجرد لمح » .

لقد كان فنانو القرون الماضية فنانين كبارا ، وفى كتبهم ما يثبط من هممنا ، ولكنه من الخطر أن نظن أنهم قد قالوا كل شىء ، واننا قد اتينا الى العالم متاخرين ، وما اظن أن أحدا قد تأخر فى المجىء .

فصورة الانسان لن تكمل ابدا . الا طوبى لمن يستطيع أن يضيف الى قسماتها قسمة . لقد استطاع « جيل رنار » (١) الكاتب الصغير ان يرى ويثبت خطوطا ربما لم يحلم بها العملاق بلزاك نفسه. والمناهج دائمة التقدم ، دائمة التمشى مع الجديد ، ان الواقع لا ينفد .

اننى اعرف ما اريد أن اعمل ، ولكنى لا استطيع دائما ان اعمله . كما اعرف ما لا يجب ان اعمل ولكنى لا استطيع دائما آلا اعمله .

الواقع لا ينفد ، ولكن ذلك لايفيد انه سهل الادراك .

لقد كثر الهذر حول مايسمونه « الواقع المصور بالعدسة »(٢) اى « الواقع الفوتوغرافى » .

---

(١) Jules Renard (١٨٦٤ – ١٩١٠) شاعر وروائى ومؤلف مسرحى فرنسى – لقد عرف هذا الكاتب نفسه بقوله انه « صائد صور » Chasseur d'images يرسمها فى مشقة ولكنها صور مركزة صادقة ، وله حس اخلاقى دقيق يجعل من « يومياته » Journal وثيقة هامة وفى الحق اننا لا نعرف من امثال روايته الشهيرة « جلد الجزر » Poil de Carotte « القليل ، سماها كذلك لان بطلها طفل سماه اهله بهذا الاسم للون شعره الذى كان فى لون الجزر وقد اضطهدوه لنزوات خفية غريبة فى طبائع البشر بخبث خلد هذا الطفل المسكين كمحط للآلام » souffre-douleur والى امثال هذه الشخصية الرائعة يشير لاشك دبهامل فى ملاحظته الصادقة .

(٢) Réalité Photographique فى هذه الفقرة يعرض الكاتب للروايات التى تدعى انها تصور الواقع تصويرا فوتغرافيا ، وهو يرى ان الواقع المصور على هذا النحو ليس هو الواقع الحقيقى ، وانما هو الواقع الظاهرى الذى لا تغنى المعرفة به شيئا =

وفي الحق لاشيء أكثر ثروات واعمق انسانية وأقل اعتدالا من تلك الآلات المصورة ، وابسطها تصبح طورا شاعرة وطورا جافة حمقاء، بل قد لاترى شيئا على الاطلاق .

وبوجه عام أحسب أن آلة التصوير اليوم تتجه اتجاها مقلقا ، اذ تجمل المناظر ان لم تجمل الرجال . ولست أبغض تلك الآلة ولكني ارفض غالبا أن أقبلها حكما أو شاهدا اذ انهـــا تفسر أن ما نسميه خطأ بالواقع الفوتوغرافى ليس فى الحقيقة الا واقعا مبتذلا غليظا سهل المنال، أو أن شئت فقل واقعا غير مفسر أو مفسرا تفسيرا مختصرا .

ونحن لا نستطيع أن نفوه بكلمة « الواقع » فى تعليق على الروح الروائية دون أن نبعث طائفة من الخصومات القديمة . أولاها واقعية اللغة فى الحوار .

ولو أنه طلب الى أن أدل على كتاب واضح الواقعية في تصـــوير شخصياته وفى محاوراته لذكرت «ابن أخى رامو»(١) وشخصية « ابن الاخ» هذه التى يسميها «ديدرو»(٢) « هو » لاتدع فرصة تمر دون أن نقضى فى نفسها ، ولذا يقول : «اننى جاهل . مغفل . كسلان » ، ومع ذلك نرى هذا الجاهل يتحدث عن أصابعه التى لاتحذق الموسيقى بقوله : «لقد انتهت تلك الأصابع الحمقاء ــ رغم مانزل بها ــ الى التعود على أن تستقر على معازف البيان وأن ترف فوق الأوتار» .

هذا «وابن أخى رامو» تحفة أدبية وأنموذج للواقعية الحية لانستطيع أن ننقد منه سطرا واحدا .

= وأن كتابات هؤلاء الروائيين الذين يزعمون انهم يتخذون من أنفسهم آلات مصـــورة ، كثيرا ما تاتى اما شاعرية أى خيالية بعيدة عن الواقع واما جافة حمقاء لا ترى من الاشياء غير مظاهرها بل قد لا ترى حتى تلك المظاهر ولا تحسن رصدها ، وهى ان فعلت تجنح عادة الى تجميل الواقع ، كما لا تقصر على التصوير بل تمدوه الى التفسير ، وياليته كان تفسيرا صحيحا عميقا لا كانها مبتسرا كما يفعلون . وسوف نرى الكاتب يقول بأن الواقع ليس ما تقع عليه حواسنا ، بل هو ما خلف المظاهر الخارجية ، ولكم من مرة لا يكون في حركاتنا الخارجية الا محاولة لاخفاء مشاعرنا الحقة ، فالكاتب الواقعى الصادق هو من « يمد يدا تفتح الابواب وتشق الحجب » .

(١) Neveu de Rameau حوار فلسفى روائى ، مزيج من الفلسفة والسخرية بطله « هو » الذى يجعل منه ديدرو ابن أخ للموسيقى الفرنسي Rameau احد خصوم المؤلف . و « هو » فيلسوف متهتك خليع فهو صورة واقعية ، الفه ديدرو حوالى سنة ١٧٦٢ .

(٢) Diderot (١٧١٣ ــ ١٧٨٤) فيلسوف وروائى وناقد فرنسى شهير ، احد واضعى دائرة المعارف الفلسفية التى ألفها مفكرو وكتاب القرن الثامن عشر ، التى مهدت النفوس للثورة ، بل لعله أقوى الجميع شخصية وأوضحهم اثرا في تلك الحركة .

وفي رأيي أن هذا المثل يفصل في مشـــكلة الحقيقـــة المسماة بالفوتوغرافية في الحوار الروائي •

ولكني في الحقيقة أجنح الى الاعتقاد بأن استعمال تراكيب اللغة الدارجة واخطاءها باطراد في الحوار نظرة صبيانية •

وأن الكاتب المـــاهر هو من يستطيع أن يطعم اللغة بخصائص لغة الافراد أو المقاطعات على أن يدخلها في روح اللغة العامة •

ومعنى هذا هو أن روح اللغة أعنى خصائصها المميزة يجب أن تحترم حتى في الحوار الواقعى نفسه • والواقعية الحقيقية ليست في الألفاظ وانما هى في الآراء •

يجب على الكاتب الروائى في القرن العشرين – ان كان ممن يعترفون بالجميل – أن يشكر ويبارك كل يوم أميل زولا ، ذلك الرجل العبقرى الذي تناولته بالسوء ألسنة قوم لم يقرءوه قط ، وقد قام من أجلهـــا بالكثير من التجارب التى سخر فيها حياته • وما أقصد بذلك الى تقسيمه العظيم للطوائف الاجتماعية فحسب ، بل الى محاولاته الجريئة في ميدان واقعية اللغة ثم الى غرامه المفرط بأن يصف كل شيء ، وأن يقـــول كل شيء ، وأن يلقى على كل شيء ضياء يعشى الابصار ، ضياء يكاد لايبقى من الاسرار حتى على الشبح •

وثمة خصومة أخرى لم يفرغ منها بعد ، هى واقعية الآراء • وأعنى بذلك امكان أن تبدى بالفعل هذه الشخصية أو تلك ما ننسب اليها من آراء ، اذا وجدت في ظروف اجتماعية معينة •

لقد أخذنا ننتصر على نقد العوام وان كنا قد لاقينا في ذلك جهـدا كبيرا • ولكم سألنا اشد القراء محبة لنا : « انك تصور موظفا كتابية ولكن هل أنت على ثقة من أن موظفا كتابيا يستطيع أن يبدى آراء كتلك التى تنسبها اليه ؟ » (١) •

واذا كانت هناك واقعية حمقاء فهى تلك التى سممت فلسفتهـــا الجمهور ، فحملته على القاء أسئلة كهذه •

نعم انى أصور موظفا كتابيا • نعم انى نسبت اليه هذه الآراء • ولكن المهم ليس أن يكون قد رأى بالفعل آراء كهذه ، **وانما المهم هو أن يقر هذه الآراء اذا اكتشفها في نفسه • المهم هو أن يجسم المؤلف الروائى**

---

(١) اظن أن الاشارة لشخصية الموظف الكتابى سلفان Salavin الذى كتب عنه دبهامل خمسا من رواياته كما ذكرنا في المقدمة •

تلك الآراء الغامضة التى تستبد فى الخفاء بنفوس لا عداد لها ، وأن ينفث فيها الحياة .

ان الرجال حتى البسطاء منهم – والبسطاء بوجه خاص – لايضنيهم عدم القدرة على تكوين آراء لهم ، وانما يضنيهم الاحساس بتلك الآراء احساسا ناقصا . يضنيهم أن يعجزوا عن أن يحددوا بالالفاظ آراءهم الخفية التى هم أشد مايكونون تعلقا بها ، وأن ينفثوا فيها الحياة بفضل تلك الالفاظ .

فالمؤلف الروائى الذى يقتصر فى تصوير شخصياته على الآراء الواضحة التى تبدى عادة ، لايؤدى رسالته ، اذ من واجبه أن يمد يدا جريئة تفتح الابواب وتشق الحجب .

كثيرا مايضيف أولئك الذين يلقون أمثال السؤال السابق تعليقا على سؤالهم «أستطيع أنا المحامى أو أنا صاحب المصنع أن أرى آراء كهذه ولكن الموظف الكتابى ... !! لقد ملأتنى دهشة» . ولقد روح عن نفسى دائما مافى أمثال هذا الاعتراض من سذاجة وغرور ، فالمهم هو أن تقر وتقبل الآراء التى توضح .

وأما عن نفسى ، فقد لخصت رأيى فى هذه الخصومة المدرسية بسطرين فى أوائل «رجلين»(١) . أوضح آراء رجل يعيش ، ثم اختتم بهذه الكلمات : «لقد فكر فى هذه الأشياء وفى آلاف غيرها ولكنه لم يكن يعلم أنه يفكر فيها .» اذا كنت لاأعين الناس على معرفة ما يفكرون فيه فما عملى اذن فى هذا العالم ؟

* * *

قواعد الادب الكلاسيكى فى فرنسا تحظر الخلط بين الانواع ، فتقول بوجوب فصل الكوميديا عن التراجيديا على المسرح .

وتلك قاعدة مخطئة مضرة بالادب الروائى ، ومن ثم لايمكن تطبيقها عليه . فقد يمكن أن تتطلب الروايات ذات الموضوع نوعا من الضياء لايتغير ، فبعضها دراما خالصة وبعضها مهزلة صريحة ، أما الرواية الحقيقية فمثلها مثل الحياة، نسيجها خيوط من الضياء والظلمة . فلست أتصور رواية كبيرة تخلو من روح الفكاهة (٢) نعم ان بعض الروايات

(١) Deux hommes احدى روايات ديهامل .

(٢) Humour كلمة انجليزية استعارتها اللغة الفرنسية للدلالة على « روح الفكاهة » .

التاريخية مثل سلامبو (١) قد تكون في غنى عن تلك الروح . أما الروايات التي تصور الرجال — الرجال المعاصرين — فكيف لا تستخدم تلك الأداة النفسية القيمة التي نجدها في روح الفكاهة ؟

ان تلك الروح قوية عنيفة بل غليظة أحيانا عند بلزاك ، ولكنهـا أداة نفيسـة في يد هذا المؤلف الطموح . ولو أن هـذه الكلمة لم تـكن موجودة لوجب خلقها لدكنز (٢) ، كما انها تكون جزءا كبيرا من عبقرية ستندال (٣) ، أما دوستيوفسكي (٤) فيمزج ألوان المآسي بروح الفكاهة الصقلبية ، تلك الروح التي أعطانا منها في قصصه نماذج صافية دالة فتملك اعجابنا .

وهاردي (٥) مؤلف كبير محروم على ما يظهر من تلك الروح ، ولكن مؤلفاته غارقة في الشعر ، ولو أن روح الفكاهة اختفت واختفى معهـا الشعر لما أمكن أن يعوضهما شيء .

---

(١) Salammbô رواية تاريخية لجوستاف فلوبير . ظهرت سنة ١٨٦٢ — تقع حوادثها في قرطاجنة بعد الحرب البونية الثانية التي كانت بين قرطاجنة وروما ، وبها وصف رائع لثورة الجنود المرتزقة ضد رؤسائهم من القرطاجنيين ، ثم خصومة رئيس هؤلاء المرتزقة في سبيل Salammbo بنت هملكار ومحبوبة الرجلين . وانه وان يكن التحليل النفسي سطحيا في تلك الرواية ، فان بها من قوة الوصف والتجسيم مايجعل منها رواية خالدة ، والى هذه الحقيقة يشير ديهامل ، فان روح الفكاهة قد لاتكون لازمة في محاولة بعث الماضي .

(٢) Charles Dickens شارلز ديكنز (١٨١٢ — ١٨٧٠) : روائي انجليزي ذائع الصيت ، استعمل روح الفكاهة التي يشير اليها الكاتب في حملته القاسية على النفاق والاثرة وفي نقده المر لبني وطنه ، والكل يذكر رواياته الرائعة التي ترجم بعضها الى لغتنا مثل « قصة المدينتين » و « دافيد كوبر فيلد » وغيرهما .

(٣) Stendhal اسم مستعار لـ Henri Bayle (١٧٨٢ — ١٨٤٢) : روائي وناقد فرنسي ، امتازت رواياته بعمق التحليل النفسي ودقته ، ومن أشهرها « الاحمر والاسود » التي سيشير اليها ديهامل فيما بعد .

(٤) Fedor Dostoiewski (١٨٢١ — ١٨٨١) : روائي روسي شهير ، امتازت رواياته وكتبه أمثال : « الجريمة والعقاب » و « الأبله » و « اللاعب » و « منزل الموتى » و « يوميات كاتب » بالعمق والتشاؤم .

(٥) Thomas Hardy (١٨٤٠ — ١٩٢٨) : روائي وشاعر انجليزي ذائع الصيت ظل يكتب نثرا الى سنة ١٨٩٥ ، فأصدر عدة روايات تمتاز بدقة وصفه للمناظر الطبيعية وللأخلاق بالريف وبنفاذ فهمه للنفوس ، الى أن ظهرت روايته « جود المغمور » فأثار مافيها من تشاؤم ضجة النقاد ، فقرر المؤلف أن يلجأ الى الشعر ، فأصدر عدة مجموعات تخفف فيها موسيقى الالفاظ من قسوة تشاؤمه .

وجلزورثى (١) كاتب مجيد ومصور أمين للبيئة الاجتماعية ، ولكنه لايملك روح الفكاهة ولا وهب ملكة الشعر .

وبول بورجيه (٢) لم يعرف روح الفكاهة ولا عرف الشعر فى تصوير المشاعر والشهوات فجاءت فلسفته النفسية فلسفة تعليمية (٣) .

لقد حلت الكلمة الانجليزية Humour محل كلمتنا القديمة Humeur (٤) المتعددة المعانى . لنتقبل أذن لفظة Humour كما هى عن بينة ولنحاول تحديد معناها .

تختلف روح الفكاهة عن الهزل (٥) الحقيقى . فالهزل يرمى الى اثارة الضحك ، كما أن له أسلوبا خاصا ولغة خاصة ومعجما خاصا ، بحيث يصعب أن يجاور المآسى . وهى تتميز عن المرح الخالص الذى هو حالة نفسية عارضة يطول أو يقصر دوامها ، وليست لها قدرة على الكشف عن حقائق النفس .

روح الفكاهة نوع من التغيير فى الضياء يمكننا من أن نرى الشىء فى كافة مظاهره ، ولقد يكون بين بعض تلك المظاهر تناقض ، بفضله تكتسب تلك المظاهر دلالتها . ان فى روح الفكاهة نوعا من الخفر والتحفظ وتملك النفس لايعرفه الهزل الصريح ، ولكنها ان أصبحت مذهبا يصطنع انحرفت عن سبيلها وأخطأت هدفها ، اذ لايجوز أن تظهر الا تحت ضغط الملابسات . والهزل عزمه منعقد منذ البدء على اثارة الضحك ، بينما الفكاهة لاتضحك دائما ، وان ضحكت فذلك لانها لاتستطيع أن تتجنب هذا الضحك .

روح الفكاهة استعداد طبيعى فى نفس صادقة لا تصدف عن أن تعرف كل ماترى ، وأن تقول كل ماتعرف .

---

(١) John Galsworthy (١٨٦٧ — ١٩٣٣) : روائي ومؤلف مسرحي انجليزى نال جائزة نوبل سنة ١٩٣٢ ، وأخص ماوصف هو الطبقة المتوسطة في انجلترا ، ولقد تأثر في مسرحياته بالكاتب النرويجي ابسن ، ومسرحياته ثائرة ، لانها دائما تتناول فكرة بالمناقشة وفي هذا ما يضعف عناصر الدراما .

(٢) Paul Bourget ولد سنة ١٨٥٢ ومات اخيرا : روائي وناقد فرنسي خصب ، ومعظم ماكتب تحليل لحالات نفسية وعلاج لمشاكل أخلاقية ، وقد انتهى به الامر الى الدعوة الى الرجوع الى نظام الحكم الملكي والى التمسك بالديانة الكاثوليكية ، مما نفر منه قراءه الكثيرين في فرنسا ، وقد ترجمت الى العربية أخيرا روايته « التلميذ » أو على الاصح مهلب لها .

(٣) Didactique.

(٤) Humeur : معناها الحالي في اللغة الفرنسية « حالة نفسية » أو « مزاج » عندما نقول معتدل المزاج ، مرح المزاج او حزين المزاج .

(٥) Le Comique.

لقد شبت قديما خصومة حول لغة المؤلفين الروائيين ، فقال البعض بوجوب صقل تلك اللغة صقلا دقيقا وفقا لأصـــول فن الكتابة ، وأكد آخرون أن الغاية من الرواية هي أن تخلق شخصيات ، وأن تنفث فيها الحياة ، وأما العناية بالاسلوب فأمر ثانوى ٠

يخيل الى أنى أدرك أسباب الخصومة ، فالأسلوب المسمى بالأسلوب الفنى(١) وهو الذى دعت اليه جماعة «جونكور»(٢) قد أسـاء الى النثر الروائى أكبر اساءة اذ أثقله بمحسنات متكلفة نأت به عن الأســـلوب الطبيعى ٠

أتريد مثلا لذلك ؟ خذ مدام جورفزيه Madame Gervaisais واقرأ «هنالك وقد أحست فى دلال بالجهد من حمل رشاقة قدها ــ أكتاف مضناة وعنق طويل ــ أخذت تنصت برفق ، وبلبها شرود حتى لكأنه لا ينصبت منها غير ابتسامة وجهها الى ذلك الحديث المهشم الذى كانت تتبادله تلك الحلقة الضيقة التى جلست على مقاعد كستها طنافس صورت عليهـــــا خصائل الدين» ، وهذا ولا ريب مثل للأسلوب الذى أجج الخصومة التى أتحدث عنها ٠

وتلك خصومة لم تخمد بعد ، اذ لايزال الكثير من المؤلفين يعتقدون انه مادام هدفهم الاساسى هو أن يجذبونا فننساق فى أعقاب حوادث رواياتهم ، ونشارك شخصياتهم الوهمية فى مصائرها ساعة من الزمن ، فانه من الخطر أن نتمهل لنتذوق لذة التفاصيل ٠

وحل المعضلة فيما أرجح سهل ، فاما أن يجذبنا القصص فهـــذا ماأسلم به ، ولكن على أن تكون تلك الجاذبية حقيقية وهذه قاعدة مطلقة ٠ اذ يجب أن يكون فى كل صفحة مايحملنا على أن نعود اليها فنجد فيها من الجمال مايبرر قراءتنا لها من جديد فى تمهل ٠ ولهذه القاعدة أصولهـــا التاريخية ، فتحف الادب هى التى تمليها ٠ عد مثلا الى قراءة مطلع رواية

---

(١) Style arriste.

(٢) Goncourt اخوان ادمون Edmond (١٨٢٢ ــ ١٨٩٦) وجيل Jules (١٨٣٠ ــ ١٨٧٠) : مثل فريد في تاريخ الاداب ، لقد كتبا معا عدة روايات منها مـــدام جرفيزيه التى يشير اليها ديهامل فيما بعد ٠ ولما مات جيل سنة ١٨٧٠ اســتمر ادمون يكتب وحده كما لو كان أخوه حيا ٠ وقد اراد الاخوان أن يكونا واقعيين فيصـــورا كل النفوس علت أو اتضعت وأن يكونا حديثين فيظهرا ماصارت اليه النفوس من تعقد ، وان يكونا فنانين في الاسلوب وهذا المنحى الاخير هو الذى اتلف بعض ماكتبا بما ساقهما اليـه من تكلف ، ولقد كان ادمون يجمع في بيته الادباء بعد موت أخيه كل اسبوع ، ومن هــذه الاجتماعات تكون مجمع جونكور الادبى الموجود الان ، والذى يتكون من الروائيين والكتاب المشهورين وذلك بالانتخاب ، وهذا المجمع يمنح كل سنة جائزة للرواية باسم جائزة جونكور ولها اهمية كبرى ، فهي غالبا باب المجد للروائيين ٠

« الاب جوريو(١) » أو خاتمة «الأحمر والاسود(٢) » أو أى فصل من « مدام بوفارى(٣) » اقرأ من جديد «دون كيشموت(٤)» فانك لن تلبث أن تقر ما أقول ٠

انى أقول بلغة جيدة ، لغة سليمة واضحة ، غنية ، حية ، كما أقول بلغة موسيقية ، وذلك لأنه لما كانت روائية المألوف تحذر شعر الألفاظ كما تحذر الواقعية الصاخبة ، ولا تتمسك بغير الواقعية الحقيقية واقعية النفس ، فانه لاغنى لها – لكى تتضح فتثير اهتمام القارىء وتحتفظ به – من أن تستخدم الايحاء الموسيقى تلتمسه فى التاليف بين جرس الالفاظ الذى له سيطرة بالغة على حواسنا وأرواحنا ٠

من ذا الذى يقول أو يجرؤ أن يقول ان الاسلوب الروائى ضعيف الأثر ونحن لا نقرأ الكثير من المؤلفين لا لشىء الا لأن موسيقاهم لا تتفق وموسيقانا ٠

لقد كتب «سان سانس»(٥) يقول : «من المستحيل أن نتحدث بغير أن نغنى ، لافى الشعر فحسب بل فى النثر ، وما أن ترفع صوتك ، أو تستثيرك عاطفة قوية حتى تأخذ فى الانشاد ، واذا بك ترتجل دون أن تشعر نشيدا تتخلله أجزاء من ألحان» ٠

هذا عن موسيقى اللغة ، فماذا نقول اذا كان الحديث عن الآراء ؟

الموسيقى تصحب كل آرائنا ٠ باستطاعتى – حتى وأنا اقرأ أو أكتب – أن أتمتم ببعض ألحان تتفق فى اتساقها ونغماتها مع سير تفكيرى ، وأنا أتخير تلك الالحان بوحى غريزتى ثم اتركها عندما لاتعود تلتئم وموسيقاى الداخلية ٠ ولكنه من النادر أن ينشأ النشاز بمحض المصادفة ، فمثلا قلما أستطيع أن أستمع الى موسيقى تعزف وأنا اقرأ أو أكتب دون أن يؤلمنى شىء من التناقض ٠

ان موسيقى الأسلوب فى نظرى شرط لازم لسيطرته على النفوس ٠ نعم ان الروائى الحق هو الذى يعرف قبل كل شىء بعضا من أسرار الحياة ، ولكنه أيضا رجل يلجأ فى العبارة عما يعلم الى موسيقى لفظية يستخدمها بطبيعته فيتميز بها كأمارة خفية لخصائص نفسه ٠

---

(١) Le Père Goriot احدى روايات بلزاك ٠
(٢) Le rouge et le noir رواية لستندال ٠
(٣) Madame Bovary رواية فلوبير ٠
(٤) رواية سرفنتيس الاسبانى ٠
(٥) Saint-Saens ولد بباريس سنة ١٨٣٥ ومات بالجزائر سنة ١٩٢١ موسيقى كبير ، يذكر له الكل أوبرا « سامسون ودليله » وغيرها ٠

لا أكاد أجرؤ أن أقدم الى الكتاب الناشئين أى نصيحة فى هذا الميدان الشاق ، ومع ذلك يتفق أن تدفعنى الرغبة فى خيرهم الى أن أقول لهم : «ليكن اللحن فى أول كتبكم رائعا ، يجب أن تجذبوا القارىء فى غير تعثر ولا مشقة ، وهو لم يعرف بعد شخصياتكم الروائية ، ولا تملكته وقائع قصتكم ، أو قوة تصوركم ، أو صدق نظركم النفسى . ليكن فى موسيقى الأسلوب مايسهل له الأخذ فى المغامرة . أجيدوا الغناء كى تأسروا تلك النفوس الشاردة التى تريدون أن تستولوا عليها » .

قلت : لغة سليمة ، واقصد بذلك لغة بسيطة . اذ من الهواة الذين ملوا كل شىء من يفضل التنقيب عن شواذ اللغة وشواذ التراكيب ، واهما أن أصالة الكاتب فى الالفاظ والتركيب ، بينما الأصالة الحقيقية ليست فى الصياغة وخصوصا عند الناثرين ، وانما هى صفة فى النفس . حتى ليذكرنى هؤلاء القراء الفاسدون بأولئك النهمة المنحلين ، الذين يحلمون بالأطعمة الخارقة فيودون أن يأكلوا «أوكار القطاة»(١) أو «خراطيم الحلاليف»(٢) أو «أجنحة الزقا»(٣) وتلك نزوة ساعة ، نزوة حقيرة .

ان غرائب الأسلوب ليست شيئا ، وانما العبرة كما قلت بتلك الموسيقى التى لاتوصف ، والتى ماهى الا نغمات نفس .

قال بسكال : «من الناس من يريد الا يتحدث الكاتب عن أشياء سبق أن تحدث عنها الآخرون والا رموه بأنه لم يقل شيئا جديدا ، وأنا أفضل عندئذ أن يتهموه باستخدام كلمات قديمة . اذ لن يصح فى منطقهم أن تكون أفكار بذاتها حديثا جديدا بتغير وضعها على نحو ماتؤلف الألفاظ أفكارا مختلفة باختلاف الجمع بينها» .

وعندى أن هذه الفقرة الرائعة تفصل فى كل ذلك النزاع الذى يدور حول الصناعة والأصالة .

أضف الى ذلك أن الببغاوات تقلد بنجاح الكتاب الذين ترجع أصالتهم الى شذوذ فى الصناعة ، بينما يشق تقليد أولئك الذين تصدر أصالتهم العميقة عن جوهر نفوسهم .

وأعود فأكرر ، لغة جيدة واضحة ، أى لغة سهلة سليمة ، لغة نقية لا لغة يشلها التفيقه . فمن المتفيقهين من يكيل السباب لكتاب مجيدين من أجل أخطاء تافهة قد تكون مقصودة . وعندما يسمح كاتب ذو خبرة

---

(١) des nids d'hirondelle .

(٢) de la trompe de tapir .

(٣) de l'aileron de requin ، والزقا كلب البحر .

طويلة وعلم ثابت وموهبة ظاهرة لنفسه بأن يقول : Par contre (١) أو Partir à Paris (٢) أغلق عينى وأسلم له بما يقول اذ أن لديه مايبرر هذا الخطأ التافه ٠

لقد تحدث بول كلوديل (٣) ، وهو الشاعر العظيم الواسع المعرفة باللغة ، عن هذه المسألة أصدق الحديث ٠

***

وأقول فى النهاية انه عندما نريد الحكم على من يتخذون من كتابة القصص مهنة لهم ، يكون المهم شيئا واحدا ، هو أنهم اذا كانوا قد أفادونا معرفة بالانسان أى بأنفسنا ، تقدمنا لهم فى سخاء بشكر المقر بالجميل ، فاذا لم يكن ذلك فليسلونا وليحملونا على أن ننسى أنهم وان لم يقدموا لنا شيئا فقد أخذوا منا أشياء (٤) ٠

(١ ، ٢) هذان الاصطلاحان « Par contre » وعلى العكس » ، « Partir à Paris يسافر الى باريس » مستعملان في اللغة الدارجة ، ولكن من الكتاب من يتحرج في استعمالهما مفضلا عليهما Partir pour Paris, au contraire .

(٣) Paul Claudel سياسي وكاتب وشاعر فرنسي ولد سنة ١٨٦٨ ، أثر رجوعه الى الايمان بالكاثوليكية سنة ١٨٨٦ على اتجاهه النفسي تأثيرا بالغا نهائيا ٠ له عدة مسرحيات وعدة دواوين من الشعر ، ومذهبه مزيج من الواقعية والرمزية ، ولكنه قبل كل شيء متصوف وله في النقد كتاب هام هو فن الشعر L'art poétique واليه يشير ديهامل ٠

(٤) اى اخذوا منا همومنا بان سلونا منها بفضل مافي رواياتهم من خيال ومغامرة ، وبذا يختتم ديهامل هذا الفصل الرابع بما ابتداه به من وجود نوعين من الروايات : الرواية الواقعية ، وهذه تعيننا على فهم الناس والاشياء ومن ثم على فهم انفسنا ، ثم رواية المغامرات التى تسلينا وتذهب بأحزاننا ٠

الجزء الرابع

كنيسة فرنسا الأدبية واقتراحات في الإنسانية الحديثة

— ١ —

جورج برنديس(١) G. Brandès في كتاب «أصدقاء رومان رولان»(٢)

---

(١) جورج برنديس G. Brandès فيلسوف وناقد دنماركي، ولد ومات بكوبنهاجن (١٨٤٢ — ١٩٢٨) . نفس مفتحة النوافذ . نقل الى الدنماركة آراء « تين » و «ستيوارت ميل » ، وله عدة كتب منها « نقد وصور » (١٨٧٠) « علم الجمال المعاصر في فرنسا » (١٨٧٠) ثم كتابه الكبير « تيارات الادب في القرن التاسع عشر » (١٨٧٤ — ١٨٨٢) الى عشرات غيرها في الفلسفة والتاريخ والادب القديم والحديث . فلقد كان ناقدا عالميا وصحافيا ماهرا وكاتبا خصبا ، وجه الحياة الاجتماعية والسياسية والادبية في الدنمارك مايقرب من نصف قرن ، كان خلاله مثلا للتجربة الكاملة والنظرة العالمية .

ولما كان يجيد عدة لغات كما يقول ديهامل ، فان تفضيله للكتب التى تفقد كثيرا من قيمتها اذا ترجمت يمكن أن يكون صادرا عن اعتزازه بمعرفته لتلك اللغات وقدرته على قراءة ماكتب في كل منها بدون حاجة الى ترجمة تذهب ببعض مافي تلك الكتب ، وبذا ينفرد هو بقراءتها كاملة غير منقوصة .

(٢) رومان رولان Roman Rolland اديب وروائي ومؤلف مسرحي فرنسي ، ولد في كلامسي Clamécy سنة ١٨٦٨ ، درس دراسة جامعية الى أن حصل على الدكتوراه ثم اشتغل بتدريس تاريخ الفن في مدرسة المعلمين العليا في باريس ، وقد عرف بعدة مسرحيات تاريخية وفلسفية وعدة دراسات لرجال الفن والادب وبخاصة الموسيقيين منهم كتبه عن « بيتهوفن » و « مكيل آنج » و « تولستوى » . وأهم ماكتب رواية من عدة اجزاء (جان كريستوف Jean Cristophe) يقص فيها حياة موسيقى ، وعند نشوب الحرب سنة ١٩١٤ كتب رولان كتابه الشهير « فوق المعركة » ، وفيه يعلن رغبته في أن يحلق فوق الامم مما اثار احتجاجات صارخة ، وبعد انتهاء الحرب أخذ رولان يجنح الى الاشتراكية الى أن انتهى باعتناقها ، وله في هذا الاتجاه عدة كتب ، وقد نال جائزة =

صفحة تبدو ودية وان تكن لاذعة • كتبها قبل موته بزمن قليل وفيها يقول : « انى أفضل الكتب التى تفقد الكثير من قيمتها اذا ترجمت » . وهذا نص الفاظ برنديس الذى اراد فيما يظهر أن يدلل بضرب المثل على أنه فى كل لغة بشرية أشياء لايمكن ترجمتها • ولقد كان برنديس عالما كبيرا يفهم عدة لغات ويتكلمها ، ومن ثم يتضح مافى هـــذا الرأى الذى أورده عنه من ظلال الأثرة . فهو رأى رجل من هواة الذكاء ، يرى فى كل لغة سرا ، وفى كل أدب معبدا مغلقا ، لا ينفذ الى قدس أقداسه الا من يعرف «كلمة السر» ومن يؤدى طقوسه المقدسة الخفية •

والواقع أن فى كل نتاج أدبى لشعب ما أو لرجل ما جزء يمكن القول بأن العالم كله يستطيع أن يتمثله ، فالكتاب الذى يترجم ترجمة جيدة يصبح جزءا من التراث العقلى لأمة أخرى ، بل ويشغل منه أحيانا مكان الصدارة •

فعيون أدب سويفت[1] Swift ودانيل فو[2] D. Foe لم تلبث أن اتخذت مكانها فى المكتبات الفرنسية ، وقد ظهرت كتبهما بفرنسا فى زمن كان الناس يجيدون فيه فن الكتابة ، وكانت التراجـــم التى نشر الكثير منها بدون أسماء مترجميها ، نماذج للأسلوب الجيــــد والذوق السليم •

ولا ريب أن الأدب الفرنسى غنى بالمؤلفات التى تسهل ترجمتها • ومع ذلك فانه لايدين الى التراجم بنفاذه الى العالم ، ولا بما أصاب من مجد حقيقى . فلقد رأيت فى احدى مسارح «هلسنجفور» [3] Helsingfors ممثلا فنلنديا عجوزا يمثل « البخيل » لموليير • وقـــد ظل موليير برغم تنكره فى لهجة «فينموينين» [1] Vainamoinen الغريبة العذبة هو « موليير » ؛ وان نكن قد أحسســنا وأدركنا أن جزءا من تلك العبقرية الفذة لم ينفذ من المصفاة كما يقول الكيمائيون ؛ وأن بعضا من خصائص هذه المسرحية الخالدة لا يمكن فصله عن لغتها الأصلية .

= «نوبل» سنة ١٩١٦ وكتاب أصدقاء رومان رولان Liber amicorum R. Rolland الذى يشير اليه ديهامل كتاب وضعه أصدقاء الكاتب للدفاع عنه واظهار ما يملك من مواهب .

(١) سويفت Swift (١٦٦٧ — ١٧٤٥) : كاتب انجليزى ولد فى دبلن ؛ مؤلف « رحلة جوليفر » وغيرها من القصص ، وقد اثر تأثيرا عميقا فى الادب والسياسة بنشراته العنيفة المرة ، كما دافع بحرارة عن قضية أيرلندا .

(٢) دانيل فو D. Foe (١٦٦٠ — ١٧٣١) : روائى انجليزى ، مؤلف « روبنسن كروزو » وقد مات فى بؤس مدقع .

(٣) هلسنجفور Helsingfors : هى عاصمة فنلندا .

(٤) Vainamoinen لعله اسم المثل .

وانه لمصير رائع ذلك الذى وفقت اليه الآداب الفرنسية اذ كسبت انتباه العالم المتحضر ، لا بما قدمت اليه من مؤلفات ذات معنى انسانى عام فحسب ، بل أيضا بما في لغتها الأصلية من جمال ، اذ يحلو للعالم الأدبى أن يقرأ في الفرنسية مؤلفات الادب الفرنسى • ولقد رأينا عبقريات كبيرة رائعة كتولوستوى ودوستوفسكى توجه الحديث الى العالم كله دون أن تدفع الكثير من سامعيها الى تعلم اللغة الروسية ، بينما لايخالجنى شك فى أن عددا من الاجانب قد تعلم الفرنسية ليقرأ مؤلفينا فى لغتهم الأصلية •

واللغة الفرنسية ليست اليوم من اللغات المنتشرة فى المعاملات التجارية ، فالرجل الذى يريد أن يسافر وأن يعقد صفقات كبيرة يختار لذلك احدى اللغتين الانجليزية أو الألمانية ، وهكذا أصابت هاتان اللغتان لأسباب زمنية انتشارا يمكن أن يقال ان الكتاب يستفيدون منه ، أو على الأصح تستفيد منه قضية الروح • وأما نحن فأمرنا على خلاف ذلك . اذ أن الاجانب يتعلمون لغتنا لا لدافع مادى ، بل لانهم يتذوقون كنوز فرنسا الروحية ، فموليير وبلزاك وأناتول فرانس ، هم الذين يشقون فى هدوء الطرق التى يجدها تجارنا معبدة أمامهم ، فيسلكونها دون اعجاب ولا اعتراف بالجميل •

وهذا وضع جدير بأن يدرس ، اذ أن غنى الأدب الفرنسى وتنوعه على خطرهما لايكفيان لتفسير تلك الظاهرة • والذى لامرية فيه أن هذا الأدب يحمل الى العالم رسالة يجب أن ننظر فى مصدرها وطبيعتها •

* * *

ليس من شك فى ان توحيد الحضارة يعتبر من أغلب الظواهر التى نستطيع نحن رجال القرن العشرين أن نلاحظها ، وتلك الظاهرة ـ التى يفسرها ماصارت اليه المعاملات بين الشعوب والأجناس من سهولة بالغة ـ ماتزال فى نمو مطرد • ونحن وان كنا لانستطيع أن نتنبأ بما سيكون من نتائج ، الا أننا نعلم ونحس بقوة منذ اليوم أنه بعد سنوات قليلة ـ وفيما عدا الظروف الخاصة بطبيعة الأجواء ـ لن يكون على سطح الارض غير نظام واحد للحضارة الانسانية نظام ممل مضطرب •

فحتى القرن الماضى وحتى تلك الحمى الاستعمارية القوية ، وتلك الثورة الاقتصادية التى شاهدها القرن الأخير ، وبالرغم من قصص الرحالة وأعمال التجارة كان العالم لايزال موزعا بين عدة أنماط من الحضارات التى وان لم تكن مغلقة كل الاغلاق دون كل تبادل ، فقد كان كل منها يحتفظ بكنوزه بل وبأسراره . فبين الحضارة الآسيوية بنوع

خاص والحضارة المسماة أوروبية أو غربية لم يكن أحد يستطيع أن يتوقع تداخلا عميقا أو تهادنا أو تحالفا ٠

نعم ،ان العقول البصيرة في الغرب كانت تعلم أن حضارات آسيا ليست خليقة بالاحتقار ، ولكنه كان لدى هذه العقول دائما من الأسباب مايحملها على الاعجاب بتلك الحضارة الغربيـــة التى تتمتع بها ، تلك الحضارة التى اتحدت فيها منذ عشرة آلاف سنة عدة بؤر كانت فى الأصل متباعدة ٠ فمصر وبلاد المشرق واليونان وايطاليا وشمال أفريقيـــا قد أنتجت تلك الحضارات التى وان تكن مختلفة بل ومتباعدة أحيانا ، فقد انتهت بالاجتماع في حضارة واحدة يمكن أن نسميها حضـــارة البحر الأبيض ، ثم مالبثت أوروبا الخصبة بالعبقريات أن انضمت اليها بأسرها٠

انه من الشاق ، بالرغم مما بذلت من محاولات طول حياتى ، أن نميز بين ما هو زمنى وما هو روحى فى تلك الحضارة ، وانما نستطيع أن نؤكد انه فى ذلك الجزء من العالم ــ الذى تغمر شواطئه مياه البحر الأبيض المتوســط والمحيط والبحار الشمالية ــ قد أخذ يتكون كنز روحى من التحف الفنية والمؤلفـات الأدبية ، وعلى وجه خـاص من المناهج العقلية والتقاليد الأخلاقية ، ثم من المذاهب الفلسفية والدينية

نعم انه لا يجوز أن نعتقد أن هذه التجربة البشرية البطيئةالمعجزة قد تتابعت في غير توقف ولا تردد ولا انقطاع ، ولكننا نلاحظ انه فى أثناء أكثر أطوار التاريخ اضطرابا قد وجد دائما علماء خلصوا جوهر تراثنا الثمين فنسخوا الأصول الشهيرة وعلقوا عليها ، وبذلك بعثوا تقاليدنا العقلية ومكنوا لها .

وفى الحق انى لأعرف نفوسا ممتازة ترى فى حركة بعث العلمى فى فرنسا حدثا مستطير الشرر لولاه ــ فيما يزعمون ــ لنمت ببلادنا ثقافة أصلية ، ولكن هذا الزعم الباطل بالرغم مما فيه من بريق خلاب ، يصرفنا بلا ريب عن أسلاب مجيدة ليسلمنا الى الندم على شبح لا يكاد يدركه الخيال . ومن الثابت أن كل كبار كتابنا وشعرائنا السابقين على النهضة أو أغلبيتهم الساحقة قد تغذوا تغذية تامة بالثقافة اليونانية اللاتينية ، حتى أنهم ليعتبرون طلائع ذلك «البعث» ، والدليل القاطع البين على وجوبه لا على أن نندم اليوم على حدوثه وقـد قضى الأمر وسار الزمن سيرته .

وكما يحدث فى بعض أطوار التاريخ أن تعلن بقوة هذه المجموعة البشرية أو تلك رغبتها فى أن تكون أمة ، كذلك نادى الكتاب والشعراء الفرنسيون حوالى منتصف القرن السادس عشر برغبتهم فى خلق أدب

قوى ، وابتدءوا بالتقنين للغتهم ، ثم انعقد عزمهم فجأة على الرجوع الى تقاليد البحر الأبيض والمطالبة بتلك الحضارة الجليلة الفنية التى كانوا يعرفونها ويستطيعون فهمها دون سواها ، ولقد تقدموا بتلك الحضارة، وفى سبيل ذلك تضافر شعب بأكمله .

وفى الحق أن أكبر حدث وقع فى القرن السادس عشر كان فى الميدان الروحى ، وأعنى به انعقـــاد العزم اذ ذاك انعقادا مفاجئا على الرجوع الى التراث القديم . ولم يكن ذلك من اجدادنا تخليا عما تميزوا به من خصائص كمجموعة بشرية ، بل اخضاعا لتلك الخصائص لنظام عقلى عريق مجيد ، على نحو ما نرى فى بعض الأسر أحد ابنائها يصدف عما اعتزم من مشروعات خاصة ليستمر فى عمل أبيه ، وذلك لكى يحافظ على ثروة الأسرة ومجدها .

وفى الحق أن كل شيء كان يدعو فرنسا الى تلقى هذا التراث ، فهى من بين الشعوب التى تسـمى لاتينية ــ لطول ما خضعت لسيطرة روما وتأثرت بالثقافة اللاتينية ــ تشغل مركزا جغرافيا ممتازا ، اذ تمتـد الى مســافات طويلة بين الشـعوب الجرمانية والشـعوب الأنجلو سكسونية. ولقد قاومت فرنسا دائما وبكل قواها النفوذ الجرمانى وذلك بالرغم مما حملته اليها الغزوات الاجنبية . ولقد وجدت فى الجهر بما أرادته من أن تظـل بثقافتها من بلاد البحر الأبيض ، وأن تـكون الوارثة للحضارة اليونانية اللاتينية ما تستمد منه سلاحا روحيا قويا تقاوم به . ثم انها سبقت أسبانيا وايطاليا الى التمتع باســتقلالها السياسى ، فهى فى القرن السادس عشر لم تكن كهذه (ايطاليا) موصولة المصير بالامبراطورية النمساوية ، ولا كتلك (أسبانيا) ممزقة الأوصال بشتى الخصومات الداخلية ، ومن ثم كانت أقدر الشـعوب اللاتينية على تلقى هذا التراث الجليل والعمل على تنميته .

يجب أن نكون من هواة الأوهام لنندم على ماكانت تستطيع فرنسا انتاجه فى عالمى الأدب والروح لو أنها أسلمت نفسها فى عناد الى عبقرية جنسها (١) فمن الممكن أن نتخيل هذا الشعب الخليط القـــائم على

---

(١) يشير الكاتب هنا الى راى قال به المؤرخ الكبير «كاميل جوليان» C. Jullian (١٨٥٩ ــ ١٩٢٣) ، الذى استطاع بما بذل من جهود لا حد لها أن يكشف عن تاريخ فرنسا الغالية ، أى فرنسا قبل أن يفتحها يوليوس قيصر في النصف الثانى من القــرن الاول قبل الميلاد ، فيضمها الى الامبراطورية الرومانية وينقل اليها اللغة والحضارة اللاتينية، وبذلك يقضي على لغة وحضارة الغاليين سكان فرنسا الاصليين ، وفي كتاب جوليان الضخم عن « تاريخ الغال » (٨ أجزاء) مايثبت انه كانت لهم حضارة يأسف جوليان لقضاء الرومان عليها ، ويرجح انه لولا غزو الرومان لنمت تلك الحضارة الغالية نموا أصيلا =

حافة القارة بارض غنية حسنة الموقع ، وقد أنتج أشخاصا ممتازين ومؤلفات رائعة ، ولكنه من غير شك لم يكن لينتج شـــيئا مشابها لذلك النتاج الخارق فى عالمنا الحديث ألا وهو الأدب الفرنسى .

وعلى من يريد أن يعرف معنى هذا الادب فى أربعة القرون الاخيرة أن يتصور الأدب الفرنسى كشخصية معنوية موحدة .

لست أجهل أن روح كل لغة وروح كل شعب يمكن الى حد بعيد أن يقارن بالشخصية البشرية التى تولد وتدلف من الطفولة ثم تنمو وتصل الى النضج فالقمة ، ومنها الى الانحدار فالموت ، ومع هذا فكثيرا ما تكون حياة الشعوب فوضى ومصادفات ، اذ نتبين الكثير من النشاز وعدم التناسب بين تلك الشخصيات الـكبيرة التى تنهض فى تاريخها كمراحل متتابعة ، كما أن هنالك أطوار صمت طويل تبدو بالنسبة الى شعب ما كفترات أفول لروحه ، ولكننا على العكس من ذلك ندهش عندما ننظر فى تاريخ ذلك المفكر الـكبير والـكاتب المجيد الذى أسميه « الأدب الفرنسى » لـمـا نراه من استمرار فى الجهـد واطراد جميل فى التجارب ثم لانسجام تاريخه واتساق نموه .

قررت فرنسا اذن حوالى ١٥٤٨ أن تنهض بعمل جليل ، وأن تخصص له قرونا ، ولقد أدرك كل فرد من الفرنسيين الذين اشتركوا فى هذا العمل الدور الذى كان عليه أن يلعبه وسط المجموع ، كما قبل الخضوع لذلك النظام السامى الذى أملاه عليهم جلال الموقف ، ولكن ما هو ذلك العمل الذى توافر عليه شعب بأكمله ؟ ما هو ذلك الأثر الذى أراد الأدب الفرنسى أن يخلفه ؟ أجيب لفورى أنه صورة للانسان .

لقد سعى الأدب الفرنسى فى غير كلال الى أن يصور الانسان من أخمص قدميه : الانسان فى ذاته والانسان الاجتماعى . الانسان الداخلى والانسان الخارجى . الانسان الظاهر والانسان الخفى . الانسان الذاتى والانسان الموضوعى .

ان المرء ليأخذه العجب عندما يدرس المؤلفات وتسلسلهـا ، فيرى أن العمل قد تم منذ أربعة قرون على درجات وبواسطة فرق متتابعة ، فقد

دائما . ولقد عاد جوليان الى هذا الرأى فنماه ورجحه في كتابه الجيد الشهير «من الغال الى فرنسا » الذى نشره سنة ١٩٢٢ وركز فيه خلاصة ابحاثه في اسلوب قوى وحـرارة وطنية اخاذة . ولكن الكثيرين لم يسايروه في رايه ومن هؤلاء « ديهامل » كما يرى القارىء فهو يفضل ان تكون فرنسا الوارثة المجيدة لليونان واللاتين على ما كان يمكن ان تصـل اليه من حضارة أصيلة لو أن الرومان لم يغزوها ويدمغوها بحضارتهم . وما اشبه هذا الموقف بموقفنا اليوم ازاء الفرعونية والوحدة العربية .

تلت المؤلفات المؤلفات والتجارب التجارب فيما يشبه حياة فردية حكيمة القيادة • لقـــد سار الأدب الفرنسى سيرة رجل مدهش يتقدم فى حذر واصلا السير فى نفس الاتجاه •

لابد للتفكير والكتابة من أداة دقيقة • من لغة محددة أمينة ، ولهذا اتجهت جهود كبار فرنسى القرن السادس عشر الى اثراء اللغة والتقنين لها ، وأنا لا أجهل أن لفظة تقنين قد تثير مخاوف بعض النفوس ، فاللغة كائن حى لا يجوز ــ كالشعب الذى يتكلمها ــ أن يمسك عن الغذاء والتغير بل والحياة ، ولكن اللغة الفرنسية استطاعت أن تحيا ولا تزال تحيا دون أن تتخلى عن تلك القواعد الآمرة الضمينة لكل انتاج عقلى بل وشرطه الأساسى •

لقد عيب على شعراء « البلياد(١) الفرنسية » ادخالهم فى اللغة لطائفة من الألفاظ الاغريقية الأصل الغريبة عن الخصائص الصوتية للغتنا ولكنه عيب تافه • فهل احتفظنا من اللغة الغالية الأولى بأكثر من مائتى كلمة أو أصل ؟ وفقهاء اللغات يؤكدون أننـــا لانعرف حتى معنى كلمة « نعم » فى لغة الغال • لقد تغذت اللغة الفرنسية بكمية كبيرة من العناصر المتباينة ، واللغة اليونانية ــ التى أخذنا منها الكثير من الأصول بطريقة مباشرة أو خلال اللغة اللاتينية ــ من خير مصادرنا وبخاصة اذا ذكرنا ما تمتاز به تلك اللغة من اشراق وما فى أصواتها من جرس غنى •

وانه لجدير بالنظر أن نلاحظ اهتمام الكتاب والشعراء والفلاسفة بأن يبلغوا بأداة تعبيرهم الى مرتبة الكمال ، وذلك بتثبيت قواعد النحو واستعمالاته وتنمية المعجم وتنقيته ثم ضبط الاملاء وتحديد الترقيم •

---

(١) البلياد La Pleiade اسم لسبع بنات تقول الاساطير اليونانية انهن قتلن أنفسهن يأسا فمسختهن الآلهة سبعة نجوم يكون برجا من ابراج السماء يقع الى شمال برج الثور ولقد استعار الشعراء هذا الاسم ليطلقوه على انفسهم عندما كانوا يكونون جماعة ذات مذهب شعرى معين ، وأول من سموا انفسهم بهذا الاسم هم سبعة من شعراء الاسكندرية الذين عاشوا أيام بطليموس فيلادلف فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وأشهرهم تيوكريتوس صاحب الريفيات الشهيرة ، ثم هذه الجماعة الفرنسية الهامة جماعة رونسار واخوانه الستة الذين ظهروا فى القرن السادس عشر أيام هنرى الثالث ، واليهم يرجع الفضل فى رفع اللغة الفرنسية الى مستوى اللغة الادبية بعد ان كانت لغة عامية الى جانب اللغة اللاتينية ، وكان سبيلهم الى ذلك كتابة الشعر الجيــد والنثر المتين بالفرنســية الى جانب دفاعهم عنها ودرسهم لها •

واشارة ديهامل هنا انما تنصرف الى ما أخذه (مالرب) على شعراء البلياد من كثرة استعارتهم للالفاظ الاجنبية وبخاصة الالفاظ اللاتينية واليونانية وادخالهم لها فى اللغة الفرنسية وفى هذا يقول الناقد الفرنسي الشهير (بوالو) فى قصيدته الطويلة المسماة (فن الشعر) : « ان رونسار وجماعته قد انطقوا ربة الشعر الفرنسية باللغتين اللاتينية واليونانية » ..

وانها لدهشة سارة أن نرى « كورنى(١) الكبير » يقتتل مثلا لكى يرسم الحرفان V و W برسمين مختلفين ، وأنا لا أرى اسرافا فيما يبذل من جهد فى هذا التنظيم والتقنين . فلقد وقعت بين يدى طبعات للمفيل(٢) Malleville وينسراد (٣) Benserade رأيت فيها اسم الشاعر يكتب من صفحة الى أخرى مع تغيير متعبب فى الرسم ، وانه لمن الشائق أن نرى الترقيم يقنن له شيئا فشيئا . فهو فى الحق فقير عند البعض ، غنى مسرف فى الدقة عند الآخرين من أمثال الأب ســـان ريال (٤) Saint Réal الذى كان يضع العـــلامة (و) بعـــد كل لفظة . ولـــكم من عبرة فى أن نرى المؤلفين ينتزعون من عمال الطبـــاعة مهمة وضع الترقيم لينجو به عن التخبط كأداة ثانوية هامة لازمة للغة والاسلوب .

ونحن فى غنى عن أن نقول ان مثل هذه الابحاث لا تشغل المكان الاول من اهتمام أصحاب تلك العقول الخـــالقة ، الذين هم حقا بناة العبقرية الفرنسية ، ولكن موضع العجب هو أن نلاحظ الطريقة الضمنية التى اصطلحت عليها الفرق المختلفة لتنجز فى نظام ما صغر من هـــذا العمل وما جل .

* * *

واذا كان من الضرورى أن نبحث عن معنى علم لمجموع ما لدينا من مؤلفات وحقائق ، فانه من الواجب أن نحذر خطر اضـــعاف صفحة من التاريخ الانسانى فى هذا الغنى بأن نقيم من ذلك المعنى مذهبا عاما(٥) ،

---

(١) كورنى الكبير Le Grand Corneille ويقصدون به بيير كورنى Pierre Corneille تمييزا له من أخيه توما كورنى Thomas Corneille . ولقد كان توماه اديبا أيضا ولكن الزمن قد أغرق ماكتب ولم يخلد الا أدب أخيه بحيث ينصرف الاسم كورنى دائما الى « بيير » ، وان كان بعض النقاد يفضلون فى هذه الحالة ان يميزوه بلفظة « الكبير » Le Grand .

(٢) كلود دى مالفيل Claude De Malleville شاعر فرنسى ولد ومات فى باريس (١٥٩٧ — ١٦٤٧) وهو من مدرسة « ماليرب » الشعرية ، ولقد لاقت احـــدى سونتاته Sonnets نجاحا شعريا كبيرا فى القرن السابع عشر ، ولاتزال الى اليوم معروفة فى فرنسا واسمها « حسناء البكور » .

(٣) بنسراد Benserade (١٦١٣ — ١٦٩١) أحد شعراء بلاط لويس الرابع عشر وله قصائد Sonnets & Rondeaux شهيرة .

(٤) سان ريال Saint Réal قسيس فرنسى مؤرخ لايعرف تاريخ ميـــلاده وأما تاريخ وفاته فانه سنة ١٦٩٢ .

(٥) يقصـــد المؤلف بذلك الى انه لا ينبغى ان نرجع كل الادب الفرنسى الى فكرة واحدة ، أو أن نجمع غايته فى هدف نفسعه ثم نحاول اخضاعه له ، اذ لو فعلنا ذلك لاقررناه صادقين عما به من غنى لا يمكن أن يجمعه معنى واحد .

فانه وان يكن كتاب وشعراء العصر الكلاسيكي قد توافروا قبل كل شيء على ايضاح عواطفنا الانسانية ، الا انهم لم يدخروا جهدا في أن يستعيدوا للفن الرفيع أصوله . وهي أصول أثبتت صلاحيتها تلك الحضارة القديمة التي أعجبوا بها وسعوا الى متابعتها وهكذا ردوا الينا ما أحب أن أسميه قواعد الادخار والقسر(١) .

واذا كان رجال الادب الفرنسي في القرن التاسع عشر قد نظروا احيانا الى شكسبير ــ ذلك الشاعر المنقطع النظير ــ كأحد كبار البرابرة ، فما ذلك الا لأن أبحـــاثهم كانت قد نأت بهم بعيـــدا عن تلك العبقرية المغامرة . اذ أن اليونان واللاتين كانوا قد سحروا كبار كتابنا فلم يعودوا يفكرون في غير اثقــــال أنفسهم بالقيود ، وهكذا نراهم يرجعون في مسرحياتهم الى الوحدات الثلاث(٢) كما وضعوا لشعرهم عروضا محكما . واخيرا أخذوا العدة ليبرهنوا على أنهم قد استمدوا مبــــادىء الادخار والقسر في الخلق الفني من الطبيعة نفسهـــا التي ليست حرة كما يهرف البعض ، بل خاضعة لقوانين صارمة وضرورات سامية .

فالفن الكلاسيكي ــ فن راسين وموليير ــ يبدو عند النظرة الاولى مثقلا بالمواضعات حتى لكأنه غريب عن الطبيعة ، ومع ذلك أما يحمل في نظامه القاسي مبادىء الحياة الحيـــوانية والنباتية ؟ ذلك ما نرجحه بل

---

(١) يقصد الكاتب بقواعد الادخار والقسر الى تلك الاصول التي تحكم الفن والتي نجد في اتباعها وفرا لطاقتنا وادخارا من مجهودنا الذي يبدده التخبط والاسراف ، كما انها تقسرنا على اجادة ماننتج ، بل كثيرا مايدفعنا هذا القسر الى اكتشاف قيم ومعان فنية لم نكن نقصد اليها كما اتفق لاكثر من شاعر ان ساقته ضرورة القافية الى لفظ موفق يرفع المعنى أو يخلق معنى لم يدر بخلده ، ومن الامثلة القديمة « أن الفن لايحيا بغير قيود » L'art ne vit pas sans contraintes وهو يرى ايضا أن في تلك المبادىء نوعا من ضبط النفس وعدم الاسترسال في عرض عواطفنا الخاصة على القراء والمبالغة في ذلك كما يفعل الرومانتيكيون .

(٢) الوحدات الثلاث lis trois unités هي وحدة الموضوع ووحدة الزمان ووحدة المكان ، وهم ينسبون القول بضرورة خضوع المسرحية لهذه الوحدات الى ارسطو في كتابه من « الشعر » ، ولكن من يرجع الى هذا الكتاب يجد أن ارسطو لم يقل بغير وحـدة الموضوع ، ويقصد بذلك الى أن تتناول المسرحية ــ كما كان يفعل المؤلفون اليونانيون الذين استقرى عنهم ارسطو تلك القاعدة ــ مشكلة واحدة تدور حوادث الرواية حولها هي فقط . وأما وحدة الزمان بمعنى الا تقع حوادث الرواية في اكثر من أربع وعشرين ساعة ، ووحدة المكان التي يقصد منها الى أن تحدث الرواية في مكان واحد فلم يشترطهما ارسطو ، وان أشار الى وحدة الزمان مجرد اشـارة ، وانما قنن لهما العـالم الايطالي « اسكاليجر » Scaliger في ايام البعث العلمي ، وعنه أخذ ادباء العصر الكلاسيكي هذه القواعد ظانين أنها من وضع أرسطو . وشكسبير لم يخضع في مسرحيـاته للقواعـد ، ولهذا لم يحببـه الكلاسيكيون ، بينما نقله هيجو الى الفرنسية في ترجمة لاقت نجاحا كبيرا عند الرومانتيكيين الفرنسيين ، وفي مقدمة كرومول لهيجو مايدل على فرط اعجابهم به .

مانقطع به • فكل الكائنات الحية تأخذ بمبدأ الادخار ، وذلك لما تعرفه في غموض ــ بحكم غرائزها ــ من أنه ــ لكي تعيش وتصل الى ما قدر لها من مصير وتنهض بأعمال تستطيع البقاء ــ لا يجوز لها أن تنفق كل ما تملك ، بل عليها أن تتبصر فتدخر • والانسان انما يعيش على ما يسلب الحيوانات من دهن مدخر ، والنباتات من سكر • والدهن والسكر من تلك المؤن المتواضعة التى تحرص عليها الحياة كى لا تفنى • ولقد تعلم الفلاح من حياته وسط الحيوانات والنباتات خلق الاقتصاد الذى ركب فى تلك الكائنات فأخذ بمبدأ الادخار (١) ، ولذا تراه يقيم مخازن للقمح ويحفر فى الأرض المطامير كما يبنى خزانات المياه ، وهو لا ينفق قسط كل ما يملك حتى ليتهمونه بالبخل ، ولكنه فى الحقيقة حكيم ، منطقه منطق الطبيعة .

ولقد يبدو غريبا أن نقول ان القواعد الاساسية لفننا الكلاسيكى يجب أن تعتبر شاملة للفلاح الفرنسى • ذلك الفلاح الذى ربما رأينا العالم أجمع يوجه اللوم فى عصرنا الحالى الى خير ما يملك من فضائل(٢)• فالكاتب الكلاسيكى هو ذلك الذى لا ينفق كل ما يملك ، ولا يقول كل ما يعلم ، ولا يهم بأكثر مما يستطيع ، كما لا يتكلم بأعلى مما يسمح له صوته • هو ذلك الذى يحتفظ دائما «باحتياطى» • هو من يضبط نفسه ويضع لها القواعد التى يحافظ على اتباعها • وأما الرومانتيكى فهو على العكس ، ذلك الذى ينفق كل ما لديه بل يبذر ويستدين •

ان هذه المقابلة لتحلو لى وان كنت أحس أنها قد تضر بقضيتى ، اذ تستطيع أن توهم أن الرومانيزم قد حطمت عمل الكلاسيكيين فى فرنسا أو نالت منه ، والواقع أن هذا غير صحيح، فقد احتفظت العبقرية الفرنسية حتى وسط ضلال الرومانتيكيين باحترامها العميق للقيم التقليدية ، ولكل ما أثبت ماضى الانسانية أنه كسب أكيد • ونحن نعلم أنه قد وجد دائما فى فرنسا بعد أسوأ التصرفات الجنونية وأشد أنواع الزيغ خطرا ، رجال قبضوا على الدفة وعادوا بالسفينة الى وسط التيار •

* * *

---

(١) وهى صفة اشتهر بها الفلاح الفرنسي في العالم كله ، حتى ليضربون المثل في فرنسا على الادخار « بجورب الصوف » bas de laine الذى اعتاد الفلاح الفرنسي أن يكنز فيه نقوده .

(٢) يشير الكاتب هنا الى خوفه من انتشار الاشتراكية وتوقعه لذلك ، فالذى يوجه اللوم الى الفلاح الفرنسي او يستطيع ان يوجهه لايمكن أن يكون الا الاشتراكيون وديهامل يخشى أن يصبح العالم كله من هذا المذهب كما يدل على ذلك اشارات كثيرة في كتابه حتى لكأن اللوم لوم الاشتراكية سيوجه الى الادخار الذى هو في اشارة ديهامل مصدر الراسمالية .

ليس الأدب الفرنسي عالما للتجارب التى لا تخضع لنظام ، وانما هو هيئة اجتماعية تحكمها قواعد صارمة ، هو كنيسة لا تقبل الانقسام .

ومعنى كلمة كنيسة جماعة ، وأنا فى الواقع أعتبر الأدب الفرنسى كجماعة ، ولكنها ليست عندى جماعة مختلطة تكونت اعتباطا أو بمحض الصدفة من طائفة من الرجال والشخصيات ، وانما هى مساهمة منسجمة من المؤلفات والعقول تضامنت خلال الزمان والمكان فى نظام وخضوع لغاية ضخمة موحدة .

وأنا أعلم أن هؤلاء الرجال العظام ليسوا مجرد رجال ، كما أعلم أن العقول الكبيرة لا تحسن الدعوة الى احترام العقول الكبيرة ، وأنها كثيرا ما تلوح خارجة على هذا النظام الجليل الذى أحاول هنا أن أكشف عنه ، فلقد قسا بوسييه (١) على موليير وباسكال على مونتينى كما أن مالرب (٢) لم يحترم رونسار ، ولقد مزق روسو(٣) فى كتابه « أميل »

---

(١) بوسييه Bossuet وموليير Molière .

وذلك لما كان من سخرية موليير برجال الدين وكشفه عما فيهم من نفاق فى روايته الشهيرة « تارتيف » Tartuffe التى ترجمت الى العربية كما اقتبست بعنوان (الشيخ متلوف) ولقد كان بوسييه من كبار قسس القرن السابع عشر ، ولذا كان من الطبيعى ان يهاجم موليير . ولبوسييه كتب كثيرة فى التاريخ واللاهوت كما أن له مجموعات قيمة من من خطب الوعظ Sermons و « خطب الرثاء » Oraisons funèbres .

(٢) كان مالرب Malherbe (١٥٥٥ — ١٦٢٨) شاعرا غنائيا قوى الاسلوب محكم الصنعة ولكنه بارد الطبع ، ولذلك لم يكن مجده فى شعره وانما كان فى نقده ، ولقد كان لهذا الرجل تأثير كبير جدا فى تكوين المذهب الكلاسيكى فى فرنسا ، ولقد هاجم كثيرا من معاصريه وبخاصة الشاعر « دبورت Desportes وله على شعره تعليقات هامة تتلخص فيها آراؤه ، وكذلك هاجم شعراء القرن السادس عشر ، أى جماعة البلياد ، ولكنه فى الحقيقة لم يهاجم رئيسهم رونسار بنوع خاص ، وانما أخذ على هؤلاء الشعراء جملة اتلاف اللغة والادب بكثرة الاستعارة من الالفاظ اللاتينية واليونانية والايطالية واللهجات المحلية ومصطلحات أصحاب المهن ، وقد أخذ نفسه بتنقية اللغة والادب من كل عنصردخيل فهو الذى أسس ذلك الاعتدال فى الاخذ عن القدماء على نحو مانرى عند كتاب الكلاسيكية فى فرنسا ، وهذا يفسر لنا قول ديهامل « عدم احترامه لرونسار » .

(٣) يشير الكاتب الى تحليل « روسو » Rousseau لاحدى حكايات Fables « لافونتين » La Fontaine وهى حكاية « الغراب والثعلب » وذلك ان روسو فى كتابه الشهير عن التربية « اميل » Emile يزعم أن الاطفال لايستطيعون أن يفهموا كما يظن الناس حكايات لافونتين ، وذلك لانها — ككل الحكايات — مبنية على مبادىء عقلية واخلاقية لم يدركها الطفل بعد مهما قيل فى بداهتها ، فأين للطفل أن يدرك معنى المكر الذى صدر عنه الثعلب ، أو الغرور الذى أسقط قطعة الجبن من منقار الغراب ... الخ .

لافونتين فى اغتباط وحشى ، كمــــا أظهر بلزاك (١) فى خطاباته أشد الاحتقار لفيكتور هيجو ، ولكنهم كانوا كأبناء بيت واحد ، يختصمون فيما بينهم ويمزق بعضهم بعضا ، ومع ذلك يظلون متحدين فى الاعتراف بدين جماعتهم والاحتفال بمبادىء أسرتهم ، فكبار رجال أدبنا لم يخشوا أن يعلنوا خصوماتهم ، ولكنهم يتحدون جميعا فى الاحترام والطاعة احترام اللغة التى يستخدمونها والغاية التى يسعى اليها الادب الذى هم من رجاله ، ثم الطاعة لتلك القواعد التى أقامتها قرون من الجهد .

ليست هناك كنيسة ولا جمــــاعة حقيقية بغير قواعد جبرية وبغير التزامات ، وانه لمن الغريب أن نلاحظ أن تلك الوحدة الخارقة القائمة على الخضوع والنظام ، قد نشأت بين الشعب الفرنسى الذى اشتهر منذ زمن بعيد بحماسته للفردية • وبفضل هـــــذا النظام استطاعت اللغة الفرنسية أن تظل لغة موحدة • لغة شعبية ولغة علمية ، وبذلك أفلتت من المحن التى تسير اليها اليــــوم اللغة العربية الآفلة هى وغيرها من اللهجات • وبفضله أيضا ظلت تلك المؤلفات التى مضت عليهـــا أربعة قرون سهلة الفهم للرجل العادى • أعنى الرجل المتوسط الثقافة •

ولكن الكنائس مهما كانت مغلقة لا تستطيع دون خطر مميت أن ترفض قوانين الحياة أعنى السير الى الامام والنمو ، وهذا شأن الادب الفرنسى ، فانه لم يقف قط عن النمو ، وذلك بفضل ما استزاد من كسب جديد رائع لم ينقطع ، ولئن كان قد خشى دائمـــا المارقين وقاتلهم فانه لم يعلن قط حربا صليبية أو أهلية، وذلك لأنه يلوح ــ فيما لو استثنينه الشعراء الغنائيين، أولئك الأطفال المدللين الذين ذهبوا بمصائر خاصة ــ أن أولئك الذين أسميهم مارقين قد أخمدت دائما أنفاسهم بالاهمـــــال والنسيان •

ولكن على من تطلق تلك الصفة الخطرة صفة المروق ؟ أما عن النثر الفرنسى فالأمر واضح ، اذ يعتبر مارقا كل من حاول أن ينصرف عن جادة الســــبيل الرحب على تحــديده ، السبيل الذى سلكته اللغة والروح الفرنسية ، كل أولئك الذين حاولوا فى سذاجة أن يتميزوا باتجاهات طائفية أو تجـــارب مسرفة ، فى اســــتقلال قد يحيد بالروح والآداب الفرنسية عما قدر لها من مصير أو يخرجها عما اختطت من نهج • وانه

---

(١) لقد كان بلزاك زعيم المذهب الواقعى فى الادب ، وكان هيجو زعيم الرومانتيكيين وهذان التياران قد سارا طوال القرن التاسع عشر جنبا الى جنب ، فكان من الطبيعى أن يتعاديا وقد أخذ بلزاك على هيجو اسرافه فى الالفاظ والتعلق بالعبــارات دون الوقائع والضرب فى الخيال مع الغفلة من حقائق النفوس ... الخ مما يرجع الى التعارض الاصيل بين مذهبيهما الادبيين . هذا الى ما أخذ بلزاك على هيجو من نفاق واضطراب فى آرائه السياسية والاجتماعية .

لمن الشاق أن نحاول تأريخ تلك الطوائف التى لم تخلف واحدة منهـــا تقريبا تاريخا اذ اختنقت فى بويضتها • نعم لقــــد استطاعت عبقريات شاذة عجيبة أن تقوم على درج السلطة الآمرة ولكنها لم تستطع قط أن تفلت منها ، ولقد دخل جيلنا فى عالم الادب فى وقت كانت تجرى فيه بعض تلك التجارب الطائفية ، ولكنا نرى الآن أنه لم يكن ليومها غد • فأسلوب «بلدان» (١) Péladan ، بل وفى استطاعتنا أن نقول واسلوب «بول آدم» (٢) Paul Adam ونفر غيره لم يحز قبول المجمع(٣) كما أن مؤلفاتهم رغم ما فيها من ميزات لا شك فيها تلوح منذ اليـــوم محكوم عليها بالاقصاء •

وأنا أدرك ما فى مثل ملاحظتى هذه من صدم لروح الشباب الذين يأتون الى الأدب برغبة قوية كريمة فى التجديد ، وأنا أعرف تلك الرغبة وأنظر اليها بقلب منفعل ، اذ بدونها تفقد الحياة كل ضوء وتوثب ، ولكننى اعلم عن تجربة أن كنيسة فرنسا الأدبية قد أرغمت دائماً كل العبقريات مهما كانت أصالتها على مراعاة القوانين واحترام التاريخ والتقاليد ، ومن الغريب أن كبار كتابنا انما وجدوا مصدر القوة والتأثير فى ذلك الخضوع الذى انتهوا الى قبوله عن رضى •

ولمن يريد أن يقدر مدى قسوة هذا القسر أن ينظر الى ذلك النوع من التحفظ الذى لاقت به كنيستنا الأدبية كل محاولات الأدب الاقليمى ، وتلك ظاهرة لا أصدر فيها حكما ، وهى ليست وليدة الارادة بل من عمل

---

(١) بلدان Joseph Péladan (١٨٥٨ — ١٩١٨) أديب فرنسي اشتهر بغرابة اطواره وشذوذ اسلوبه الصاخب الغريب الصور وفيه مزيج عجيب من المثالية والحسية، واهم مؤلفاته هى مجموعة من الروايات (١٩ رواية) سماها هو « الايتوبيات Ethopées ولكنها نشرت بعنوان « الانحلال اللاتينى » La Décadence Latine وله غير ذلك كثير من الروايات والمسرحيات ولكن هذه المؤلفات قد نسيت اليوم تقريبا ، ولعل خيرا منها ماكتبه في نقد الفنون وعلم الجمال ثم مقالاته عن الاخلاق ، ومما يذكر عنه أنهاشتغل بعلوم الغيب وكان يسمى نفسه « سار » Sâr وهو (الشاعر) .

(٢) بول آدم Paul Adam اديب فرنسي (١٨٦٢ — ١٩٢٠) خصب ابتدا برواية على المذهب الطبيعى عنوانها « لحم رخو » Chair Molle ثم تتابعت رواياته العديدة وفيها الكثير من الآراء الفلسفية والاجتماعية كما فيها غنى في الاسلوب ، ولكن ينقصه النظام والقدرة على التاليف وعدم الاسراف ، وهذه هى العيوب التى يشير اليها ديهامل الكلاسيكى النزعة ، ولكن بول آدم غير « بلدان » ، وسيظل بول ادم على الاقل كواصف بارع للجماهير .

(٣) Concile مجمع الاكليروس ، يجتمع فيه كبار رجال الدين للفصل في مسائل اللاهوت ومسائل خضوع القسس لنظام الكنيسة ، وديهامل يستعمل هذا اللفظ لانه في كل هذا الفصل يشبه الادب الفرنسي بكنيسة ، ومن ثم كان من الطبيعى أن يفصل رجال تلك الكنيسة في خضوع او عدم خضوع احد افرادها لما فرضته من نظام فيقبلون الخاضع ويرفضون العاصي .

الغريزة ، ومع ذلك فكل محاولات الأدب الاقليمى فى فرنسا قد اضطرت لكى تقبـــل الى استخدام طقوس الكنيسة ، وأعنى بتلك الطقوس فى تشبيهنا المستمر احترام اللغة الفرنسية الموحدة التى لاتتجزأ ، وذلك فيما عدا تلك النزوات النادرة التى تظهر فى الألفاظ أو التراكيب • وما أن قدمت المؤلفات ذات القيمة فروض الطاعة على هذا النحو حتى رأيناها تنتزع فورا من التراث الاقليمى لتضـاف الى كنزنا القومى ، فنرمانديا فلوبير Flaubert أو « موباسان Maupassant هى قبل كل شيء فرنسا • وجاسكونيا مورياك (١) Mauriac قد انتهت بالانضمام • والكتاب يعرفون هذه الحقيقة تمام المعرفة اذ يأتون الى باريس ليطلبوا الاذن بالطبع •

والأدب الفرنسى يمتلك عدة مقاطعات خارج فرنسا ، ولكنهـا هى الاخرى لا تفلت من هذا القانون العام ، ولقد أنتجت تلك المقاطعات كتابا كبارا كما أدلت بمساهمات رائعة فى الكنز المشترك • فلتخضع كمـــا خضعنا . ولا تأملن فى أن تكون ــ ماذا أقول ؟ ــ أن تكون طائفة ذات بال ، واذا أرادت أن تفلت مما فى قواعد الكنيسة من قسر فلتتخل أيضا مما تمنح من امتيازات •

وذلك لأن هناك امتيازات كبيرة تعوض عن هذا الاسترقاق المحدود • وكل رجل يستخدم اللغة الفرنسية يحس بما فى انتمائه الى جمـــاعة موحدة من قسر وفى نفس الوقت من متع • وعلى الكاتب بوجه خاص أن يفوق الآخرين فى قـــوة استشعاره لما فى مهنته من تواضع وكبرياء ، فالكاتب الفرنسى الذى لا يحس عند ما يأخذ بالقلم أنه يكتب تحت رقابة جمع من أجداده الأمجاد واخوانه المبجلين ــ رقابة عطوف ساهرة قوامة قاسية ــ ذلك الكاتب يلوح لى وكأنه قد تخلى عن واجبات مهنته الأساسية وعن مميزاتها معاً •

* * *

(١) فرانسوا مورياك François Mauriac ولد في بوردو سنة ١٨٨٥ ودرس عند الجزويت ثم ذهب الى باريس حيث اخذ يعمل في مجلة « الزمن الحاضر Revue du Présent وقد نشر في سنة ١٩٠٩ اول كتاب له وهو مجموعة من القصائد الشعرية ، ثم اخذ ينشر روايات وبعد الحرب اتسعت آفاقه ، وقد نال الجائزة الاولى للقصص عن رواية « صحراء الحب » وهو يتخذ احيانا شخصياته من بين الريفيين ، ولهذا كان في أول حياته بنوع خاص ينطقهم بلهجة جنوب فرنسا حيث توجد جاسكونيا التى يشير اليها ديهامل . ومورياك من اشهر الروائيين المعاصرين الآن في فرنسا ، وهو ماهر بوجه خاص في دراسة الخصومات التى تنشأ بين الفرد والاسرة وبين الايمان ولذات الجسم ، وهو كاتب كاثوليكى وقد لاقت مسرحية اسموديه Asmodée نجاحا كبيرا بباريس قبل نشوب الحـرب الحالية مباشرة .

لقد قبلت قاعدة الخضوع والنظام ، قاعدة كنيسة فرنسا الأدبية ، تلك القاعدة التى خضعت لها كل هذه العقول الكبيرة باخلاص المؤمنين ، أقول : قبلت استثناء الشعر الغنائى ٠

ذلك لأننا نجد دائما فى أقسى الأسر نظاما وأحكمها قيادة طفلا عاصيا لا يحسن الخضوع للقانون العام والأسرة تحبه فى عطف وان لم تفهمه دائماً ، وهى تنتقد أخلاقه ولكنها تتسامح فى نزواته وهرجه واسرافه

وهذا شأن الشعر الغنائى فى أسرة فرنســـا الأدبية ٠ فلقد كان ولا يزال فى فرنسا الطفل المدلل ، الطفل « المخيف » الطفل السمح أحياناً الملعون أحياناً ، وان قوبل دائماً بالعفو ٠

ولقد أساء نفر من الأدباء وخصوصاً من بين الأجانب فهم هذا الوضع غير المألوف، اذ أعشى ذلك البريق الخطابى الذى يشعه أدب توافر على فهم الانسان والعالم ، أدب يقوم على الاتساق والنظام ، أعشى نفوساً كثيرة مسرفة السرعة فى التأثر فقالوا وما يزالون يقولون أحياناً فى الخارج انه ليس لفرنسا شعراء غنائيون ، وان اللغـــة الفرنسية ليست بلا ريب كالانجليزية أو الألمانية لغة تلائم انطلاق المشاعر النفسية انطلاقاً شعرياً حراً ، وهذا رأى بعيد عن الحقيقة كل البعد ؛ فموضع الاعجاز هو أن اللغة الفرنسية رغم اتجاه جهودها الرائعة باستمرار نحو الوضوح والتحليل الرفيع ، قد استجابت دائمـــاً لدعاء الشعراء وكانت بين أيديهم أداة موسيقية متناهية المرونة ٠

ولقد رأينا خير العقول تعمل خلال قرون طويلة على أن تجعل من اللغة الفرنسية أداة نافذة للبحث عن حقائق النفوس وتحليلها وايضاحها ، ولكن ذلك لم يمنع الشعر الغنائى من أن ينمو نمواً مستقلا على هـــامش آدابنا ٠

أقول على الهامش لأن المتن كان مشغولا فى العصر الكلاسيكى بشعر خطابى رائع يؤاخى نثرنا الغنائى ويقاسمه مهامه وتبعاته ، ومع ذلك لم يفقد الشعر الغنـــائى كل حقوقه ٠ ولقد أظهرت فى مقدمة لكتاب عن « مختارات من الشعر الغنائى فى فرنسا » أن غموض الشعر الغنائى عندنا لم يكن نزوة مضطربة عارضة بل هو احدى تقاليدنا الحقيقية المطردة ، وأنه قد استمر فى غير انقطاع منذ القــــرن الخامس عشر الى يومنـــا هذا ،

وما شعراؤنا الرمزيون (١) الا استمرار للسلسلة ٠

وانه لجدير بالملاحظة أن نذكر أن الفرنسي النحوى المنطقى بطبعه قد أجاز للشعر ــ حتى في تلك العصور التى أسميها عصور التقنين ــ أنواعا من الاجازات الهينة التى تسمى بحق ضرورات الشعر ، وانه لمن العجب أن نرى أمثال تلك الاجازات تتاح لفن يخضع من جهة أخرى لأضيق القواعد الارادية بل وأحيانا أسخفها ، ولكن الشعر الغنائى كما قلت هو ذلك الطفل المدلل المسرف ، ذلك الكائن الخارق ذو القدرة وذو النزوات ٠ وهكذا عاش الشعر الغنائى فى فرنسا حياة حرة فى دواوين شعرائنا المرهفين أو فى أدبنا الشعبى أى فى كنز أغانينا ، ولكم يدهشنا أن نرى موليير يحتفل بذلك الأدب الشعبى على المسرح الفرنسى ابان عصر التقنين نفسه ، عصر الفن الكلاسيكى ، فهذا « عدو البشر (٢) » ينشد مقطوعات طالما تغنى بها اذ ذاك أفراد الشعب المتواضعون فى منعرج الطرقات ٠

وهذا الانفصال الودى ، انفصال الشعر ــ ذلك الطفل المدلل المخيف ــ عن الأسرة يلوح أن الرومانتيزم قد قضت عليه ٠ اذ نرى الشعر فى ذلك العصر المدهش يعود الى النهج العام ، بل لعل من الأصوب أن نقول انه فى ذلك العصر قد ضل المنهج العام ضلالا سخياً فى حقول الشعر الغنائى ، ولكنه لم يكد معين الرومانتيزم ينضب حتى عاد الانفصال كما كان ٠ فلقد نشأت حركة الشعر الرمزى ونمت وسط الأسرار والظلال بعيداً عن التيارات الأدبية الكبيرة التى تركزت فيها تقاليد اللغة والروح الفرنسية (٣) ٠

---

(١) يشير الكاتب هنا الى رأى شائع في اوروبا عن الشعر الفرنسي وهو القائل بأن اللغة الفرنسية بحكم وضوحها واطراد قواعدها وكثرة تلك القواعد لاتصل بالشعرالفرنسي الى مستوى الشعر الانجليزى أو الالمانى ٠ وهذا الرأى هو مايناقشه الآن ديهامل فيقول ان الشعر الفرنسي لم يخل من غموض يكسبه جماله وعمقه ، كما انه لم يخضع قط في لغته لمنطق النحو ومن المعلوم أن الشعراء الرمزيين قد بلغوا في أواخر القرن التاسع عشر قمة الغموض ، حتى لتراهم احيانا يكتفون بنغمات الالفاظ في الايحاء بما يريدون دون أى اهتمام بمعانى تلك الالفاظ وفي غموض شعر « مالرميه » Mallarmé و « بول فلیری » P. Valéry الدليل الكافي على ذلك ٠

(٢) Misanthrope هو السست بطل رواية لموليير تحمل هذا الاسم « عدو البشر » وفي احدى فصولها ينشد السست مقطوعة شعبية كانت تجرى على الافواه في ذلك الحين ، وديهامل يتخذ من رجوع موليير الى الاغانى الشعبية شاهدا على جمالها واحساس الكلاسيكيين انفسهم بذلك الجمال الذى لم ينل منه في نظرهم كونها شعبية بالفاظها وتأليفها ونغماتها ٠

(٣) يريد الكاتب في هذه الفقرة أن يقرر انه في عصر الرومانتيزم لم ينفصل الشعر عن منطق اللغة واطرادها فحسب ، بل انه قد أصبح هو القاعدة العامة بما فيه من حريات

واذن فكنيسة فرنسا لا تعرف من المارقين غير الشعراء الغنائيين ، وانه لمن الخير أن تكون الأمور على هذا النحو ، كما أنه من الخير أن يظل الشاعر حراً بعيداً بعض الشيء عن الكنيسة المجاهدة ، وأن يجد فيها رغم ذلك من وقت الى آخر ما هو فى حاجة اليه من عون وحماية . فلتسخط عليه الكنيسة لتنتهى بتبجيله ، وليكن هو ذلك الاستثناء المقدس الذى يقلقنا ويفدينا . نعم انه لمن الخير أن يقذف هؤلاء الهداة النبلاء بالاضطراب وسط تلك التجربة الطويلة — تجربة النظام — وليس أنفع من أن يخل هؤلاء الشعراء المجانين باستمرار — بتوازن السفينة ، لأنهم بعملهم هذا يولدون الشعور بذلك التوازن ، بل وبالحاجة اليه حاجة ماسة .

— ٤ —

وما توازن الكائن الحى ان لم يكن صراعا مستمرا لحفظ النسب بين القوات المتضادة ، ولخلق ذلك التوافق الذى يزيده جمالا أن نراه باستمرار مقلقلا مهدداً ؟

لقد سمعت يوما رجلا يعرف فرنسا وامريكا جيداً ، يوصى مسافرين فرنسيين على وشـــــك السفر الى ما وراء البحار بالا يفوهوا قط بتلك الألفاظ التى يظهر أنهم يمقتونها هنالك أمثال (الاعتدال) و (الوضوح) و (النظام) و (التفكير الديكارتى) ، وأنا أدرك تمام الادراك كيف أنه من السهل ان يساء استعمال تلك الألفاظ اليسيرة التجريد استعمالا تعليمياً . وانه لمن الحمق البين بل انه لمأساة حقة أن نعطى الأجانب صورة سيئة بل وأحيانا صورة مضحكة عن خير فضائلنا — عن الوضوح مثلا — وفى عملنا هذا أخطر اهانة نوجهها الى تلك الفضيلة .

ولكن ماهو ذلك الوضوح الفرنسى الذى طالما أعجب به الناس والذى لا يستطيعون دون خطر أن يسخروا منه ؟

اذكر أننى ألقيت يوماً أمام جمهور المانى خطبة كنت قد أعددتهـــا بعناية ورتبتها وفقاً لقواعدنا الكلاسيكية ، ولكنى لم أكد أترك المنصـــة حتى جاءنى أحد أساتذة الجامعة وهو عالم من أكبر علمائهم ، وقال : «انك

— تميز بها الرومانتيزم ، وأما بعد انقضاء الرومانتيزم فقد عاد الادب العام واللغة العامة الى منطقتهما وأصولهما ؛ ولذا انفصل منهما الشعر الرمزى الذى يعتمد قبل كل شيء — كما سبق ان أشرنا — على الايحاء الموسيقى للالفاظ والاوزان . فالشعر اذن أيام الرومانتيزم لم يكن يعد امراً شاذاً ، اذ ان النهج العام نفسه كان قد تغير وأصبح كله فى حرية الشعر الغنائى ؛ وبمعنى هذا أن اللغة كلها والاذهان كله كانا قد تغيرا تغيرا لم يعد الشعر يحتـــاج معه الى معاملة خاصة . وبعد الرومانتيزم عاد الشعر الى الانفصال عن النهج العام .

للفرنسي حقا فنحن لا نبتدىء كما فعلت بتخطيط هيكل الموضوع وذكر اقسامه ، بل بالقاء شيء من الظلال حوله » • وفي هذه العبارة ما يذكرنا تماما بعبارة أخرى شهيرة لمالرميه (١) ولكن مالرميه كان شاعراً وللشاعر في فرنسا امتيازات ملكية . وانه لمن الممكن أن نقول ان كل كتاب فرنسا تقريبا قد استخدموا اللغة كأداة ، خاصيتها الأولى تقسيم الأفكار والحالات النفسية وتقريبها الى الفهم .

وهذا اجمل الأعمال وأجلها خطرا ، وذلك لأنه لو سلمنا بأن الانسان قد خلق منذ البدء ليعرف ، وانه ليس لديه خير من تلك المعرفة ؛ لوجب أن نحيي اولئك الذين يبذلون جهدا منظما قاسيا عنيدا ليجيدوا معرفة ما يفكرون فيه ، ثم معرفة ما يوحي به اليهم عالمنا الخارجي • واذا لم يكن للمعرفة غنى عن الضوء ، فليكن ذلك الضوء ، ولنكن نحن مصدره •

ولكن هل من الممكن أن يكون في الوضوح المسرف ما يتنافى مع ما تتطلبه المعرفة الحقيقية ؟ هـذا ممكن ، اذ أن الضوء المسرف يعشي الابصار ، وهنا موضع الخطر على الروح الفرنسية ، ولكنه خطر يعرف الفنانون الحقيقيون كيف يفلتون منه ، بأن يسدلوا في الوقت المناسب حجاباً او يقيموا حاجزاً أو يثيروا سحابة • ومن الممكن الا يقتصر الضوء المسرف على اعشاء البصر ، بل يعدوه الى ابلاء الأشياء التي تتعرض لتأثيره وتحطيمها وروعى لونها ومادتها • وهذا ما يجب أن يعلمه سحرة الفن الماهرون ، اذ من الواضح الذي لا يحتاج الى تقرير ان العـالم والفنان لا يستخدمان الضوء نفس الاستخدام ، ومن ثم لا يستخدمان اللغة •

كثيرا ما يثير الوضوح في خير ما نملك من كنوز ادبنا القومي — وخصوصاً بنفوس الأجانب — احسـاساً بالبخل والكزازة بالنظر الى الموضوع الذي ينيره ذلك الوضوح •

ولكن من الواجب الا نجازف بالأحكام في هذا الموضوع الشاق ، فوظيفة اللغة هي أن « تذيب » مهما كان الثمن لنستريح ؛ بل ولو ذهب ذلك بلذتنا • يجب أن « تذيب » بأي ثمن ، لأن سلامة الانسان معلقة بذلك • « تذيب » حتى ولو انتهى بنا الأمر عند الفراغ من تلك العملية بأن نصيح في شيء من خيبة الأمل « أهذا كل ما في الموضوع ؟ أهذا كل ما خلصنا به ؟ » •

---

(١) Mallarmé ‏١٨٤٢ ـ ١٨٩٨) من كبار الشعراء الرمزيين وقد أثر بشخصيته أكثر مما أثر بكتابته ، وكل ماكتب لايعدو مجلدا واحدا من الشعر والنثر ، وهو شديد الغموض لخروجه على تراكيب اللغة وتعلقه بموسيقى الالفاظ أكثر من تعلقه بمعانيها ، وله في ذلك آراء شائعة عند الشعراء ، واليها يشير ديهامل لكلها غامضة أو تنتهي الى الغموض .

ومن الواجب قبل أن نحكم على صفحة من كتـــاب برسى لبير بالاسراف فى الوضوح أن نتأكد من أننا قد استوعبنا كل مافيها واستخرجنا لبابه . ولكم نرى هواة الغموض يصفون بالجدب عالما لا يعرفون كيف يرون ما به ، عالما لا يستطيعون تقدير ما يضم من استفصاء . فلقد ذهب علماء النفس كما ذهب الكتاب في فرنسا فى معرفة الانسان والطبيعة الى أبعد ما يمكن ان يذهب اليه ، وذلك في غير هوادة ولا لبس ، وفى غير اعتماد على محاسن الصدفة أو الظلمات .

لقد تطوع عن طيب خاطر دعاة متحمسون لينشروا عن فرنسا أنهـا قبل كل شيء بلد الاعتدال حتى ليحسب من يسمعهم أنه ليس فى العـالم حقول غير حقول « الايل دى فرانس والتورين (١) » ، وأن مجرد رؤية هذه الحقول يكفي ليغرس فى نفوس السكان معنى الاعتدال والمحافظة على النسب والتعقل في التصرفات . ولكن لنحذر هذه الأقوال الشعرية التى تشبه الى حد ما أقوال « تين » (٢) فتاريخ فرنسا يدل دلالة مسرفة مؤلمة على أن أرق العواطف التى توحى بها طبيعة الأرض لا تكفي لحمل الناس على الأخذ بالحكمة السياسية والاجتماعية ، فبلاد الاعتدال ! قد قامت بثورات أكثر مما قامت به بلاد أوروبا الأخرى ، كما أنها لم تضرب ـ دائما ـ فيما أعلم ـ المثل فى التبصر والاتزان ، وفيها تحدث الشهوات والجرائم والآثام ما تحدثه بغيرها من بلاد العالم من اضطرابات ، واذا كانت فرنسا تفخر بوديان نورمانديا وآفاق بواتو Poitou ففيها أيضا جبال عاتية وسهول مجدبة كما أن بها سيولا وبطاحا (٣) .

لا . لا . يجب أن نحذر من تلك البلاغة الخاوية الخداعة ولكن لنعلم ان فرنسا بلغتها وآدابها وبفضل جهد مثقفيها المتصل قد استطاعت منذ قرون أن تسعى حقيقة الى ذلك الاعتدال ، ولكنها لسوء الحظ لم تصل بعد الى أن تكون بلد الاعتدال وان تكن البلد الذى وفقت عقول كبار أبنـائه فى محاولاتها الى أن تدعو بمؤلفاتها الى تبجيل الاعتدال .

***

---

(١) Ile de France & Touraine اسماء مقاطعات فرنسية . الايل دى فرنس ile de France هى التى تقع فيها باريس . والتورين غرب باريس Touraine وعاصمتها تور Tours

(٢) اشارة الى النظرية التى بسطها « تين » فى مقـدمة كتـابه عن تاريخ الآداب الانجليزية وفيها يحاول تفسير أخلاق الشعوب وآدابهم بتأثير الجنس والزمان والمكان .

(٣) Landes وهى الاقاليم الممتدة على طول الشاطىء من أوكاشان الى بوردو وليست بها الا غابات ومستنقعات .

هل الأدب الفرنسي — كما يقال أحيانا — أدب أخلاقيين ؟ هذه مشكلة يجب بلا ريب أن تدرس • فلقد كانوا قديما يقصدون بالأخلاقي ذلك الرجل الذي يلاحظ ويصف الأخلاق، ثم تحول معنى اللفظ شيئا فشيئا دون أن يفقد دلالته الأولى الى معنى « الواعظ » : فهـــل الأدب الفرنسي أدب أخلاقيين أم أدب وعاظ أيضاً ؟

لقد وصفت الجمهرة العظمى من الكتاب الفرنسيين كل أخلاق عصره ، وذلك الى جانب ما أولوه أكبر جهدهم • الا وهو وصف حالات الانسان الخالد في ذاته ، ولقد حاولوا بهذا الوصف أن يعملوا على اصلاح الجنس البشري ، بحيث تأخذ الألفاظ « أخلاق » و « رجال أخلاق » في مثل هذا الأدب — الذي لم يخل من اتجاه أخلاقي — معـــاني أوسع وأكمل ، فمن لافونتين La Fontaine الى موليير الى فولتير قد عزز كل الكتاب الذين سيطروا على آدابنا الاهتمام باصلاح الأخلاق ، وفي هذا المعنى يقـــول دتـــوش Destouches في ســـذاجة : « أعتقد أن الفن المسرحي لا يستحق التقدير الا اذا كانت غايته التربية مع التسلية » • ولكن هذا الاهتمام لم يكن في الغالب الا لاحقا ، فكبار أدبائنا لم يصدروا الا من ولعهم بأن يصوروا ، ثم انهم لكي يبرروا هذا الولع ، قد ادعـــوا — في ايمان — أنهم انما قصدوا الى الوصول بالانسان الى مرتبة الكمال ، ومن حقنا أن نشك في دعواهم هذه دون أن يكون في ذلك حط من أقدار هؤلاء الفنانين العبقريين • وأيا ما يكون الأمر فان دعواهم كانت لزمن طويل دعوى الأخلاق والاصلاح ، وتلك حقيقة يجب أن نعيها لنستطيع أن نفهم موضع اهتمام القرن الجديد •

ليس هناك كاتب جدير بهذا الاسم لا يرجو أن يكون ذا أثر ، وليس هناك كاتب لا يعتقد أن أثره حسن ، فالمستهترون انفسهم عندما ينشرون ما يهذون به يؤكدون في سذاجة مؤثرة أن رغبتهم هي أن يعملوا لخير البشر ، والمجانين الذين يحلمون بالفوضى والدمار لا شك مقتنعون في أعماق نفوسهم بأن العدم بالنسبة للانسان حل مرغوب فيه ، بل بوجه عام حل أخلاقي • والجمهرة العظمى من الكتاب لمجرد أنهم يتابعون عملا ما — ان صالحا وان طالحا — يقررون شعورهم بالتفاؤل ، ونحن مضطرون الى ان نعتقد أنهم يرفضون الايمان بالعدم ، وأنهم يرددون مع « سننانكور » Sénancourt : « الانسان فان • فليكن • ولكن لنفن ونحن نقاوم ، واذا كان العدم ينظرنا فلا يجوز أن نعمل على أن يكون هذا العدم قضـــاء

عادلا »(١) . وأنا لا أرى شرا في أن يبدى هؤلاء الكتاب ــ مخلصين أو غير مخلصين ــ رغبتهم في أن يقوموا الأخلاق أو يسموا بالانسان ، ومع ذلك يخيل الى أن كتاب القرن العشرين أقل اعلانا لتلك الرغبة من سابقيهم ، وأنا لا الومهم على ذلك .. وأول سبب لهذا التطور هو ما طرأ على الأخـلاق العامة من تغير ، وأنا لا أعتقد أن الأخلاق قد أصبحت اليوم أكثر انحطاطا مما كانت ، أو أن الاستهتار يقابل بتسامح أشمل ، وان كنت أعتقد كما يعتقد العالم أجمع أن حرية القلم ــ على الأقل في فرنسا ــ أوسع اليوم مما كانت . فمصور الأخلاق لم يعد في حاجة الى أن يلتمس لنفسه حجة أو عذرا ، فكرديلس دى لاكلو(٢)Chordelos de Laclos عندما يكتب في مقدمة « العلاقات الخطرة » قائلا : « يلوح لى أننا نؤدى على الأقل خدمة الى الأخلاق عندما نكشف عن الوسائل التي يستخدمها من لا خلاق لهم لافســـــاد ما عند الآخرين من أخلاق طيبة » انمـا يلهو بعبث باطل ، « فلاكلو » نفسه يسخر من أن « يؤدى خدمة الى الأخلاق » ، وكل همه هو أن يلاحظها وأن يصورها ، واني لأتصوره أكثر اهتماما واستطلاعا ورضى كلما كان المنظر الذى يصوره أمعن في الاستهتار والقسوة . ولكنه أخذ بالأحوط فأثار العذر المعروف وهو مع ذلك يورده باستخفاف تام ومن باب اللياقة الشكلية .

ونحن اليوم في غنى عن هذا النفاق أو ذلك الوهم ، فلقد أخذت تلك الفكرة المحدودة القاسية النقية فكرة « المعرفة » تحل شيئا فشيئا

---

(١) لقد قال لى يوما « ميجيل دى أونامونو » Miguel de Unamuno الذى كان يحب تلك الجملة انه يفضل قراءتها على النحو الآتى : « ولنعمل على الا يكون هـذا العدم قضاء عادلا » ، ولقد كان اينامونو من كبار ذوى العزم .. وانا أوافق على قراءته تلك مع ادخال تغيير طفيف على صياغتها لتكون : « ولنعمل على الا يكون هذا العدم القضـاء العادل » . (المؤلف)

(٢) Chordelos de Laclos قائد واديب فرنسي (١٧٤١ ــ ١٨٠٣) كان عضوا في جماعة اليعقوبيين أثناء الثورة الفرنسية ، وقد اشترك في تحرير العريضة التى ادت الى مذبحة « شان دى مارس » Chanp de mars ١٧ يوليو سنة ١٧٩١) ثم التحق بجيش الرين سنة ١٧٩١ ، وحامت حوله الشبهات فسجن ولم يفرج عنه الا بعد ٩ ترميدور اى بعد اعدام روبسبير ، ثم التحق ايام الامبراطورية بجيش جنوب ايطاليا . وله مجموعات من القصائد ثم روايته « العلاقات الخطرة » Les liaisons dangereuses وهى خير ما كتب لما فيها من تحليل دقيق لنفسية بطلها الكونت دى فالمو Conte de Valmont وهو رجل اباحى قاسي النفس واسع الحيلة . وتعتبر هذه الرواية الواقعية رد فعل قوى على الرواية العاطفية التى روج لها روسو بقصصه . والمعروف عن لاكلو أنه كان هو نفسه مغامرا من الناحية الاخلاقية وأن في بطل روايته الكثير منه هو ، وهـــذا يفسر استنكار ديهاميل لان يكون لاكلو مخلصا في قوله في مقدمة روايته انه يريد بوصف اخلاق بطله فائدة القراء الاخلاقية ، اذ يبصرهم فيما يزعم بطرق احتيال « فالمو » على النساء ومعاملته لهن .

محل فكرة « تقويم الأخلاق » فكاتب القرن العشرين يصور الأخلاق لمجرد العلم بها كشاهد يتقدم الى ســـاحة القضاء البشرية ، واذا استطاعت شهادته بعد ذلك أن تكون ذا أثر ما في حمل بعض الرجال على تقــويم انفسهم فان الكاتب لا يرفض أن يكون له هذا الفضل .

فاما ان يكون لقصص الروائيين ومقالات الكتاب وصيحات أو أغاني الشعراء أثر طيب على الحياة الأخلاقية ، فذلك ما نستطيع بل ما يجب أن نرجوه ؛ ولكن علينا أن نبحث عن الطرق التى يمكن أن يسلكها ذلك الأثر .

فانا لا اعتقد أنه من الممكن ان نغير من العادات النفسية أو الأخلاقيه لرجل ناضج ، رجل كامل . نعم اننا نستطيع أن نقتنص انتباه رجل في عنفوان فوته وأن نحمله على الشك في آرائه ، كما نستطيع أن نهز معتقداته وان نلقى الاضطراب في هوايات فراغه بل ربما نستطيع أن نساعد على توجيهه اذا كانت الريح مواتية ، وباستطاعتنا أيضاً أن نرفه عنه وأن نغريه أو على العكس أن نثــــيره ونخدعه ، ولكني لا أعتقد أصلا أنه من الممكن — اللهم الا اذا وجهنا عملنا في اتجاه قوى الغريزة والاحســـاس العاتية — أن نغير رجلا مكتمل النضوج تغييراً تاما بقوة تفكيرنا او وصفنا او بلاغتنا أو بموسيقى ألفاظنا ، بل ولا بكل تلك المسائل مجتمعة .

ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأرواح الناشئة المرنة القابلة لتلقى كل اثر والاحتفاظ به ، فالتأثير الذى نستطيع أن نحدثه فى نفوس الأطفال تأثير قوى باق ، ولهذا فان الكاتب لا يحدث أثره فى الجمهور مباشرة بنشر مؤلفاته ، وانما يحدثه غالباً — على غير وعي منه — في أجيال الأطفال الناهضة ، خلال المدرسين والأساتذة . وأنا أعلم جيداً أنه لابد له طبعاً من أن يكسب الأســـاتذة وأن يصـــل الى احساسهم المدرك لكى يضمن وساطة تأثيرهم وتعاونهم معه ، فالأساتذة دائماً بحكم وظيفتهم فى طليعة القراء ، وهم يحتفظون حتى فى نضجهم بنضرة وحيوية الشـــباب الذى يقومون على تربيته .

وبفضل عون هؤلاء الأساتذة يجد الكتاب بين طبقات الجمهور العميقة خير تلك الأصداء التى هى كالعلة الغائية لكل كتاب .

وهذا يفترض تعاوناً وديا نشيطاً بين الأدب العامل وأدب العلماء . بين عالم الأدب والجامعة . ومنذ ثلاثين سنة لم نكن نجرؤ أن نأمل وجود هذا التعاون . ولقد هال الجامعة عندئذ اسراف الواقعية وكيمياء الرمزية ، فاظهرت نحو الأدب الحى — وأعنى بذلك الفنانين الأحياء — منتهى الحذر بل والتحفظ العابس . حتى لكنت ترى كتب الأدب المدرسية لا تذكر « بودلير » . الذى كان العالم كله يجله عندئذ كاله من آلهة فن الكلام ، الا

باشارة تافهة ، وحتى كانت حياة الأدب تلوح في ذلك العهد وكأنها قد وقفت عند أوائل القرن التاسع عشر ٠

وفى اعتقادى ان هذه الحالة لم يكن من الممكن أن تستمر دون أن يكون فى ذلك خطر ــ بل وأقول ــ خطر على الكل ، وهناك حقيقة شاذة جديرة بأن تثير حماسة الشبيبة القوية المثقفة وغضبها ، وهى أن من المؤلفين الذين تصر الجامعة الفرنسية على تجاهلهم أو على النيل منهم ، من نراهم مدرجين ببرامج كل المعاهد الرومانية فى الخارج ، كما يجد فيهم طلبة جامعات اسكنديناوة وأمريكا موضوعات لرسائلهم ٠

ولكنه لحسن حظ الآداب قد تغير الموقف ، فالجامعة فى أيامنا قـــد اظهرت بفضل توجيه بعض العقول الكبيرة المتفتحة أن النقد يمكن لسلطانه ان ينهض بأسمى تبعاته ، اذا تناول فى شـــــجاعة مؤلفات المعاصرين من الأدباء ٠ ففى كل مراحل التعليم نرى كتائب من الأســـاتذة المثقفين قد تعهدوا نفث الضوء فى تعليمهم بالمقارنة المستمرة بين القدماء والمحدثين ، كما قبلوا أن يستعينوا بذكاء المعاصرين عندما يعرضون لفهم العالم ٠

***

للكاتب أن يرجو أو يقبل أو يتظاهر بان يحتقر ان يكون له دور الأستاذ والمربى ، فله ثمة وظيفة أخرى لايمكن ــ مهما بلغ به الشك ــ أن يفكر فيها دون أن يرق لها قلبه ، بل ويحنو عليها ٠ فكثير من الكتاب لا يريدون أن يلعبوا دور الهداة ، بله دور رجال الأخلاق ، ولكنهم كمـا يعلمون حق العلم أصــــدقاء ورسل عزاء ٠ وأنا اذ أقول ذلك لا أسىء استعمال الألفاظ ٠ نعم انه لا عزاء عن أكبر المحن ، ومع ذلك فلنتصور كيف تكون الحياة بغير قراءة ، ولنقدر مدى السيطرة المخيفة التى ستكون عندئذ للآلام والهموم والمتاعب والنكبات ٠ فالفن حياة حتى فى أغانى اليأس ، وهو ــ حتى عندما يصور لنا القضاء المحتوم والألم والموت ــ ضوء وداع للحياة ٠ ليحملنا الفن على الاهتمام بالحياة فانه بذلك يوشك أن يحملنا على محبتها ٠ وليعنا على مجرد احتمالها فانه عندئذ يستحق ايضا عرفاننا بالجميل ٠

***

يظهر بوضوح أن الآداب الفرنسية لم تبعد فى مغامراتها الحاضرة عن تقاليدنا المجيدة ، فهى كلما تقدمت فى نموها أصبح حديثها الخطير عن الانسان حديثاً من أجل الانسان أيضاً بحكم الطبيعة ٠ فجهود رجال الانسانيات قد انتهت من قرن الى قرن بأن استوت عملا انسانيا (١) ٠

---

(١) اى فى خدمة الانسان ٠ فلفظ « انسانى » هنا مستعمل بالمعنى العامى الجميل فى قولنا « عمل انسانى » أو « هذا الرجل انسان » ٠

فليبق ذلك الكنز وليرب ، فتلك أمنية كل النفوس الطيبة ، ولا ننس أن تبعة هذا الكنز وديعة بين أيدينا . فلنحبه ولنمجده كأعز ما نملك من تراث ، كأبقي ما لدينا من خيرات ، وكقوت مستقبل الأيام .

* * *

اقتراحات في الانسانية الحديثة (١)

الانسانيات ، الجامعة . تلك ألفاظ قد استفادت على نحو عجيب في تاريخها الطويل مما يمكن أن نسميه جرس الأفكار . فكلمة جامعة التي كانت تدل فى الأصل على جماعة أو رابطة ، قد أصبحت توحى اليوم ايحاء لايدفع بتلك المجموعة الجليلة من الآراء والمعارف والمناهج التى تكون كنوزنا الحقة ، وما نكاد ننطق بها حتى تثب الى نفوسنا فكرة الكل الجامع ، ولقد كانت كلمة « الانسانيات » فى الأصل تطلق على الدراسات الأدبية المسماة بالآداب الانسانية والتى كانت غالبية رجـــال الدين يدرسونها تمهيدا لدراسة الآداب الدينية أى اللاهوت ، ومنذ ذلك الحين لم يتغير جوهر تلك الانسانيات ، ولكن هذه اللفظة يزينها اليوم اشعاع من الضياء بحيث يتجه تفكيرنا ـ رغماً عنا عندما نستخدمها ـ الى أنبل مميزات الانسان .

ومن تلك المميزات النبيلة التماس المتعة في أن نخلق أفكاراً أو أن ناتى بأعمال لا ترمى الى غرض مادى من نفع مباشر أو عرض من أعراض الحياة أو أى أجر آخر محدود مقوم ، ونحن لا نستطيع أن نصف بذلك الآداب الانسانية فى أواخر القـــــرون الوسطى وأوائل البعث العلمي . فلاتينى « أيرازم » Erasme (٢) كان أداة ممتازة للعلاقات الاجتماعية ، اذ كان لغة أوروبية عامة يفهم منها العوام أنفسهم نتفاً ، وبفضلها كان المثقفون يستطيعون أن يسافروا من بلد الى بلد فى غير مشقة ، بل كان

---

(١) Les humanités ويقصدون بها الآداب اليونانية واللاتينية ودراستهما في لغتيهما ، ويرجع هذا اللفظ الى عصر البعث العلمي ، اذ كانوا يرون أن تلك الدراســات هى الدراسات الانسانية الحقة ، فهى تدور كلها حول الانسان وفهمنا له ، كما انها لاترمى الا الى تكوين ملكاتنا بدراستنا لها ، فهى رياضة عقلية لاتنتهى الى نفع مادى مباشر كما تفعل العلوم . وسوف نرى المؤلف يضم الى تلك الانسانيات القديمة الانسانيات الحديثة التى يقصد بها المؤلفات الادبية والفلسفية والتاريخية أى مانسميه « بالآداب » عندما نعارض بينها وبين « العلوم الطبيعية والكيمياوية ... الخ » .

(٢) عالم هولنــدى اديب وفيلسوف ولد في روتردام ، وهو مؤلف « المحــاورات الشهيرة » Colloques célèbres و « مدح الجنون » Eloge de la folie وهو أكبر علماء الانسانيات الذين ظهروا في عصر البعث ، وقد مات في بال حيث كان يقيم لطبع كتبه (١٤٦٧ ـ ١٥٣٦) .

الانسان يستطيع بخمسمائة كلمة لاتينية أن يقـــوم بسياحات وأن يعقد صفقات ويكون علاقات • ثم ان اللغات الأوروبية لم تكن قد استخدمت بعد أيام أيرازم العظيم فى كتابات ممتازة تستطيع أن تثبت للمقارنة مع كتب القدمـــاء ، ومن ثم لم يكن بد لكل عقل يريد أن ينفذ الى حقائق النفس البشرية من الرجوع الى كتب اللاتين واليونان • ولهذا لم تكن الدراسات الانسانية ـ فيما عدا اللاهوت ـ أهم الدراسات فحسب ، بل كانت الدراسات الوحيدة الممكنة ، بل والتامة التنظيم منذ عهد أيرازم •

واذا كانت هناك اليوم أزمة ملحة فى الانسانيات عند كل الأمم المثقفة ، فذلك لأن ملابسات الحياة قد تغيرت تغيراً محسوساً •

فاللغة اللاتينية لم تعد لغة دولية ، اذ فقد رجال القرن العشرين ما كان مألوفاً من استخدام تلك الأداة الطيبة ، راضين بان يتفاهموا حسبما اتفق باستعمال احدى اللغات الثلاث أو الأربع الأكثر شـــيوعا فى الغرب اليوم •

وقد أنتجت شعوب الغرب فى القرون الأخيرة من المؤلفات الأدبية والفلسفية الكثير مما يستحق بموضوعه وصياغته أن يتخذ مكانه الى جوار امهات الكتب القديمة •

ثم ان تقدم العلوم لم يقف عند شغل العقول بها بعـــد أن كانت لا تحفل لها أيام البعث ، بل جعل الانسانية تجد فى دراستها وسيلة لتكوين الادراك تستطيع أن تستغنى بها عما كانت تلتمس فى الدراسات الانسانية من تنظيم للعقول •

لهذه الأسباب ولغيرها تميل اليوم شعوب الغرب الى الاعتقاد بأن دراسة الانسانيات قد لا تكون لازمة لتكوين الرجل المتحضر •

ووضع الأشكال على هذا النحو يدعو فوراً الى الحذر ، اذ أن الآداب الانسانية قد أثبتت كفايتها ، فمنذ قرون لم تقف فى خلقها لعبقريات فذة بجميع بلاد الغرب تقريباً • فهل هيئتنا الاجتماعية فى حاجة لأن تقوم بتجربة جديدة قد تستغرق قرناً وقد تضحى بعدة أجيال ؟ وهل نحن على ثقة من أن نخلق خيرا من ديكارت وبسكال وجيته وسرفنتيس ؟ ثم ان عبقرية الغرب مهددة السلطان اليوم بتضافر شعوب العالم الأخرى ، بل وبأخطائها هى وانقساماتها الداخلية • فهل تستطيع فى لحظة كهذه أن تتخلى عن منـــاهج قدمت لهـــا باستمرار ، أجل الخدمات ؟ على كل تلك الأسئلة أجيب فى جزم بأن الغرب لا يجوز له ولا يمكنه أن يقوم بمثل هذه التجربة •

لم يعد اللاتينى أداة للعلاقات الاجتماعية أو الدولية ، ولكن ما فقدته

الانسانيات فى ميدان الذرائع قد عوضته بسخاء فى مجال الروح • لقد شهد القرن التاسع عشر انتصـــارات زمنية كبيرة ، ولقـد نمت تلك الانتصارات عند أنصاف المثقفين نزعة المنفعة أو قل فكرة المعارف المسماة مفيدة واغلب تلك المعارف علمية ، فهى تتعلق بالظواهر التى لا يزال فهمنا لها ناقصاً ، والتى تتعاقب الأجيال على النظر اليها فى ضوء جديد وتحديدها برموز جديدة ، والمعلومات المسماة مفيدة بل نافعة هى قبل كل شىء معلومات فانية أو على الأقل معرضة للمراجعة ، ولو اننا سلمنا بانها تستطيع أن تنمى الملكات وتكون الادراك ــ وهذا مالا يزال يفتقر الى دليل ــ لبقيت معلومات متغيرة متقلبة ومن ثم خادعة • انها لا تستطيع ان تضمن للنفوس أساساً ثابتا •

ولقد افاق القرن الجديد من سكرته ، وأوشك أن يفيق من هذيان كبريائه ، فعاد الى أوراق الدعوى • والمهم هو أن نجعل النفس البشرية فى حالة تستطيع معها أن تستخدم ملكاتها الأساسية ، ولتحقيق ذلك تملك المعارف المسماة غير نافعة مقدرة عجيبة ، اذ وسط فوضى الأفكار والأحداث يلوح أن تلك المعارف المعروفة بعدم نفعها هى وحدها المعارف المفيدة الفعالة المنتجة •

ولكن هل معنى هذا أن تظل الدراسات الانســانية ــ كما كانوا يعرفونها قديما ــ الوسيلة الوحيدة للثقافة الحديثة ؟ لست أومن بشىء من هذا ، والا لأنكرنا تلك القطوف الدانية التى تحملها الانســانيات بمعناها الصحيح ، اذ من واجب كل شـــعب أن يكلل « الانســانيات الكلاسيكية » بما نستطيع أن نسميه « الانسانيات الحديثة » •

ان كنز الانسانيات فى نمو مطرد • وما يجوز أن نفقد شيئا منه • وانا لا أرى مجـــازفة فى أن أحل محل تعريف الانسانيات القديم تعريفا أوسع وأكثر مطابقة لحقيقة الواقع فأقول • « الانســانيات الحديثة هى مجموعة الأفكار التى لا يطلب اليها نفع مباشر » •

انتهى الكتاب

فهرس

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

تطرح هيئة قنـــاة السويس في مناقصـــة عامة توريد ٢٥٤٦٠٠٠ قطعة من ترابيع الجرانيت مقاس ٢٠ × ١٣ × ١٣ سم ، ٣٠ × ١٣ × ١٣ سم ، ٥٠ × ١٥ × ٢٠ سم وارد جزيرة مسلوجة باسوان لاعمال الرصف للطريق بميئـــاء بورسعيد وبور فؤاد وتطلب مستندات المناقصة من هيئة قناة السويس بالاسماعيلية (التخطيط والابحاث) بالاسماعيلية بالمجـــان وقد تحـــددت الساعة الثانيـــة عشرة من ظهر يوم الاثنين ١٧ يونيو ١٩٦٣ موعدا لفتح مظاريف العملية المذكورة ..



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤



العدد ٦٦ الثمن ٢٤ قرشا